

فتح العرب المبرج

تأليف
د. حسين مؤنس

مكتبة الثقافة الدينية
الطبعة الأولى ١٩٦١ م
٩٤٦٧٧-٩٤٦٧٨



Bibliotheca Alexandrina
0021280

كتيبة المشاة الثانية

كناية عن الثقة بصفة الكينية

كنية الشقيقة الكبرى الكينية
كنية الشقيقة الكبرى الكينية
كنية الشقيقة الكبرى الكينية
كنية الشقيقة الكبرى الكينية

كتانية الشارقة الكتانية

مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة المتحف
مكتبة المتحف
مكتبة المتحف
مكتبة المتحف

مكة المكرمة

مكتبة
مكتبة
مكتبة
مكتبة

مكتبة ثقافة الدين

مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة جامعة القاهرة
مكتبة جامعة القاهرة
مكتبة جامعة القاهرة
مكتبة جامعة القاهرة

[illegible]

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة الشارقة

ALLIS

مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الشارقة
مكتبة الشارقة
مكتبة الشارقة
مكتبة الشارقة
مكتبة الشارقة

مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة
مكتبة
مكتبة
مكتبة
مكتبة

11

عائنة الشافعية
عائنة الشافعية
عائنة الشافعية

44-38861-153

مكتبة
مكتبة
مكتبة
مكتبة
مكتبة

مكتبة جامعة القاهرة
مكتبة جامعة القاهرة
مكتبة جامعة القاهرة
مكتبة جامعة القاهرة

(Faint, illegible handwritten notes)

[Faint, illegible handwritten notes]

[Faint, illegible handwritten notes]

[Faint, illegible handwritten notes]

[illegible]

[illegible]

961.022

١٩٩٣

ف

***** فتح العرب للمغرب *****

2 2 2 2 2



2333

فتح العرب للمغرب

الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم التصنيف: 961.022
رقم التسجيل: ٧٢٢١

تأليف

د. حسين مؤنس

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

Handwritten text, possibly a signature or date, written vertically along the right edge of the page.

Handwritten text, possibly a signature or date, written vertically along the right edge of the page.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى أهله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فإنني حاولت أن أتتبع في الفصول التالية الأعمال السياسية والعسكرية التي قام بها العرب بين سنتي ٢١ و ٨٥ هجرية والتي انتهت بدخول الشمال الإفريقي من حدود مصر إلى المحيط الأطلسي في نطاق الدولة الإسلامية .

ولم يتسع المجال لدراسة النتائج المباشرة وغير المباشرة لهذا الفتح العظيم ، لأن استيفاء هذا الموضوع يقتضى دراسة تاريخ المغرب والأندلس وغرب البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الوسيط كله ، فقد كان فتح المغرب من الفتوح الحاسمة التي استتبعت معها نتائج بعيدة الأثر في تاريخ الشرق والغرب : منها فتح الأندلس وما نتج عن ذلك من قيام حضارة إسلامية زاهية في أرض أوروبية ، ومنها فتح صقلية الذي جعل للمسلمين طريقاً إلى جنوبي إيطاليا ، ومنها سيطرة المسلمين على غرب البحر الأبيض المتوسط طوال بضعة قرون ، وغير ذلك من الظواهر التاريخية التي يعد كل منها حدثاً هاماً له أهميته وأثره في تاريخ الإنسانية كلها .

ولم تتسلسل هذه الحوادث التاريخية الكبرى إحداها عن الأخرى تسلسلاً هيناً سهلاً ، ولم تكن إحداها نتيجة طبيعية للأخرى ، وإنما كانت هي الأخرى نتيجة لجهود متصلة عنيفة قام بها العرب ومن معهم من البربر عن قصد ومعرفة بأهميتها ، ففتح الأندلس مثلاً لم يكن مجرد انسياح طبيعي وإنما كان فتحاً عسيراً قدّر الدين قاموا به معظم نتائجها ، وكذلك كان فتح صقلية والسيطرة على غرب البحر الأبيض ، ولم يكن العرب الفاتحون أصحاب الفضل الأول في هذا كله ، إنما كان معظم الفضل فيه للبربر ، وتلك هي الظاهرة الفريدة في بابها التي تجعل فتح المغرب ظاهرة لا تكاد نجد لها في تاريخ الفتوح الإسلامية شبيهاً : فهؤلاء قوم يدافعون العرب عن بلادهم شبراً شبراً ، ويناجزونهم عن حريتهم مناجزة لم يعهد العرب لها مثيلاً ، فما هو إلا

أن يطول القتال حتى ينشأ في نفوس البربر إعجاب بهؤلاء الفاتحين البواسل الذين يكادون يشبهونهم في كل شيء ، ثم يظهر البربر شيئاً فشيئاً على طبيعة الرسالة الإنسانية التي يحملها الفاتحون إليهم ، فتبدأ نفوسهم تهوى للإسلام ، ويأخذ نفر منهم يشترك في جيوشه المظفرة ، ولا يكاد فتح المغرب يتم ، حتى نجد هؤلاء البربر الأعجاء «يقودون» العرب إلى الأندلس حيث يقيمون معهم صرح دولة من أعجاء وأجل ما أنشأ المسلمون في تاريخهم السياسي كله .

ذلك هو ما يستهوى النفس في دراسة المغرب وما يتصل به ، وليس يتسع المجال في كلمة كهذه للإفاضة في هذا الموضوع ، فلندعه إلى أن يأذن الله فتمضي في تأريخ ما تلا هذا الفتح المجيد من أحداث ونتائج .

وقد وقفت بالحوادث عند ولاية حسان بن النعمان وأعماله ، لأن حسان أكمل الفتح وثبته ووضع أسس المغرب الإسلامي ، ولم تكن أعمال موسى بعد ذلك فتوحاً وإنما كانت نشاطاً عادياً نعرف مثله لكل عامل مسلم نشيط ، ولم يكن غرضها أكثر من تهدئة البلاد وتنظيم أمورها .

ومن الحق أن أقرر هنا أن معظم الفضل في هذا البحث إنما يرجع إلى أستاذي الجليل عبد الحميد العبادي بك أستاذي ومرشدي في كل جزء من أجزائه ، فليس ينني بشكره كلام .

وقد أفدت أجل الفائدة من التوجيهات القيمة التي تفضل بها الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب باشا فله مني أخلص الشكر وأصدقته .

ومن الحق كذلك أن أقدر هنا ما لقيت من العون من صديقي مهدي افندي خير الدين أثناء طبع الكتاب ، وما تفضل به زميلي الأستاذ حسين فهمي من كريم المعاونة في رسم خريطة الكتاب .

حسين مؤنس

موضوعات الكتاب

صفحة	مقدمة
٥ - ١	موضوعات الكتاب
٩ - ١	تمهيد (في تحديد المراد بالفاظ إفريقية ، المغرب ، بربر ، بُتر ، برانس ، زَنَاته)
٤٧ - ١٠	الباب الأول — إفريقية البيزنطية
	الدولة البيزنطية بعد جستنيان ، ١١ — إفريقية البيزنطية ،
	١٤ — الإدارة البيزنطية في إفريقية ، ١٦ — العلاقات بين الروم
	وأهل البلاد ، ٢١ — الحضارة البيزنطية في البلاد ، ٢٦ — الأدب ،
	٢٧ — المسيحية في إفريقية ، ٢٨ — ثورة هرقل سنة ٦١٠ م وإسقاطه
	فوكاس ، ٣٥ — الهدوء يسود إفريقية في أواخر أيام العصر البيزنطي ،
	٣٦ — كنيسة روما تتدخل في شئون إفريقية ، ٣٦ — جريجوريوس
	الأول ، ٣٨ — نقيتاس بن جريجوريوس الأول ، ٣٨ — جريجوريوس
	الثاني (جرجير) ، ٣٩ — الانقسامات الدينية ، ٤٢ — توتر العلاقات
	بين جرجير والدولة ، ٤٥ — الأب مكسيم يدعو إلى انفصال إفريقية
	عن الدولة ، ٤٥ — البابوية تحرض أهل إفريقية على الانفصال ،
	٤٦ — قسس إفريقية يشجعون جرجير على الوثوب بالدولة ، ٤٧
٧١ - ٤٩	الباب الثاني — مقدمات الفتح
	مركز برقة وطرابلس من الناحية السياسية ، ٥٠ — مسكون
	بربر برقة وطرابلس في أولى سنوات الفتح ، ٥١ — عمرو بن العاص
	يبدأ في غزو برقة ، ٥٢ — قبيلة لواتة ، ٥٣ — غزو برقة وبعث
	عقبة بن نافع إلى زويلة ، ٥٤ — مسير عمرو إلى طرابلس وإرساله
	بعثاً إلى ودان ، ٥٧ — تحديد التواريخ ، ٦٩

الباب الثالث - المحاولات الأولى (أ) - حملة

٧٣ - ١٠٧

عبد الله بن سعد بن أبي سرح

جرجير يستعد للقاء المسلمين ، ٧٤ - برقة وطرابلس في غيبة المسلمين ، ٧٦ - التمهيد لفتح إفريقية ، ٧٩ - عبد الله بن سعد يستأذن عثمان ، ٧٩ - وصول القوات إلى مصر ، ٨٢ - مسير عبد الله بن سعد إلى إفريقية ، ٨٣ - واقعة سيطة ، ٨٥ - وصول المسلمين إلى إفريقية ، ٨٦ - المناوشات الأولى ، ٨٧ - الدور الذي قام به عبد الله بن الزبير ، ٨٩ - انتصار المسلمين ، ٩٧ - تعجيل المسلمين بالعودة وأسباب ذلك ، ٩٨

المحاولات الأولى (ب) - حملة معاوية بن حديج

١٠٩ - ١٢٧

سنة ٤٥ هـ - ٦٦٦ م

وقوف حركة الفتح عامة ، ١١٠ - عودة الفتوح ، ١١٠ - عمرو ابن العاص يستأنف الفتح في إفريقية ، ١١١ - معاوية بن حديج يتولى قيادة الفتوح في إفريقية ، ١١٢ - الدولة البيزنطية في مستهل النصف الثاني من القرن السابع ، ١١٢ - تحديد تاريخ غزوة معاوية بن حديج ، ١١٥ - الروم يرسلون جيشاً إلى إفريقية ، ١١٩ - مسير معاوية بن حديج ، ١٢٠ - مسير معاوية إلى بنزرت ، ١٢٤ - فتح جزيرة جربة ، ١٢٦ - قيمة حملة معاوية بن حديج ، ١٢٧

الباب الرابع - فتح إفريقية - حملة عقبة بن نافع

١٢٩ - ١٥٤

الأولى وبناء القيروان

تطور الفتوح بقدوم عقبة ، ١٣٠ - عقبة يخرج إلى إفريقية في بعث صغير سنة ٤١ هـ ، ١٣١ - بعث عقبة في الصحراء ، ١٣٤ - مسير عقبة إلى إفريقية ، ١٣٨ - عقبة يفكر في اختطاط القيروان ،

(ب)

صفحة

١٤٠ — قونية ، ١٤١ — موقع القيروان ، ١٤٣ — أهمية قيام
القيروان ، ١٤٥ — لماذا عزل عقبة ؟ ، ١٤٧ — عقبة يعود
إلى دمشق ، ١٥٠ — معنى لفظ قيروان ، ١٥٣

الباب الخامس — فتح المغرب الأوسط — دينار
أبو المهاجر ودوره في فتح إفريقية (٥٥ — ٦٣ هـ) =

٦٧٤ — ٦٨٢ م .) ١٧٦ — ١٥٥

تطور هام في مسير الفتوح ، ١٥٦ — دينار أبو المهاجر ،
١٥٧ — نشاط الروم ، ١٥٩ — ابتداء مقاومة البربر ، ١٦١ — وصول
أبي المهاجر ، ١٧٠ — هل هدم أبو المهاجر القيروان ؟ ، ١٧٠ — أبو المهاجر
وكسيلة ، ١٧٢ — تقدير أعمال أبي المهاجر ، ١٧٤

الباب السادس — محاولة فتح المغرب الأقصى — حملة

عقبة الثانية (من سنة ٦٠ هـ — سنة ٦٣ هـ) ١٧٧ — ٢٠٧

مقى سار عقبة في حملته الثانية ؟ ، ١٧٨ — إصلاح القيروان ،
١٧٩ — مسير عقبة ، ١٨١ — عود النشاط إلى الروم ، ١٨٢ — عقبة
في الزاب ، ١٨٩ — عقبة في طنجة ، ١٩١ — وصول عقبة إلى المحيط ،
١٩٤ — عقبة وكسيلة ، ١٩٥ — عود عقبة ، ١٩٧ — واقعة
تهودة ، ١٩٩ — كسيلة في القيروان ٢٠٦

الباب السابع — تمام الفتح — (١) — حملة زهير

ابن قيس البلوى على إفريقية ٢٠٩ — ٢٣٠

إفريقية بعد تهودة ، ٢١٠ — أنصار العرب من أهل البلاد ،
٢١١ — عود النشاط إلى الروم ، ٢١٣ — زهير يعود إلى مصر
بعد انسحابه من إفريقية ، ٢١٥ — عبد الملك يسير زهيراً إلى إفريقية
سنة ٢١٧ هـ ، ٢١٧ — اهتمام عبد الملك بحملة إفريقية ، ٢١٨ — انضمام
نفر من البربر إلى زهير ، ٢١٩ — فزع كسيلة لمسير العرب ،

(٢)

٢٢٠ — لماذا انتقل كسيلة إلى ممش ؟ ، ٢٢٠ — زهير يهادن الروم ،
 ٢٢٢ — مسير زهير إلى كسيلة ، ٢٢٣ — واقعة ممش ، ٢٢٣ — النتائج
 السياسية لواقعة ممش ، ٢٢٤ — الاستيلاء على شقبنارية ، ٢٢٥ — الروم
 يدبرون لزهير ، ٢٢٥ — وصول مدد من القسطنطينية ، ٢٢٦ — لماذا
 ارتد زهير مسرعاً عن إفريقية ؟ ٢٢٧ — مقتل زهير ببرقة ، ٢٢٨
 الباب الثامن — تمام الفتح — (٢) حسان بن النعمان

٢٣١ — ٢٦٦ ودوره في فتح إفريقية

أثر مقتل عقبة في سير الفتوح ، ٢٣٢ — عود النشاط للروم
 وأسباب ذلك ، ٢٣٣ — أثر ذلك في روم إفريقية ، ٢٣٤ — مق
 سارحسان ؟ ٢٣٥ — اهتمام عبد الملك بحملة حسان ، ٢٣٦ — مسير
 حسان ، ٢٣٧ — وصول حسان إلى القيروان ، ٢٣٨ — مسير
 حسان إلى إفريقية ، ٢٣٩ — عودته إلى قرطاجنة ، ٢٤٠ — ثورة
 الكاهنة ، ٢٤٢ — من هي الكاهنة ؟ ٢٤٢ — حقيقة ثورة الكاهنة ،
 ٢٤٤ — خوف الكاهنة من مسير حسان ، ٢٤٦ — واقعة نيفي ،
 ٢٤٨ — انهزام حسان إلى برقة ، ٢٤٩ — القيروان في غياب المسلمين ،
 ٢٤٩ — حال البلاد بعد انصراف حسان ، ٢٥٠ — الكاهنة تخرب
 إفريقية ، ٢٥١ — أثر سياستها ، ٢٥٣ — عود الروم للعمل في عهد
 ليونتيوس ، ٢٥٣ — الروم في إفريقية ، ٢٥٤ — حسان على مقربة
 من صرت ، ٢٥٥ — عودة حسان إلى إفريقية ، ٢٥٨ — مسير
 حسان إلى قرطاجنة ، ٢٥٩ — إنشاء تونس ، ٢٦٠ — نتائج قيام
 تونس ، ٢٦٣ — العلائق بين حسان وعبد العزيز بن مروان ، ٢٦٣
 الباب التاسع — انتشار الإسلام في المغرب والنظام

٢٦٧ — ٣٠٠ الإداري الذي وضعه العرب له

لماذا طالت مدة الفتح العربي للمغرب ؟ ٢٦٨ — انصراف
 الخلافة عن فتح المغرب ، ٢٦٩ — جند العرب في مصر يصرون

على فتح إفريقية ، ٢٧٠ — عقبة بن نافع ، ٢٧٠ — النتائج السياسية لإنشاء القيروان ، ٢٧٠ — طمع عمال مصر في ولاية المغرب ، ٢٧١ — النزاع بين عمال مصر والخلفاء على ولاية إفريقية ، ٢٧١ — الأضرار التي لحقت المغرب من تدخل عمال مصر في شئونهم ، ٢٧٢ — النظام الإداري الذي وضعه العرب للمغرب ، ٢٧٣ — إنشاء تونس وأثره ، ٢٧٣ — اضمحلال أمر المسيحية في البلاد ، ٢٨٠ — الكنيسة الإفريقية ، ٢٨١ — هل أقبل البربر على الإسلام من زمن مبكر ؟ ٢٨٢ — أثر فتح الأندلس في إسلام أهل المغرب ، ٢٩٢ — أصل حركات الخارجية في بلاد المغرب ، ٢٩٤ — عمر بن عبد العزيز يعمل على إسلام أهل المغرب ، ٢٩٥ — اسماعيل بن عبيد الله ، ٢٩٥ — التابعون العشرة الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز إلى المغرب ، ٢٩٦

٣٠١-٣٢٥

ذيل ١ : مصادر هذا البحث

٣٢٦

ذيل ٢ : التواريخ الهامة

خريطة ١

خريطة ٢

فهارس الكتاب



2

2

2

2

2

تمهيد

في تحديد المراد باللفاظ إفريقية، المغرب، بربر، بُتر، برانس، زَنَاتَه

أطلق الفينيقيون لفظ افري (Aphri) على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم طاقَة Utica « المدينة القديمة » وعاصمتهم قرطاجنة « المدينة الحديثة »، وعهم أخذَه اليونان، فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المغرب من حدود مصر إلى المحيط، ومن ثم سميت هذه المنطقة افريكا^(١) أى بلاد الأفري،

(١) لازال أصل لفظ إفريقية خافياً لم يصل الباحثون فيه إلى رأى يركن إليه، ومؤرخى العرب في ذلك آراء مختلفة جمعها البكرى فقال: « قال قوم أنها إفريقية أى صاحبة السماء ». وقال آخرون: سميت إفريقية لأن إفريس بن أبرهة بن الرايش غزانا نحو المغرب حتى انتهى إلى طنجة في أرض بربر، وهو الذى بنى إفريقية ويسمى سميت؛ وقيل سميت بإفريق بن ابراهيم عليه السلام من زوجته الثانية فطوري، وقال قوم لأنما سموا الأفارقة وبلادهم إفريقية لأنهم من ولد فاروق بن مصرم؛ وقد زعموا أن إفريقية ليبية سميت بينت يافوه بن يولس الذى بنى مدينة منفش بمصر، وهى التى ملكت ملك إفريقية أجمع فسمى بها. ولبقية مؤرخى العرب آراء كهذه لا محل لذكرها ولا يمكن الأخذ بها، وربما جعل بعضهم إفريقية مشتقاً من لفظ فرق، ويطلب أن الذين رأوا ذلك الرأى أخذوه مما ينسب إلى عمر بن الخطاب من أنه قال: « إفريقية المفرقة غادرة لا أغزىها أحداً ماحيت ». وقد حاول دوبرا أن يكشف أصل هذا الاسم، فذهب إلى أن يوشار قال أن اللفظ مشتق من كلمة يونانية بمعنى épi، وذهب كذلك إلى أن أصل الاسم ربما كان مشتقاً من لفظ opara الهندى الذى يريد به الهندود الغرب وذلك أن اللفظ opara مرادف هو aprica ومعناه الغرب أيضاً، وهذا رأى جيد لا يمكن الأخذ به، لأننا لانملك من الدلائل ما يؤكد لنا اتصال أهل إفريقية بالهند، وربما كان دافع دوبرا إلى ذلك الزعم ما ذهب إليه من أن أصل البربر جنس آرى هاجر من نواحى الكنج، بيد أن دى سلين ذهب في تعليقه على هذا اللفظ أثناء ترجمة ابن خلدون إلى أنه « لابد أن يكون معناه فرقة أو جزء أو طائفة منفصلة، أو نفرأ من المستعمرين الذين هجروا الوطن الأصلي » وهذا رأى مقبول. ولم يرد اسم إفريقية في الانجيل، وأورد هوميروس ذكرها محاطاً بالقوس.

البكرى: وصف إفريقية، ص ٢١ — البكرى. معجم ما استعجم، ج ١ ص ١١٦ —
ابن خلدون: تاريخ، ج ٦ ص ٩٨. 571 -- 572. Le Slane, iv, p. 571 -- 572. Duprat, p. 4, n. 1
Gautier, Siècles Obscures p 100.

واستعمل هذا الاسم للدلالة على هذه المنطقة، فنجد هيرودوت يطلق لفظ افريكا على كل ما يلي مصر غرباً من البلاد حتى المحيط الأطلسي . فلما غلب الرومان الفينيقيين على هذه النواحي ، أخذوا عنهم هذه التسمية فأطلقوا اسم ولاية إفريقية القنصلية Africa proconsularis على قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا .

وأخذ معنى هذا اللفظ يتسع شيئاً فشيئاً كلما اتسع سلطان الرومان في إفريقية، فأصبحت ولاية إفريقية القنصلية تضم ولاية إفريقية الأصلية والجزء الشرق من تونس الحالية الذي كان يسمى زوجيتانيا ، والمنطقة الداخلية منها التي تمتد حتى فزان المسماة Bezacena ، أما بقية إفريقية الرومانية فسمى الجزء المقابل منها للجزائر الحالية نوميديا ، ويلى ذلك مَرطانيه^(١) بقسميها القيصرية والطنججية^(٢) . ثم اتسع معنى هذا اللفظ في العصر البيزنطي ، فكانت إفريقية البيزنطية تشمل كل ما دخل في طاعة الروم من هذه القارة من برقة إلى طنجه .

وعن البيزنطيين أخذ العرب لفظ إفريقية وتحديد الأول لمعناه ، فأرادوا به في أول الأمر كل ما يلي مصر غرباً حتى ساحل المحيط الأطلسي ، ولهذا نجد أقدم مؤرخيهم كابن عبد الحكم والبلاذري يطلقون لفظ إفريقية على كل ما يلي مصر غرباً من شمال هذه القارة ولا يقسمونها أقساماً ، ولكنهم استثنوا من ذلك برقة « بنطابلس » وطرابلس ، إذ اعتبرها أغلب المؤرخين ولايتين قائمتين بين مصر وإفريقية .

ثم أخذ لفظ إفريقية يضيق شيئاً فشيئاً ، وبدأ لفظ « المغرب » في الظهور فاقتصر اسم إفريقية على ما يلي مصر غرباً حتى بُجَايه ، أى أنه ضم تونس ونصف مقاطعه قسطنطينية الحالية ، ثم يلى ذلك المغرب حتى المحيط ، وربما أدخل

(١) تعريب للفظ Mauretania وهكذا رسمها البكري ، وصف لإفريقية ، ص ٢١٠

(٢) Mercier, Hist. de l'Afr. Septentrionale, vol I, p. 180

فيه بعضهم الأندلس نفسها ، فياقتوت مثلاً يحدد إفريقية بقوله « وحد إفريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والاسكندرية إلى بجاية ، وقيل إلى ملىانه فتكون مسافة طولها شهرين ونصف شهر^(١) » وعنده أن المغرب هو ما يلي ذلك من بلاد المسلمين غرباً ، ويؤيد ذلك ابن أبي دينار بقوله « وعند أهل العلم إن أطلق اسم إفريقية فإنما يعنون بلد القيروان » أى البلاد المحيطة بالقيروان ، ثم يعود فيؤكد ذلك بقوله « وإفريقية أوسط بلاد المغرب^(٢) » .

ويبدو أن المراد بلفظ المغرب فى أول الأمر كان تحديداً جغرافياً ، أراد به الذين اتخذوه كل ما يقابل المشرق من البلاد ، ومن هنا أدخل فيه بعض المؤلفين مصر والأندلس^(٣) ، وقصره آخرون كابن عذارى على المغرب الحالى ، وأخرج منه الأندلس ، وجعلوا حدود المغرب « من سبب بحر النيل بالمشرق إلى ساحل البحر الأبيض من ناحية المغرب^(٤) » .

بيد أن طائفة من الكتاب ظلت تخلط بين لفظى « مغرب » « وإفريقية » ولا تميز بينهما ، فالبكرى مثلاً يحدد إفريقية بقوله : « وحد إفريقية طولها من برقة شرقاً إلى طنجة الخضراء غرباً ، واسم طنجة مرطانية وعرضها من البحر إلى الرمال التى هى أول بلاد السودان^(٥) » وحذا حذوه نفر من المؤرخين^(٦) . على أن ذلك لم يستمر طويلاً فلم يلبث معنى كل من اللفظين أن تحدد بشكل واضح فنجد ابن أبي دينار يقول : « وحد إفريقية بالطول من برقة إلى طنجة ، وعرضها من البحر الشامى إلى الرمال التى أول بلاد السودان قاله غير واحد ، قلت : فى زماننا هذا لا يعبر بإفريقية إلا من وادى الطين إلى بلد باجة^(٧) » وقد أكد

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة إفريقية (٢) المونس ، ص ١٣

(٣) القدسى ، أحسن التقاسيم ص ٢١٧ — ٢١٨ (٤) المونس ص ١٦

(٥) البكرى ، وصف إفريقية ص ٢١ (٦) راجع تحفة الملوك ص ٣٩٧ — ٣٩٨

(٧) المونس ص ١٦ ؛ وحدد كاستليونى المراد بلفظ إفريقية فى الرواية العربية بقوله :

الإدريسي ذلك بقوله عن بجاية : « ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط أى أول بلاد المغرب الأوسط^(١) » .

وينقسم المغرب إلى قسمين : المغرب الأوسط ويمتد من بجاية حتى وادي مَكْوِيَّة ، والمغرب الأقصى وهو ما يلي ذلك حتى المحيط^(٢) ، وقد يطلق اسم السوس على الجزء الغربي المطل على المحيط من بلاد المغرب ، ويقسم إلى قسمين : السوس الأقصى ، ويضم سلسلتى الأطلس (دَرَن) وما جنوبهما وغربهما من النواحي العامرة حتى تارودانت وتافلَّت (سبجلماسه) ، والسوس الأدنى ويشمل الجزء الشمالى من مراكش الحالية على وجه التقريب^(٣) .

والغالب أن معنى لفظ المغرب انتهى عند المؤرخين والجغرافيين إلى أن يشمل كل مايلي مصر غربا حتى المحيط ، ثم يقسمونه بعد ذلك أجزاء : هى برقة وطرابلس ثم افريقية حتى نهر مَكْوِيَّة ثم المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى فالسوس^(٤) . ومن هنا صح استعمال لفظ المغرب للدلالة على الإقليم كله ، ثم تقسيمه بعد ذلك إلى الأقسام المشار إليها ؛ وفي هذه الحدود استعملت تلك الألفاظ فى هذا البحث .

ويفرق المؤرخون بين ثلاث طوائف من السكان كانت تعمر المغرب

== « يريد مؤرخو العرب بإفريقية ولاية Africa Propria الرومانية (انظر خريطة رقم ١) وزوجيتانيا Zeugitania وكذا الولايات البحرية الأخرى كطرابلس ونوميديا وبعض أجزاء من صرطانية القيصرية وبنطابلس وتمتد فى الداخل حتى واحة آمون وجزء من فزان Castiglioni ; Memiores. p 4 ويبدو أنه أخذ هذا التحديد عن د' هربلو : D' Herbelot Bibliographie Orientale : مادة إفريقية .

(١) الإدريسي ، ص ٩٠

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٦ ص ٩٨ — ١٠٢

السلوى ، الاستقصاء ص ٣٣ — ٣٤

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة سوس

(٤) انظر ابن حوقل ص ٤١

زمان الفتح^(١)، فيذكرون الروم والآفارقة والبربر؛ فأما الروم فالمراد بهم البيزنطيون الذين وجدهم العرب في البلاد إذ ذاك^(٢).

وأما الأفارق أو الآفارقة فالمراد بهم أخلاط من الناس كانوا يسكنون النواحي الساحلية العاصرة المحيطة بالمداين البيزنطية والأجزاء المزروعة الأخرى الداخلة في الرباطات البيزنطية؛ وهؤلاء خليط من المستعمرين اللاتين Colons وبقايا الشعب القرطاجنى القديم ومزارعى البيزنطيين وصناعهم ونفر من البربر ممن استقر ودخل في طاعة البيزنطيين، وتتضح التفرقة بينهم وبين البربر من قول جوتييه: « وعلى أى الأحوال يسمّى الأهالى الثائرون بأسماء قبائلهم، أو يسمّون الملامور (les Maures) أو البربر جملة، ولكنهم لا يسمون «الآفارقة» أصلاً، إن هذه التسمية قصر على خصومهم حماة النظام وهم أهل قرطاجنة أو رعاياها^(٣) وهذا يدل على أن العرب أخذوا هذه التسمية عن المؤافين اللاتين.

(١) قسم الحسن الوزان أهل إفريقيا إلى: عنصر فينيقي قديم جداً، عنصر عبرى، وعنصر لاتينى، وعنصر أصلى Leo Africanus: p. 187 طبعة ماسينيون

(٢) De Slane, Journal Asiatique, 1848. p. 424.

وقال في مكان آخر: « يريد كتاب العرب بالروم لما رعايا الأمبراطورية البيزنطية أو مسيحي أوروبا، أو اللاتين الذين سكنوا شمال إفريقيا, Journ. Asiat. XII, p. 420 n. 5، ويلاحظ أن كتاب العرب لا يريدون بالروم مسيحي أوروبا الغريبة لأنهم يسمونهم الفرنجة تمييزاً لهم عن الروم، ويلاحظ ذلك واضحاً في اهتمام ابن خلدون بالتفريق بين الأفرنج والروم. وقد اختفى الروم من إفريقيا بعد الفتح العربى؛ ولكن التيجانى يذهب إلى أن طوائف منهم بقيت في بعض نواحي البلاد كواحات الجريد فقال « وأهل توزر من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح الاسلامى. وكذلك أكثر بلاد الجريد، لأنهم — في حين دخول المسلمين أسلموا على أموالهم » رحلة التيجانى، ورقة ٦٨ أ

(٣) Gautier, p. 100

وقال ابن عبد الحكم في تاريخه: « وأقام الأفارق، وكانوا خدماً للروم على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم »، مما يؤيد أنهم كانوا زراعاً وصناعاً فقط، وأنهم كانوا خاضعين للروم. ابن عبد الحكم، فتوح، ص ١٧٧

والبربر هم سكان البلاد الأصليون . و ينقسمون طائفتين متباينتين وهما طائفة البربر الحضري الذين يسكنون النواحي الخصبة الشمالية والسفوح المزروعة ، وطائفة البربر الرحل الذين يعمرّون الصحارى والواحات التى تلى ذلك جنوباً وشرقاً .

والفوارق بين الطائفتين اجتماعية لا جنسية ، وليست ناشئة عن انتساب كل منهما إلى أب كما يذهب نسابة البربر وفى مقدّمهم ابن خلدون ، إذ أنّ البربر المستقرين ينزلون النواحي الخصبة المحيطة بجبال أوراس ، أى جنوب ووسط الجزائر الحالية وجنوب مراکش وبعض أجزاء تونس الغربية ؛ وطبيعى أن يكونوا على جانب من الحضارة لاتصالهم بالقرطاجنيين واللاتين وحضارات البحر الأبيض المتوسط ، فتناولوا الزراعة والصناعة وظهر فيهم نقر أخذ بأسباب الحضارة اللاتينية مثل يوبا أمير نوميدية الذى درس وتربى فى روما ، ويوجرثا عدو الرومان اللدود ، وماكسن الذى لعب دوراً سياسياً هاماً فى الحرب بين روما وقرطاجنة .

وأما البربر الظواعر فهم بدو يعيشون على الرعى ويميلون إلى الاغارة على ما يجاورهم من نواحي العمران ، حتى لقد وصفهم كودل بقوله : « إنهم ليسوا أمة وإنما هم لصوص »^(١) ، وهو وصف مبالغ فيه ، نقله كودل عن المؤلفين الرومان والبيزنطيين مثل سالوست وبروكوبيوس .

كان هذا الاختلاف فى الأحوال الاجتماعية سبباً فى نزاع طويل وحروب مستمرة بين الفريقين ، فكان الرّحل لا ينفكون يغيرون على مزارع المستقرين وقراهم ، فاضطر هؤلاء إلى أخذ الحذر منهم والاحتفاء من شرهم والاستمانة عليهم باللاتين أو البيزنطيين ، مما أدى إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل جلى واضح كان له أبعد الأثر فى مستقبل البلاد السياسى ، إذ حال دون اتحاد أهلهما ، وسهّل غزوها ومكّن الفاتح الأجنبى من أن يستعين بفريق على فريق ،

Caudel, I, 68 (١)

وحال دون نشوء دولة بربرية واحدة أو شعب متآلف متناسق .
 أفاد الرومان من هذه الحال فائدة كبرى فاستعانوا بفريق على فريق ،
 فأمكنهم ذلك من البلاد وثبتت قدمهم فيها . أما البيزنطيون فلم يوفقوا إلى الفائدة
 من تلك الحال مما جعل سلطانهم على البلاد ضعيفاً واهياً .

وكان البيزنطيون (والرومان كذلك) يقسمون البربر شعوباً بحسب الأقاليم
 التي كانوا ينزلونها ، ولم يقسموهم إلى قبائل ^(١) .

فلما اتصل العرب بالمغرب فهموه كما رأته عيونهم وكما تصورتها أذهانهم التي
 تختلف كثيراً عن العيون والأذهان الغربية . فكان أول ما حدث تغير
 الاصطلاحات ، فاختنى لفظ أفريقيا — كتسمية عامة شاملة على الأقل — وبدأ
 لفظ المغرب يحل محله . . واختفى كذلك اسم الليبيين وظهر لفظ « البربر » للمرة
 الأولى أو ظهر على الأقل بمعناه الذي نفهمه منه الآن . ومن المعقول جداً أن يكون
 العرب قد أخذوه عن اللاتينية مع تغير معناه ، إذ يذهب جسل S. Gsell إلى أن
 أصله لفظ Barbari الذي كان الأفارقة اللاتينيون يطلقونه عادة على الأهلين ، وهذا
 الرأي لم يصبح بعد قضية مسامة نظراً لصمت المراجع ^(٢) ، وتفطن العرب إلى نظام
 البربر البدو وإلى انقسامهم قبائل و بطوناً ، فأخذوا يقسمونهم على مثال تقسيمهم

(١) شمال برقة يسكنه Asbystes - Barcytes - Ghilgammes

جنوب برقة وطرابلس : الليبيون Libatai وحرفه العرب إلى لواته

واحاحات برقة وطرابلس وبعض نواحي خليج سدره يسكنه Nasamons

بقية ساحل سدره : Makés ، Psylles

المغرب الأوسط : النوميديون

تونس : Zonakes ، Libo - Phéniciens

المغرب الأقصى : Maures . . الخ أنظر Mercier, vol. I, p. xvii - xviii

(٢) ربما جاز الأخذ برأي چوتيه وجسل ، لأن آراء نسابة العرب والبربر ومؤرخيهم
 في ذلك الموضوع ضعيفة جداً ، فالغالبية منهم على أن « إفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك
 التابعة لما غزا المغرب وإفريقية وقتل الملك چرجيس وبني المدن والأمصار ، وباسمه زعموا =

هم — أى العرب — إلى قبائل تتفرق فى نواحي البلاد ، وتجتمع إلى جد أكبر اخترعوا له اسماً مشتقاً من اسم الجنس : سموه — بُرن بن قيس^(١) ، وكما انتظمت القبائل العربية كلها فى جذمين عظيمين : قحطان وعدنان فقد قُسمت قبائل البربر كلها قسمين : قسم ينتسب إلى مادغيس بن بر الملقب بالأبتر فسموا البتر ، وقسم ينتسب إلى بُرنس بن بر فسموا البرانس .

هذا التقسيم مقبول على علته ، بل هو أدل على أحوال البلاد وأكثر اتفاقاً مع طبيعة نظام أهلها الاجتماعى من أى تقسيم آخر ، واتباعه يلقى ضوءاً كشافاً على كثير من أحداثها ؛ ولكن المبالغة فى الاعتماد عليه ربما أدت إلى الخطأ ، ولهذا لم يكن جوتييه على الصواب حين حاول أن يفسر كل أحداث التاريخ المغربى على هذا الأساس أى على أنه نزاع بين البتر والبرانس ، أى بين البدو والحضر ، وفاته أن ابن خلدون لم يجعل البتر كلهم رحلاً ، ولا البرانس كلهم حضراً مستقرين ، وإنما كان تقسيمه نسبياً فقط لا علاقة له بحال القبائل الاجتماعى أو نظام قبائلها ، وآية ذلك أنه — أى ابن خلدون — جعل زناته أكثر قبائل البربر حضارة وعمراناً ، وزناته بترية فى الأصل^(٢) ، ثم إن نسبة الحضر إلى البدو قليلة جداً ،

== سميت إفريقية — لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطاباتهم ، ووعى اختلاطها وتنوعها تعجب من ذلك وقال : ما أكثر بربركم فسموا البربر « كما يقول ابن خلدون ، وهذا تحليل ضعيف غير مقبول تقدمه ابن خلدون نفسه فقال : « والبربر معروفون فى بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام ، فما الذى يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات فى شأن أوليتهم ويحتاج إلى مثله فى كل جيل وأمة من العجم والعرب » أنظر Gautier p. 190 - 191 وابن خلدون ، ج ٦ ص ٨٩ — ٩٨

(١) وقيس هذا هو الذى هاجر بالبربر من بلاد العرب ، وهو الذى عرف بإسم إفريقس ؛ وذهب البكرى إلى أن تسميته بهذا الاسم الأخير سببها أنه « كان اسمه قيساً فلما ابنتى لإفريقية أضيف اسمه إلى بعض اسمها فقبل : لإفري قيس (أى إفريقيس) البكرى . معجم ما استعجم ج ١ ص ١١٦ طبعة وستنفلد .

(٢) اعترض الأستاذ وليم مارسيه على جوتييه فقال : أت البتر والبرانس ليس معناها ==

فالبربر الحضرة بضع قبائل قليلة قريبة من مراكز العمران في الشمال ، والبدو بقية البربر .

وزناته في الأصل قبيلة من قبائل البدو أخذت تظهر ويقوى أمرها في العصر الإسلامي ، وكانت منازلها الأولى وسط المغرب والصحارى المحيطة به من الجنوب ، وكان الزناتيون — بحكم حياتهم الصحراوية وابتعادهم عن غيرهم من القبائل — يعيشون في شبه عزلة ويتحدثون بلغة خاصة بهم ، فلما دخل الإسلام البلاد كانوا من أول القبائل اعتناقاً له . وقد علل جوتييه ذلك بما بينهم وبين العرب من شبه ، ولكن العرب أخطأوا في السياسة التي اتبعوها معهم ففسدواهم وأرادوا أخذهم بالشدة ، فلجأت زناته للثورة وانضم إليها غيرها من القبائل النافذة على العرب ، ولما كانت هي أقوى هذه القبائل فقد بدأ اسمها يطغى عليها ، وبدأت القبائل الصغيرة تدمج فيها فكبرت بمرور الأيام ، حتى أصبح اسمها يطلق على قبائل البتر جميعاً ، فصار البربر الذين يسكنون مناطق العمران الداخلية التي تمتد من غدامس في الشرق حتى تازا وسجلاسه في الغرب يسمون زناته ، وبلغ الأمر إن ابن خلدون جعل زناته فرعاً من البربر قائماً بذاته ^(١) . ومن هنا أخطأ بعض الباحثين فجعلوا زناته فرعاً من البربر مستقلاً يختلف عن البرانس والبتر كليهما . فرسييه مثلاً يقسم البربر إلى أجناس ثلاثة : بربر الشرق أو جنس لوا ، وبربر الغرب أو جنس صنهاجه ، وجنس زناته ^(٢) .

== البدو والحضر ، وإنما هو تقسيم اصطلاحي فقط وضعه لسادة العرب والبربر . وذهب إلى أن لفظ الأبتري بما أريد به العارى من الثياب وبرنس أريد به لابس البرنس أى المشدتر ، راجع R. Basset, Berbères (Enc. de l'Islam) Mercler: I, pp. 17-18. Gautier pp. 190 - 214.

وابن خلدون ج ٦ : ص ٨٩ — ١١٤

(١) وقد ذكر السلاوى في نسب زناته أن جددهم «زانا بن يحيى بن ضرى بن زحيك بن مادغيس

الأبطل» أى أنه ومادغيس الأبطل سواء أى أن زناته هم البطر : الاستقما ، ج ١ ص ٢١

(٢) مرسييه ج ١ ص ١٨١ و ١٨٢

الباب الأول

إفريقية البيزنطية

أفريقية البيزنطية

الدولة
البيزنطية
بعد
جستينيان

حلقت بيزنطة على جناح الخيال أيام جستينيان زماناً قصيراً ، وتراعى بها الطامح الخادع حتى أخرجها عن الحد المأمون ، إذ أراد لها جستينيان بعثاً جديداً تعيد به عهد روما في أوجها ، فمضى يجد بها في المسير لإدراك تلك الغاية حتى أجهدا وهي شيخوخة تنهذى نحو القبر ، فلم تلبث علائم الانحلال أن تمشت في كيائها المتداعى ، وجستينيان بعد يلقى سنواته الأخيرة بين أحزان الشيخوخة وآلام الفشل .

« ثم إنه لم يكد ينتقل إلى الدار الأخرى ، حتى بدأت ثمرات جهوده تصفى تصفية مخزنة ، فأعلنت الدولة في الداخل إفلاسها مالياً وحريراً ، وجثم على صدرها شبح الفرس مخيفاً لا يرد ، وما هو إلا قليل حتى انهال على الدولة طوفان الغزو العربي ، ولم تكذب المنازعات الدينية أن أقبلت مسرعة تزيد الفوضى السياسية سوءاً على سوء ، فهذا القرن السابع (٦١٠ — ٧١٧ م) يعد من أسود عصور الدولة : عصر أزمة حادة ، وفترة حاسمة كانت مصير الإمبراطورية نفسها خلاله في الميزان »^(١) ، وربما كانت سياسة جستينيان نفسها سبباً من أسباب ضعف الدولة واضمحلالها ، فقد فرق جهدها وأقام على ظهرها حملاً ثقيلاً لم تلبث أن ناءت به فهوى إلى الأرض مبعثراً مفككا .

وكانت أفريقية جزءاً من ذلك الحمل الثقيل ، استعادها جستينيان في بضعة شهور على يد قائده الماهر بلزاريوس — ، فلم يكد يغلب من بها من حطام الوندال حتى أعلن أن أفريقية قد ردت إليه ، وبعث إليها من القسطنطينية بالقوانين والأنظمة والقيود مما لا يتفق مع طبيعة البلاد ، فكانت قوانينه فاصلاً بين الحاكم والمحكوم ، لا سبباً من أسباب الاتصال بينهما ، ولم يلبث الأفارقة أن عصوا

Ch. Diehl ; Pyzance, Grandeur et Décadence, p. 8. (١)

قانونه فسارع إليهم يرغبهم على طاعته ، فبدأ النزاع الذي أصبح خصومة مشبوبة لا يكاد يخمّد أوارها بين الروم وأهل البلاد وأصبح مع الزمن مدار تاريخ إفريقية خلال القرن الذي انقضى بين وفاة جستنيان وإشراق شمس الإسلام عليها .

وكان للدين مكانة من اهتمام الروم حكومةً وشعباً ، وكانت بيزنطة كلها من الإمبراطور إلى أصغر رعاياه يغرمون بجنون الخصومات الدينية غراماً شديداً ، ولا نزاع في أنه من العيب أن نظن أن الباعث الوحيد على منازعات العقائد التي لا آخر لها ، والتي أثارت أشد الاضطرابات في التاريخ البيزنطي ، كان مجرد ميل الشعب للخلاف وشغفه بالمناقشة الفارغة أو ولع الحكام بالتشريع ورسم العقائد ، إذ كان الغالب أن تخفى المنازعات الدينية تحتها آراء وخصومات سياسية شتى ، وكان صالح الدولة لا مجرد الرغبة في التجديد في الدين ، هو الدافع للأباطرة إلى ما أتوا من الأمر في كثير من الأحيان ^(١) .

وكان الانحلال الاجتماعي دليلاً آخر على ما كانت الدولة تعانيه من الآلام في هذا العصر العصيب ، فقد كانت نفوس الناس قد وهنت ، فلم تستطع همهم أكثر من الانصراف إلى منازعات الخضر والزرق وما يتصل بها من مباحج الملاحى وعبث الملاعب ، حتى قيل إن هذه الأخيرة « كانت مرآة الحياة الاجتماعية اليونانية طوال العصور الوسطى » ^(٢) ، فكان الأباطرة أنفسهم أسبق الناس إلى حلقات الملاعب والمسرات ، وكان النساء كذلك سباقات إليها يخالطن الرجال في تبذل انتهى بالمجتمع كله إلى التدهور السريع ، ومن هنا نشأت الدسائس والمؤامرات التي تتصل بهذه الألوان من العبث فنخرت عظام الدولة الواهنة ، وأخذت دائرتها تتسع حتى شملت بلاط الإمبراطور ، فأحاطته مسرحاً لكثير من الخصومات والجرائم والآثام . وكلا

Diehl, Byzance, p. 8 (١)

Ibid. 121 (٢)

انتصر في القصر حزب ارتفعت له في نواحي الدولة أعلام بعضها الأنصار وبعضها مذاهب مختلفة في الدين والسياسة، وكلما مات حاكم نزل البلاء بأشياعه وأتباعه ومناصريه في العقيدة والرأى وندمائه في المباهج والشراب .

ففي هذا البلاط الذي يعج بالخصيان والنساء وكبار الموظفين — الذين لا عمل لهم — كانت المؤتمرات دائرة بدون انقطاع : في مخادع النساء وفي مساكن الحرس، يتدافعون كلهم للقضاء على صاحب الخطوة في يومه ، وكل السبل مطروقة لاحرج فيها : من ملق واتهام بالباطل وبذل للمال وإزهاق للأرواح ، فكانوا يدبرون في الظلام مصرع الوزير بل مصرع الإمبراطور ^(١) .

وكانت يزنطه نفسها لا تكاد تقاس في المساحة إلى ما تملك من أرضين ، وكلما ازداد بها الضعف انسلخ عنها جزء وتقطعت بينها وبينه الأسباب ، وكلما اشتد ساعد جار اقتطع منها على قدر ما تستطيع سيوفه ، حتى إذا كان القرن السادس واشتد ساعد الفرس أقبلوا ينهبون أرض الدولة انتهاباً ، فاقطعوا أكثر آسيا الصغرى والشام ومصر ، وأخذوا يستعدون للمضي إلى شمال افريقية ، فلم يكن للدولة بد من أن تبذل ما قد بقي في كيانها الواهن من قوة لتدفع خطرهم ، حتى إذا تمكنت من ذلك على يد هرقل ، لم يبق لها بعد ذلك من القوة ما يقيمها على أرجلها ، إذ كانت الحروب قد كلفتها الثمن الغالي ، فأنشأت تعصر دماء من بقي لها من الرعايا حتى كادت توردهم موارد التلف وبدأوا يحتجون ويعترضون ، فلجأ الحكام إلى العنف يقضون به على ما بدا لهم من بؤادر الاضطراب ، فاشتد الحقد وثأصلت الكراهية بين الجانبين ، ولم يكد الفريقان يحسان بما بينهما من خلاف بسيط في مسائل الدين ، حتى خيل لهم الحقد الدفين ان الخلاف بعيد يتناول كل مرافق الحياة ، فنشبت الفتنة وأهوى الحاكم على رأس المحكوم

(١) Diehl, Byzance, pp. 151 - 4

بسياط الظلم ، وأبى المحكوم أن يجيب أو يطيع ، فعظم الاضطهاد وسالت الدماء ، واشتعلت بعض نواحي الدولة كمصر وأفريقية بهذه النار الحامية ، فأتت على ما فيها ، وحقت على أفريقية قاله كوريبوس التي أجل فيها وصف البلاد بقوله fumans perit Africa flammis أى أن أفريقية التي كان يتصاعد منها الدخان كانت تختفي بين السنة النيران .

أفريقية
البيزنطية

كان جستنيان يرجو لأفريقية من وراء جهوده خيراً كثيراً ، ويبدو أنه كان على شيء من العلم بطبيعتها ، فأفرد لها من بين ولاياته بنظام خاص دقيق ينطوي على الحذر الشديد من أهلها ويرمى إلى جعلها مورداً من موارد المال والثروة للدولة ، فلم تكذبشائر الفتح ترد عليه حتى رفع أفريقية إلى مصاف ولايات الدولة الكبرى ، وأقام على حكومتها عاملاً مدنياً لا عسكرياً^(١) ، وذلك حتى « يعبر عن عطفه الخاص على هذه الولاية — التي رحب مسروراً بعودتها إلى أحضان الإمبراطورية — ويؤكد لأهلها حسن نيته نحوهم ، ويظهر الأهمية التي يعلقها على تخليصها من الأسر الوندالي^(٢) » .

وكانت أفريقية البيزنطية لا تشمل المغرب كله من حدود مصر إلى المحيط ومن البحر إلى قلب الصحراء ، وإنما كانت جزءاً صغيراً يبدأ من حدود مصر ويضم برقة وطرابلس وحوض مجرد (تونس الحالية) وجبال الأوراس ، ثم يأخذ في الاقتراب من الساحل حتى ينتهي عند طنجة وسبته^(٣) ، أما في الجنوب فلم يكن

(١) كانت أفريقية معتبرة ولاية عسكرية تابعة لإيطاليا في التنظيم السياسي للدولة الرومانية يحكمها Proconsul فجعلها جستنيان ولاية مدنية مثلها مثل بيزنطة نفسها يحكمها مدير Praefect واختار لها والياً من أقدر ولاية الدولة هو ارخلاوس Archelaos الذي كان حاكماً لولايتي بيزنطة والبلقان وهذا يدل على عظيم اهتمامه بأمرها

(٢) Cod. Just. I, 27,1,8. Diehl : L'Afr. Byz. 97

(٣) ذكر جوليان أن جستنيان أقام في سبته محرساً هاماً ؛ وذكر كذلك أن أقصى حدود أفريقية البيزنطية كان عند أعمدة هرقل أى على مقربة من سبته الحالية أنظر :

Julien, Hist. de l'Afr. du Nord, p. 297.

يتعدى نصف امتداد افريقية الرومانية ، فكان أقصى اتساعه سهل مجرد وهضبة الأوراس ووقفت حدوده الجنوبية عند تبسه Tebessa ومسكولا Mascula وتمجاد Thamugadi ولمبيزه Lambeisis وطبنة Tobna والمسيلة Msila أما فيما عدا ذلك فكانت حدوده ملاصقة للساحل لا تكاد تتعدى أرباض الموانئ من أمثال تيفش Tipasa وقيصريه Caesaria وتانس Tenes ووهران Oran^(١) .

وكانت البلاد مقسمة إلى سبعة أقسام إدارية هي :

يحكمها قناصل Consulaies	١ —	الولاية القنصلية (شمال تونس الحالية)	Proconsularium
	ب —	الولاية الداخلية (بيزاسيوم)	Byzacium
	ج —	طرابلس	Tripolitania
يحكمها مديرون Praesides	د —	نوميديا (إلى قسطنطينيه)	Numidia
	هـ —	مرطانية الأولى	Mauritania Sitifiensis
	و —	مرطانية الثانية وتشمل	Cesariensis
	ز —	(شمال مراکش)	Tingtana
		سردانية	

وقد امتد سلطان الدولة في أول الأمر إلى أبعد من هذا الحد الرسمي فدخل في طاعتها نفر من بدو البربر الضاربين على حدود الصحراء ، وأقيمت المحارس على طول الرباط الأخير لكي تضمن طاعة هؤلاء للدولة وترد عنها أذاهم ، ولكن سلطانها أخذ يضعف شيئاً فشيئاً ، فأخذت تنسحب إلى الشمال ، حتى لم يبق من أملاكها آخر الأمر إلا ساحل ضيق ويضع محارس حصينة في الداخل ، مثل تيبسه وسُبَيْطِلَه ، واحتل البربر ما خلا ذلك من الحصون .

(١) راجع الخريطة رقم ١ لقد عملت بناء على ما ورد في كتاب ديل عن أفريقية البيزنطية

وكانت برقة البيزنطية لا تكاد تعدو مدائنها الخمس^(١)، وكذلك طرابلس

لم تعد ثغور الساحل مثل صُرت Syrta وطرابلس نفسها وصبره وقابس .

جمع جستنيان لحاكم إفريقية كل السلطات، فكان هذا الحاكم يحمل من تبعات الحكم فوق ما يطبق، وكان مثقلاً بالألقاب وشارات الشرف، يرافقه جيش من الموظفين ويحف به الأتباع والخدم^(٢)، وأطلقت يده في كل شيء حتى بلغ من اتساع سلطته « أن كُتاب ذلك العصر أعوزهم اللفظ الذي يعبرون به عن السلطان — الذي لا حد له — الذي كان يتمتع به ذلك الحاكم »^(٣).

كان هذا الحاكم مكلفاً بأن يجمع من الولاية مالا طائلاً، لأن جستنيان أراد أن يسترد ما أنفق في فتحها، وكان يرجو أن يستعين بما يأتيها منها على إتمام ما يريد من فتوح وإقامة ما يجب من أبنية، وكان عليه كذلك أن يرسل إلى العاصمة في كل عام عدداً من السفن المحملة بالغلال لغذاء أهل القسطنطينية، ولهذا كان لا بد له من عدد كبير من الموظفين لتحصيل هذه الضرائب كلها، فكان العبء ثقيلاً على ولاية فقيرة كأفريقية^(٤)، وقد حفظ لنا المؤرخون البيزنطيون قوائم مفصلة بمؤلاء الموظفين واختصاصاتهم، « وهي — أي القوائم — تشبه أن تكون دليلاً لوزارة من وزاراتنا تعج بالموظفين، وقد انتشروا من العاصمة إلى الأرياف

الإدارة
البيزنطية
في إفريقية

(١) هي كما ذكرها دي سلين في تعليقه على الترجمة الفرنسية للبكري Cyrene, Barca, Tenchera (Arsinoe) Berenice, Appollonias, J.A. 1858 p. 422 note 3

(٢) Caudel, I. p. 23

(٣) Diehl, L'Afr. Byz. p. 98

(٤) يكفي لتصوير ثقل هذا العبء أن نورد التقدير الذي أورده ديل لمرتباتهم مقدرة بالفرنك (بحسب سعره قبل الحرب الكبرى الأولى) فقال إنها كانت تبلغ ٧٣٧ و ٢٩٩ من الفرنكات أي نحو نصف مليون من الجنيهات المصرية، وهذا لمرتبات الموظفين فقط غير ما يرسل للإمبراطور وما يدفع لجمالات لرؤساء البربر وما يجمع من الفصح، ثم نفقات جيش الاحتلال ونفقات الباني والحصون والأسوار ودور الصناعة : Diehl, Op. Cit. p. 106

كذلك ، فضمت كل مدينة فرقة منهم ، وقام في كل قرية واحد^(١) . وما دامت الأعباء المالية ثقيلة على هذه الصورة ، فلم يكن في إمكان الحاكم التفرغ للقيام بشئون الحكم الأخرى ومراعاة مصالح المحكومين ، فانصرف جهد الحكومة كله إلى جمع المال ، ومن البديهي أن تعجز الولاية عن النهوض بذلك العبء الثقيل ، فلجأت الحكومة إلى أخذ السكان بالعنف للحصول على مالها بالضغط والإرهاق ، فاشتطت مع رعاياها اشتطاطاً بالغاً ، فلم يجد هؤلاء بداً من ترك مزارعهم ومتاجرهم والنجاة بأنفسهم واحتراف الصوصية وقطع الطرق والاعتداء على الآمنين ، ولم تنشأ هذه المساوىء في نهاية العصر البيزنطي أو بعد أيام جستنيان ، بل بدأت في أيامه ، وآية ذلك قوانينه التي كان لا يكف عن إصدارها محذراً عماله من إرهاب الرعية ، حاضاً إياهم (في نفس الوقت) على الاجتهاد في تحصيل المال^(٢) .

هكذا كانت حكومة إفريقية البيزنطية مليئة بالنقص والأخطاء من أول الأمر ، وقد كان معقولاً أن يصلح هذا النظام في بلد غني كصر تكفي موارده لسد هذه المطالب كلها ، أما إفريقية الفقيرة فلا قبل لها بذلك ، فكان مقدراً لهذه الحكومة

(١) Diehl, Op. Cit. p. 23.

(٢) « ليعرف رعايانا جميعاً أننا أصدرنا هذا القانون لأتينا معنيون بمصالحهم مهتمون بأن يكونوا بمنجاة من كل حيف ، وبأن يعيشوا في رخاء ، ولأنما ينبغي عليكم — يا رعاياي — نظراً لما تعرفونه من عظيم رعايتنا لكم أن تؤدوا الضرائب العامة بإخلاص شديد ، دون حاجة إلى استعمال العنف الإداري وأن تظهروا من الطاعة ما يؤكد صدق الولاء والاعتراف بالجميل الذي تقابلون به عطفتنا » Diehl, Op. Cit. p. 116.

« وكان نظام الضرائب في إفريقية البيزنطية يدل على استقصاء منظم شامل لكل موارد البلاد ، فتتبع المشرع ، الثروة الخاصة في كل ناحية وأثقلها بالمال ، ففرض على الممتلكات العقارية ضريبتى Captio و Tributum وقدرت الفروض المختلفة على الزراعة والتجارة والجمارك والملاحة ، وبلغ من اهتمام الحكومة بالضرائب أن كان خمساً الموظفين مخدمين بالتحصيل وأكثر من النصف يقومون بشئون المال » Caudel, I, p. 24.

ولأى حاكم يقوم بأمرها الفشل التام ، مهما أوتي من الحذق والمقدرة ، ولعل دليل لم يخطئ . حين علق على هذا النظام بقوله : « وإنه لما يؤسف له أن كان بين آمال الإمبراطور الخادعة المتفائلة وحقيقة الأشياء بون شاسع »^(١) .

وقد أحسن كودل إذ وصف هذه الإدارة بقوله : « كانت الضرائب هي الغاية الوحيدة التي ترمى إليها الحكومة ، بل كانت هي علة وجودها *sa raison d'être* وسبب حياتها ، إذ كان من الضروري توفير الأسباب لحماية البلاد بالجند والحصون ودفع الجماعات لرؤساء الأهالي الذين عجزت الحكومة عن التغلب عليهم ؛ كان لابد من حراسة البلاد على هذا النحو حتى يتيسر الاحتفاظ بها والاستمرار في جباية الضرائب ، وكان النصر قد جعل هذه الضرائب عبئاً ثقيلاً بنض أهل البلاد في حكمهم ، وكان لزاماً على البيزنطيين أن يظلوا على الحذر من هؤلاء الخصوم الأقوياء حتى يأمنوا جانبهم ، ولهذا انتهجت الدولة في تنظيم إفريقية البيزنطية — من الناحية العسكرية — خطة جديدة تختلف عما اتبعته في ولاياتها الأخرى كمصر والبلقان : فالمعروف أن القوة الحربية البيزنطية التي كانت تحمي مصر مثلاً كانت تعسكر في مراكز رئيسية مثل بابليون والإسكندرية ، وتربط فرق صغيرة منها في مواضع أخرى كالفرما وتندنياس (أم دين) ، أما في إفريقية فقد اتجهت عناية الدولة إلى إحاطة أملاكها برباطات قوية من الحصون المتقاربة ، وأقامت في كل مرتبط طائفة من الجنود تستطيع حمايته والدفاع عنه ، وأسرفت الدولة في ذلك إسرافاً يسترعى النظر ، فلم تكتف برباط واحد بل أقامت ثلاثة ، وقسمت البلاد إلى أربع مناطق عسكرية لكل منها عاصمتها التي تربط فيها فرقة يقودها قائد أودوق *Dux*^(٢) ، فأصبحت البلاد شبكة من الحصون

(١) Diehl, op. cit. p 34

(٢) هذه الأقسام هي : طرابلس وعاصمتها لطة *Leptis Magna*

والقلاع ، ولما كانت الموارد ضئيلة لم يكن في الإمكان المحافظة على هذه التحصينات في حالة طيبة ، بل عجز الروم عن مجرد الاحتفاظ بها ، فإذا عرفنا أن هذه المنشآت لم تكن متينة البناء — إذ أقيمت على عجل — استطعنا أن نعرف مدى قوة هذا النظام الدفاعي لإفريقية البيزنطية^(١) . وقد روعى في اختيار مواقع هذه الحصون أن تكون محارس تقوم على أبواب البلاد ومنافذها^(٢) : فقامت قابس على باب سهل تونس تصد من يقبل مساحلا من الشرق ، وتليها حصون أخرى على الساحل مثل يونكا Yunca ومغمداس Macomades ، وقامت سُبَيْطُلَة Suffetula على أحد المنافذ المطروقة التي يسلكها من يريد الانتقال من سهل تونس إلى هضبة الأوراس ويمر بها الرباط الثاني الذي يبدأ من سوسة ويمر بمدرسومة Madarsuma وثُلَيْت Thelepte وبلى ذلك الرباط الثالث الذي تقوم فيه سَبَيْبَة Sufes وممس Mamma وجلولاء Couloulis .

== الولاية الداخلية (بيزاسيوم) وعاصمتها Thelepte وقصه

نوميديا وعاصمتها قيسريه Caesarea

مصرطانيه وعاصمتها قسطنطينية

(١) اعتمد البيزنطيون في إقامة هذه الحصون والقلاع على ما كان قائماً في البلاد قبل ذلك من المنشآت الرومانية كالحمامات والملاعب والمعابد ، فلم تكن منيعة قوية كما يتصور الإنسان لأول وهلة . وسنرى مثلاً من ذلك حين يحاصر العرب حصن الجُم Thysdrus في حملة عبد الله بن سعد (أوائل سنة ٢٨ هـ ٦٤٨ م) ، إذ تبين الروم المحصورون به عدم صلاحيته للدفاع ، إذ كان أصله ماعباً (طباطر) تحيط به العقود والحنايا ، فسلموا على عجل . وفي صفة هذه الحصون يقول كودل « استحال معابد سبيطله الثلاثة حصوناً ، وحولت الأبنية في كل مكان إلى معدات للدفاع ، وقد تهافت البناء على خرائب المدن التي وجدوها في طريقهم بدون احترام لما وقع في أيديهم منها ، فأخذوا من الملاعب القواعد الفاخرة مع ما تحمل من تماثيل ، ومن المعابد الأعمدة وقواعدها وعقودها ومن المدافن أحجارها الرخامية : Caudel, II, p. 18

(٢) وقد أوجز جوليان وصف هذا النظام الدفاعي بقوله « أنشأ البيزنطيون سلسلتين من الحصون ، أما الأولى فسلسلة من الاستحكامات تربط المحارس بعضها ببعض ، وخلفها سلسلة من المدائن الحصينة التي كانت تستعمل دائماً ملاجئ للناس » وربما كان قول الأستاذ « أن الرباط البيزنطي كان يمثل القوة الرومانية في حالة اضمحلالها تحت ضغط الهجوم الجديد الآتي من الصحراء » لمجازاً لطيفاً لحالة البلاد الحربية إذ ذاك . Julien, op. cit. p. 297.

طبيعى بعد ذلك أن تكون إفريقية البيزنطية ضعيفة من الناحية الحربية .
وكما تقادم العهد بالروم فى افريقية زاد الضعف وضوحاً وخطراً ، وكان أهل البلاد
يلاحظون تخوف البيزنطيين منهم ، ولا يكادون يتركون فرصة للاشتباك معهم
إلا انتهزوها ، فزاد الأهليون مراناً وخبرة فى حين ضعف البيزنطيون وسقطت
هيبتهم ، واضطروا إلى التخلي عما عجزوا عن الدفاع عنه من هذه المحارس والحصون ،
حتى إذا أذن القرن السادس بالمغيب كان البربر قد استولوا على الرباط الثالث
وأنشأوا يطمعون فى الرباط الثانى ، وكان قيام الروم بمحارس هذا الأخير إسمياً فقط
إذ تركت العناية به لمن أحاط به من الزراع يعتصمون فيه من المهاجمين من البربر ،
ولم يكف هؤلاء عن اختراق هذا النطاق واجتياح ما يليه من المزارع والبلاد
ونهبها ، بحيث لا نخطئ إذا قلنا إنه لم تعد له قيمة حربية تذكر منذ أوائل القرن
السابع الميلادى ، واقتربت حدود الولاية البيزنطية من الساحل وأصبح واجب الدفاع
عن داخل البلاد منوطاً بالأهالى أنفسهم لا بالروم ، بل سنلاحظ فى منتصف القرن
السابع أن الضعف ينتهى بالولاية البيزنطية إلى حد تجد نفسها معه أعجز من أن
تدافع عما بيدها ، فيضطر حاكمها البطريق جرجير إلى التراجع إلى الداخل والاحتواء
بالبربر لصد العرب .

وكانت الاضطرابات وكثرة الثورات البربرية قد أحالت حكومة أفريقية
البيزنطية إلى منطقة عسكرية يحكمها قائد حربى Exarcens يلقب بالبطريق ، فكان
هذا التحول^(١) خطوة فى سبيل انفصال افريقية عن بيزنطة ، لأن الحكام
المسكرين الذين يطول بهم البعد مع جندهم عن مركز الدولة يميلون دائماً إلى

(١) يرى جوليان أن هذا التحول بدأ فى عهد جستنيان نفسه ولكنه لم يأخذ شكلاً ظاهراً
إلا فى أيام جناريوس القى استطاع أن يخمد ثورة البربر فى سنة ٥٨٧ . فكان بهذا أول الحكام
المسكرين Julien, op. cit. p. 209

الإفصال وإعلان الاستقلال ، وهذا ما حدث في إفريقية : إذ لم يكذب الطريق جريجوريوس (جرجير) يختلف مع الدولة حتى ثار بها واستقل عنها وأعلن نفسه أمبراطوراً وكان هذا قبيل الفتح العربي .

العلاقات بين
الروم وأهل
البلاد

كان الروم على حق حين اتخذوا الحذر لاتقاء شر البربر، ولكنهم كانوا مخطئين إذ بالنوا في ذلك مبالغة أشعرت الأهلين بخوفهم وأوجدت بين الجانبين — من أول الأمر — شعوراً من العداواة والكراهية كان بعيد الأثر في مستقبل الحكم البيزنطي في شمال إفريقية ، فكانت الاستحكامات الحربية الكثيرة والجيوش المتنقلة والثابتة إيماءاً للحاكمين بالاستبداد والاعتماد على القوة في معاملة أهل البلاد ودافعاً لهؤلاء إلى أن يقفوا موقف العداواة من الروم وكل ما يتصل بهم من حضارة ولغة .

وكانت الرباطات قد قسمت البلاد قسمين : القسم الأول الساحلي الذي يظهر فيه الحكم الرومي واضحاً جلياً ، وتنتشر فيه الحضارة واللغة البيزنطيتان ، والقسم الداخلي الذي باعدت السياسة الرومية بينه وبينها فبقيت فيه القبائل البربرية محتفظة بما لها من القوة والشخصية والاستقلال ، بل أخذت بكثرة الاحتكاك بالروم والصراع معهم تتعلم منهم وسائل جديدة في الحرب حتى أصبح الصراع بينهما صراعاً بين كفتين متعادلتين تقريباً ، بل كان النصر لأهل البلاد في كثير من الأحيان ، فزادت جراتهم على اختراق الرباطات والهجوم على الولايات البيزنطية واحتلال كثير من الحصون والمخارص ، وكلما انسحب الروم من جزء حل البربر محلهم فيه حتى انتهى الأمر بأفريقية البيزنطية إلى أن تكون شريطاً ضيقاً لا يكاد يعدو الخط الممتد من سوسة إلى سبيطلة في أوسع أجزائه ، أما فيما عدا ذلك فاقتصرت على مدائن الساحل وأرباضها وما حولها من المزارع .

وحاول الروم أن يرضوا الأهلين بدفع الجمالات المنتظمة إلى رؤسائهم

— إذ كان المال أقوى وسائل السياسة البيزنطية —^(١) فأصبح هؤلاء يعتبرون ذلك حقاً لهم وثمناً لطاعتهم، فإذا انقطع كانوا في حل من الطاعة ولم يعد عليهم حرج من العصيان ، فكان هذا سبباً من أسباب الشقاق والنزاع، ولو كانت الحكومة البيزنطية قد استمرت على سياسة الحذر واليقظة لبقيت سيطرتها على البلاد قوية لا ينال منها شعب الأهليين ، ولكن علة الحكم البيزنطى كانت ضعف الحكام وقلة خبرتهم مما استفز الأهليين إلى العصيان .

كان الأهليون قد استقبلوا الفاتح البيزنطى — أول مجيئه — استقبالا طيباً ، وتوقعوا أن يكون خلاصهم من قوضى الوندال على يديه ، وكان بلزاريوس رجلاً قديراً ماهراً فأحسن استغلال ذلك الشعور الطيب ووجهه إلى مانيه خير الحكم البيزنطى، فغمر رؤساء القبائل بالهدايا والأموال ، وطلب إليهم رهائن يحفظها عنده حذراً من غدرهم ، فلم تلبث هذه السياسة أن كسبت ودهم ، فبدلوا له ما أراد من طاعة وقبلوا ما شرط من حدود^(٢) ، بل قدموا إليه جنوداً تحارب في صفوف الامبراطورية وسمح لهم بأن يحيطوا أنفسهم بحرس فخرى من الروم ، فكان هذا احتياطاً له معناه إذ كان وسيلة فعالة للرقابة عليهم وضماناً طاعتهم^(٣) .

حافظ سليمان — خلف بلزاريوس في حكم إفريقية — على هذه السياسة الموفقة ، بل زادت ثقته بالأهليين فجعل يعتمد عليهم في إقرار السلام في المناطق التى يسكنونها ، والمجاورة لهم فأقرّ انطالاس Antalas على رأس قبائل الولاية الداخلية ، ويابنداس على القبائل التى تسكن هضبة الأوراس يعاونه رئيسان صغيران هما كوتسينا وأورتاياس ، وأقرّ ماسونا ماستيجاس على مرطانية بأقسامها^(٤) . سارت الأمور على هذا النحو زمناً قصيراً كانت الدولة خلاله تقوم حكماً بين

Diehl, L'Afr. Byz. p. 319 (٢)

Diehl, Byzance, pp. 55-60 (١)

Caudel, I, p. 21 (٤)

Ibid. p. 370 (٣)

الأهلين فيما يشجر بينهم من خلاف وربما كسبت حق اختيار رئيس القبيلة في حالة موت رئيسها^(١)، وكثر دخول البربر في جيش الامبراطورية فرساناً ومشاة^(٢)، فبعث هذا في نفوسهم شعوراً من القوة وعرفهم بأساليب الحرب، ولكنهم آثروا البقاء على الولاء ما حفظت الامبراطورية لهم حقوقهم، وكان أكثر عمل البربر في فرق الحدود، يرابطون عندها داخل أرض الدولة مستعدين لقتال من يفضيهم من أعداء الدولة أو رجالها على السواء؛ ولم يقتصر استخدام البربر على جيوش أفريقية بل رغبت الدولة في الاستفادة من مواهبهم في سرعة الحركة وركوب الخيل، فأخذت فرقاً منهم حاربت في إيطاليا واشتركت في الحرس الامبراطوري، وحارب كثير منهم في صفوف الدولة في ميادين فارس^(٣)؛ وسنرى أن هرقل سيأخذ فرقاً منهم حين يبرح افريقية لإسقاط فوكاس سنة ٦١٩ م.

لم يدم هذا الصفاء طويلاً، إذ كان الروم مضطرين إلى الغلو في تقرير الضرائب واستعمال العنف في جبايتها لكثرة ما تستلزمه الإدارة والدفاع والبناء من تكاليف، فأخذوا يتأخرون في دفع أعطيات الجند وجعالات الأهلين، واشتد ضغط الجباة فارتفعت الأصوات بالشكوى في كل مكان، وأخذت أسباب الاضطرابات تتوافق وتشكأثر، فأنشأ الجند يشغبون ويغيرون على مزارع الأهلين ويروعون الآمنين، وتحولوا شيئاً فشيئاً إلى طلاب غنم وقطاع طرق، وعجزت الحكومة عن ردهم إلى الطاعة فأصبحوا من عوامل الفوضى والاضطرابات، وتهاون من بقي منهم على الطاعة في القيام بواجباته العسكرية «فتقاعدوا عن القتال أو تهاونوا فيه أو ادعوا الحاجة إلى الطعام أو اصطنعوا التعب واعتذروا بشدة البرد، وإذا ساروا للقتال دخلوا الميدان من غير استئذان وخرجوا منه دون انتظار أوامر قائدهم، وربما تركوه دون تردد

Ibid. p. 326 (٢)

Diehl, L'Afr. Byz. p. 322 (١)

Diehl, op. cit. p. 324 (٣)

ساعة الخطر^(١)، وكان البربر يرقبون ذلك فتزداد جرأتهم على الحكام وتتحرك الثورة في نفوسهم، ولم يلبث الإرهاق الذي أصاب أهل البلاد أن مهد لهم السبيل ليعلموا ما يضرهم من كراهية وحقد، وعلّة ذلك ما كان من تغافل الحكام الذين تولوا بعد سلامون (سليمان) عن قوة البربر واحتقارهم إياهم ومعاملتهم معاملة العبيد .

بدأ البربر يشكون إلى الحكومة عدوان الجند عليهم وتعديهم على أرضهم ومراعيهم، فردت الحكومة على الأهليين ردّاً جافياً قاسياً أثار نيران غضبهم إذ قتل الحاكم رجال الوفد الذي انتدبه البربر لإبلاغ الشكوى إليه^(٢)، فاستطارت نيران الثورة، وتصادف ان سليمان كان قد خاصم إذ ذاك أكبر رؤساء البربر وهو أنطالاس . رأس قبائل برقة وقتل أخاه، فثار رجاله واتصلت ثورة إفريقية بثورة برقة وطرابلس وخف سليمان للقضاء على أنطالاس فخر صريعاً في الميدان أمام البربر سنة ٥٤٤ م لأن جنده تخونوه وغدروا به، وبهذا أصبحت إفريقية بدون حاكم وخرجت عن طاعة الأباطورية جملة، فلم يسهل الجند الثائرين إلا السير نحو العاصمة والاستيلاء على قرطاجنة برياسة زعيمهم جنفارت .

ولم يقيض الله للدولة قائداً أميناً اسمه أرطبان جمع من بقي من الجند على الولاء، وسار بهم إلى قرطاجنة وهزم جنفارات وأعاد العاصمة إلى طاعة الأباطور^(٣)، لاستدعى الأمر غزو البلاد من جديد بل ربما استعصى على الدولة أن تستعيدّها .

(١) Diehl, op. cit. p. 327

(٢) عين جستينان ابن أخ سليمان وما قيرس Cyrus وسرجيوس Sergius حاكمان على برقة وطرابلس، وكانا ياقين مترفين منصرفين إلى هواهما، فلما قصد وفد لوائته أحدهما (سرجيوس) للشكوى إليه من عدوان الجند قتل رجال الوفد كلهم، فلم ينج إلا واحد أسرع يرفج بنبأ الفاجعة إلى القبائل فرفضت علم الثورة .

(٣) ويكنى للدلالة على تخرج الحال وانتشار روح الثورة أن أرطبان هذا رفض أن يكون =

استبانت الدولة أن حكم إفريقية لم يعد بالأمر الهين ، فأخذت تميل إلى الاعتماد على الأساليب العسكرية في التفاهم مع الأهلين ، وتحولت إفريقية البيزنطية إلى ولاية عسكرية يشرف على أمورها قائد ، لكي يستطيع أن يداوم الحرب مع الأهلين ويثبت لهم ، ولكنه لم يستطع أن يردمهم إلى الطاعة ، فأخذ بربر انطالاس ينسابون بجموعهم في أراضي الولاية الداخلية حتى استولوا على سوسة وأخذوا ينهبون ما يجدونه نهبا ذريعا ، فخلأ أكثر المزارع من السكان وترك لا يرعاها أحد ، إذ فر المزارعون إلى صقلية أو يزنطة ، وخلأ أكثر المدن من الصناعات والسكان ، وتطلب الأمر منقذاً يخلص بالبلاد من هذه الفوضى التي جر إليها فشل الحكم البيزنطي .

لم يبالغ ديل إذن حين تساءل « وأي فائدة للرباط إذن ، لقد عبر البربر الحدود وعدوا عليها ، ونهبت البلاد وفوجيء الناس وأخذوا أسرى » ؟ بل لم يكن مبالغا حين تساءل عن فائدة الجيش المحتل نفسه إذا كان قد عجز تماما عن رد الأهلين إلى الطاعة وتفوق البربر عليه تفوقا ظاهرا حتى إن تيودوسوس حاكم إفريقية قتل في حربه معهم سنة ٥٦٩ م وفي السنة التالية ٥٧٠ م قتل قائد ولاية إفريقيا فيوكتيتوس ، ولم يسلم القائد العام لإفريقيا البيزنطية من هذا المصير سنة ٥٧١ .

فشل الحكم البيزنطي إذن في إفريقية وعجزت الدولة عن السيطرة عليها فعليا فأصبح جندها في حال أقرب إلى الاستقلال ، وبدأ قادتها يفكرون في الانفصال وإعلان أنفسهم حكاما بأنفسهم .

== حاكما لأفريقية حينما خلع عليه الامبراطور هذا المصروف جزاء له على ولائه ، كأنما كان هذا الرجل يعرف قيمة منصب كهذا ، ويعرف أن حاكم أفريقية لا بد مقتول على يد البربر أو على يد الجند أو على يد الامبراطور نفسه .

هذا عن الحالة السياسية . أما عن حضارة الروم في افريقية ومدى توفيقهم في نشرها بين الأهلين ، فقد وفقوا إلى بعض ما أرادوا من إعادة الحضارة الرومانية في افريقية إلى ما كانت عليه أيام الرومان في مدائن الساحل ومايتصل بها ، وبذلوا جهداً كبيراً ليعمروا الولاية الداخلية والنواحي المهجورة في الأوراس ، فازدهرت زماناً في أوائل حكم جستنيان ، ولكن الاضطرابات وثورات الأهلين ومساءات الحكام ما اثبت أن عدت على ذلك فأعادته خراباً كأن لم يكن بالأمس . أما بلاد الداخل — فيما وراء الرباط — فلم يمسه الروم بتغيير كبير ، فظلت على حالها يقيم فيها أهلها من البربر ، ويهمون منها للاغارة على ما يجاورهم من مراكز العمران ، ويعتصبون في جبالها وشطوطها من الروم .

وقد ازدهرت الأساليب المعمارية البيزنطية في البلاد ووفق المهندسون إلى إقامة كثير من القصور والحصون والكنائس البيزنطية الطراز ، ولا زالت آثارها باقية فيما أخذ المسلمون من بقاياها واستعملوه في إنشاء مساجدهم كما في مساجد القيروان وسفاقس وسوسة التي أخذ الكثير من أبوابها وأعمدتها ونوافذها من مبان بيزنطية ، ولا زالت النقوش الباقية على هذه المعاهد تشهد ببراعة روم افريقية في التصوير والزخرفة والتصميم^(١) ، ولا نزاع في أن الطرز المعمارية والزخرفية الإسلامية تأثرت في شمال افريقية بهذا التراث تأثراً ظاهراً ، بل يذهب ديل إلى أن الملاحظ لا يعدم في بعض آثار المناطق التي لم يصل إليها الحكم الرومي لمحات لطراز افريقي بيزنطي أصيل . وآثار افريقية البيزنطية غنية بالقاشاني المزخرف الذي يبدو أنه كان شائع الاستعمال في مبانيها ، مما يدل على أن الصانع الأفارقة بلغوا في إجادته مبلغاً عظيماً ، ولا تقتصر قيمة ما وجد من هذا القاشاني على الدلالة على

(١) أنظر اللوحات الخاصة بمساجد عقبة والزيتونة وحمودة باشا وزخارف القاشاني الواردة في كتاب G. Marçais, Manuel d'art musulman, l'architecture, vol. I (1928), II, 1927.

مبلغ روم إفريقية في إجادته ، بل إن نقوشه ورسومه لتدل على نواحٍ كثيرة من حياة أهل البلاد كتصاوير الملاعب واللاعبين وملابس الرجال والنساء .

وكانت لإفريقية الرومانية ماضٍ مجيد في عالم الآداب ، ولا زال كاتبها الأديب سنت أوغسطين صاحب كتاب « مدينة الله » يذكرنا بذلك العصر الزاهر ، فلا غرابة أن أثمرت جهود البيزنطيين فظهر بعض الشعراء والكتاب ، فهذه أشعار كوريثيوس دليل ناطق على ذلك ومعيناً لا ينضب لتاريخ ذلك العصر ، ولكنه لم يكن إلا مقلداً للرومان القدماء متبعاً تقاليدهم ، وربما أخطأه التوفيق في كثير من الأحيان ، وكتابه « القصائد الجوهانية » تاريخ شعري لحروب جان تروجليتا مع البربر ، وهو خال من الجمال الشعري الحقيقي الذي هو أساس القيمة الأدبية ، ولكن قيمته ليست بالقليلة ، إذا اعتبرناه وثيقة تاريخية^(١) ، إذ أن الرجل استطاع أن يصور في أشعاره حروب البيزنطيين مع البربر وأساليبهم وملابسهم وعاداتهم في الحروب وما إلى هذا مما لا غنى عنه في دراسة تاريخ إفريقية البيزنطية . كذلك أخرجت الكنائس عدداً طيباً من الكتاب الدينيين الذين وصلت لنا كتاباتهم ، فكانت وثائق تاريخية جلية الفائدة لا تخلو من لمحات أدبية صادقة^(٢) .

(١) أنظر : Procopius, Corpus scriptorum historiae byzantinae, Bonnæ 838

(٢) أنظر : Gautier, Siècles obscures, pp. 179-187 على أن جوتييه بالغ في تقليل أثر الرومان في البلاد ، لأنه إذا كان البربر قد ظلوا بعيدين عن حضارة الرومان ، فقد خفلت البلاد بالمدائن والمستعمرات التي كان يسكنها الرومان الذين أخذوا يجهذون في إقامة مظاهر الحضارة اللاتينية حتى وفقوا في ذلك توفيقاً كبيراً ، وأعانهم على ذلك أن إفريقية نالت حظاً وافراً من العناية منذ أيام سقيروس (٢٢٢ — ٢٣٥ ق م) لأنه كان لإفريقي المولد ، وكان شديد الحب لموطنه الأصلي ، فتزوج بزوجة قرطاجنية ، وكان لا يفتأ يعني بشئون إفريقية وأمورها حتى أصبح للفرق البربرية في الجيش الروماني سلطان قوى ، مكنتها من عزل خليفته مكسيميان (٢٣٥ — ٢٣٨ م) وإقامة ضابط إفريقي آخر هو جورديانوس الملقب بالأفريقي امبراطوراً . لهذا ارتفع مستوى البلاد الاقتصادي وعمها العمران ، وساد الجزء الروماني الرخاء ، ودخلتها زراعة الزيتون والكروم =

على أن الإنسان إذا قارن هذه الآثار بمشيلاتها مما كان موجوداً أيام الرومان - لم يسعه إلا أن يقرر أن إفريقية البيزنطية ما هي إلا فترة اضمحلال للحضارة الرومانية في إفريقية بل لم تكن إلا محاولة مخففة لإعادة هذا العصر الزاهر .

وكانت المسيحية قد دخلت البلاد خلال القرن الثاني فوجدت قبولا طيباً ، لأن السراة والأغنياء كانوا مستعدين لقبولها ، إذ أن الفلسفة كانت قد أعدت عقولهم لذلك كما يقول جوليان . دخل كثيرون من البربر المسيحية ونشرها فيهم رهبان من مصر أو من إيطاليا نفسها ، ولكن انتشارها ظل محدوداً أثناء العصور التي نشطت الدولة الرومانية في محاربة المسيحيين خلالها ، وعلى الرغم من ذلك أقبل كثيرون من أهل البلاد على الدخول في النصرانية حتى لقد استشهد منهم نفر كبير ، وانتشر الرهبان بين البربر فكانت المسيحية سبيلاً للاتصال بين الرومان والأهلين ، وكانت الكنائس وسطاً صالحاً للاتصال والتفاهم ، وبهذا وفق الرهبان فيما يحجز الحكام دونه وهو اجتذاب نفر من أهل البلاد .

ولم يقتصر الأمر على سهل الساحل بل اعتنق النصرانية نفر من بربر الأوراس ونوميديا ، وانتشرت في إقليم الزاب على الخصوص ، وكثر انعقاد المجالس الدينية في قرطاجنة فيجتمع فيها الرهبان والأساقفة يمثلون بلادهم ونواحيهم ^(١) .

== والفواكه . وتبع ذلك نشاط صناعي في استخراج الزيوت وعصر الحبوب وما إلى ذلك . وفي هذه المدائن اللاتينية نشأت مدارس لاتينية تعلم فيها الكثيرون ؛ فازدهرت اللاتينية وأصبحت لغة المثقفين في البلاد ، وأقبل عليها سراة البلاد ورؤساء الأهالي فنبغ فيها منهم نفر منهم يوبا المروفي ؛ وهذا تراث إفريقية القديمة الفكري نصفه لاتيني : فكوربيوس صاحب القصائد الجوهانية وصاحب مدائح چستيان وفولجنتيوس فراندوس صاحب حياة القديس فولجاني أسقف رويسنس *Fulgentius Ferrandus . Sancti Fulgentii Episcopi Ruspensis* وبريماسيوس هادرميتوس وسنت أوغسطين صاحب كتاب مدينة الله كل أولئك كتاب لاتين على درجة مشكورة من الإقتدار على الترو والنظم اللاتينيين *Julien, op. cit. pp. 162, 187, 791*

Julien, op. cit. p. 211 (١)

وكان الدعاة والمبشرون لا ينفكون يفرون إلى داخل البلاد نجاة من الاضطهاد والقتل، فرحبت بهم القبائل واتبعهم من أهلها نفر كبير، ولما كان هؤلاء الهاربون أعداء للرومان، فقد اهتموا بأن ييشوا في نفوس الأهلين كراهية الرومان وعداءهم، وكلما ازداد اضطراب الدولة الرومانية وكثرت مساوئها وثقلت ضرائبها ازداد الأهلون لها كرهاً، حتى إذا نشب الخلاف المذهبي بين الأسقف دوناتوس وأسقف قرطاجنة فرّ دوناتوس إلى البربر واعتصم فيهم، فأزروه وأجاروه ورفعوا علم الثورة على الرومان : ثورة سياسية في الواقع دينية في الظاهر، وعبثاً حاولت كنيسة قرطاجنة القضاء على الدوناتية — نسبة إلى دوناتوس — أو تقل غربها . ولم يلبث الوندال أن أقبلوا فأنشأوا يضطهدون الدوناتيين وأعداءهم معاً لأنهم أي الوندال، كانوا أريوسيين^(١) .

بهذا تفرق أمر المسيحية في افريقية، واختلف أتباعها شيعاً وأحزاباً، فلم يلبث أن ارتد عنها الكثيرون، وضعف أثرها في الداخل فكان على جستنيان أن يحاول نشرها في البلاد من جديد .

* * *

اهتم جستنيان اهتماماً بالغاً بإعادة افريقية إلى المسيحية، فأعاد بناء كثير من الكنائس وأنشأ بعضها، وشجع البعثات التبشيرية، فأخذت المسيحية تنشط من جديد وانتشرت بين القبائل البربرية المحيطة بصيرة Sabrata^(٢)، وفي طرابلس وبعض نواحي نوميدية مثل وادي شلف (حول تلمسان)، بدليل أن أهل هذه الناحية

(١) Julien, op. cit. pp. 211, 261 .

وقد أبان الأستاذ C. A. Scott في موسوعة الأديان والأخلاق « أن الدوناتية في حقيقتها خلاف شخصي إقليمي بين طوائف الرهبان، وأكد أنها ليست هرطقة ولا خروجاً على الدين وقرر أن ميدانها كان في نوميدية ومرطانية Encycl. of Religion and Ethics : vol IV, p. 844

(٢) Fournel, Les Berbères, vol I, p. 326

أرسلوا وفداً عظيماً من القساوسة ليقدم الطاعة والخضوع إلى الإمبراطور سنة ٥٧٣ م ،
وبدليل ما لا يزال باقياً إلى الآن في منطقة التل المحيطة بوهران من قبور مسيحية
على هيئة الأهرام تجلّوها من الداخل نقوش مسيحية ^(١) ، بل أن المسيحية تغلّلت
في داخل البلاد ، فأقيمت الكنائس في واحات مثل أوجله Augila وغداس
Cydamus ، ولا ينبغي أن نغفل الإشارة إلى ما تقرره الرواية العربية من وجود
قبائل مسيحية في أثناء الفتح العربي مثل أوربه قبلية كسيلة وغارة في إقليم طنجة
بيد أن الكنيسة الأفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطي على حال يبعث
على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد ، فكانت إدارتها مختلة النظام إذ تلاشى
النظام الكنسي ، واقترب القس ذنباً كثيرة تدل على العصيان أو التدهور
الأخلاقي والفساد ^(٢) ، وكانت الدوفاتية وخصومتها المشوبة مع الكنيسة البيزنطية

(١) وفي بناء هذه القبور وفي نقوشها دليل على أن المسيحية لقيت قبولا عند الأفارقة من
أهل الساحل والقبائل القرية منهم في الأوراس وبعض نواحي نوميديا ، وقد علق الأستاذ جوليان
على ذلك بقوله : « ويبدو أن إفريقية — التي كان هرقل قد عهد في حكومتها إلى ابن عمه —
قد هدأ أمرها بعض الشيء ، فسارت المسيحية وطاعة الإمبراطور فيها جنبا إلى جنب ، حتى تركت
الأولى أثراً واضحاً في منطقة الجريد وفي الأوراس وفي الزاب . ولدينا برهان يؤكد أن المسيحية
تقدمت في صرطانية لأن لم تكن قد استقرت وثبتت قدمها فيها ، وهو أنه وجد في ناحية الجدار
ثلاثة عشر مدفناً يرجع تاريخها إلى القرنين السادس والسابع الميلاديين على هيئة الأهرام يبلغ
ارتفاع بعضها خمسة وأربعين متراً ، وهي قائمة جنوب تاهرت إلى الغرب » ثم أورد الأستاذ
وصف داخل هذه المدافن كما أثبتتها لابلائشير ثم ختم كلامه بقوله « وهذه الآثار التي بناها عمال
رومان وبيزنطيون . تدل — من النقوش التي على جدرانها — على أن عائلة بربرية قوية
مسيحية كانت على علاقات — معنوية على الأقل — مع الإمبراطورية ، وقد ذكر بروكويوس
في حديثه رجلاً مسيحياً من أهل البلاد اسمه ماسوناس Masunas كان على اتصال دائم مع
سليمان فرجع جسد أن يكون هو هذا الشخص وأن سلطانه شمل كل منطقة وهران ، بل أكد
جوتيه أن نفوذ امتد إلى الأوراس ، وكل تلك الدلائل تشهد بأن المسيحية قد انتشرت في هذا
الجزء من البلاد ولقيت عند بعض قبائل نوميديا والأوراس قبولا طيباً ، وما يؤكد ذلك أن هذه
الأجزاء كانت نصراية أثناء الفتح العربي إذ فيها كانت مواطن أوربة وزعيمها كسيلة النصراني
Julien, op. cit. pp. 311-312

(٢) Greg. Epist. 9,24-7,342. Diehl, op. cit. p. 506

عاملا آخر من عوامل ضعف هذه الأخيرة ، إذ استطاع دعاؤها أن يفروا إلى داخل البلاد نجاة من الاضطهاد؛ وهناك كانوا يثيرون الناس على الكنيسة البيزنطية فيفر منها الكثيرون ، بل أخذ البعض يُعَمِّد نفسه من جديد وفق طقوس الدوناتيين . وكانت الكنيسة الغربية قد أخذت تنهض نهضة عظيمة في ذلك الزمن بفضل جهود جريجورى الأكبر ، وكانت الخصوصمة ناشبة بينها وبين كنيسة بيزنطة ، فوجد جريجورى في تفرق أمر المسيحية في أفريقية فرصة طيبة يتدخل بها في شئون كنيسة أفريقية ليكسب رعاياها إلى صفه ؛ فاستعان بقساوسة ذوى قدرة وشهرة من أمثال دومنيك كبير قساوسة قرطاجنة وكولمبوس أسقف نوميدية ، فأخذ مسيحيو إفريقية يتجهون نحو روما متأثرين بما كان جريجورى يذيعه فيهم من نداءات وبما يبذله قساوسته من جهد وبما حرصت عليه الكنيسة الغربية من إعزاز لأمر الدين وإخلاص في نشره؛ وبهذا ازدادت العلاقات العامة بين بيزنطة وأفريقية ضعفا على ضعف ،^(١) ولم يلبث جريجورى أن حوّل هذا السلطان الدينى الذى كسب الى سلطان سياسى ، فأخذ يتدخل في إدارة شئون أفريقية ويتصدى للدفاع عن المظلومين وإنصاف ذوى الشكاوى في عصر كثر فيه المظلومون وقل من يسمع الشكوى .

من ذلك الحين أخذت طائفة دينية — من أتباع كنيسة روما — تنشأ في أفريقية ؛ وتكسب لمبادئها أنصاراً يعتزون بها ويخاصمون فيها غيرهم من أصحاب المذاهب القائمة في أفريقية ، مما جعل المنازعات الدينية أهدأ وأقسى وزاد في انحلال البلاد التى كانت — لهذا الزمن — قد تفككت تفككا بالغاً لا يرجى معه أمل في صلاح أمورها .

كانت سياسة البيزنطيين إذن قاضية على الآثار القليلة التى خلفها الرومان

(١) Diehl, L'Afr. Byz. pp. 508 - 509

في نفوس أهل البلاد ، بل دفعت هذه السياسة بالبربر السدو إلى العدوان على الولايات البيزنطية التي قامت فيها معالم الحصار ، ولو لم تكن المسيحية قد تبتت بعض الثبات في بعض النواحي كالزباب وتلمسان ، لم كان للبيزنطيين أى أثر في حضارة أهل البلاد ، ولا مسالفة في القول بأن كثيرين من رراع البربر انصرفوا عن الزراعة وهجروا المزارع والمدن وعادوا إلى ما كانوا عليه قبل دخول الرومان .

تبين الأباطرة أن نظام الحكم الذى وضعه جستنيان لأفريقية لم يحقق الغرض المراد منه ، إذ استمرت الثورات تقلق البلاد وتفصل أجزاءها عن جسد الدولة جزءاً جزءاً ، وظهر لهم بجللاء أنه لا بد من إيجاد نظام جديد لحكمها يلائم أحوالها التي صارت إليها ، وثبت في أذهانهم أنه لا بد أن يراعى في النظام الجديد تغليب الناحية العسكرية على الناحية المدنية^(١) ، وجعل الأولى فوق الثانية ومشرفة عليها بعكس ما رسم جستنيان ، وأقيم على الولاية حاكم عسكري Exarcus له الإشراف التام على كل مراقبها وموظفيها ، بما فيها الحاكم المدني القديم Praefect . وأقيم على الأقسام الإدارية الجديدة حكام عسكريون يلقبون بالأدواق ، وعلى المدن قواد عسكريون على رأس حاميات .

كان تحويل أفريقية البيزنطية من ولاية إلى منطقة عسكرية بدء النهاية

(١) بدأ هذا التغيير يحدث منذ أوائل أيام الإمبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢ م) الذى أدخل تعديلاً على تقسيم إفريقية البيزنطية يلائم حالة البلاد الجديدة ، ففصل طرابلس عن إفريقية وضربها إلى مصر . وجمع موطنة السطيفية Mauretania Setifiensis إلى ما بقى من موطنة القيصرية M. Cesariensis وكون منهما ولاية واحدة سميت موطنة الأولى ، وأضيفت سبتة Septem إلى جرائر البليار وبقية أملاك البيزنطيين في أسبانيا وألفت منها جميعاً ولاية موطنة الثانية ، وأنشئت ولاية جديدة لسردانية وقرصقة . واكتفى في الدفاع عن البلاد بتحصين عدد قليل من المدن لاتكاد تتعدى خط العواصم الثانى (الرباط) الذى يمر « نيسا » وتمجاد وبأغاية وتيجس وقسطنطينه وصدده وستة

كما يقولون لأنه كان نذيراً بفشل البيزنطيين في حكم البلاد، وإيذاناً بوقوف كل الجهود السلمية والإصلاحية التي كان يرجى قيامها في ظلهم، ودليلاً على قرب انسلاخها عن جسد الدولة، لأن الحكام العسكريين لا يترددون في أغلب الأحيان في الثورة على الدولة المركزية والاعتصام منها بالجيوش التي تحت أيديهم إذا قامت بينهم وبين المركز خصومة، وزاد في خطر هذا النظام الجديد أن الدولة جعلت للحاكم العسكري الإشراف الكامل على مرافق الولاية كبيرها وصغيرها حتى شئون الكنيسة^(١).

أثمر هذا النظام في أول الأمر ثمراً طيباً، إذ انتظمت أمور الولاية في حدودها الجديدة، وسادها الهدوء فترة من الزمان، وكان للمظهر العسكري الذي ظهرت به أثره في القبائل البربرية، فلم تعد تستخف بالحدود البيزنطية، وكفت عن مهاجمتها إلى حين^(٢)، ولكن البلاد أصبحت رهناً بإرادة من يولى عليها من الحكام العسكريين، لا تملك الدولة قبلهم شيئاً، وإذا عرفنا — إلى ذلك — أن هذه الدولة كانت تعتمد على إفريقية في الحصول على جزء كبير مما يلزمها من القمح، وأن إفريقية كانت قريبة من مصر التي تمد العاصمة بجزء آخر (فيستطيع حاكمها أن يوقف قمح مصر وقمح إفريقية)، عرفنا إلى أي حد كان الوثوب بالدولة هيناً على حاكم إفريقية.

(١) المدير *praefect* في نظام الحكم الروماني حاكم مدني، يرسل كل سنة كممثل للقاضي الروماني الأكبر *praetor* لكي يراقب سير القضاء في الولايات، وقد ينتدب لتنظيم الممتلكات الرومانية التي لم يكن فيها سكان مدنيون أو حكومة منظمة، وبذلك يتناول سلطانه الإدارة. أما القناصل السابقون *proconsuli* فحكام عسكريون أصلهم قواد *Consuli*، ولما كان القانون الروماني يحرم استمرار القنصل في حكومته أكثر من عام، فقد عهد إليهم في حكومة ولايات الحدود والمستعمرات الكثيرة القلائل، ويسمون قناصل سابقون *proconsuli* وقد يسمون *Eparci*

(٢) Diehl, op. cit. p. 262

في سنة ٦٠٨ أقام موريق Maurice على أفريقية البطريق « هرقل »^(١) ، وهو قائد ماهر من أصل أرمني ، له ماض حربي مجيد في الحرب مع فارس ، وكانت أفريقية في هذه الفترة في حاجة إلى رجل ممتاز في الحرب ليرد البربر إلى الطاعة بعد أن ثاروا ثورة شديدة أخرى عقب موت جستنيان ، استمرت ثلاث سنوات متوالية (٥٦٩—٥٧١ م) استولوا خلالها على العاصمة ، وأنشأوا فيها شبه حكومة منظمة على رأسها قائد الثورة Gasmul جاسمول ، ولم يتخذ نيرانها إلا حين ندب الإمبراطور القائد جناديوس Gennadius الذي استطاع حوالي سنة ٥٨٠ م أن يقتل جاسمول ويهزم أتباعه . ولكن الهدوء لم يطل أمده ، إذ عادت الثورة فشبّت من جديد سنة ٥٨٨ م واستمرت زماناً طويلاً حتى عجز جناديوس عن القضاء عليها .

أقيم هرقل حاكماً على أفريقية لينقذ البلاد مما صارت إليه ، وندب لمعاونته في إدارة البلاد أخوه البطريق جريجوريوس Gregorius ، فبدءا يعملان معاً ليعيدا الأمور إلى نصابها في هذا الأقليم المضطرب ، ولكن هرقل لم يكد يبدأ العمل ، حتى فوجيء سنة ٦٠٢ م بثورة في القسطنطينية ، انتهت بقتل موريق وإقامة فوكاس إمبراطوراً ، وكان الإمبراطور الجديد يعرف ما كان بين هرقل وموريق من حب وولاء ، ولكنه آثر أن يدعه حيث هو حذراً من الشر الذي يصيبه إذا هو أقدم على عزله ، ولزم هرقل من جانبه حياداً تاماً حيال النظام الجديد ، ولكنه لم يستطع أن يقف مكتوف اليدين أمام ما كان يسمعه من مظالم فوكاس ، فلم يلبث أن اتجه وجهة معادية وأنشأ يعمل على الانفصال عن الدولة ، وكانت أولى الخطوات التي اتخذها لبلوغ ذلك ، أن حجز في قرطاجنة السفن التي تنقل

(١) Neciphore, p. 3; Theophanès, p. 295—297; Diehl, op. cit. p 517.

القمح إلى العاصمة كل عام ، فلم يلبث الموتورون من فوكاس أن اعتبروه منقذاً للدولة
وتوجهوا بآمالهم نحوه ، واثالت عليه الرُّجى تستعنه إلى المبادرة بإنقاذ الدولة مما
صارت إليه ، وبعث إليه مجلس شيوخ القسطنطينية يسأله القدوم ، وكتب إليه
برسكوس Priscus — صهر الأمبراطور وحاكم القسطنطينية — يستعنه على
النهوض للقضاء على فوكاس ، وتخليص الناس من شره^(١) .

ثورة هرقل
سنة ٦١٠
ولإسقاطه
فوكاس

بيد أن هرقل كان في الستين من عمره ، وقد علت به السن عن أن ينهض
بعمل كهذا ، فندب ابنه هرقل لإنقاذه ، واختار ابن أخيه نقيتاس Nicetas
لمعاونته ، ولكنه تردد في التنفيذ ، إذ كانت امرأته « ابفانيا » Epiphania
وخطيبة ابنه يوديسيا Eudicia تزوران القسطنطينية في ذلك الحين ، فلم يكد
فوكاس يستشعر نية البطريق وانصراف الناس إليه ، حتى سارع فاحتجز
الاثنتين وأودعهما أحد الأديرة^(٢) ، فلم يفت ذلك في عضد هرقل ، إذ أن الاضطراب
كان قد عم نواحي الدولة ولم تسلم منه أفرقية نفسها ، فثارت طرابلس وبنطابلس ،
وأقبلت القبائل البربرية على هرقل تستعنه على المضى في الأمر ، فبدأ بإرسال
بعث احتل بنطابلس ، ثم سير حملتين : إحداهما بحرية يقودها ابنه هرقل ، تقلع
من قرطاجنة إلى سلاينيك ، وهناك يلقاها أعداء الأمبراطور فيعاونونها على الاستيلاء
على القسطنطينية ، والأخرى يقودها ابن أخيه نقيتاس Nicetas مكونة من جيش
كبير — انضمت إليه فرق عديدة من الأهالي —^(٣) تخترق مصر وتستولى عليها
ثم تخترق الشام وآسيا الصغرى ، لتصل إلى القسطنطينية فتثير الولايات في طريقها ،
وبهذا يكون القضاء على فوكاس تاماً^(٤) .

(١) Theophanès, p. 295, Diehl, op. cit. p. 518

(٢) Theophanès p. 295. Diehl, op. cit. p. 519

(٣) Jean de Nikion, p. 541. Diehl, op. cit. p. 519

(٤) Theophanès p. 295. Diehl, op. cit. p. 310

أقيمت خطة البطريق هرقل ما قدر لها من نجاح ، فلم يكد أسطوله يقترب من القسطنطينية حتى انفجرت الثورة في العاصمة ، إذ كان أعداء فوكاس يترقبونها بنافذ الصبر ، وأسرع برسكوس - صهر الإمبراطور - فضم جنوده إلى جنود هرقل ، فلم يجد صعوبة في إسقاط فوكاس والقبض على أشياعه وتسليمهم للجمهور الساخط يفعل بهم ما يريد ، فلما تم له ذلك أحب أن يعود إلى أفريقية ، ولكن رجال الدولة وأساقفتها ألحوا عليه في قبول التاج حتى قبل واحتفل بتتويجه في ٥ أكتوبر سنة ٦١٠

— ٣ —

ساد السنوات الأخيرة للحكم البيزنطي في أفريقية هدوء نسبي ، لأن هرقل الكبير لم يعد يعني بشئون أفريقية كثيراً ، بعد أن أصبح ابنه إمبراطوراً ، إذ صرفته شئون الإمبراطورية ، فزال الضغط عن أهل البلاد وشعروا بشيء من الحرية واطمئنان الحال ، وكان هرقل إلى ذلك يعرف لهم يدهم التي أسدوها إليه وإلى ابنه ، وفضلهم فيما صار إليه من ملك وسلطان لما كان من حسن عونهم له فيما أراد من إسقاط فوكاس ، فأحسن معاملتهم وتقرب منهم ، فركنوا إلى الهدوء والسكون . ويمكننا القول بأن البلاد كانت أهدأ حالا وأكثر ازدهاراً في ذلك الحين منها في أي وقت آخر من العصر البيزنطي .

في ظل هذا الهدوء ، أخذت المسيحية تنتشر بين قبائل البربر ، ولكن انتشارها لم يكن بفضل الكنيسة البيزنطية ، وإنما كان سببه نهضة الكنيسة الغربية أيام جريجوري الأكبر ونشاطها في إرسال البعث التبشيرية إلى أفريقية ،^(١) فتغلغل القسس في داخل البلاد ، واستطاعوا أن يمدوا لواء المسيحية على كثير من القبائل البربرية ، وإذا كانت الحكومة البيزنطية قد أخذت تنسحب رويداً من

الهدوء يسود
أفريقية
في أواخر
أيام العصر
البيزنطي

كنيسة روما
تتدخل في
شئون
أفريقية

المواقع الداخلية، فقد أخذ القسس يحلون محل الحكام، حتى أصبحوا — على مر الأيام — حماة الضعفاء والمظلومين، فلم يعد هؤلاء يتوجهون إلى القسطنطينية لبث ظلاماتهم، وإنما إلى بابا روما، فهو أقرب إليهم. وربما كان أقوى سلطاناً، فكان يسارع إلى رد الظلم عن الشاكين، فإما اتصل بالحاكم المذنب رأساً وأمره بالانصاف، وإما اتصل برئيسه، متكلماً كل مرة باسم القانون والدين، يوزع المديح أو التأنيب حسب الحاجة: فيعد دوق سردينية مثلاً بأن يؤدي في القسطنطينية شهادة طيبة بحسن مسلكه، أو يرفع للأمبراطور الشكوى بما يفعله البطريق جناديوس وهكذا، وليس بين هذه الحال وبين التدخل الصريح في الإدارة إلا خطوة قصيرة، ولقد ساعدت ظروف هذا العصر المليء بالاضطرابات جريجور يوس على أن يخطوها، وكانوا — أى الموظفون — لا يجدون بداً من طاعة هذه الأوامر التي يتلقونها من البابا والقساوسة، لأنهم كانوا يحملون في أنفسهم تقديراً عميقاً للدين ورجاله^(١).

كان من نتائج هذا، أن اتجه الناس بآمالهم نحو الكنيسة الغربية، واتخذوا من أبحارها حماة يدفعون عنهم أذى الحكام وعنتهم، «ومن ثم أصبحت روما سلطة جديدة في أفريقية البيزنطية يُحسب حسابها، ويركن السكان إليها في كثير من أمور حكومتهم»، «فاعتمد الحكام على رجال الدين الذين لم يلبثوا أن سادوهم... ففي أوائل القرن السادس كان القساوسة يديرون أفريقية»^(٢)؛ وكان هذا التدخل عاملاً قوياً جديداً من عوامل التنافر، وأى تنافر أغرب من ذلك: بلاد تابعة للدولة الشرقية، يسيطر عليها بابا روما، ويكون له من الإشراف على أمورها والتدخل في شئونها مثل ما للإمبراطورية!

وفي الواقع، لم يكن يربط أفريقية بالدولة البيزنطية إلا علاقة واهية جداً في أواخر القرن السادس المسيحي، فقد كان الموظفون البيزنطيون — في جميع نواحي الإدارة —

(١) Diehl, op. cit. p. 514 (٢) Caudel, l'Afr. du Nord. I p. 27.

يميلون إلى التحرر من سيطرة الأمباطور البعيد عنهم جداً ، وانصرف الناس ، الذين ثقلت عليهم وطأة الإدارة البيزنطية وما كان يسودها من خلل ، عن الأمباطورية التي كادت تنزل بهم الخراب ، وبدأوا يتصلون بالكنيسة التي تحميهم بعض الشيء ، وأخذت هذه الكنيسة تحل سلطتها الإدارية على مهل محل السلطة الإدارية المركزية ، وتعمل على إفساد الإدارة الحكومية ، التي لم يكن ينقصها الاضطراب^(١) .

انتشرت المسيحية بين بعض القبائل ، وكان المنتظر أن يكون هذا الانتشار سبباً جديداً من أسباب الاتصال بين بيزنطة وممتلكاتها في افريقية ، ولكنه كان كما رأينا فاصلاً لا رابطاً ، لأنه زادها بعداً عن بيزنطة ، وقربها إلى رومة . ولا نزاع في أن البابوية نفسها كانت ترمي إلى بعض هذا حين كانت تبذل الجهود لتقطع افريقية عن الكنيسة الشرقية ، إذ كان الخلاف بين الكنيسة الشرقية والبابوية في هذا الحين شديداً جداً .

— ٤ —

مات هرقل الكبير في افريقية سنة ٦١٠ ، فأقام هرقل الأبن على حكومة
 جريجوريوس الأول
 افريقية عمه البطريق جريجوريوس ، الذي كان يساعد أخاه منذ زمن طويل
 في إدارة البلاد ، ولكنه لم يلبث على حكومتها إلا زمناً قصيراً ، إذ خلفه عليها بطريق
 اسمه قيصر يوس Caesarius ، ثم أعقبه نقيتاس ابن جريجوريوس وابن عم الأمباطور
 نقيتاس بن جريجوريوس الأول
 الذي كان ساعده الأيمن في الهجوم على القسطنطينية ، وكان قد قضى فترة طويلة
 متنقلاً في ميادين الحرب مع فارس ، وولى شئون مصر ، ولعل الأمباطور قد اختار
 هذا الرجل القوى ، لأن فارس كانت تغزو بلاد الدولة للمرة الثانية ، واستولت

(١) Diehl, op. cit. pp. 515 — 16

على مصر سنة ٦١٩^(١) ، وأوشكت أن تغزو افريقية ، فكان لا بد من إيقاف تقدمها^(٢) .

خلف نقيتاس في ولاية افريقية ابنه جريجوريوس ، وفي أثناء سنتي ٦٢٨-٦٢٩ م جريجوريوس الثاني : احتفل بخطبة جريجوريا أخته إلى هرقل قسطنطين Heraclius Constantin (چرچير) ابن الأمبراطور هرقل ، فزاد مركز جريجوريوس قوة ، وعلت هيئته في أعين أهل البلاد .

طبيعى أن تنشأ بين آل جريجوريوس وأهل افريقية — من روم وبربر — علاقات طيبة ، فقد طال بهم العهد في حكومة هذه البلاد ، يتوارثونها ويزيدون نفوذهم فيها ، وساعد على ذلك أن ثلاثة الحكام الذين تولوا هذا الأمر من هذه الأسرة كانوا ذوى خبرة وكفاية وكياسة ، وكان لهم من الخطوة عند الأباطرة والقربى منهم ما زاد شأنهم نباهة وأشخاصهم هيبة ، وكان معقولا أن تستمر الأسباب موصولة بين القسطنطينية وقرطاجنة ، ما دامت الدولة على حال من القوة تمكنها من الإشراف على ولاياتها وعمالها كبارا كانوا أو صغارا ، أما وقد بدأ الأمر يضطرب بالدولة ، فيهددها الفرس ويحتاجون بلادها ، وبلغ الخوف من الأمبراطور مبلغا يجعله يفكر في الفرار من القسطنطينية إلى صقلية أو إلى افريقية ، أما وقد كثرت الشبهات وحامت الدسائس وداخل الخوف قلوب العمال ، وأما وقد أدرك جريجوريوس هذا كله ، وأحس أن شره يكاد يتصل به ويكاد يصيبه منه

Bury, Hist. of the later Roman Empire II, p. 287

Diehl, op. cit. p. 524 (١)

وقد ذهب بيورى (ج ٢ ص ٢٨٧) إلى أنه كان لهرقل أخ اسمه جريجوريوس ، وأيد ذلك توكسييه في مقاله عن جريجوريوس في المجلة الافريقية سنة ١٨٨٥ . ويحدثنا تيوفانيز أنه كان لهرقل ابن أخ يسمى جريجوريوس ، مات بين سنتي ٦٥١ ، ٦٥٢ في عين شمس بعد أن وقع أسيرا في يد العرب (ص ٣٤٥) ، وقد حاول توكسييه أن يقرر أن جريجوريوس افريقية الذى نحن بصددده هو نفس جريجوريوس هذا . وذلك خطأ ظاهر ، لأن جريجوريوس أخوا هرقل كان قد مات قبل موقعة سبيلة بزمان طويل 26 — Diehl op. cit. p. 525 cf.: Tauxier, *Revue d'Afrique*, Rev. Afr. 1885.

شر عظيم ، فإنه لمن الطبيعي أن يتجه تفكيره إلى سبيل ينقذ به نفسه ويخلص به بلاده من هذا الشر الحقيق .

أخذ جريجوريوس يرقب أعمال الدولة في حذر منذ فكر هرقل في نقل عاصمته إلى قرطاجنة ، ولكن روعه ما لبث أن أفرخ حين ترك الإمبراطور هذه الفكرة ، بسبب ما أصاب أهل القسطنطينية من الرعب حين اتصل بهم عزم الإمبراطور^(١) ، على أن جريجوريوس بات على الحذر من ذلك الحين ، لأن فكرة الانتقال ما برحت تتردد في أذهان الأباطرة كلما أحاطت بهم الأخطار في القسطنطينية ، حتى أن قسطنط الثاني نقل عاصمة الدولة إلى صقلية ست سنوات عاد بعدها إلى القسطنطينية^(٢) ، وربما كان مبعث حرص جريجوريوس على ولايته أنها انتعشت بعض الانتعاش في أيامه بسبب الهدوء القصير الذي تمتعت به في ظل أبيه وجده ، ودليل ذلك أن الغالبية من مؤرخي شمال أفريقية متفقون على أن العرب وجدوا البلاد — ساعة دخولهم — كثيرة الزروع وافرة الثمرات ، بل يفهم من رواية لابن عبد الحكم أن زراعة الزيتون كانت مزدهرة في البلاد يتجر الناس فيها ويصيبون من ورائها ربحاً عظيماً^(٣) ، ويؤكد ديل أن « الإنسان يجد في أرض السهوب فيما يلي القيروان جنوباً — وهي التي نجدها اليوم قفراً خالياً — وفي السهول الواسعة المهجورة التي تمتد جنوبي هضبة الأوراس ، وفي الإقليم الجبلي الذي يتوسط سهل تونس ، في كل هذه النواحي يجد الإنسان في كل خطوة آثار مدن كبيرة أو صغيرة .

(١) Diehl, op. cit. p. 523

(٢) Bury, op. cit. II, 203, 212, 292—Diehl, op. cit. p. 523

(٣) جاء في ابن عبد الحكم . « حدثنا عبد الملك بن مسleme ، حدثنا ابن لهيعة أن عبد الله ابن سعد هو الذي فتح أفريقية ... وأنه كان يوضع بين يديه الكوم من الورق فيقال للأفارقة من أين لكم هذا ؟ قال : فجعل لسان منهم يدور كالذي يلتبس القىء ، حتى وجد زيتونة فجاء بها إليه ، فقال : من هذا نصيب الورق ؟ قال وكيف ؟ قال : إن الروم ليس عندهم زيتون ، فكانوا يأتونا فيشترون منا الزيت فنأخذ هذا الورق منهم — ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٨٤ — ١٨٥ .

وقرى أهلة وأراض مزروعة على امتداد عظيم ، ولا يعوزنا البرهان على أن هذه البلاد كانت عامرة بالسالكين حوالى منتصف القرن السابع الميلادى على رغم ما شقيت به من حروب ، إذ يرجع إلى هذه الفترة تاريخ ذلك العدد العظيم من القلاع التى تتوسطها وتقوم على جانبيها»^(١).

يبس أن كودل يرى فى الأمر رأياً آخر : فيذهب إلى أن ديل بالغ كثيراً فى الاستنتاج من الرواية العربية ومن الآثار التى كشفت فى هذه النواحي . ويقول : « يصف لنا العرب البلاد وصفاً بديعاً ، فيقول الباجي : « وكانت أفريقية على عهد — أى على عهد حسان بن النعمان — من أعر المعمور تتصل بها المدن العظيمة والقرى الحسنة ، ساطعة البياض فى مدهام الأشجار ومنساب المياه ومتدفق الأنهار وخصيب المراعى والمزارع ولطيف الهواء من طنجة إلى طرابلس ، فأهلكك ذلك كله الكاهنة البربرية » ؛ وينبغى أن لانسى أن العرب أقبلوا من الصحراء ، وأن رمال بلادهم وصخورها ظلت ذكرها عالقة بأذهانهم بعد هجرتهم جزيرتهم بزمان طويل ، فليس بغريب أن تأخذ عيونهم أبسط الزروع وتدهشهم أقل خضرة ، ولهذا رأوا فى مجرى الماء الرفيع نهراً فياضاً ، وجعلوا من أشجار الزيتون الباهتة الكثيبة ومن أفرع شجر التربنتين ومن أشجار الفستق والمثنان والقطاف ، ومن السهول المنخفضة ونباتات الرمال التى على الشاطئ ، جعلوا من ذلك كله مزارع زاهرة ، ورأوا فى مجرد نهراً عظيماً »^(٢) ويؤيد كودل فى هذا الرأى مؤلف كتاب تونس الذى يقول « لم يكن الإصلاح البيزنطى أكثر من باب فخم لأفريقية ، إذ لم يجرؤ إلا عدد يسير من الزراع على المخاطرة بمرافقة عمال الحكومة وجنودها ، ويمكن أن نقول إجمالاً إن العرب وجدوا أنفسهم — وجهاً لوجه — أمام الشعب

(١) Diehl, op. cit. p. 525 (٢) Gaudel, op. cit. I, p. 31 ونس الباجي

فى الخلاصة النقية ، ص : ٤

البربرى ، الذى انتهى إلى السكون فى ناحية من البلاد بعد أن أفقرته المنازعات
العديدة التى شملت العصر البيزنطى ، وإلى الاستقلال فى ناحية أخرى ، والخضوع
فى ناحية ثالثة بسبب إرهاب الموظفين البيزنطيين ^(١) .

ربما كان كودل مصيباً فيما ذهب إليه من الشك فى آراء ديل ، ومن القول
بأن الإصلاح البيزنطى لم يكن إلا ظاهراً كاذباً ينطوى على أسوأ الحال لإفريقية ،
ولكنه لم يوفق فى قائلته إن العرب رأوا إفريقية رأى البدوى الجلف الذى تروعه
أبسط الزروع ، وتأسر له أقل مظاهر العمران ، لأن غزو إفريقية لم يكن أول
عهد العرب بالمزارع والرياض ، وربما ضوّلت فى عيونهم زروع إفريقية إذا قارنوها
بزروع مضر ونباتها ، وأين مجرد من النيل ؟ وأين الشجرة الخضراء من واحات
الصحراء ؟ ، وأغلب الظن أن العرب وجدوا سلسلة طويلة من الواحات المتصلة
تمتد من مصر إلى إفريقية ، فذكروا أن البلاد كانت ظلاً واحداً من برقة إلى طنجة ،
لأنهم سلكوا طريق السهل الداخلى الذى يقرب أنه كان مزورعاً زاهراً فى أواخر
العصر البيزنطى .

ازدهرت البلاد — إذن — إزدهاراً طارئاً قصير الأجل فى أواخر أيام
الحكم البيزنطى ، لأن الهدوء الذى سادها فى ظل آل جرجوريوس وركون البربر
إلى السلام — بحسن سياسة هذه الأسرة — كانا قمينين بأن ينهضا بالبلاد بعض
النهوض (لا إلى الدرجة التى يصورها ديل فى كتابه) ، وربما اقتصر الانتعاش على
الولاية القنصلية وقرطاجنة وأرباضها ، وبعض المدائن الكبرى فى سهل تونس
وهضبة الأوراس .

فى هذا الحين كانت الإنقسامات الدينية قد اشتدت فى بيزنطة وأخذ سعيها

الانقسامات
الدينية

يمتد فيحرق ولاياتها بلظاه ، وكان الروم قد توزعتهم المذاهب المختلفة شيعاً و فرقا ،
تتصارع وتحترب وتهبط بالدولة إلى درك عميق ، وكان مذهب خلقيدونية مازال
يعصف بالدولة منذ سنة ٤٥١ م . إذ نفر منه المللكانيون لأنه مال إلى التوحيد ،
وكرهه اليعاقبة لأنه لم يكن توحيداً صريحاً ، فأحب هرقل أن يخلص ببلاده من تلك
الفوضى ، فأنشأ يتصل بكبار رجال الدين في دولته يستطلع رأيهم ، حتى استقر رأيه
آخر الأمر على إصدار مذهب وسط ترضى عنه الطوائف كلها ، فلم يكد المجلس
الديني الذي عقده في سنة ٦٣١ يصدر المذهب الجديد ، حتى ثار الناس كلهم عليه
وأنكروه جميعاً ، فلم يجد هرقل بداً من أن يصطنع الشدة في إرغام الناس على
اتباعه ، فاضطهد الكثيرين من رعاياه اضطهاداً شديداً ، وشق به قبط مصر خاصة
لما أصابهم على يد قيرس الذي كان هرقل ندبه لتطبيق هذا المذهب في مصر .

وكان أهل أفريقية لا يطيقون المونوثيلية ولا يرون إلا أنها الزيف بعينه ، فلما
وصلت أوامر هرقل بنشر مذهبه الجديد منذرة المعارضين بالعقاب الشديد^(١) ،
تلقاها الأفريقيون بالسخط ، إذ كان هذا المذهب شديد الشبه بالمونوثيلية ، ولم يلبث
أساقفتهم ورهبانهم أن اجتمعوا وقرروا : « أن كل البدع صادرة عن غرام شديد
بالتظاهر ، وأن أصحابها يريدون بابتداعها أن يظهروا أنهم أمهر وأنفذ بصيرة وأعقل من
سائر إخوانهم... »^(٢) وأصرروا على أن لا يعدلوا بمذهبهم القديم مذهباً آخر ، وأبوا
أن ينحرفوا عن كرسي البابوية^(٣) ، واستعدوا للقاء أي شريراد بهم في سبيل العقيدة ،
وكانوا قد طال بهم العهد وهم يتوجهون بالولاء لروما لا إلى بيزنطة (في مسائل الدين) ،
فأحسوا حين اطلعوا على المذهب الجديد والأوامر المتصلة به ، أنهم يبتعدون عن الدولة
مرة أخرى ، لأنها تؤذى مشاعرهم الدينية التي هي أعز ما لديهم ، فسلمهم حماس الرغبة

P. G. XCI; Diehl, op. cit. p. 542 (٢) Diehl, op. cit. p. 542 (١)

Labbe, VI, 126 — P. G. XCI 141,— Diehl, op. cit. p. 542 (٣)

فى المقاومة الإجماعية دون أن يكثرثوا أقل اكتراث لما قد ينبجم عن ذلك من إضعاف الأسباب التى تربطهم بالإمبراطورية فى سبيل الدفاع عن عقيدتهم الأرثوذكسية ، وكانوا موطنين أنفسهم على قبول كل شىء ، حتى الانفصال التام عن الدولة^(١) . وزاد هذه الحال سوءاً ، أن الاضطهاد الدينى فى الشام ومصر ، كان قد روع نفراً غفيراً من رهبانها ، فأخذوا يفدون على إفريقية من الشام والأسكندرية وديورليبية ، حاملين معهم مذهبهم المونوفيسى اليعقوبى (وهو أقرب المذاهب إلى التوحيد) ، وأخذوا ينشرون دعايتهم بنشاط أثار قساوسة إفريقية « حتى تسامع الناس بأخبار الفتيات اللاتى كن يفتنّ عن عقائدهن على رغم أسرهن ، وبحفلات التعميد المقدسة التى كثرث لذلك الغرض ، فلم يسع عامل إفريقية إلا التدخل بدون جدوى^(٢) ، فلما يئس من صلاح الحال ، اتفق مع أسقف قرطاجنة على الكتابة للإمبراطور ولبابا روما ، ييسطان لهما سوء المصير .

وكان من غريب الاتفاق أن دخول اليعقوبية إفريقية وافق موت هرقل وتولّى قسطنطين الثالث عرش الإمبراطورية ، وكان عدواً للمذهب الذى ابتدعه هرقل ، فلم تكدر شكوى أساقفة إفريقية تصل إلى علمه حتى أمر بأن يُخرج الرهبان الذين يرفضون العود إلى أحضان الكنيسة من الأديرة وأن تُصادر أملاك الأديرة الخارجة^(٣) ، وبهذا انقلب الحال ، ونزل الاضطهاد بأشباع الإمبراطور القديم وعامة اتباع المونوثيلية (بما فيهم القبط وهم المونوفيسيون) ، وكان جريجوريوس نفسه أرثوذكسياً ، فرضيت نفسه عن حكومة القسطنطينية ، خصوصاً وقد كان الإمبراطور زوج أخته جريجوريا ، فخيّل للناس أن ما وهى من العلائق لا بد معقود مرة أخرى بين بيزنطة وإفريقية .

Diehl, op. cit. p. 544 (٢)

Diehl, op. cit. p. 543 (١)

Diehl, op. cit. p. 546 (٣)

ولكن الأيام لم تمهل المتفائلين إلا قليلا ، إذ يلبث قسطنطين أن قتل في مايو سنة ٦٤١ ، وحامت الشبهة حول الأمباطورة «مارتينه» التي قيل أنها دبرت موت قسطنطين ليتولى ابنها هرقل الصغير (هرقلوناس) مكانه ، وكان من سوء الطالع أن الأمباطورة كانت على مذهب هرقل ، فرفعت المونوثيلية رأسها ، وبدأت ترد إلى الأرثوذكسية ما أسلفت لها من أذى في عهد قسطنطين ، فساد البلاد ذهول شديد ، وبلغ من اختلاط الأمر على أهل إفريقية وحيرتهم بين المذاهب وأهواء الحكام أن حاكم قرطاجنة — جورج ، وكان رجلا متدينا وأرثوذكسياً مخلصاً — أنكر ما وصل إليه من الأخبار ، وقام في الناس يؤكد لهم أن الأوامر بمطاردة الأرثوذكسية إن هي إلا وسيلة يراد بها النيل من الأمباطورة المؤمنة الطاهرة الذليل ، وأراد أن يؤكد للناس مقالته ، فحضرهم على النشاط في تتبع المونوثيليين واضطهادهم ،^(١) غير عالم أن اليوم يومهم ، فلم تكذب الأخبار بأفاعيله تصل القسطنطينية ، حتى دُعي إلى هناك ليحاسب أعسر الحساب على ما اقترف من جرم ، فرحل الرجل وهو — من حيرته — لا يكاد يعرف لنفسه مصيراً .

وحوالي سنة ٦٤٠ م أقبل على إفريقية رجل من أشهر رجال الدين في القرن السابع ، إذ كان له فيما بعد أثر بعيد في مصير إفريقية السياسية والدينية ، وهو الراهب مكسيم . كان مكسيم قد زار الأسكندرية قبل مجيئه إفريقية في صحبة صُغر ونيوس ، ورأى بعينه الاضطهاد الأكبر الذي كان قبرس ينزله بقبط مصر ، فعقد النية على تخليص الناس من هذه الدولة التي تزهق أرواح الناس بمذاهبها وأهوائها ، وكان صيته قد سبقه إلى إفريقية قبل مجيئه إليها ، فلم يكذب يصل حتى اجتمع الناس على الترحيب به ، فأنشأ بيت في رهبان إفريقية تعاليمه ، ليعد هؤلاء القساوسة السذج البسطاء — الذين أضعفهم الانقسام — لكي يكافحوا ويثبتوا

(١) Diehl, op. cit. p. 546

لمهارة البيزنطيين واقتدارهم على السفسة في أمور الدين ، وبهذا أصبح ذلك الرجل معقد آمال أهل أفريقية للنجاة مما يراد بهم من مساءات ، فاشتد ساعده بولانهم ، وصارح الدولة بأن الله لن يرضى عن الامبراطورية الرومانية ما دام هرقل وآله على عرشها^(١).

لقيت هذه الآراء هوى من نفس جريجوريوس ، فأخذ يبذل العون لمكسيم ، ويشجعه على الاستمرار فيما هو آخذ فيه من مناهضة الدولة وصرف الناس عنها ، فلم يكدره بان أفريقية يرون أنهم في أمن من غدر الدولة بحماية جرجوريوس حتى اجتمعوا ووجهوا للامبراطور خطاباً يسألونه أن يترك ما هو سائر فيه من ابتداع وإفساد في الدين^(٢).

كذلك صادفت حركة مكسيم قبولاً لدى البابوية ، فلم تتردد في بذل العون له حتى يستطيع أن يثبت للكنيسة الشرقية ، وكان مكسيم يميل للبابوية ويحبها إلى أتباعه ، حتى صار لهذه في أفريقية مكان لا تكاد تطمع فيه الكنيسة الشرقية ، ولما تولى أسقف قرطاجنة الجديد منصبه بعث بولانه للبابا « حتى يستطيع أن ينافح عن العقيدة الصحيحة والمذهب الكاثوليكي بشجاعة في كل الظروف »^(٣).

البابوية
تعرض أهل
أفريقية على
الانفصال

هكذا جنت الدولة على نفسها بتدخلها في شئون الدين وعيها برعاياها ، الذين أسلمتهم إلى البابوية من الناحية الدينية كما ستسلمهم للعرب من الناحية السياسية . وبذلك كانت الظروف كلها مواتية لجريجوريوس ليخرج على الدولة ، ويبدو أنه كان قد عقد العزم على ذلك منذ مات قسطنطين الثالث^(٤) ، وأصبح الأمر بيد

(١) Diehl, op. cit. 549 وقد ولد مكسيم في القسطنطينية سنة ٥٨٠ م ، وربى فيها تربية دينية صرفة ، ثم دخل الدير وترهب في سنة ٦٢٨ ، وطار له صيت في مسائل الدين والفقه ، حتى أنه استقبل في مصر استقبالا حافلا حين زارها في حجة الراهبين فالاسيوس وصفر ونيوس ، وكان أولها أعلم أهل زمانه بمسائل الدين ، ثم ذهب إلى أفريقية وقد وطن العزم على تخليص أهلها من الأذى الذي تنزله الدولة بهم

(٢) Diehl, op. cit. p. 552 (٣) Loc. cit.

(٤) حنا النقيوسى ، ص ٥٧٣ ، Diehl, op. cit. p. 545

قس
أفريقية
يشجعون
جرجير على
الوثوب
بالدولة

مرتبته وابنها هرقلوناس ، فلم يكذب البابا تيودور يلح منه هذا الميل « حتى صارحه بأن الله يرضى عن ثورته ويقدر له التوفيق فيها ^(١) » ، وأهاب بالقس فأحاطوا بـجرجير يوس يستحثونه على المبادرة بإفاد ذلك الأمر ، « فزعم له الأب مكسيم أنه رأى حلماً ذا مغزى بعيد : رأى طائفتين من الملائكة فى السماء إحداها مقبلة من الشرق والأخرى من الغرب ، وأن المقبلين من الشرق ينادون : النصر لقسطنطين العظيم والمقبلين من الغرب يهتفون : النصر لجرجير يوس العظيم ! وأن أصوات الشرق أخذت تخفت رويداً رويداً حتى غابت عن الأسماع ، وبقيت أصوات الغرب وحدها تردد اسم البطريق » ^(٢) ، وسواء أصدق مكسيم فيما زعم أم لم يصدق ، فى هذه الرواية ما يدل على أن نفراً من رجال الدين عاون البطريق على الانفصال ، وأن البابوية كانت تشد أزر ذلك نفر ، لأن انسلخ أفريقيا عن الكنيسة الشرقية ودخولها فى طاعة البابوية يعد نصراً عظيماً للثانية فى عصر اشتد النزاع فيه بين الإثنتين .

بيد أن طائفة أخرى من قساوسة أفريقيا لم يكن يرضيهم هذا الانفصال ، فنجدهم يشيرون إلى هذه الحركة إشارة غامضة تم عن التخرج والأسى فى الخطاب الذى كتبوه للبابا سنة ٦٤٦ م ^(٣) يصفون هذا الانفصال بقولهم إنه « ضرورة لم تكن متوقعة » وكذلك نجد أسقف قرطاجنة يشكو من « أن هناك أشخاصاً أشراراً يتهمون الأفريقيين بالباطل بأنهم يبطنون نوايا سيئة لا وجود لها فى الحقيقة » ^(٤) ، ويغلب على الظن أن مخاوف هذا الفريق ، لم يكن مرجعها الميل إلى الكنيسة الشرقية ، وإنما كان سببها الخوف من الغزو العربى ، الذى كان قد أتى منذ سنوات ثلاث على برقة وطرابلس ، وأخذ يندثر أفريقيا نفسها بمثل هذا المصير .

Loc. cit. (٢) Diehl, op. cit. p. 556 (١)

Labbe IV, 129 — Diehl, op. cit. p. 556 (٣)

Labbe IV, 156 — Diehl, op. cit. p. 557. (٤)

الباب الثاني

مقدمات الفتح

قضى النظام الذى وضعه موريق (٥٨٢ — ٦٠٢) للدولة البيزنطية بأن تكون برقة وطرابلس ولاية واحدة داخلية فى زمام مصر ، فانقطعت الصلات السياسية الرسمية بين هاتين الولايتين وبقية شمال افريقية ، وأصبحتا تابعتين لحاكم مصر من ذلك الحين . ولكننا لانجد لهاتين الولايتين ذكراً فيما نقرأ من أخبار مصر قبل الفتح العربى ، بل على العكس من ذلك نجد لهما ذكراً فى أحداث إفريقية فى ذلك العصر ، فقد روى ديل أن أهل برقة وطرابلس هم الذين بدأوا ثورة إفريقية على فوكاس ، وكانوا فى مقدمة من آزر جريجوريوس على الانفصال ، وهذا يدل على أن حكام مصر لم يجدوا فسحة من الوقت أو هدنة من المشاغل تسمح لهم بالالتفات لشئون هذه النواحي ، فظلت الولايتان من عهد موريق إلى زمن الفتح العربى معلقتين بين مصر وإفريقية على حال قريبة جداً من الاستقلال . بيد أن الغالب أن آل جرجوريوس حرصوا — من يوم صارت إليهم أمور إفريقية وأخذوا يتوارثون أمارتها — على أن يبسطوا سلطانهم على هاتين الولايتين ويستعيدوها ويغلب أنهم وفقوا إلى شئ من ذلك ، ومصادق ذلك أن ديل يذكر أن جريجوريا أخت جريجوريوس الأخير (جرجير) كانت تقيم ببرقة حين خطبها الإمبراطور هرقل لابنه قسطنطين ، فى مقامها بهذه الناحية واطمئنانها إلى سكناها مايدل على أنها كانت فى زمام أخيها وتحت سلطانه ، وإلا فما معنى أن تفضل الإقامة فى بلاد تابعة لمصر وأمامها من بلادها متسع رحب . وقد كانت هاتان الولايتان من أكثر ولايات إفريقية نشاطاً فى أوائل العصر البيزنطى ، وكان أهلها وبربرها أكثر أهل إفريقية ثورة ووثوباً بالبيزنطيين ، فكانت لواته — أعظم قبائل برقة وطرابلس — قائدة الثورة الكبرى بين سنتى ٥٤٥ و ٥٤٦ م ، فأظهرت من القوة وشدة البأس مايمكنها من الانتصار على سليمان حاكم إفريقية كلها وقتله ؛ وعلى الرغم من أن البيزنطيين

تمكنوا بعد جهد شديد من إخماد هذه الثورة واستعادة البلاد ، إلا أن بربر
برقة وطرابلس ظلوا على حال من القوة مكنتهم من إقامة شيء يشبه أن يكون
دولة بربرية ، ويؤيد مرسية ذلك بقوله : « ظهرت في الولاية دويلات وطنية
لها قوانينها وأديانها وحكامها ، الذين كادوا أن يكونوا مستقلين : فكانت
لوائته — التي تحتل الساحل من برقة إلى قابس (ومعها هوارّة ونفوسة) — على
جانب عظيم من القوة ، وكان في استطاعتها بعد ذلك بسنوات قلائل أن تجمع
نحواً من ستة عشر ألف مقاتل ^(١) » .

بيد أن الغالب أن قبائل برقة وطرابلس لم تظل على هذه الحالة من القوة
حتى نهاية العصر البيزنطي ، لأن الفاتح العربي لن يجد لوائته أو نفوسه أو هوارّة
على شيء من القوة يتفق مع ما يفهم من هذه الروايات ؛ ولن يجد لها أثر ظاهراً
في الدفاع عن برقة وطرابلس ، ولو قد كانت هذه القبائل على ماعهدناها عليه أيام
سليمان لكان لها مع عمرو بن العاص وعقبة بن نافع شأن غير هذا ، أما وقد وجد
العرب هذه النواحي في سكون شامل وهدوء كامل ، فلا بد أن تكون تلك
القبائل قد أدركها الضعف آخر الأمر فاستكانت إلى الهدوء .

وربما جاز أن نلاحظ أن هذا الاستسلام كان صفة عامة اشترك فيها بربر إفريقيا
كلهم طوال سنوات الفتح الأولى التي انقضت بين أول ورود العرب إفريقيا
وفراغهم من إنشاء القيروان ؛ فسنلاحظ أن هذه القبائل كلها لم تبد مقاومة ولم
تتحرك للدفاع عن النواحي التي تسكنها على الرغم من أن المسلمين جاسوا خلالها
ولم يتركوا ناحية فيها إلا وطنوها وغزوها ، وذلك السكون إن هو إلا نتيجة طبيعية
للحكم البيزنطي ، فلم يكن ينتظر من هذه القبائل التي لبثت طوال هذا العصر
تناهض الروم وتدافعهم إلا أن يدركها الخوذة والسكون في أواخر ذلك العصر ،

Mercier, op. cit. I, pp. 187—189 ; Fournel, Les Berbères, I, (١)
pp. 217—218

ومصدق ذلك أن هذه القبائل بدأت تتحرك للدفاع والمقاومة مرة أخرى بعد انقضاء بضع وثلاثين سنة من بدء الفتوح العربية ، أى بعد أن نالت قسطاً من الراحة عوضت فيه بعض ما أصابها فى حكم الروم ، سواء فى ذلك قبائل الساحل التى كانت خاضعة لهم تماماً ، وقبائل الداخل التى خرجت عن سلطانهم ، إذ كانت الأولى هدفاً لمطالبهم وضحية لمساءاتهم ، وكانت الأخرى موقع أذاهم وعدوانهم . لهذا لا غرابة فى أن يجد المسلمون لواتة وهوارة ونفوسة على حال من الهدوء والسكون تمكنهم من إتمام فتح برقة وطرابلس والعود إلى مصر سالمين موفورين ، بل لا غرابة فى أن يسارع بعض أهل هذه النواحي فيعرضوا طاعتهم على المسلمين راضين ، مما يدل على أنهم وجدوا فى العرب حليفاً قوياً يعتززون به على الروم الذين لا يؤمن جانبهم وأن ركنوا فى أواخر أيامهم إلى الهدوء وتركوا البربر وشأنهم .

— ٢ —

كان من الطبيعى أن يفكر عمرو بن العاص فى الاستيلاء على برقة بعد فراغه من الاستيلاء على الأسكندرية وتام جلاء الروم عن مصر ، لأنه كان ميلاً بطبعه إلى مواصلة الفتح والغزو ، لا يكاد يفرغ من إقليم حتى يشرع فى إعداد العدة لفتح ما يليه : لم يكد يفرغ من فتح فلسطين حتى شرع يمهّد لفتح مصر ، ولم يكد يفرغ من مصر حتى شرع فى السير إلى برقة ، وسراه بعد الفراغ من برقة يسير إلى طرابلس ثم يستأذن فى فتح إفريقية كما فعل قبل دخوله مصر .

وكان جند عمرو يميلون هذا الميل ، إذ كان الفراغ من فتح مصر معناه وقوف حركة الغزو وانقطاع الغنم بعد معاهدة الأسكندرية ، فلم يجد هؤلاء الجنود منفرجاً لنشاطهم — الذى اتصل من جزيرة العرب حتى الأسكندرية — إلا فى القيام بغارات قصيرة يصيبون فيها من أهل الواحات وسكان الصحراء ما يقدرّون عليه ، ثم يعودون إلى مصر ، ولا شك فى أن أخبار برقة وإفريقية قد اتصلت بعمر بن العاص

وهو على فتح مصر فعرف أنهما من بلاد الروم وأن لهم فيهما منعة وعزة، وكان أهل برقة وطرابلس إذ ذاك على علاقات قوية موصولة مع أهل مصر، حتى إن بعض قبائلها كان يُحسب من قبطلها، وكانت الطرق بينهما مطروقة مأمونة، فلما فرغ عمرو من فتح الأسكندرية ووجد الطريق إلى برقة سهلاً ميسوراً، خشى أن يهاجم الروم مصر من برقة فعجل بالمسير إليها.

كانت الصحراء الممتدة من مصر إلى برقة تسكنها قبيلة لواته، وهي قبيلة بُتريّة كبيرة، يتحدث عنها ابن خلدون بقوله: «وهو بطن عظيم متسع من بطون البربر البُتريّين تسبون إلى لَوا الأصغر بن لَوا الأكبر بن زُحيك، ولوا الأصغر هو نَفزاو كما قلناه، ولوا اسم أبيهم... وذكر ابن حزم أن نسابه البربر يزعمون أن سِدراتة ولواتة ومزاتة من القبط وليس ذلك بصحيح... وكان لواته هؤلاء ظواعر في موطنهم بنواحي برقة كما ذكر المسعودي^(١)». وهي قبيلة ذات ماض مجيد في العصر البيزنطي، وسيكون لها تاريخ حافل أثناء العصر الإسلامي، وكانت لها شبه رئاسة على ما جاورها من القبائل البربرية التي تسكن برقة وطرابلس وما حولها، ولا بد كذلك أن عمراً عرف — وهو في مصر — أن برقة جزء من مصر، وأن فتحها إتمام لفتح مصر وتأمين لها من وثبة تكون من الروم أو تدير يحكمه روم يزنطة بها، ومصدق ذلك أن ابن عذارى يذكر أن عمراً بدأ يمهّد لفتح برقة وهو بعد على فتح مصر، فبعث إليها نفراً من جنده بقيادة عقبة بن نافع ليستطلعوا أحوالها ويوافوه بأخبارها، فيقول ابن عذارى: «وجه عقبة بن نافع القهري إلى زويلة وبرقة فافتتحها، ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها^(٢)» ولا يؤيد ابن عذارى في روايته هذه غير ابن أبي دينار، إذ يشير إلى ذلك البعث الاستطلاعي إشارة ضمنية في قوله: «ولما فتح عمرو بن العاص مدينة مصر والأسكندرية بعث عقبة بن نافع

(١) ابن خلدون، تاريخ، ج ٦ ص ١١٧ — ١١٨ (٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢

إلى برقة وزويلة وما جاورهما من البلاد ، فصارت تحت ذمة الاسلام ، وسار عمرو ابن العاص فغزا طرابلس^(١) ، إذ يفهم من هذه الرواية أن عمرًا لم يكذب فرغ من فتح مصر حتى عجل بإرسال عقبة ففتح برقة ، ثم سار هو بنفسه ففتح طرابلس ، وهذا تفسير لاتؤيده المراجع ولا تستقيم به الحوادث ، والأصح الذي تستقيم به الرواية أن يقال إنه بعث عقبة في سرية صغيرة يستطلع له البلاد ريثما يفرغ هو من فتح مصر ، فلما فرغ سار بنفسه فغزا برقة وطرابلس .

لاتؤيد المراجع الأخرى ابن عذارى والقيرواني فيما ذهبوا إليه ، ولم يذكر لنا أحدهما إسناده الذي يعزز روايته ، ومع ذلك فليس هناك ما يمنع من قبول رأيهما ، والقول بأن عمرًا بعث عقبة بن نافع يستطلع أخبار طرابلس وهو بعد على فتح الأسكندرية لكي يتجه إليها بنفسه رأسًا حين يخلص من هذا البلد ، ولنا في إرساله بعثًا آخر إلى النوبة — يستطلع أخبارها في ذلك الحين — شاهد على ذلك .

اطمأن عمرو إلى الأخبار التي حملها إليه عقبة بن نافع من برقة ، فلم يكذب فرغ من معاهدة الأسكندرية حتى سار في جنده يريد أولى بلاد المغرب ، « وهي مدينة أنطابلس ، فصالح أهلها على الجزية وهي ثلاثة عشر ألف دينار يبيعون فيها من أبنائهم ما أحبوا يبيعه »^(٢) .

بل إن الشطبي يروى في « كتاب الجمان في أخبار الزمان » رواية تدل على أن بربر برقة لم يكتفوا بهذا الخضوع السريع للعرب ، وإنما أرسلوا رُسُلًا منهم إلى الفاتح العربي قبل أن يخلص من فتح مصر يعرضون عليه الدخول في الإسلام على يديه ، فاستطاع عمرو بن العاص أن يفهم ما يريدون بواسطة مترجم نقل إليه

(١) المونس ، ج ١ ص ٢٢ — ٢٣

(٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٤ — ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٠ — ١٧١ . ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٠ — البكري ، وصف أفريقيا ص ١ — ٢ ؛ ابوالحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٧٥

كلامهم فأرسلهم إلى عمر بن الخطاب ، الذي رحب بهم أحسن ترحيب لأن أحد الحاضرين أخبره أنهم البربر أولاد بُر بن قيس .

فلما سألهم عمر عن عاداتهم وعلاماتهم أخبروه بها ، فبكى ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان قد تنبأ بفتح بلاد لأهلها هذه الصفات ، ثم حمد الله على ذلك ، وبعث إلى عمرو أن يقدمهم على الجند وحلهم بالهدايا ^(١) . فهؤلاء البربر الذي يسارعون إلى الفاتح العربي وهو بعد على فتح مصر ليعلموا إليه إسلامهم ، لا بد أنهم رحبوا به حين وفد عليهم ، وتلقوه بالطاعة وقبلوا ما فرض عليهم من الجزية طائعين مختارين .

وتذهب بعض الروايات إلى أكثر من ذلك ، فتؤكد أن بربر برقة كانوا يؤدون ما قدر عليهم من الخراج طائعين مختارين لا يرسل إليهم الجابي ، وإنما هم يحملونه بأنفسهم : « ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج ، إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها ^(٢) » . ويزيد البلاذري ذلك وضوحاً بقوله : « حدث محمد بن سعد عن الواقدي ، عن مسلمة بن سعيد ، عن اسحق بن عبد الله بن أبي فروة : إن أهل برقة كانوا يبعثون بخراجهم إلى وإلى مصر ، من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث ، فكانوا أخصب قوم في المغرب ، ولم تدخلها فتنة ^(٣) » .

ربما كان إسراف البربر في الخضوع للعرب دون حرب ، ومبادرتهم إلى أداء الجزية بأنفسهم دون أن يدخل بلادهم جاب ، وتعهدهم بأن يبيعوا فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه ^(٤) ، أدلة على أن البربر كانوا قد عرفوا قوة العرب من غاراتهم

(١) كتاب الجمان في أخبار الزمان ، لمحمد الشطي المغربي ورقة ١٢٣ — ١٣٢ (نسخة خطية بدار الكتب المصرية) ، ولم تذكر الرواية بنصها لطلوها ، ولأنها أسطورة لا يراد منها غير معناها .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٠ — ١٧١ (٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٢٤

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٠ — ١٧١ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٤ — ابن الأثير

ج ٣ ص — ١٠ البكري وصف أفريقية ، ص ١ — ٢

الصغيرة التي كثرت أثناء حصار الأسكندرية وبعد الفراغ من فتحها ، ومن الطليعة التي أرسلها عمرو إلى بلادهم بقيادة عقبة بن نافع قبل الفتح ، فعجلوا ببذل الطاعة وأداء ما طلب إليهم ؛ ويظهر كذلك أن عمراً تأخير أحسن فرسانه وأمهر مقاتليه للقيام بهذا البعث حتى يفرغ منه على عجل ، إذ يذكر السيوطي أنه لم يذهب في بعث برقة إلا الخليل^(١) . أما بيع الأولاد الذي ورد ذكره في عهد الصلح مع أهل أفريقية فيغلب أنه كان أمراً عادياً متبعاً في ذلك الزمان ، فيروى ديل مثلاً أن أهل قرصة كانوا يبيعون أبناءهم ليستطيعوا دفع الضرائب للحكومة البيزنطية ، ويقول : « وكان الموظفون يجمعون الضرائب بدقة فيها كثير من القسوة لكي يقوموا بالمطالب المالية الثقيلة التي كانت تنهال عليهم ، حتى أن دافع الضرائب في قرصة كان يضطر إلى بيع أبنائه كعبيد ، وكان الملاك البأسون يبيعون أراضيهم ويلتمسون الحرب عند البربر^(٢) » ، ويغلب أن عمراً لم يفرضه عليهم من تلقاء نفسه ، لأنه لم يسبق أن شرط هذا الشرط في فتوحه السابقة ، وإنما الأغلب أن البربر هم الذين اقترحوا ذلك فوافقهم عمرو عليه^(٣) ، ويظهر أن بيع الأبناء لدفع الجزى أو إعطاء جزء من الضريبة عبيداً كان أمراً شائعاً عند أهل المغرب والنوبة ، فسنجد أن عقبة كان في مسيره في بلاد البربر يفرض جزية من مال وجزية أخرى من العبيد .

بعد أن تم لعمرو الاستيلاء على برقة ، بدأ يستعد لغزو ما يليها من بلاد المغرب ، وكان أمامه أحد سبيلين : إما أن يسير بجذاء الساحل فيستولى على طرابلس وما يجاورها من المدائن الساحلية مثل صرت وصبره ، أو يتجه إلى الداخل ليستولى

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ص ٨٦ (٢) Diehl, op, cit. p. 565 (٣) ولا يناقض ذلك قول البكري : « كتب عمرو بن العاص على لواءة في شرطه عليهم أن يبيعوا أبناءكم فيما عليكم من الجزية » لأن كتابة الشروط المشار إليها إنما كانت بعد التراضي والتفاهم على طريقة الأداء : البكري ، وصف أفريقية : ص ١١

على كثير من مراكز العمران الصحراوية الداخلية ، وهى مجموعات متجاورة من الواحات والآبار تحتلها بطون من لواتة ونفوسة وهوارة ، واشتهرت منها قبيلة جرّمة Garamantes أيام الرومان ، إذ كانت لهم معها حروب طويلة انتصر الرومان فيها أخيراً بقيادة كورنيليوس قبل الميلاد بتسع عشرة سنة^(١) .

رأى عمرو أن يقوم بالأمرين معاً ، فيسير هو بنفسه للاستيلاء على طرابلس وفتح مدائنها ، ويبعث فرقة من جنده تخضع هذه الواحات الداخلية وتضمن له ولاءها ، وربما كان دافعه إلى هذا الاحتياط أنه ألم بشيء من تاريخ العلاقات بين هذه القبائل وبين الروم ، وما وقع بينها وبينهم من صراع ونزاع ، وما أبدته القبائل من قوة مقاومة؛ ولا شك أنه عرف أن انتزاع الساحل من أيدي الروم لا يعنى خضوع هذه النواحي أو دخولها في حوزة العرب تماماً ، إذ أن ذلك لا يمنع البربر الضارين في الواحات الداخلية من الإغارة عليها وإخراجها من أيديهم ، فرأى أن أضمن الوسائل لتوكيد الفتح وتثبيتته هو الاهتمام بإخضاع البربر في الداخل في نفس الوقت الذى يقوم فيه بفتح طرابلس أو قبله بقليل .

يؤمن الأستاذ روت على ذلك ، ويرى في فتح فزان وودان عملاً حربيّاً مهمّاً ودليلاً على حكمة عمرو الذى اهتم بأن يخضع الداخل قبل أن يفتح الساحل فقال : « وكان عمرو قائداً خبيراً ، فاهتم بأن يبعث إلى فزان بجنود تُراقبها بينما اتجه هو غرباً ، فأرسل عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى ، فأخضع البلاد في عهد قصير ، واحتلها حتى زويلة — زويلة السودان — ويظهر أنه لم يلق مقاومة شديدة »^(٢) ، وهذا تعليل تلك الحملة الداخلية التى دبرها عمرو بن العاص وهو بعد في برقة ، وتعليل الحملة الأخرى التى سيرسها إلى وُدّان بعد أن يتم له فتح طرابلس .

(١) جورج إيفيه ، فى دائرة المعارف الإسلامية : مادة فزان

(٢) Roth, Okba ibn Nafi, p. 7

يختلف المؤرخون فيما بينهم على ما يوردونه من أخبار بعث عقبة في الصحراء ،
ولا يكاد اثنان منهم يتفقان على تاريخ واحد للبدء فيه أو الفراغ منه ، ثم إن
ما بين أيدينا من هذه الروايات مقتضب لا يكاد يعطى فكرة صحيحة عما حدث له
أو انتهى إليه .

بل إن اثنين من رواة هذه الأحداث — وهما البلاذرى وابن الأثير —
يخلطان بين أحداث هذا البعث وأحداث حملة عقبة الثانية — التى بدأت سنة ٤١
ولم تنته إلا سنة ٥٠ — على هذه النواحى ، أى حين أمر عقبة بالسير إلى أفريقية ،
فتوجه إليها من فزان ، فيوردان روايتين تكمل إحداها الأخرى ، إذ تبين رواية
ابن الأثير النواحى التى تم فتحها وهى زويلة وفزان ووَدَّان وغَدَامِس . وتؤكد
رواية البلاذرى أن عقبة بعد أن فرغ من إخضاع هذه النواحى عنى بأن يقيم
الحكام على نواحيها ويقرر الجزية والخراج على من بقى على دينه من أهلها والصدقة
على من دخل فى الإسلام منهم ، وهذه أمور لن تتم إلا بعد ذلك بزمان طويل ، فلا
مناص من ترك روايتيها جانباً ليوضعا فى موضعهما من ترتيب أحداث الفتح ،
على الرغم من أن البلاذرى وابن الأثير يوردان هاتين الروايتين فى أخبار حملة عقبة
الأولى على فزان ووَدَّان .

فاذا اكتفينا بما بقى بين أيدينا من الروايات بعد هاتين لم نجد إلا أخباراً
مقتضبة متشابهة ، تكاد من إيجازها أن تلقى شكاً على حقيقة هذا البعث جملة ،
فإن ابن عبد الحكم لا يزيد على قوله : « ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع ، حتى
بلغ زويلة ، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين ^(١) » ، وربما نقل البكرى عنه ذلك
لأنه يقول : « ولما فتح عمرو برقة بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة ، وصار ما بين
برقة وزويلة للمسلمين ^(٢) » ، وتختلف رواية ابن عذارى اختلافاً يسيراً عن رواية

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٠ — ١٧١ (٢) البكرى ، وصف أفريقية ، ص ١٠

ابن عبد الحكم ، إذ يفهم منها أن عقبة خرج لفتح فزان من مصر لا من برقة ،
إذ يقول « كان عمرو استفتح مصر في سنة ٢٠ من الهجرة الكريمة ، ووجه عقبة
ابن نافع الفهري إلى زويلة وبرقة (برآقة) ، فافتتحها ثم توجه عمرو بنفسه
إلى برقة فصالح أهلها »^(١).

وأما أبو المحاسن فقد اكتفى بنقل رواية ابن عبد الحكم مع تغيير طفيف
في التاريخ الذي يحدده لهذا البعث ،^(٢) في حين أن مؤرخي المغرب أنفسهم كابن
خلدون والمالكي والسلوى لا يوردون من أخبار هذا البعث شيئاً يركن إليه ، إذ نقل
ابن خلدون والمالكي^(٣) رواية ابن عبد الحكم ، وأعاد السلوى رواية ابن الأثير
حرفاً بحرف^(٤).

هكذا وصلتنا أخبار هذا البعث الذي وجهه عمرو بن العاص إلى فزان
وزويلة موجزة إيجازاً لا يكاد ينم عن حقيقة أمرها ، مختلطة بأخبار غيرها من
الحمالات ، بحيث يخشى أن يكون ما جعله الرواة فيها قد وقع في الحقيقة أثناء غزوة
أخرى من غزوات عقبة المقبلة .

وربما كان أصح الآراء في هذا البعث إن يقال إن قلة أخباره عند الغالبية
من المؤرخين ليست راجعة إلى جهل هؤلاء المؤرخين بما وقع فيه ، وإنما إلى أنه
كان في حقيقته بعثاً قصير الأجل والمدى ، لم يرُد عمرو منه إلى أكثر من مراقبة
الداخل ، كما يقول روت ، حتى لا يفاجأ بهجوم من البربر يقطعون به عليه خط
العودة ، ومصدق ذلك أن عمرا عجل ببعث فرقة أخرى لإخضاع ودان حين هم بالمسير

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢ (٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٢٤ - ١٢٥

(٣) ابن خلدون ، ص ٢ (طبعة دي فرجير) ورياض النفوس للمالكي ، ص ١

(٤) ولا يذكر هذا البعث في الطبري أو التويري ، ولا يفيّر إليه فورنل ، وغيره كودل
صراً سرياً ، وقد ذكره مرسيه ، إلا أنه أخطأ فجعل عمرو بن العاص يعود إلى مصر بعد غزو
برقة ، في حين تقدم أحد رجاله وهو عقبة بن نافع وسار بجنداء الساحل حتى أدرك فزان وزويلة .

إلى طرابلس ، وودان من طرابلس كفران من برقة سواء بسواء ويؤيد ذلك أن عقبة لم يفعل فيه أكثر من الوصول إلى فزان وزويلة والاستيثاق من طاعة أهلها أو حيادهم ، ثم العودة على عجل مطمئناً إلى أن ما بين برقة وزويلة صار للمسلمين . وكان عمرو على الحق فيما فعل لأن ما بين برقة وزويلة إن هو إلا صحراء قاحلة قليلة السكان والعمران ، والاستيلاء عليها ليس بأمر ذى بال ولا يستحق من عناية الرواة أكثر مما ذكروا .

— ٢ —

تتفق الروايات العربية على أن طرابلس كانت داخلة في طاعة جريجور يوس ، إذ يقول ابن عبد الحكم « وكان عليها — أى على إفريقية — ملك يقال له جرجير ، كان هرقل قد استخلفه ، فخلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه ، وكان سلطانه ما بين طرابلس إلى طنجة »^(١)؛ ويقول النويرى « وكان ملكهم يدعى جرجير وسلطانه من طرابلس إلى طنجة » ، ويقول البلاذرى « وكان بها — أى بإفريقية — بطريق سلطانه من طرابلس إلى طنجة »^(٢) . بيد أن الوقائع لا تدل على ذلك ، فلو قد كانت طرابلس داخلة في حكم جريجور يوس لأسرع للدفاع عنها أو لبعث على الأقل جنوداً من لدنه لرد العرب عن غزوها ، ولكنه لم يفعل ، وكل ما حدث هو أن أهل المدينة تحصنوا خلف أسوارها ، فحاصروهم العرب فترة طويلة حتى استطاعوا أن ينفذوا إلى داخلها ، ففر بعض أهلها إلى السفن التى كانت راسية فى الميناء . ومن الواضح أن هذه السفن كانت سفناً تجارية .

وربما جاز القول بأن مركز طرابلس كان شبيهاً — من الناحية السياسية — بمركز برقة ، أى أن سلطان جريجور يوس عليها كان قليلاً أو منعديماً ، وأن العلاقات كانت متصلة بينها وبين غيرها من بلاد الدولة ، فانصرف أهلها إلى للتجارة

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ١٨٣ — ١٨٤ . النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٣ أ .
البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٦

بسفنهم مع بلاد البحر الأبيض ، ومصدق ذلك أننا سنجد العرب يصيبون منهم كثيراً من المال والغنائم دون أن نسمع عن أية مقاومة ، مما يدل على أن أهلها كانوا تجاراً ، وأنه لم تكن فيها حامية من لدن جريجوريوس أو الدولة البيزنطية .

تتوارد أخبار فتح طرابلس في جميع المراجع على نسق واحد ، لا تكاد رواية منها تخرج عما ذكره ابن عبد الحكم من أن عمرو بن العاص سار حتى نزل طرابلس سنة اثنتين وعشرين ، « فنزل على القبة التي على الشرف من شرقها ، فحاصرها شهراً لا يقدر منهم على شيء ، فخرج رجل من بني مدليج ذات يوم من عسكر عمرو متصيذاً في سبعة نفر ، فمضوا غربى المدينة حتى أمعنوا عن المعسكر ، ثم رجعوا فأصابهم الحر فأخذوا على ضفة البحر ، وكان البحر لاصقاً بسور المدينة ، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور ، وكانت سفن الروم شارعة في مراسها إلى بيوتهم ، فنظر المدلجي وأصحابه فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ، ووجدوا مسلحاً إليها من الموضع الذي غاض من البحر ، فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا ، فلم يكن للروم مفرع إلا سفنهم ، وأبصر عمرو أصحابه الستة في جوف المدينة ، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم ، فلم تغلت الروم إلا بما خلفهم في سرايهم ، وغنم عمرو ما كان في المدينة^(١) » ، بل أننا لانجد هذا التفصيل عند غيره من المؤرخين ، فيقول البلاذري : « سار عمرو بن العاص حتى نزل طرابلس سنة ٢٢ ، فقتل حتى افتتحها عنوة ، ثم افتتحها وأصاب بها أحمال زيتون كثيرة مع تجار من تجارها فباعه وقسم ثمنه بين المسلمين^(٢) » ، ولا يخرج ابن خلدون عن ذلك الإيجاز ، ولم يزد أبو المحاسن على قوله : « غزا عمرو بن العاص في السنة الثالثة من ولايته الأولى طرابلس الغرب ، وقيل في التي بعدها^(٣) » ويزيد التيجاني : أن عمراً أقام عليها

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧١ — ١٧٢ (٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٥

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة : ج ١ ص ٧١

أشهرأ لا يقدر منهم على شيء... وقد كانوا استعانوا بقبيل من البربر يعرفون بنفوسة ، دخلوا معهم في دين النصرانية ، واحتوى عمرو على المدينة ، فهدم سورها وارتحل عنها^(١) ، و يضيف ابن الأثير : « ونظر عمرو ومن معه ، فرأى السيوف في المدينة ، وسمعوا الصياح ، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم البلد^(٢) » ويعيد المؤرخان الفرنسيان فورنل وكودل نفس هذه الحوادث في شيء من الإيجاز^(٣) ، ويورد المؤرخ المغربي ابن أبي دنيار نفس هذه الحوادث بدون تغيير^(٤) ، ولا ذكر لها في معالم الإيمان للدباغ أو الخلاصة النقية للباجي ، ولا يشير إليها الطبري ونفر آخر من المؤرخين .

هذه الروايات تشبه إلى حد كبير ما يروى عن تفاصيل فتح العرب لحصن بابلون (٢٠ هـ مارس سنة ٦٤١ م) ، إذ صعد الزبير على السلم الذي وضعه إلى جانب الحصن وأمرهم (أى المسلمين) إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً ، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف ... وكبر الزبير تكبيرة ، فأجابه المسلمون من الخارج ، فلم يشك أهل الحصن أن العرب اقتحموا جميعاً فهربوا ، وعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه ، واقتحم المسلمون الحصن^(٥) . ففي كلا الحالين استطاع نفر من العرب — الزبير أو المدلجي وأصحابه — أن يلج إلى داخل المدينة ويكبر فيفر الروم ، ويقتحم المسلمون الأسوار ، وكلتا الروايتين عن الليث بن سعد ، وتاريخهما متقاربان ، إحداهما في سنة ٢٠ والثانية في سنة ٢٢ ، ولم يكتب ابن عبد الحكم هذا التاريخ إلا بعد انقضاء قرنين ونيف على هذه الحوادث ، أفلا يكون الأمر قد اختلط على بعض الرواة بين الفتحين فوضعوا في ثانيهما ما وقع في الأول؟ يغلب على الظن أن تلك هي الحقيقة: ومصادق ذلك أن كثيراً من المصادر

(١) التيجاني ، رحلة ص ١٤ ، ب (٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٠

(٣) Fournel, les Berbères, I, p.187. Caudel, op. cit. I, pp. 47, 48

(٤) المونس : ص ٢٢ (٥) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٩٦

لاتكاد تشير إلى تكبير المدلجى وأصحابه وهم بداخل المدينة، وإنما تذكر أن الفتح كان بسيطاً: أى أن عمرأ قوتل حتى افتتحها عنوة^(١). والمعقول جداً أن تكون قصة التكبير قد حدثت فى فتح حصن بابليون لاحتصن طرابلس، لأن المراجع كلها تجمع على تكبير الزبير واحتياله للصعود إلى أعلا الحصن وما إلى ذلك من التفاصيل. على أن التيجانى يروى تفاصيل هامة لا يرددها معه إلا ابن عذارى، فهو يذهب إلى أن أهل المدينة قد كانوا استعانوا بقبيل من البربر يعرفون بنفوسة دخلوا معهم فى دين النصرانية^(٢)؛ أما قوله إن نفوسه دخلت فى النصرانية لا تعززه الأدلة من ابن خلدون أو من تاريخ انتشار المسيحية فى أفريقية كما يرويه الأستاذ ديل؛ وأما قوله إن أهل طرابلس استنجدوا بنفوسة فأغاثتهم فغير مفهوم لأن كل المقاومة التى لقيها الجيش العربى عند طرابلس لم تتعد تحصن أهل البلد خلف أسوار المدينة ومحاصرة العرب لهم، ثم اهدأؤهم (أى العرب) إلى خلل المدينة من الأسوار من ناحية البحر، واقتحامهم إياها، ثم فرار من استطاع من الروم إلى سفنهم. فإين كانت معاونة نفوسة؟ وكيف كانت؟ وهل أقبل من أقبل منها واحتمى خلف الأسوار مع من احتفى من روم طرابلس؟ أو أن أهل طرابلس استنجدوا بنفوسة أثناء الحصار ولكن النجدة لم تصل؟

لا يبعد أن يكون أهل طرابلس قد استنجدوا بالبربر أثناء الحصار الذى دام شهراً على قول البعض وأشهرأ على قول البعض الآخر، وربما كان هذا هو السبب الذى دفع بعمرؤ إلى الإسراع بفتح صبرة ولما يستقر به المقام فى طرابلس، وإلى إرسال بعث آخر صغير إلى ودان، لأن صبرة وودان مركزان من مراكز نفوسة كما يقول ابن أبى دينار والساوى.

(١) البلاذرى، فتوح، ٢٢٥

(٢) التيجانى، رحلة، ص ١٠٤ — ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢

عجل عمرو بإرسال بعث إلى صبرة قبل أن تنقضى أيام على استيلائه على طرابلس، ويبدو أن أهل صبرة كانوا على علم بما نزل بأهل طرابلس، فتحصنوا متوقعين مسير العرب إليهم، إذ يقول ابن عبد الحكم: «وكان من بسّرت متحصنين، فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس، وأنه لم يصنع فيهم شيئاً ولا طاقة له بهم أمنوا، فلما ظفر عمرو بن العاص بمدينة طرابلس جرد خيلاً كثيفة من ليلته، وأمرهم بسرعة السير، فصبّحت خيله مدينة سبرت، وقد غفلوا وفتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم، فدخلوها فلم ينج منهم أحد واحتوى عمرو على ما فيها»^(١)، وهذا يتفق كثيراً مع ما يذكره التيجاني في رحلته، إذ يقول: «واستفتحها عمرو بن العاص رحمه الله تعالى أول دخوله أفريقية بعد افتتاحه لطرابلس: جرد إليها خيلاً وهم آمنون قبل أن يصل إليهم الخبر بفتح طرابلس، فصبّحت خيله وقد فتحوا أبوابها لتسرح ماشيتهم، وكان على الخيل عبد الله بن الزبير، فدخلوها، فلم ينج من أهلها أحد إلا أناس قلائل توجهوا في مراكب لهم إلى صقلية، واحتوى أصحاب عمرو على ما فيها ورجعوا إلى عمرو فأمرهم بهدمها وإحراقها»^(٢). أما ابن الأثير فيذهب إلى أن عمراً بعث إلى صبرة جنداً كثيفاً لابعثاً صغيراً: «وكان أهل حصن صبرة قد تحصنوا لما نزل عمرو على طرابلس، فلما امتنعوا عليه بطرابلس أمنوا واطمأنوا، فلما فتحت طرابلس جند عمرو عسكرياً كثيفاً وسيره إلى صبره فصبحوها وقد فتح أهلها الباب وأخرجوا مواشيهم لتسرح، لأنهم لم يكن بلغهم خبر طرابلس، فوقع المسلمون عليهم ودخلوا البلد مكابرة، وغنموا ما فيه وعادوا إلى عمرو»^(٣)، وليس في هذه

(١) ابن عبد الحكم، فتوح، ١٧٢، وقد رسمها ابن عبد الحكم سبرت وهي أقرب الصيغ للرسم اللاتيني لاسم هذا البلد وهو Sabrata، ولكن البكري والأدرسي وغالبية الجغرافيين والمؤرخين يسمونها صبرة، فكان من الأوفق رسمها على هذا النحو.

(٢) التيجاني، رحلة، ٩٢، ١، أما قوله إن عبد الله بن الزبير كان على الخيل فغير صحيح

(٣) ابن الأثير، ح ٣ ص ١٠

الرواية من جديد غير هذا العسكر الكثيف الذى لا يذكره سواء من المؤرخين .
يذهب غالب المؤرخين إلى أن عمراً بعث في نفس هذا الوقت بعثاً آخر إلى ودان
جنوبى طرابلس وأنه أقام عليه بُسر بن أبى أرطاة^(١) .

ولكن فورنل يشك في صحة هذه الأخبار ، معتمداً على ما ذهب إليه البلاذرى
من أن بسراً ولد سنة ٩ هـ ، فكانت سنة حينما أرسل في بعث ودان (سنة ٢٢
أو سنة ٢٣) تتراوح بين ثلاث عشرة وأربع عشرة سنة ، وهذا يتنافى مع القول
بقيادته لهذا البعث ، إذ لا يعقل أن يقوده وهو بعد صبي في هذه السن المبكرة .
إذن كيف اتفقت أخبار هذا البعث لابن عبد الحكم والبلاذرى والبكرى وابن الأثير
وابن خلدون وأبى المحاسن ؟ وقد ذكروه كلهم ، بل إن من أغفل ذكره منهم
في حينه ، ذكره في بدء حملة عقبة الأولى وسيره من فزان إلى إفريقية وغزوه ودان
مرة أخرى ، إذ كان أهلها قد نقضوا العهد الذى عقده مع بسر^(٢) . أحد أمرين :
إما أن يكون البلاذرى قد أخطأ في تعيين السنة التى ولد فيها بسر^(٣) ، أو أن يكون
بسر قد رافق الحملة في هذه السنة الباكورة ولم يكن على رأسها ، ولعل رأى الأول
أرجح ، فإن إجماع المؤرخين على قيادة بسر لهذا البعث ، يميل بنا إلى الشك

(١) رسمه البلاذرى بسر بن أبى أرطاة ، وابن عبد الحكم بسر بن أبى أرطاة وكذلك
البكرى ، ورسمه أبو المحاسن على ثلاث صور : بسر وبسر وبسر ؛ وقد أصبح بسر هذا فيما
بعد من أكبر أنصار معاوية ، إذ سيره على رأس جيشه إلى مكة والمدينة واليمن ، فاستطاع أن
يسلخها من يد على ، وقد جن في أواخر أيامه كما يقول ابن الأثير . انظر : البلاذرى ، فتوح
البلدان ، ص ٢٢٨ . وابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٧٢ - البكرى ، وصف إفريقية ، ص ١٢ -
أبو المحاسن ، النجوم ، ج ١ ص ٢٣ - ابن الأثير ج ٣ ص ١٥٣ - ١٥٤

(٢) البكرى ، وصف إفريقية ، ص ١٤٥ . أبو المحاسن ، ج ٣ ص ٤٥ - ابن الأثير
ج ١ ص ابن خلدون ص ٣ طبعة دى قرچير - ابن عبد الحكم فتوح ، ص ١٧٢ - البلاذرى ،
فتوح ، ص ٢٢٨

(٣) لم يرد ذكر بسر في ثبت الصحابة الذين نزلوا إفريقية الذى أورده الباجى في الخلاصة
النقية (ص ٧ - ٨) ، كذلك لم نجده في الثبت الذى أورده السلاوى (ص ٣٩ - ٤١) .

فما ذهب إليه البلاذرى ، لأن اشتراك بسير في فتح مصر وإفريقية يرجع إلى أقدم من بعث ودان ، إذ ذكر أبو المحاسن أن عمر بن الخطاب « بعث عمرو بن العاص إلى مصر ، وزعم سيف أنه بعثه بعد فتح بيت المقدس وأردفه بالزبير بن العوام ، وفي صحبته بسر بن أبي أرطاة وخارجة ابن حذافة وعمير ابن وهب الجمحي^(١) » ورواية أبي المحاسن ممكنة التصديق ، لأن كلا من خارجة وعمير أقبل مع الزبير في المدد الذي بعثه عمر لعمر وهو على فتح مصر ، وكان لكل منهما دوره المعروف في فتحها ، وما دام أبو المحاسن قد أصاب في ذكر خارجة وعمير ،^(٢) فالمعقول أنه لم يخطئ في ذكر بسر أيضاً ، ويؤيد روايته كودل ، إذ يقول إن بسرأ كان من رجال حملة مصر ، فلا يبعد إذن أن يكون البلاذرى قد أخطأ في تعيين السنة التي ولد فيها بسر ، ومن المعقول جداً أن يكون عمرو قد أقامه على بعث ودان .

يظهر أن المهمة التي نيّطت ببعث ودان لم تكن كبيرة الخطر ، لأن عمراً صرف هم إلى البعث الآخر الذي وجهه إلى صبرة ، على مرحلة من طرابلس ، إذ وجه إليها جيشاً كثيفاً ، وربما دفعه إلى ذلك خوفه من مسير سكان صبرة من نفوسة إلى طرابلس لعون أهلها ، وعلى أى حال فإن بعث ودان لم يفعل أكثر من أن عقد معاهدة مع نفوسة في ودان ، ولم ترد لنا أخبار خاصة عن هذه المعاهدة ، وربما يكون بسر قد صالحهم على أن لا يعاونوا الروم واكتفى بذلك .

لم يتم فتح إقليم طرابلس بسقوط صبرة ، إذ بقي من مدنها الكبرى جربة في جزيرة جربة (Meninx) وقابس (Tacapes) على حدود أفريقية ، وبقي كذلك عدد من المساح والحصون مثل جرجس (Girgis)^(٣) . ولكن الروايات العربية

(١) أبو المحاسن ، التجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٣ (٢) كان عمير أمير البعث الذي أرسله عمرو لفتح دمياط ، وخارجة أمير البعث الذي أرسل إلى الصعيد : بطلر : فتح العرب لمصر ، الترجمة العربية ص ٣٠٣ (٣) Diehl, op. cit. p. 229

تذهب إلى أن عمراً — بعد أن تم فتح صبرة — أرسل إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في فتح إفريقية ، ولو قد وجد عمرو التقدم ميسوراً لتقدم في غير عناء دون أن يستأذن عمر ، ولكن الغالب أن مايلى صبرة من البلاد والمساح ، كان محصناً بالجند بحيث وجد عمرو ضرورة الاستعانة بأمداد جديدة ، حتى يمكنه التقدم ؛ ويمكننا أن نفهم من هذا أن مايلى صبرة من البلاد كان محل عناية جريجوريوس : حصنه وأقام فيه الجند ، وإذا عرفنا أن العرب كانت ترى في جريجوريوس حاكم المغرب جميعه ، فهمنا السبب الذى حدى بعمرو إلى الوقوف للاستئذان في فتح إفريقية .

فإذا كنا نعرف أن جريجوريوس لم يكن يهتم قبل ذلك بتأمين حدود بلاده في الشرق أو الجنوب ، وأنه اكتفى بالتحرز في سيطلة منذ أعلن العصيان على الدولة وادعى الإمبراطورية ، فما الذى حدا به إلى تحصين المدن ممايلى صبرة والاستعداد فيها ؟ لاشك أن أخبار التقدم العربى في مصر وصلته فسارع بتأمين الحدود الشرقية ليكون له منها جبهة قوية يتلقى عندها هجمة العرب الأولى ، ويردهم عن بلاده الحقيقية في ولاية إفريقية وما يليها ، بل يظهر أن جريجوريوس استعد استعداداً كبيراً في قابس ، لأن العرب سيتحاشونها عندما يشرعون في غزو إفريقية في حملة عبد الله بن سعد ، بل سيقصدون إلى سيطلة رأساً ، ولو قد وجدوا الاستيلاء عليها هيناً لأخذوها في طريقهم .

كان طبيعياً أن لا يأذن عمر بالاستمرار في الفتح ، فإنه كان يخشى أن تتسع الفتوح المتتالية بالمسلمين إلى حد غير مأمون ، وقد كان رأيه الأول أن تقف الفتوح عند حدود فلسطين ، فكيف وقد تم فتح مصر وبرقة ووصل جند المسلمين إلى طرابلس ؟ المقول أن يرفض التقدم رفضاً باتاً ، ولا غرابة في أن يقول ابن عبد الحكم : « أراد عمرو أن يوجه إلى المغرب ، فكتب إلى عمر بن الخطاب

— كما حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن ابن هريرة عن أبي تميم الجيشاني —
 أن الله قد فتح علينا ؟ طرابلس ، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن
 رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه ، فعل ، فكتب إليه عمر : لا ،
 إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة (الغادره) مغدور بها ، لا يغزوها
 أحد مابقيت » ^(١) وهي رواية نقلها عنه أكثر المؤرخين بالنص ، ثم عاد فأكد
 ذلك برواية أخرى عن ابن لهيعة أيضاً : حدثنا أبو الأسود بن النضر بن عبد الجبار
 حدثنا ابن لهيعة عن أبي قبيل ، عن مرة بن ليشراح (ليسرح وهو اسم معافرى)
 المعافرى قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : « إفريقية المفرقة ثلاث سرات ،
 لا أوجه إليها أحداً مامقلت عيني الماء » ^(٢) ، وفي رواية البلاذري زيادة طفيفة تدل
 على أن بعض الأخبار عن أحوال إفريقية السياسية وعن تاريخها كانت قد اتصلت
 بعمر إذ ذاك ، فعرف أنها ليست مأمونة الجوانب ولا ميسورة الفتح ولا قريبة الطاعة ،
 فعجل بإيقاف عمرو ، وذلك إذ يقول : « وكتب إلى عمر بن الخطاب أن بينها وبين
 إفريقية تسعة أيام ، واستأذنه في غزوها ، فكتب إليه ينهاء عنها ، وكتب إليه
 أنها ليست إفريقية بل مفرقة غادرة مغدور بها ، وذلك أن أهلها كانوا يؤدون
 إلى ملك الروم شيئاً فكانوا يغدرون به كثيراً ، وكان ملك الأندلس صالحهم
 ثم غدر بهم » ^(٣) .

ويبدو أن جهد المسلمين لم يقف عند هذا الحد ، إذ يذهب المالكي
 في « رياض النفوس » إلى جند أن المسلمين وخيلهم لم يقف نشاطهم عند صبرة ،
 بل أنشأوا يغيرون على حدود إفريقية في جرائد الخيل ، كما كانوا يصنعون بعد تسليم
 الاسكندرية ، وأنهم كانوا يعودون منها بالغنائم الوافرة ، وأنهم أقاموا على ذلك

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٢ (٢) نفس المصدر ، ص ١٧٣

(٣) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٥

حتى ولاية عبد الله بن أبي سرح وقيامه بحملته على إفريقية سنة ٢٧ هـ^(١).

إلى هنا ينتهي دور عمرو بن العاص في فتح إفريقية ، وهو دور ليس بالكبير كما رأينا ، ليس فيه مواقع عظيمة ولا سياسات بعيدة الأثر ، إنما هو تقدم سهل في بلاد قليلة المقاومة ، ولنلاحظ أنه حرص دائماً على أن يكون بمقربة من الساحل لا موعلاً في الداخل كما سيفعل كثيرون ممن سيأتون بعده ، وأنه اهتم كذلك بأن يؤمن الداخل في نفس الوقت بهذه البعوث التي كان يبعثها قبل أن يتقدم أو بعد أن يستقر له أمر الشاطئ : لم يكدهم فتح برقة حتى بعث عقبة بن نافع في بعث فزان ، ولم يكدهم فتح طرابلس حتى أرسل بسرا في بعث ودان ، هذه السياسة الحكيمة سيهملها أكبر القواد الذين أتوا بعده وهو عقبة بن نافع ، فكان إهمالها سبباً في ضياع جهوده كلها هباء بل في موته هو ، وانتفاض إفريقية كلها انتفاضاً تاماً .

بقي تحديد تواريخ هذه الأحداث ، وليس بين المؤرخين اختلاف كبير في ذلك .

يذهب البلاذري إلى أن فتح برقة كان في سنة ٢١ هـ^(٢) .

أما ابن عبد الحكم فيجعل فتح برقة سنة ٢٢ هـ ، ونقل عنه ذلك ابن الأثير ونقل عنهما كودل^(٣) .

أما اليعقوبي فيجعل هذا الفتح سنة ٢٣ هـ^(٤) ، ويؤيده في ذلك ابن خلدون

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٤ ، ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٣ .

(٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٣٣ (٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧١ —

ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٩ ، Caudel, op. cit. I, p. 81

(٤) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ١ ص ٢٣٣

ونقل عن الأخير دى سلين^(١) ، ويتفق أبو المحاسن والبكرى مع البلاذرى^(٢) .
كان الفراغ من فتح الاسكندرية في النصف الثاني من شهر سبتمبر
سنة ٦٤٢ م ، إذ في السابع عشر من هذا الشهر « كان أسطول تيودور يحل قلاعه
ويرفع مراسيه ويسير إلى قبرص بمن كان عليه من فلول جيش الروم يرفرف عليه
الأسى^(٣) » ، والمعروف أن عمراً شرع في غزو برقة بعد ذلك مباشرة ، وأن سبتمبر
من سنة ٦٤٢ م يوافق ذى القعدة من سنة ٢١ من الهجرة ، فهل انتظر عمرو
ابن العاص ، حتى أهلت سنة ٢٢ أو شرع في المسير إلى برقة في الشهر الأخير من
سنة ٢١ ؟ أغلب الظن أن عمراً لم يشرع في المسير إلى برقة بعد الفراغ من
الاسكندرية بأيام ، بل المعقول أن تنظيم أمور الفتح وإعداد العدة بناء على
المعلومات التي جملها عقبة بن نافع إليه ، كل ذلك شغل عمراً الشهرين الأخيرين
من سنة ٢١ ، فلم يبدأ فتح برقة إلا في أوائل سنة ٢٢ هـ ، ويستبعد أن يكون قد
قضى سنة ٢٢ بأسرها في مصر ثم شرع في المسير إلى برقة سنة ٢٣ ، وإذن فرأى
ابن عبد الحكم وابن الأثير هو الأرجح ، ولم يخطئ كودل في متابعتها في ذلك ،
ولم يخطئ البلاذرى وابن خلدون وياقوت ودى سلين كثيراً ، إذ لا يبعد أن عمراً
بدأ يستعد ويرسل الطلائع إلى المغرب من أواخر سنة ٢١ هـ .

فإذا كان فتح برقة قد تم في الشهور الأولى من سنة ٢٢ ، فلا يستبعد أن
يكون عمرو قد وصل إلى طرابلس في خلال سنة ٢٢ ، أو في أواخرها ، وإذا
عرفنا أنه بقى على حصارها شهراً على قول البعض وبضعة أشهر على قول البعض
الآخر ، كان معقولاً أن يكون تسليم طرابلس قد تم في الأشهر الأولى من

(١) ابن خلدون ، ص ٣ ، طبعة دى فرجير De Slane : J. A. Tome XII, p. 422, Ve série

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٣ — البكرى ، وصف إفريقيا ،

ص ١٤٥ — البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٣٣

(٣) بطر ، فتح العرب لمصر ، (الترجمة العربية) ص ٣١٧

سنة ٢٣ هـ^(١) ، ثم أعقب ذلك فتح صبرة قبل نهاية هذا العام ، لأن المعروف أن عمراً عاد إلى مصر قبل أن يقتل عمر بن الخطاب (وكان مقتل عمر في ٢٣ ذى الحجة سنة ٢٣ هـ) .

فإذا صح هذا ، يكون فتح فزان قد بدأ خلال سنة ٢٢ هـ وانتهى في الشهور الأولى من سنة ٢٣ هـ ، وعاد عقبه قبل منتصف سنة ٢٣ هـ ، لأن عمراً عاد إلى مصر حوالى ذلك الوقت تاركاً إياه في برقة .

وبديهي كذلك أن يكون فتح ودان ، الذى كان مع حملة صبره في فترة واحدة ، قد تم في الأشهر الأولى من سنة ٢٣ هجرية .

(١) في أواخر سنة ٢٢ هـ إذا صدقت رواية المدبلى وأصحابه ، وفي أوائل سنة ٢٣ هـ إذا كانت مجرد أسطورة .

الباب الثالث

المحاولات الأولى (١)

حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح

اضطر عمرو إلى الانصراف عن إفريقية مرغماً ، ولعل السبب في ذلك لم يكن مجرد رفض عمر ، إذ لم تكن ولاية طرابلس كلها قد سقطت بسقوط « صبرة » ، فما زال أمام المسلمين عدد من مدائنهم مثل « قابس » من غير فتح ، ولو قد أُنس عمرو في نفسه وجيشه القدرة على التقدم ، لما أعوزه الإذن من عمر ، إذ المسافة بين طرابلس وصبرة أكبر من المسافة من صبرة إلى قابس ، ولما كان قد خطا الخطوة الأولى بغير استئذان ، فلم يكن عليه بأس في أن يخطو الخطوة الثانية لو كان ذلك ميسوراً له ، ولكن الغالب أنه أحسن أن الخطوة التالية تحتاج إلى عُدّة جديدة وعدد كبير ، فأحب أن يستأذن عمر في الفتح ، تمهيداً لطلب المدد إذا أذن عمر في ذلك ، وقد تكون عيونه وطلّاعه^(١) قد نقلت إليه أخبار ما يليه من البلاد إلى الغرب ، وأعلمته أن لا محيص له عن عدة وافية وقوة جديدة ، ليقهر ما عساه يلقاه من المقاومة عند قابس وما يليها .

طبعي أن يكون جري مجوريوس قد أحس بالخطر حين بلغته أنباء وقوع صبرة في يد العرب ، وانسياب طلائع جندهم بين محارس الحدود وثغورها ، وكان سلطانه على هذه النواحي خاصة ضعيفاً ما يزال ، إذ لم يمض وقت طويل على انفصاله^(٢) عن

چرچیر
یستعد
لقاء المسلمين

(١) تجمع المصادر على أن عمراً كان يبعث المسلمين في جرائد الحيل ، فيصيبون من أطراف إفريقية وينمنون ، في ظاهر الأمر ، ويستطلعون الأحوال ويعرفون قوة أهل إفريقية في الحقيقة . أنظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٣ والبلاذري ، فتوح ، ص ٢٣٦ — التوبري ، نهاية الأرب ، ورقة ١٦٣

(٢) كان خروجه سنة ٦٤٦ م أي في الوقت الذي كان العرب فيه في طريقهم إلى بلاده ، فلا بد أنه قضى بقية هذه السنة والتي تلتها في ترتيب شثونه ، ويغلب أن يكون انتقاله إلى سبيطة لم يتم إلا خلال سنة ٧٤٧ م ، أي قبل موقعة سبيطة ببضعة شهور .

الدولة وإعلانات نفسه إمبراطوراً . فكان محتاجاً إلى فسحة من الوقت حتى يعزز دولته الجديدة ويقوى جانبها ، وكان لزاماً عليه أن يبذل جهده حتى يضمن ولاء أهل أفريقية ويطمئن إلى عونهم أمام الدولة البيزنطية وغيرها .

يذهب ديل إلى أن جريجوريوس لم يُلق إلى العرب بالا في أول الأمر ، وأنه لم يأخذ الأهبة لردم الإلحين أشرف جنود عبد الله بن سعد على تخوم بلاده^(١) ، ويبدو أن هذا الرأي ليس صحيحاً على إطلاقه ، لأن اختياره سبيطة كما صمة مؤقتة ينبىء بأنه كان يتوقع شيئاً من ناحية الشرق ، ولو كان أراد من التراجع إلى الداخل مجرد الاحتماء بالبربر والتحرز بينهم ، لكان أمامه من الحصون ما هو أغز وأقوى^(٢) ، ثم كيف يقال إن رجلاً مثل جريجوريوس اشتهر بالقدرة والخبرة ، كان يجهل ما حدث في برقة وطرابلس ، أو يغفل عن نيات العرب وهو يراهم ينساحون من بلد إلى بلد ، وما هي ذى خيلهم تطرق أبواب بلاده وتروع أهلها ؟ كيف يقال إنه غفل عن ذلك وله العيون في برقة وطرابلس ، والأرصاد في القسطنطينية ينهون إليه أخبار الامبراطورية كبرها وصغيرها ؟

لابد أن جريجوريوس أحس بالخطر المقبل من الشرق ، فأنشأ يتحرز منه ، ولما كانت قرطاجنة في أقصى البلاد شمالاً ، فقد خاف إن هو بقي فيها أن ينحصر بين هجوم العرب من الشرق وهجوم البيزنطيين من الشمال ؛ ثم إنه كان يعول على نصر البربر وعونهم ، فأحب أن يتحرز فيهم ، واستقر الرأي به آخر الأمر

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) تقع سبيطة على الطريق الذى يؤدى من السهل الساحلى إلى جبال الأوراس ، فهى أول حصون الهضبة ، وتقع على الطريق الحربى الذى يؤدى من سوسة إلى ثغست Theveste فاختيارها يدل على أنه كان يتوقع الخطر من ناحية الشرق ، فترى للمقبلين من السهل والهضبة ، ولو لم يكن ينتظر خطراً من الشرق لاختار ثغست وهى العاصمة الحربية لهذا الإقليم وموقعها لا يدانى وحصونها لا ترام .

22

22

22

22

عنها ، ويغلب أن يكون عقبة قد أهمل شأنها ولم يعن بأن يحفظها للمسلمين ، بل يظهر أن أمداداً جديدة وصلت إليها فاستطاع أهلها أن يعوضوا ما خسروه حين استولى العرب على مدينتهم سنة ٢٣هـ ، فقد جاء في نهاية الأرب : « حكى الزهرى .. فوالله إنا لبطرابلس ، وقد أصبنا من بها من الروم ، وقد تحصنوا منا فحاصرناهم ؛ ثم كره عبد الله أن يشتغل بذلك عما قصد إليه ، فأمر الناس بالرحيل^(١) » ، ويؤيد المالكى ذلك بقوله : « وتحصن أهل طرابلس ولم يعرضوا لنا ولم نهجمهم^(٢) » ، مما يفهم منه أن المدينة كانت إذ ذاك أحصن مما كانت عليه قبل ذلك بسنوات أربع حين حاصرها عمرو بن العاص واستولى عليها ، ولا يعلل هذا التغير إلا بأن الأمداد كانت تصل المدينة وتعين أهلها على إعادة تحصينها ، وقد ذهب كودل إلى أن امتناع طرابلس على العرب في حملة عبد الله بن سعد كان سببه أن الطرابلسيين اتعظوا بغزوة العرب الأولى ، فزادوا بأسوار مدينتهم عناية ، وأقاموها من جديد ، فامتنعت على عبد الله بن سعد في غزوته على إفريقية^(٣) ، وكل ذلك يدل على أن طرابلس عادت سيرتها الأولى بعد انصراف عمرو عنها ، وأن الأمور عادت فاتصلت بينها وبين بلاد الروم ، وأخذت السفن تصل ميناءها بالتاجر والجنود وتقلع عنها ، وليس ببعيد أن أمداداً كانت تصلها مما يجاورها من البلاد . وعلى أى الأحوال ، نستطيع أن نستنتج من امتناع طرابلس على عبد الله بن سعد أنها خرجت عن طاعة المسلمين وعادت إلى ما كانت عليه قبل غزوة عمرو بن العاص لها .

أصبح عبد الله بن سعد بن أبي سرح عاملاً على مصر منذ سنة ٢٥هـ ،^(٤)

(١) التويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٣ | (٢) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٢

(٣) Caudel. op. cit. II, 60 (٤) الكندى ، القضاة والولاة ، ص ١١ — ابن حجر

الإصابة ، ج ٣ ص ٧٦

مطلق اليد في شئونها المالية والإدارية بعد عزل عمرو عنها ، وأصبح — تبعاً لذلك — حاكماً على ما بقي للمسلمين من فتوحهم في إفريقية ، قائداً على من يخرج من الجند لإكمال الفتح فيها ، وهذا هو الوضع السياسي الأول لإفريقية : إذ اعتبرت جزءاً ملحقاتاً بولاية مصر يحكمها عامل مصر ، يجبي خراجها ويقود جندها .

ينبغي أن نجعل حداً فاصلاً بين عبد الله بن سعد في إسلامه الأول وعبد الله بن سعد في إسلامه الثاني ، لأن الوقائع تبين أن الرجل يختلف كثيراً في الدور الأول عنه في الدور الثاني ؛ فعبد الله بن سعد الأول فتى يافع لا يكاد يحسن فهم الأشياء ، فيستبين بثقة الرسول ، وتؤثر فيه دعايات قريش ، ويحجب عنه صغر السن عظمة النبي الكريم ، فلا يلبث أن يرتد إلى الشرك ويلقى بنفسه في أحضان قريش ويقول في نزق « كان يملئ على عزيز حكيم ، فأقول : أو علم أو حكيم فيقول : كلُّ صواب ^(١) » ، فلا يبالي أن يفتري على الرسول كذباً مجاراة لقريش فيما كانت تتخذ من الأساليب للقضاء على الإسلام ، أما عبد الله بن سعد الثاني فجندى باسل وثيق الإيمان كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعاته ، شهد فتح مصر واختطبها ، وكان صاحب ميمنة عمرو في فتحها ، « وكانت له مواقف محدودة في الفتح ^(٢) » ، ويؤكد النويري أنه : « حسن إسلامه ولم يظهر بعده ما ينكر ، هو أحد العقلاء والكرماء من قريش ^(٣) » . وقد أخطأ المؤرخون في الحكم عليه ، لأنهم أخذوه بجريرة فعلته الأولى ، فأنكروا عليه كثيراً من فضله في فتح إفريقية ، ونسب أكثرهم هذا الفضل إلى عبد الله بن الزبير ، ويظهر أنهم تأثروا كثيراً بالدعاية الواسعة التي بذلها عبد الله بن الزبير لنفسه حين أصبح خليفة ، فضع

(١) تهذيب الأسماء للنووي ج ١ ص ٢٦٩ (٢) الإصابة لابن حجر ، ج ٣ ص ٧٦

(٣) نهاية الأرب ، للنويري ، ص ١٦٢

حظ ابن أبي سرح بين جريرة الارتداد ودعاية ابن الزبير ، بل يبدو أن قرابة عبد الله من عثمان قد قلت من شأنه في حساب التاريخ ، إذ نسب ما كسب من توفيق إلى أخوته للخليفة (بالرضاع) لا إلى مواهبه الشخصية ، وأصابه من سوء ظن الناس ما أصاب كل ولاية عثمان وأشياعه ، فكان قليل الحظ عند المؤرخين .

التهديد لفتح
إفريقية

لم تكد ولاية مصر تستتب لعبد الله بن سعد حتى بدأ يمهّد لغزو المغرب ، فأخذ « يبعث المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا يفعلون في أيام عمرو ، فيصيرون من أطراف إفريقية ويغنمون ^(١) » ، ويضيف النويري أنه « كان يكتب بذلك إلى عثمان » ، مما يدل على أنه كان يرجو أن يمنحه عثمان الإذن بفتح إفريقية ويمده بما يمكنه من القيام بهذا العمل العظيم ، ويبدو أن عثمان نفسه كان يميل بعض الميل إلى إجابة عبد الله بن سعد إلى ما يريد : إما نكاية منه في عمرو الذي كان مقيماً إذ ذاك بالمدينة مندداً عليه وعلى واليه الجديد على مصر ، وإما رغبة منه في تعزيز مركز أخيه في الرضاة بفتح عظيم كفتح إفريقية ، ولكنه كان متردداً متخوفاً ، لأن رفض عمر بن الخطاب لهذا الفتح كان له معناه ، وما كان عثمان ليلقى بمجند المسلمين إلى هذه البلاد « المفرقة الغادرة » ^(٢) ، إلا إذا استوثق من أمره ، وأمن على جنده وعلى أخيه شر هزيمة قد يكون وراءها بلاء عظيم .

عبد الله بن
سعد يستأذن
عثمان

وكان ابن أبي سرح قد « كتب في ذلك إلى عثمان ، وأخبره بقرتهم (أى قرب الروم) من حوز المسلمين ، ويستأذن في غزوها » ^(٣) ، فأنشأ عثمان يستشير الصحابة وأصحاب الرأي ، وإذا أخذنا بما رواه المالكي والنويري ، ثبت أن عثمان اهتم اهتماماً عظيماً بأمر إفريقية ، وأنه أطل التفكير في شأنها ، ويتضح ذلك

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٣ والنويري ، ورقة ٦٢ ١

(٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٦ (٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٣ — البلاذري ،

فتوح ، ص ٢٢٦ ، المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ١

من رواية للمالكي عليها طابع القصص ولكنها لا تخلو من دلالة لها معناها ، قال :
«غُذِثَ عن المسور بن مخرمة عن طريق الزهري ، قال المسور : خرجت من منزلي
بليل طويل أريد المسجد ، فإذا عثمان رضى الله عنه في مصلى النبي صلى الله عليه
وسلم يصلي فصليت خلفه ، ثم جلس فدعا ليلا طويلا حتى أذن المؤذن ، ثم قام
منصرفا إلى بيته ، فقممت في وجهه فسلمت عليه فقال : يا ابن مخرمة ! واتكأ
على يدي — إني استخرت الله تعالى في ليلتي هذه في بعث الجيوش إلى إفريقية ،
وقد كتب إلى عبد الله بن سعد يخبر بخبره مع المشركين وغلبهم وقرب حوزهم
من المسلمين ، فقلت : خار الله لأمر المسلمين ، فقال فما رأيك يا ابن مخرمة ؟ فقلت
اغزؤهم ، فقال أنجع اليوم الأكبر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
(وأستشيرهم) فما أجمعوا عليه فعلته ، أو ما أجمع عليه أكثرهم فعلته^(١) . ينسب
المالكي هذه الرواية الطويلة إلى الواقدي مما يجعل للشك سبيلا إليها ، لكثرة
ما ينسب للواقدي ويدخل عليه ، ولا ندرى كيف خفيت هذه الرواية القصصية
عن الليث بن سعد أو ابن لهيعة أو عبد الملك بن مسleme ، وهم ثلاثة المحدثين الثقات
الذين لا يفتأ ابن عبد الحكم يأخذ عنهم . وعلى أى الأحوال فليس هناك ما يدعو
إلى رفض تلك الرواية جملة ، ولا أقل من أن نأخذ بمعناها إجمالا ، لأن الثابت
بشهادة البلاذري وابن عبد الحكم^(٢) أن عثمان استشار الصحابة في غزو إفريقية ،

(١) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٦ وابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٧

(٢) بل يزيد المالكي فيذكر أن عثمان عقد شبه مجلس لبحث هذه المسألة ، فيقول رواية
عن ابن مخرمة . فقال (أى عثمان) لآيت عليا وطلحة والزبير والعباس ، وذكر رجلا ، فغلا
بكل واحد منهم في المسجد ، ثم دعا بالأعور بن سعيد بن زيد فقال له عثمان : ما كرهت يا أبا الأعور
من بشة الجيوش إلى إفريقية ؟ فقال له سمعت عمر يقول : لا أغزبها أحدا من المسلمين ما حلت
عيناى الماء ، فلا أرى لك خلاف عمر ، (فقال له عثمان) ، والله ما نخافهم ولأنهم لراضون أن
يفزوا في مواضعهم ! فلم يختلف أحد من شاوره غيره . وفي هذا ما يدل دلالة واضحة على أن
عثمان كان شديد الميل إلى إتمام هذا الأمر ، وسواء أصدق المالكي أو كذب فيما زعم =

وأن الرأي قد ثاب له على الغزو فعزم عليه ، « فكتب إلى عبد الله في سنة ٢٧ و يقال سنة ٢٨ و يقال ٢٩ يأمره بغزوها ^(١) » .

ويظهر أنه كان لاهتمام الخليفة بهذه الغزاة أثره ، فتقاطر الناس من مختلف القبائل للاشتراك فيها ، وقد يكون دافعهم إلى هذا التهاوت الأمل في الغنم ، لوفرة ماغنم المسامون في بعوثهم الأولى إلى برقة وطرابلس وقلة ما لقوا من المقاومة ؛ وكان على رأس كل قوم نفر من كبارهم ، واندمج في سلك الحملة نفر غفير من مشاهير الصحابة وأولادهم ^(٢) .

== من انفراد عثمان بكل من ذكر من الصحابة ليقنعه بالموافقة على الغزو ، فإن قرائن الحال تدل على أن عثمان بذل جهداً كبيراً لإنفاذ هذا البعث ، وأنه أخذ يندب الناس للاشتراك في هذه الحملة . أنظر : المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٢

(١) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٦

(٢) كان هذا الجيش يسمى جيش العبادة لاشتراك عبد الله بن سعد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن زيد بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب فيه وقد خرج فيه من بني هاشم عبد الله بن عباس وعبيد الله بن عباس . ومن بني تميم : عبد الله بن أبي بكر وعبد الله بن طلحة في عدة من قومه ومن بني عدى : عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن زيد بن الخطاب وعبد الله وعاصم ابنا عمر في عدة منهم ؛ ومن بني أسد بن عبد العزى عبد الله بن الزبير في عدة من قومه . ومن بني سهم : عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد المطلب ابن السائب بن وداعة في عدة منهم . ومن بني أمية : مروان بن الحكم وأخوه الحارث . ومن بني زهرة : السور بن مخزومة بن نوفل وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، ومن بني عامر ابن لؤي : السائب بن عامر بن هشام وبشر بن أرطاة ، وعدة من بني هزبل : منهم أبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي ، وعبد الله بن أسس وأبو ذر الففاري ومعاوية بن خديج ورويف ابن ثابت وأبو زمعة البلوي وعقبة بن نافع الفهري . ومن جهينة : ستانة رجل . ومن أسلم : ثلاثمائة رجل ومن مزينة : ثمانمائة رجل ومن بني سليم : أربعمائة رجل ، ومن بني الدليل ودمرة وغفار وخمسمائة ، ومن كعب ابن عمرو أربعمائة ، وكانوا آخر من قدم على عثمان والناس معرسون بالجرف ، والجرف على ثلاثة أميال من المدينة ، وهذا يدل على إقبال الناس على الاندماج في هذه الحملة ، إذ اشتركت فيها معظم القبائل الكبيرة ووفد إلى إفريقية نفر من مشاهير العرب وكبار الصحابة ، وربما كان بعض هذه الأسماء مدخولا اختراعه مؤرخو المغرب للتعظيم من شأن إفريقية ، ودليلنا على ذلك أنه لم يرد مفصلاً إلا في كتبهم كرياض النفوس ومعالم الإيمان والخلاصة النقية . ولم يورده من مؤرخي المشرق إلا من أخذ عنهم كالنويري . أنظر : المالكي ، رياض النفوس ورقة ٢ — النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٢ أ و ٦٢ ب و ٦٣ أ

ويبدو أن عثمان استمر يدعو الناس لغزو إفريقية بضعة أيام ، وأن المتطوعين كانوا يتوافدون إلى الجرف على ثلاثة أيام من المدينة ، وكان لا يني يشجع الناس على التطوع ، فأعان الجيش بألف بعير من ماله : يُحمل عليها ضعفاء الناس ، وحمل على خيل ، وفرّق السلاح وأمر للناس بأعطياتهم وذلك في الحرم سنة ٢٧ هـ^(١) . فلما اكتمل الجيش « خطب عثمان الناس ورغبهم في الجهاد ، وقال لهم : لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه ، واستودعتم الله^(٢) » . وهذا يدل على أن عثمان لم يبرح معنياً بأمر الحملة بأذلا جهده في إنفاذها وإعدادها ، حتى فصلت عن المدينة .

— ٣ —

وصلت تلك القوات إلى عبد الله بن سعد في مصر ، فجمع إليها ما كان لديه من الجند ، فصار له جيش عدته نحو عشرين ألفاً باتفاق الرواة ، فاستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني ، ومضى هو إلى إفريقية^(٣) .

وصول
القوات
إلى مصر

تختلف الروايات في شأن هذه الغزوة اختلافاً يَبِيناً ، وليس الاختلاف مقصوراً على سير الحوادث أو توقيتها ، وإنما يتناول الحوادث نفسها ، فنجد في بعض الروايات أشياء لا نجدها في روايات أخرى ، بل إن بعض مؤرخي هذه الفترة كالمالكي ، يعرض ثلاث أو أربع روايات للحادثة الواحدة تتباين تبايناً شديداً ، فيحسن أن نوجز ذكر ما ثبت صدقه من أحداث هذه الحملة ، ثم نعرض بعد ذلك لما يكون من أقوال المؤرخين فنناقشها :

تتفق الروايات كلها على أن عبد الله حاصر طرابلس في طريقه ، ثم استصوب

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ١٦٣ (٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) الكندي : القضاة والولاة ، ص ١٣ — ١٤

وقد أخطأ النويري فذكر أن عبد الله بن سعد خلف على مصر عقبة بن نافع ، لأن عقبة كان لا يزال بإفريقية ، وسيلقي قوات بن أبي سرح في برقة : النويري ، ورقة ١٦٣

أن ينصرف عنها كسباً للوقت ، وكذلك فعل عند قابس ، وأنه التقى بجريجور يوس
ومن معه من الجند بمكان قريب من سُبَيْطَلَة يسميه البلاذري عَقُوبَة ، فدارت
الدائرة على الروم ، وقتل جريجور يوس وتقهقرت جموع الروم المنهزمة إلى حصن
في الشمال يسمى الجَمْ (الأعمام) Thysdrus ، فحاصروهم فيه مدة طويلة أسرعوا
بعدها إلى طلب الصلح ، وكانت خيمته قد أخذت تحتاح نواحي ولاية إفريقية
في هذه الأثناء ، فاجتاحت الولاية الداخلية ووصلت إلى قفصة ، وأخيراً تمت
المفاوضات على أن ينسحب من البلاد لقاء مبلغ كبير من المال اختلف في تقديره
المؤرخون ، ثم عاد من إفريقية دون أن يترك بها عاملاً أو حامية .

تلك هي الأحداث التي ينعقد عليها إجماع المؤرخين فيما يتصل بهذه الحملة ،
وما عدا ذلك فتفصيلات لا يشملها الإجماع ويشوبها الشك في كثير من الأحيان ،
كتفاصيل واقعة سُبَيْطَلَة التي يورد كل من المالكي وابن الأثير وابن عذاري
والذويري طرفاً منها ، والتي يتكون منها وصف طويل ممتع فيه الكثير من الخيال
والاختلاق ، وكالدور العظيم الذي ينسب إلى عبد الله بن الزبير وقتله جرجير ،
وكقصة ابنة جرجير ، وما إلى هذه من القصص التي يورد المالكي وحده أرباعاً
منها كما ذكرنا ، ولا بأس من أن نمر بهذه الروايات لعل فيها شيئاً يزيد قصة الفتح
الحقيقية وضوحاً .

لا شك في أن ابن أبي سرح كان قد استعد لهذه الغزاة استعداداً طيباً ، فأنته
عيونه بالأنباء وأوقفته على الخطوة المثلى التي ينبغي عليه اتباعها حتى يصل إلى مايريد ،
كانت لديه المعلومات الدقيقة عن مركز جريجور يوس وحكومته من الناحية
السياسية : بهذا تتحدث أقدم الروايات ، وعليه تدل خطة الفتح نفسها ، فقد حدث
ابن لهيعة أن هرتل « كان استخلف جرجير ، فخلعه » ، ثم يضيف ابن عبد الحكم :
« وكان مستقر سلطان إفريقية يومئذ بمدينة يقال لها قرطاجنة ، وكان عليها ملك يقال

سير عبدالله
ابن سعد
إلى إفريقية

له جرجير ، كان هرقل استخلفه فخلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه ، وكان
سلطانه مايين طرابلس إلى طنجة^(١) . وهذا حديث قريب جداً من الصحة ،
ولا يتطرق إليه الشك إلا من ناحية القول بأن جرجير ضرب الدينار برسمه ،
إذ لم توجد إلى الآن آثار تشهد بذلك ، ولو وجدت لذكرها توكمسيه في مقاله الذي
استقصى فيه كل ماخلفه جرجير من الآثار وأورد ما عليها من النصوص ليؤكد أن
اسمه — أى اسم جرجير — كان جريجوريوس فلاقيوس الأرمني .

حينما فصل ابن أبي سرح عن مصر كان معه عشرون ألف جندي مايين عرب
من الجزيرة وجند وقبط من مصر وبربر من أهل أفريقية ، وكانت خطته ترمي
إلى المسير إلى جرجير في عاصمته رأساً والقضاء عليه في موقعة حاسمة ، فلا تلبث
النواحي والحصون الأخرى أن تسقط من نفسها ، ويبدو أنه كان يقدم أمام جيشه
الطلائع الكثيرة التي تكشف له الطريق ، على هذا يدل قول الزهرى عن ربيعة
ابن عباد الديلي ، قال : « لما وصلنا قدم عبد الله الطلائع والمقدمات أمامه »^(٢) .
وصل عبد الله إلى برقة ، فلقى عندها عقبة بن نافع « فيمن معه من المسلمين ،
وكانوا بها ، وسار نحو أفريقية ، وبث السرايا في كل ناحية »^(٣) . ثم وصل طرابلس

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٣ . ورواية ابن الأثير أقل دقة ، فلا ذكر فيها لثورة
جرجير : « وكان ملكهم اسمه جرجير ، وملكه من طرابلس إلى طنجة ، كان هرقل ملك الروم
ولاه لأفريقية ، فهو يحمل إليه الخراج كل سنة » : ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٤
ويظهر أن جريجوريوس لم يتراجع من قرطاجنة إلى سبيطة إلا قبيل حملة عبد الله بقليل
من الزمان ، فإجماع مؤرخي العرب على أن العاصمة كانت قرطاجنة يدل على أن أهل لأفريقية —
ومنهم أخذ عيون عبد الله هذه المعلومات — كانوا لا يعلمون عن انتقال جريجوريوس إلى
سبيطة ، ويؤكد ذلك أن ما غنمه العرب من هذه الأخيرة لا يكاد يعدل ما غنموه من كثير
من المدن الأخرى ، مما يدل على أن جريجوريوس لم يكن له من الوقت ما يمكنه من نقل كنوزه
من قرطاجنة .

(٢) النويري ، نهاية الأرب ورقة ٦٣ (١) ، وقد أورد هذه الرواية بالنسب الدباغ في معالم
الإيمان ، ج ١ ص ٣٥ (٣) ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٤ ، وقد علق كودل على ذلك بقوله عن هذا
المدد الذي ضمه عقبة — بجنده — إلى حملة عبد الله : « كان رجال عقبة إفريقيين قدماء »

وصول
المسلمين
إلى إفريقيا

الحصون الكثيرة أو المحارس المتعددة التي كانت تحيط بسببيلة^(١) .
تذهب الروايات العربية إلى أن عبد الله تقدم إلى الشمال حتى بلغ مكاناً
يقال له قونية^(٢) ، أو قودة ، وهناك وقف ، وبدأت المفاوضات بينه وبين
جرجوريوس ، ويظهر أن المناوشات كانت مستمرة بين الفريقين طوال فترة
المفاوضة ، إذ يقول ابن الأثير : « فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم ، وراسله عبد الله
ابن سعد يدعو إلى الإسلام أو الجزية فامتنع منها ، وتكبر عن قبول أحدهما ،
وانقطع خبر المسلمين عن عثمان ، فسير عبد الله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه
بأخبارهم »^(٣) .

نستطيع أن نستنتج من روايات ابن عبد الحكم والمالكي وابن الأثير والنويري
وابن عذارى أن أمد هذه المفاوضات قد طال ، وأن جرجوريوس نشط للقاء
العرب بجيش عظيم^(٤) ، وأن العرب داخلهم بعض الخوف من تحفزه وجمعه جموعاً

(١) الأقرب للصواب أن عقوبة لم يكن مجرد فحس أى سهل ، وإنما كان فيه حصن قوى
دارت الموقعة حوله ، وقد ورد ذكره كثيراً في الروايات ، فيقول المالكي : « فانهزم جرجير ،
ولزمه عبد الله بن الزبير في عجاج الحرب . . . وقتله إلى جانب السور وابنته تنظر من السور إلى
قاتله ، وسبقت خيول المسلمين الروم إلى باب الحصن خالوا بينهم وبين الدخول إلى حصنهم » :
رياض النفوس ، ورقة ٣ (٢) يغلب أنها كابوت فاذا Caput Vada الميناء البيزنطي
المعروف ، وربما كانت هي قودة المشار إليها في الإدريسي (ص ١٠٣) ، والاثنان قريبتان
من مكان القيروان ، وهذا هو التحديد الوحيد الذي ورد عن هذه البقعة في رياض النفوس
(ورقة ٣) (٣) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٤ — نجد تفصيل هذه المفاوضة بصورة أوفى
في النويري (ورقة ٦٣ ب) والمونس (ص ٢٣) والمالكي (ورقة ٢) ، ولا يبعد أن تكون
هذه المفاوضات قد جرت بين الفريقين قبل الموقعة ، فقد كانت هذه خطة العرب قبل كل حرب .
(٤) يقول ابن الأثير في وصف استعداد جرجير : « فلما بلغه خبر المسلمين ، تجهز وجمع
العساكر وأهل البلاد ، فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس (ج ٣ ص ٣٤) وقد بالغ
رواة العرب في تقدير قوة جرجير مبالغة ظاهرة فذهبوا إلى أنهم كانوا ١٢٠ ألفاً (النويري
ورقة ٦٣ ب والمونس ص ٢٣) ، ويستبعد أن يكون لدى جرجير هذا القدر من الجنود لأنه :
أولاً ، تأثر على الدولة لا تأتية إمدادات ، ولا يقل أن يكون في أفريقية كل هؤلاء الجنود ، وثانياً
لا يدل سياق الحوادث إلى الآن على أنه كان يقود قوة كبيرة ، وربما التفت حوله جموع كثيرة =

كثيرة من الروم والبربر ، فلم يبدأ القتال الجدى بعد انقطاع المفاوضات وإباء جرجير للجزية أو الإسلام مباشرة ، بل يبدو من رواية ابن عذارى — على وجه الخصوص — أن المسلمين أدركهم بعض التراخي ومالوا إلى طلب الإمداد ، وربما بعثوا في طلبها^(١) .

تتفق الروايات على أن أخبار حملة أفريقية انقطعت عن عثمان ، فبعث عبد الله ابن الزبير في فئة قليلة ليتعرف له ما تم في أمر عبد الله بن سعد وأصحابه^(٢) ، ويظهر أن ابن الزبير أدرك جيش المسلمين وقد بلغ اليأس من الجند مبلغاً عظيماً ، لأنهم هالوا وكبروا وفرحوا فرحاً عظيماً ، وبلغ من شدة فرحهم أن الروم حسبوا أن الأمداد وصلت للمسلمين فتخوفوا من ذلك^(٣) .

كانت المناوشات مستمرة بين الفريقين طوال هذه المدة ، وكان الجانبان يتقاتلان بفتور ، وكان المسلمون يقاتلون الروم كل يوم إلى الظهر ثم ترجع كل طائفة إلى معسكرها وتضع الحرب أوزارها^(٤) ، ويبدو من تخوف الروم من وصول

== من الروم وأهل البلاد من غير المحاربين خوفاً من العرب ، فظن هؤلاء أن كل من معه جنود فيقول الباجي مثلاً : « وكان العدو — أي جرجير — في مائتي ألف مقاتل » ، راجع : الخلاصة النقية للباجي ص ٤١ — النجوم الزاهرة لأبني المحاسن : ج ١ ، ص ٨٥

(١) ورد في ابن عبد الحكم « وقد قيل إن عبد الله بن سعد قد كان وجهه مهوأن ابن الحكم إلى عثمان من إفريقية ، فلا أدري أفي الفتح أم بعده (ص ١٨٦ — ١٨٧) » ويغلب أن ذلك كان قبل الفتح ، لأن الذي وجهه بعد الفتح هو عبد الله بن الزبير ، والأغلب أنه أرسل لطلب الإمداد أو لإبلاغ الخليفة أن مركز المسلمين ليس على ما يرام (٢) ليس في رواية ابن عبد الحكم والبلاذري ما يدل صراحة على أن عبد الله أرسل من المدينة ليتعرف الأخبار ، ولكن بقية الرواة يجمعون على أنه أرسل ، مما يعيل بنا إلى تصديق ذلك ، ويذهب التويري إلى أن عبد الله كان على رأس اثني عشر رجلاً فقط (ورقة ١٦٤) . (٣) ولما « وصل كثير الصياح والتكبير في المسلمين ، فسأل جرجير عن الخبر ف قيل : قد أتاهم عسكر ، ففت ذلك في عضده » (ابن الأثير ج ٣ ص ٣٤) . « فسار — أي عبد الله بن الزبير — يمد السير حتى قدم على المسلمين فوصل ليلاً فسروا به ، ووقع في العسكر صيحة خافت الروم منها » نهاية الأرب (ورقة ١٦٤) (٤) ابن الأثير ج ٣ ص ٦٤ والتويري ، نهاية الأرب ، ورقة ١٦٣ ، ولا نجد في غير هذين من المؤرخين ما يدل على أن عبد الله بن سعد كان يتبع هذه الطريقة بالذات ، وإنما تتفق الروايات كلها على أن المناوشات كانت تدور بفتور .

الأمداد للمسلمين ، أنهم كانوا يتوقعون هجوم العرب عليهم بين لحظة وأخرى ، وهناك ما يدل على أن العرب أنفسهم كانوا على خوف طوال هذه الفترة ، إذ روى ابن عبد الحكم : « صلى عبد الله بن سعد بالناس بإفريقية المغرب ، فلما صلى ركعتين سمع جلبة في المسجد ، فراعهم ذلك وظنوا أنهم العدو ، فقطع الصلاة ، فلما لم ير شيئاً ، خطب الناس ثم قال : إن هذه الصلاة احتضرت ، ثم أمر مؤذنه فأقام الصلاة ثم أعادها »^(١) ، مما يدل على أن المسلمين كانوا على الحذر وتوقع الشر في كل لحظة ، بل إن رواية النويري تدل على أن ابن أبي سرح نفسه كان لا يثق كثيراً بمن معه من الجند ، فقد روى أنه قال لعبد الله بن الزبير معللاً اختفائه في فسطاطه : « وغير خاف عنك من معي ، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام ، ولا آمن أن يرغبهم ما بذل لهم جرجير فيقتلونني ، فهذا سبب تأخرى »^(٢) ، بل إن ابن عذارى يقرر أن المسلمين بلغ بهم الخوف واليأس حد الاختلاف على ابن سعد ، مما أوقعه في الحيرة ودفعه إلى الانزواء في فسطاطه ، حتى أنقذ المسلمين من ذلك قدوم عبد الله بن الزبير^(٣) ومن معه .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٥ (٢) النويري ورقة ٦٤ أ ب — وقد وردت في ابن الأثير عبارة تشير إلى ذلك ، إذ يقول : « فلم ير — أي عبد الله بن الزبير — ابن أبي سرح معهم ، فسأل عنه ، فقليل لأنه سمع منادى جرجير يقول : من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي ، وهو يخاف » ابن الأثير ج ٣ ص ٣٤ . وظاهر أن حكاية مناداة جرجير في جيشه ووعده بإعطاء مبلغ كبير من المال لقاتل عبد الله وتزويجه ابنته — أي ابنة جرجير — مخترعة ، ولكننا نستطيع أن نحكم على وجه العموم بأن عبد الله كان متخوفاً من الروم . (٣) « وكان جرجير صاحب إفريقية والمغرب في مائة وعشرين ألفاً ، فضاقت المسامون في أمرهم ، واختلفوا على ابن أبي سرح في الرأي ، فدخل فسطاطه مفكراً في الأمر ، وهذا أمر معقول جداً ، ولكن ابن عذارى يبائع بعد ذلك بقليل في تفصيل ذلك ، فيقول رواية عن لسان عبد الله بن الزبير : فأثبت فسطاط عبد الله بن سعد فطلبت الإذن عليه ، فقال لحاجبه : دعه فإنه يفكر في شأنكم ، ولواتجه له رأي لظهور أو دعا بالناس ، فقلت لني احتاج إلى مذاكرته ، فقال إنه أمرني أن أحبس الناس عنه حتى يدعوني » ابن عذارى ، ص ٥ — ٦ وتلك مبالغة من ابن الزبير كما سيتضح .

الدور الذي
قام به عبد الله
ابن الزبير

يبالغ بعض المصادر مثل ابن الأثير في تقدير الدور الذي لعبه عبد الله بن الزبير في فتح إفريقية، فيذهب المالكي وابن الأثير وابن عذارى والنويرى والدباغ والباحي إلى أنه وصل إفريقية، فوجد المسلمين يقاتلون كل يوم حتى الظهر، ووجد قائدهم عبد الله ابن أبي سرح متخوفاً من أن يقتل في المعركة، فحاول أن يتصل به، فوجد أنه قد أوصد أبوابه، وأمر أن لا يراه أحد، فاحتال حتى رآه^(١)، فقال له: «إن أمرنا يطول مع هؤلاء، وهم في أمداد متصلة وبلادهم لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة سالحة من أبطال المسلمين، لم يشهدوا القتال وهم مستريحون، ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا»^(٢)؛ وليس بعيد أن يكون ابن الزبير قد لاحظ فتور الفريقين في القتال، وتخوفهما الاشتباك في معركة حاسمة^(٣)، فأشار على المسلمين باتباع هذه الخطة، ولكن ما يقال عن فتور ابن أبي سرح واختبائه لا يتفق مع ما نعرفه عنه، ولم يرد له ذكر عند أساطين الرواية الأول من أمثال الليث بن سعد وابن لهيعة ومسلمة بن عبد الملك، ثم أن خطة عبد الله ابن سعد كانت واضحة بينة، تنحصر في السير رأساً إلى إفريقية وملاقاة الروم والقضاء على قوتهم في موقعة فاصلة، فكيف يتفق هذا مع ما يروى

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٥ - ٦

(٢) ابن الأثير، ج ٣ ص ٣٤ - وقد نقل النويرى كلام ابن الأثير مع تحريف قليل: «إني فكرت فيما نحن فيه، والقوم في بلادهم والزيادة فيهم والنقصان فينا، وقد اتصل بي أنه أنفذ إلى جميع نواحيه بالحشد والجمع» ورقة ٦٤ ب.

(٣) «وقد رأيت أصحابه - أي الروم - إذا سمعوا الأذان أغمدوا سيوفهم ورجعوا إلى مضاربهم، وكذلك المسلمون جرياً على العادة، والرأى عندي أن يترك غداً إن شاء الله أبطال المسلمين في خيامهم يغيثهم وعددهم، وتقاتل ببقايا الناس على العادة، ويطول في القتال حتى يثبت القوم، فإذا انصرفوا ورجع كل إلى مضربه، وأزال لابة حربه، يركب المسلمون ويحملون عليهم والقوم على غرة، ففسى الله تعالى أن يظفرنا بهم وينصرنا عليهم» النويرى، نهاية الأرب، ورقة ٦٤ ب. ولا وجود لهذا الحديث في رياض النفوس أو معالم الأيمان أو ابن عذارى أو الباسي، ولكنهم يتفقون جميعاً على أنه هو الذي قتل جرجير في الموقعة الكبرى.

من حوفه واختبائه ولوم ابن الزبير إياه؟ معقول جداً أن يكون الرجل قد آثر التريث قليلاً حين وقف وجهاً لوجه أمام الروم ، وربما كان سبب ذلك أن جرجير ظهر بمظهر القوى العزيز الذي لا يأبه للعرب أو يحفل لهم ، وقد يكون لما رواه ابن عذارى من اختلافه مع الجند ودخوله فسطاطه مفكراً^(١) ظل من الحقيقة ، أما الخوف والاضطجاع في الفسطاط والحرب دائرة بين المسلمين والروم ، فأمر غير محتمل الوقوع ، ولا نزاع في أنه مكذوب ومخترع .

إلى جانب هذه الروايات التي تصف جبن ابن أبي سرح وتؤكد عجزه ، نجد رواية أخرى تؤكد أن ابن الزبير كان بطل هذا الميدان وفارسه ، وأنه هو الذي أنقذ المسلمين واختط لهم في الحرب خطة جديدة ، وقادهم في الموقعة ، وقتل جرجير ، وأبدى من صنوف الشجاعة وسداد الرأي وإنكار الذات ما يرفعه إلى مصاف أكبر الفاتحين المسلمين من أمثال خالد وعمر بن العاص ؛ ويغلب أن نجد الروايتين جنباً إلى جنب في معظم المراجع التي تقدم ذكرها : نجدها أولاً في رياض النفوس وابن الأثير ثم في^(٢) والنويري والمونس^(٣) .

أما ابن عبد الحكم فيذكر هذا الخبر في كثير من الحذر فيقول : « حدثنا

(١) أنظر : البيان المغرب ، ج ١ ص ٥ (٢) لا يذكر القيرواني شيئاً عن جبن ابن أبي سرح وخوفه ، وإنما يذكر قتل ابن الزبير لجرجير وأخذه ابنته .
(٣) لا يشير المالكي إلى خوف ابن أبي سرح ، ولا ينسب خطة تقسيم الجيش نصفين — نصف يحارب إلى الظهر ونصف يحارب من الظهر — إلى ابن الزبير ، بل يذكرها عرضاً ، ولكنه يشيد بشجاعة ابن الزبير : « فلما التقوا بالمسلمين نادى جرجير بالبراز ، فبرز إليه عبد الله ابن الزبير ومروان بن الحكم فقتله » (رياض، ورقة ٣) ؛ ونلاحظ أن في روايته مشابهة كبيرة لما نجيده في فتح أفريقية المنسوب للواقدي ، الذي نجد فيه عبد الله بن جعفر مكان عبد الله ابن الزبير ، وكلتا الروايتين في الغالب من اختراع الرواة ، فالأولى اخترعها دعاة العلويين والثانية ابتكرها دعاة ابن الزبير أثناء خلافته أو بعدها ، وليس من المستبعد أن تكون خلافة ابن الزبير وأعماله قد أصبحت أسطورة بعد مقتله الروائي ، ولا ننسى أن ابن الزبير كان شديد الافتتان بنفسه واسع الدعاية لها .

عبد الملك بن مسامة ، حدثنا ابن لهيعة قال : كان هرقل استخلف جرجير فخلعه ، ثم رجع إلى حديث عثمان بن صلح وغيره ، قال : فلقبه — ابن أبي سرح — فقاتله فقتله الله ، وكان الذي ولي قتله — فيما يزعمون — عبد الله بن الزبير ^(١) ، وكذلك البلاذري يسندها إلى ابن الزبير نفسه ويقول : « حدث محمد بن سعد ، عن الواقدي ، عن أسامة بن زيد بن سلم ، عن نافع مولى آل الزبير ، عن عبد الله بن الزبير قال : « أغرانا عثمان ، فسار عبد الله بن سعد بن أبي سرح حتى حل بمقوبة ، فقاتله أياماً فقتله وكنت أنا الذي قتلتته » ^(٢) . فإذا أخذنا بروايته ابن عبد الحكم والبلاذري — وهما أحق بالثقة من غيرها — كان في إمكاننا أن نشك كثيراً في المبالغات الشديدة التي ينسبها من بعدهما من المؤرخين إلى ابن الزبير ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن عبد الحكم نفسه ، يروي بعد ذلك خبراً صغيراً يهدم كل ما ينسب لابن الزبير ، ازدادنا تأكيداً من ذلك الرأي ؛ ذلك أن الرواية التي تنسب إلى ابن الزبير فخر موقعة سبيطلة وقتل جرجير ، تؤكد أنه أخذ ابنته جزاء له على ما فعل ^(٣) ؛ ولكن ابن عبد الحكم يروي رواية أخرى فيقول : « وكانت ابنة جرجير كما حدثنا أبو عبد الله بن عبد الحكم وسعيد بن عفير قد صارت

(١) ابن عبد الحكم فتوح ، ص ١٨٤ — ورواية ابن عبد الحكم عن الموقعة ناقصة ، لأنه لا يذكر مكانها ولا شيئاً مما وقع بعدها مباشرة (٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٣٦ (٣) يقول ابن الأثير : « وقتل جرجير ، قتله ابن الزبير وأخذت ابنة الملك سبية ، وقتل عبد الله بن الزبير ابنة الملك » ابن الأثير ج ٣ ص ٣٥ ؛ أما النويري فيقص هذه الحادثة في شيء من التطويل الذي يسمو بابن الزبير إلى درجات الأبطال : « وأسرت ابنة الملك وآتى بها إلى عبد الله بن سعد ، فسألها عن أبيها قالت قتلت ، قال أتعرفين قاتله ؟ قالت نعم إذا رأيته ، عرفته ، فلما أقبل — أي ابن الزبير — قالت هذا قاتل أبي ، فقال له بن سعد ما ممتع أن تعلمنا بذلك لنفي لك بما شرمناه ، فقال أصلحك الله ما قتله لما شرطت ، والذي قتله له يعلم ويجازى عليه أفضل من جزائك ولا حاجة لي في غير ذلك ، فنقله ابن سعد ابنة الملك ، فيقال إن ابن الزبير اتخذها ابنة ولد — النويري نهاية الأرب ، ورقة ٦٥ (١) وقد نقل المالكي ذلك فيما أورده من الروايات : رياض النفوس ورقة ٣

لرجل من الأنصار في سهمه ، فأقبل بها منصرفاً قد حملها على بعير له فجعل يرتجز :

يا ابنة جرجير تمشي عُقْبَتِكَ إن عليك بالحجاز ربتك

لتحمِلين عن قباء قربتك

قالت مايقول هذا الكلب ؟ فأخبرت بذلك ، فألقت بنفسها عن البعير الذي كانت عليه فدمت عنقها فماتت ^(١) . فكيف يتفق أن تصير ابنة جرجير لابن

الزبير ولرجل من الأنصار في وقت واحد ؟

ذلك مانستطيع أن نستنتجه من رواية ابن عبد الحكم ، فإذا أضفنا إلى ذلك مانلاحظه من الشك في رواية البلاذري ، إذ يسوق الرواية عن ابن الزبير نفسه ، استطعنا أن نؤكد أن قصة قتل ابن الزبير لجرجير ، وأخذه ابنته ، وإبدائه ما يروى من التعفف والورع والزهد . . . كل ذلك لا أصل له في الحقيقة ، ولم يكن يثق به أئمة الرواية الأول ، وإنما دسه الدعاة أو اخترعه الرواة ^(٢) ؛ هذا فضلاً عن أن هناك

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٥ ؛ ويبدو على هذه الرواية روثق الصدق ، وتحوى إلى ذلك معنى لطيفاً .

(٢) أول من أورد ذلك من المؤرخين هو ابن الأثير (+ ٦٣٠ هـ) ، ولكنها لا توجد في المراجع التي ثبت أن ابن الأثير أخذ عنها كالبلاذري (وقد عرفنا موقفه) والطبري (وليس فيه إشارة إلى ذلك أصلاً) والمسعودي (ولا وجود لها عنده) .

ويسوق النويري روايته عن الزهري ، عن ربيعة بن عباد الدبلي ، والزهري هذا هو — في الأغلب — المسور بن مخرمة الزهري الذي قص القصة الطويلة التي سبق ذكرها ، وزعم فيها أنه لقي عثمان في المسجد ليلاً مهموماً بأمر غزاة إفريقية . . . الخ (راجع ص ٧٩ — ٨٠ من هذه الرسالة) ، وقد شككنا في روايته الأولى ، لأن ما ينسب إليه عليه مسحة الأحاديث المكنوبة ، ولا نستطيع أن نثق فيما حكاه عن عبد الله ابن الزبير ، أما ربيعة بن عباد الدبلي الذي أخذ عنه الزهري ، فلا وجود له في الثبوت الذي أورده النويري عن كبار رجال الحملة ، ولا وجود له كذلك في معالم الإيمان .

أما ابن عذارى فيغلب أنه نقلها عن ابن الأثير وأضاف إليها ما سمعه من رواة عصره ، ولا بد أن الأسطورة كانت قد كبرت وشاعت حتى أيامه كما يبدو من روايته ، ويبعد أن يكون أخذها عن إبراهيم بن الرقيق لأنها لا توجد عند غيره ممن أخذوا عن ابن الرقيق كابن خلدون والبيهقي والحسن الوزان (ليون الأفريقي) .

نقرأ من المؤرخين — الذين يعتمدون على الرواية اليونانية — كالمسيو توكسييه .
يشك فيما إذا كان جريجوريوس قد قتل في معركة سيبطة أصلاً^(١) .

يخلص لنا من ذلك إن ما يقال عن بطولة ابن الزبير في أفرقية مشكوك فيه
جداً ، سواء من ناحية إسناده أو اتفاهه مع الواقع ، وهو أقرب إلى القصص التي
لا يمكن التعويل عليها في كتابة التاريخ .

نستطيع أن نوجز وصف الموقعة مما يصح لنا ويثبت من أقوال المالكي
وابن الأثير والنويري وابن عذاري :

(١) كتب الأستاذ Tauxier في المجلة الأفريقية La Revue Africaine (سنة ١٨٨٥
ص ٢٨٤ — ٣٠٣) مقالا ذهب فيه إلى أن جريجوريوس لم يقتل في موقعة سيبطة ، اعتماداً على
قول تيوفانيس في (Chronographia ص ٢٨٥) : « هزم جريجوريوس وقتل من معه » ،
ويقول توكسييه في تعليل ذلك : « وعلى الرغم من ذلك فإنه — أي جريجوريوس — لم يرد له
ذكر في التاريخ بعد ذلك ، فلم يكن هو الذي أكمل الكفاح ولم يكن هو الذي فاوض ابن سعد
في رجوع الغزاة العرب ، إذ أقام الأفارقة مكانه جناحه Ghenaha ، واستغنوا عن الرجوع
إلى أحضان القسطنطينية » ، أما جريجوريوس فإنه بعد أن طرده رعاياه الأول من الحكم لم يعد
يمكنه البقاء في البلاد ، إذ لم يكن جناحه يسمح بذلك ، ولم يكن يفكر كذلك في القسطنطينية
خوفاً مما كان ينتظره فيها من العقاب الصارم جزاء ثورته ، ولم يبق له بعد ذلك إلا أن يسلم نفسه —
بمروط — إلى الفاتحين ، ومن ذلك أستطيع أن أستنتج أن الذي حدث هو أن عبد الله بن سعد
اصطحبه معه في رجوعه إلى مصر ، وأدخله هليوبوليس حيث مات ، وهذا هو التفسير الوحيد المعقول
لما يقال عن موت أخ هرقل في هذه المدة . وهذا رأي خاطيء لا يبرزه أي برهان ، ولو
كان جرجير مع عبد الله لما أغفل العرب ذكر ذلك لأن ذلك أمر له أهميته وخطره . ثم إن
موت جرجير في هليوبوليس ، بعد رجوع العرب بست سنوات — أي سنة ٣٣ — لا ذكر له
في الروايات ، وإذا كان تيوفانيس قد قال إن أخاً هرقل مات في هليوبوليس في هذه السنة ،
فقد بطلت حجة توكسييه ، لأن جريجوريوس لم يكن أخا هرقل .

ثم يقول الأستاذ توكسييه بعد ذلك : ثم إن لنظريتي هذه نتيجة مباشرة ، وهي رفض الأسطورة
التي يرويها مؤرخو العرب من أن ابنة لجويجوريوس أسرت أثناء موقعة سيبطة ، وقد سبق
أن أثبت المسيودي سلان (في تاريخ البربر ج ١) أن هذه الروايات — يقصد الروايات
العربية — أخذت لإحداها عن الأخرى ، وانتهى من ذلك إلى أنه لا يثنى من هذه الروايات
إلا برواية ابن عبد الحكم الذي يصور لنا جريجوريوس مقتولا على يد عبد الله ابن الزبير .

دارت المعركة على مقربة من حصن عقوبة^(١)، إذ تقدم العرب من قونية بعد أن فشلت مفاوضاتهم^(٢)، وكان جريجورس مجتمعاً بأعيان قومه على مقربة من باب الحصن^(٣)، يدير دفة القتال، وربما كان قد اصطحب معه ذويه وجعلهم داخل الحصن (انظر هامش ٣)، ومن هنا نشأت أسطورة ابنة جرجير، وكان جيش الروم على مبعده من الحصن، وهناك دارت الموقعة^(٤)، وظلت المناوشات أياماً حتى أجهد الفريقان، ولجأ العرب إلى الحيلة المعروفة التي تؤكد أنها أغلب الروايات وتنسبها إلى ابن الزبير إذ قال: «والرأى عندي أن نترك غداً إن شاء الله أبطال المسلمين في خيامهم بخيلهم وعددهم، ونقاتل ببقايا الناس على العادة»، ونطول في القتال حتى يتعب القوم، فإذا انصرفوا ورحل كل إلى مضر به وأزال لامة حربه يركب المسلمون ويحملون عليهم والقوم على غرة»^(٥)،

(١) البلاذري، فتوح البلدان؛ ص ٢٢٦

(٢) جاء في الادريسي: «قوده» ولم يرد ذكر قونية بهذا الرسم عنده ولا عند البكري، ولم يحدد موقعها أحد من الجغرافيين، وربما كانت هي الأخرى حصناً كبيراً.

(٣) عن المالكى: «فانهزم جرجير ولزمه عبد الله بن الزبير في مجاج الموت، ففره بمن معه من أشرف قومه، ففرت عنه أصحابه وقتله إلى جانب السور، وابنته تنظر من السور (ورقة ٣)» (٤) يذكر ابن عذارى رواية عن عبد الله بن الزبير: «واتبعوني حتى خرقت صفوفهم (أي صفوف الروم) إلى أرض خالية فضاء بيني وبينهم، فاحسب إلا أنى رسول إليه». وبقيّة كلام ابن الزبير مشكوك في صحته، لأنه يفهم منه أن ابن الزبير قتل جرجير أمام جمع كبير من المسلمين، ولم يقل بذلك حتى النويرى نفسه، إذ المقول أنه قتله في وسط المعركة، ولم يره إلا ابنة جرجير التي كانت تنظر من السور.

(٥) النويرى، نهاية الأرب، ورقة ٦٥ (١)

وسياق حديث النويرى يدل على أن الصفاء لم يكن متبادلاً بين ابن سعد وابن الزبير، إذ أنه لبث أياماً بعد وصوله من المدينة لا يرى ابن سعد ولا يحفل له (ورقة ٦٤ ١)، وماذا فهم من قول ابن الزبير: «أصلحك الله ماقتلته لا شرطت، والذي قتلته له يعلم ويجازى عليه أفضل من جزائك ولا حاجة لى في غير ذلك»؟ (ورقة ٦٥ ب)، وقد روى ابن عذارى ما يدل على ذلك، إذ جرى ذكر خمس خراج إفريقية — الذى أعطاه عثمان لمروان بن الحكم — في مجلس معاوية، فقال ابن الزبير: «خرجنا مع عبد الله بن أبي سرح إلى إفريقية (ولم يكن) =

وظاهر أن ذلك لم يحدث إلا بعد قدوم عبد الله ابن الزبير^(١) وأصحابه من المدينة ، إذ تحمس المسلمون وبدأوا الموقعة ، ومن المعقول أن يكون ابن الزبير قد أبلى فيها بلاء حسناً ، « فقاتل الروم مع المسلمين إلى الظهر قتالاً شديداً ، فلما أذن الظهر هم الروم بالانصراف على العادة ، فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، فألقى كل من الطائفتين سلاحه ووقع تعباً ، فمئذ ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين ، وقصد الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد ، وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون ، وقتل جرجير — قتله ابن الزبير ، وانهزم الروم — وقتل منهم مقتلة عظيمة »^(٢) .

== أحسننا وجهاً ولا أكثرنا نفقة ولا أعظمتنا .. » (البيان المغرب ص ٨) والنص غير كامل ، وهذا الرأي يتعارض بالطبع مع ماورد في الخطبة التي تنسب إلى ابن الزبير عن فتح إفريقية ، التي يثنى فيها ابن الزبير على عبد الله ابن سعد ثناء طيباً ، وهي ظاهرة الإتحال — أنظر نص الخطبة في العقد الفريد لابن عبد ربه ، ح ٢ ص ١٨١ — ١٨٢ .

(١) أخطأ جيون فذكر أن الزبير بن العوام هو الذي اشترك في فتح إفريقية والصواب ابنه ، وأخطأ كذلك لحرف عبد الله بن سعد إلى عبد الله ابن سعيد ، وقد سلم جيون بقصة ابنة جرجير ، بل أضفى عليها من بيانه حلة روائية فقال : « وقيل إن ابنة جرجير ، وهي غادة نادرة الجمال ، كانت تقاتل إلى جانبه ، وكانت منذ نعومة أظفارها مدربة على ركوب الخيل ، وعلى الرمي بالسهم ، والطنن بالسيف القصير ، وكانت الحلبي في ذراعيها ... ظاهرة بارزة في معبدة القتال ، وقد ذهب جيون إلى أن عبد الله غادر ميدان القتال بعد أن ألح أصحابه عليه في ذلك (كذا) ، وأن العرب وهنت عزيمتهم بعد انسحاب قائدهم وبعد هذه المناوشات المشابهة الفاشلة » ، وكل هذا غير صحيح كما نعلم ، وبقية روايته مليئة بالأخطاء ، وقد أضاف هو من عنده شيئاً كثيراً Gibbon : Decline..., II pp. 760 - 373 . ومن الثابت أن جيون أخذ تاريخ فتح إفريقية عن كتاب Cardonne, Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la domination des Arabes . ومن الترجمة الناقصة التي قام بها أوتر Otter لتاريخ التويرى ، والكتاب الأول كثير الأخطاء ، ويشك الأستاذ فورنل في أنه اطلع على المصادر التي يقول إنه اطلع عليها ، وقد ظل موضع الثقة نحواً من ثلاثين سنة حتى اتضح خطؤه ، فالصرف عنه أكثر المؤرخين . راجع رأى فورنل في كاردون وجيون وأوتر Les Berbères I, pp. VI, VI في

(٢) ابن الأثير ، ح ٣ ص ٣٤

فلما أن تأكد الروم أن الدائرة عليهم استداروا وعادوا نحو الحصن مسرعين
يبنفون الاعتصام خلف أسواره من العرب الذين كانوا يتتبعوهم بالسيوف ، ويظهر
أن خيل العرب سبقت مقاتلة الروم إلى باب الحصن ، « فخالوا بينهم وبين الدخول
إلى حصنهم ، فركبهم المسمومون يمينا وشمالا ، في السهل والوعر ، فقتلوا فرسانهم
وأتجأهم » ^(١) . فسقط الحصن بمن فيه (وفيهم آل جرجير وابنته — لو كانت
له ابنة) .

تقدم العرب بعد ذلك إلى سُبَيْطَلَة ^(٢) نفسها ، وهي على مقربة من عقوبة ،

(١) رياض النفوس ، ورقة ٣ ، ولا يبعد أن تكون خيل العرب قد أدركت جرجير ومن
سمعه وهم على مقربة من الحصن فقتلوه .

(٢) تقع سبیطلة في وسط سهل تونس على وجه التقريب ، على أحد فروع نهر مجرد ،
وكانت الطرق الحرية الرومانية ثم البيزنطية تصلها بكل المدائن الكبرى والسالح والمحارس التي
كانت تملأ ذلك السهل ، وكانت تقع على الرباط الثاني — الذي يبدأ عند الساحل عند مغمداس
الصغرى ، ثم يمر بها فسيبية فالأربس فالكف ثم إلى البحر شمالا . وكانت لها قلعة حصينة بنيت
في القرن الرابع (راجع رسمها في ديل ص ٢٩٣) ، وقد بدأت أهميتها تظهر منذ ذلك القرن حين
استولى البربر على الرباط الأول (قفصه — ثلثت — نفست — أمايدرا) وأصبحت الدولة
تعمل على الرباط الثاني الذي تعد سبیطلة من أمنع حصونه Georgii Chiprii, 35
Diehl, op. cit. p. 279 . ولما انتشرت المسيحية في أفريقية ، لم تلبث سبیطلة أن أصبحت أسقفية
يقيم فيها أسقف ، وبنيت فيها كنيسة كبيرة (ديل ص ٤١٥ و ٤٢٨) ، وقد بقيت حصونها
على منعتها وحالها حتى الفتح العربي . ولما كان جرجير يوروس قد ثار بالدولة واستقل عنها ، لم يكن
له بد من التعويل على عون البربر وحلفهم ، وكان يخشى الروم ، فرغب عن المقام بقرطاجنة لغربها
من البحر وسهولة إدراكها بالأساطيل ، فأنحاز إلى الداخل ، وتخير سبیطلة لاذ كانت قد أصبحت
أعظم مدن السهل الداخلية بعد تهدم أسوار نفست — أمنع مدن الأقليم — من كثرة مآدار
بها من الحرب ، وهناك لبث حتى وافاه العرب ؛ وكانت المدينة في ذلك الوقت — كما يقول
ديل — غنية وكبيرة: Diehl, op. cit. p. 557 ؛ وقد ذكرها « شو » في « رحلاته » ورأى
أطلالها ، وحدد موضعها جنوبي قرطاجنة بمائة وخمسين ميلا ، وذكر أنها تشرب من مجرى
وغير المياه ، وأنها تختفي خلف غابة من الأشجار السامقة ، وذكر كذلك أنه رأى فيها أطلال
قوس نصر وثلاثة معابد ذات أعمدة كورنثية الطراز : أنظر Shaw : Travels in Morocco
p.p 118—119 جاء ذكرها في جغرافية أبي الفداء ، لاذ قال عنها « سبیطلة كانت كرسى
مملكة أفريقية في القديم ولها آثار عظيمة تدل على ذلك : (طبعة Reinaud ص ١٤١) وذكر =

فحصروها حصراً شديداً حتى سقطت في أيديهم ، فأصابوا فيها خلقاً كثيراً ، وأكثر أموالهم الذهب والفضة » (١) .

أصبحت ولاية إفريقية كلها تحت رحمة العرب بعد هذه الموقعة ، فأخذوا يهبون ما يجدونه حتى جمعوا غنيمة طائلة ؛ ويظهر أنهم لم يغادروا ناحية إلا وصولها ، وبلغوا سفوح الجبال حيث ترعى قطعان البربر ، فاستاقوا كثيراً من الماشية (٢) ، واجتمع للعرب من ذلك كله ثروة طائلة قسمت على المقاتلين بعد أن خُصِّست ، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألف دينار (٣) .

تفرقت قوة الروم بعد واقعة سيطة ، وانحاز أغلب المهزمين إلى الشرق في حصن « الجَم » (٤) جنوبى الموقع الذى بنيت فيه القيروان بعد ، وهناك تراجعت

== دى فرجير أن السير جرافل تمبل زار أطلالها حوالى سنة ٨٤١ م ورأى فيها قوس نصر وثلاثة معابد وحمامات وحوض ماء من زمن Auralius Verus وأعمدة رءوسها مصنوعة بعناية وأرضية بالفسيفاء مما يشهد بعظمته الخالصة Des Vergiers. p. 3 وقد جاء فى الأدريسى عنها « كانت مدينة جرجيس ملك الروم الأطارفة ، وكانت من أحسن البلاد منظراً وأكبرها قطراً ، وأكثرها مياهاً وأعدلها هواء ، وأطيبها ثرى ، وكانت فيها بساتين وجنان ، وافتتحها المسلمون فى صدر الإسلام ، وقتلوا فيها ملكها العظيم المسمى جرجيس ، ومنها إلى مدينة فقهه مرحلة وبعض ، ومنها أيضاً إلى القيروان ٧٠ ميلاً : الأدريسى ، ص ١١٥

(١) النويرى ، ورقة ١٦٦ (٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٧

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٤ — ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٥ — والنويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٥ (ب)

(٤) الجَم (الأجم — العجم — الأبحام) كانت معروفة أيام البيزنطيين باسم Thysderas وكانت مركزاً حربياً هاماً طوال العمر البيزنطى إذ كان يجتمع عند حصنها عدد عظيم من الطرق الحربية ، ويذهب ديل إلى أنها كانت لا تزال على جانب كبير من المتعة فى القرن السابع Diehl, op. cit. pp. 415, 535 وقد وصفها التيجانى فى رحلته بقوله : « هو أعظم حصون إفريقية وأشهرها على القوم ، وليس بعد الحنايا التى بالقرملاجة بناء أضخم منه وأعجب ، وشكله مستدير ، وارتفاعه فى الهواء مائة ذراع ، وذكر البكرى أن تكسير دائرته فى الأرض ميل : رحلة التيجانى ، ورقة ٢٣ (١) . وقال كودل إن قصر العجم (الذى تجمع فيه الروم) إن هو إلا الملعب الرومانى الذى كانت مساحته المظيمة تشغل المساحة التى تشغلها قرية الجَم الحالية Caudel op. cit. II, pp. 72-79

جموعهم داخل بناء كبير حصين — يظن أنه حصن بيزنطي ، ويذهب كودل إلى أنه الملعب الروماني — فأسرع ابن أبي سرح وحاصر الحصن بمن فيه .

في ذلك الحين كان جند العرب يجتاحون البلاد بهمة عظيمة ، ويستاقون كل من يجدونه أسيراً ، ويصيبون كل ما يظفرون به في المدن غنيمة ، « فلما رأى ذلك رؤساء أهل إفريقية ، طلبوا إلى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم مالا على أن يخرج من بلادهم ، فقبل منهم ذلك ، ورجع إلى مصر ولم يول عليهم أحداً ، ولم يتخذ بها قيرواناً »^(١) .

لماذا عجل عبد الله بن سعد بالعودة ؟ ولماذا قبل أن يتخلى عن كل ما كسبه بعد هذا القتال العنيف لقاء مبلغ من المال ؟ أكانت هذه القدية العظيمة هي كل ما قصد إليه من وراء هذه الحملة الخطيرة ؟ أم كان يرجو أمراً بعد ذلك ولكن أحداثاً اضطرتّه إلى التعجيل بالعودة ؟ هنا نجد في رياض النفوس بضعة أسطر تلقى بعض الضوء على هذه المسألة الغامضة ؛ يقول المسالكي : « وأقام ابن أبي سرح وهو أمير سببلة على عسكره ، فلما رأى الروم الذين بالساحل ما حل بجرجير وأهل سببلة ، غارت أنفسهم ، وتجمعوا ، وكاتب بعضهم بعضاً في حرب ابن أبي سرح ، فخاف منهم لما معه من الغنائم ، فكتب إلى خليفته بمصر يأمره أن ينفذ إليه سراكب في البحر ، يجعل فيها غنائم المسلمين ، فأخذ خليفته فيما أمره به ، فاتصل بالروم قصد ابن أبي سرح إياهم . . . لحربهم ، فخافوا وراسلوه ، وجعلوا له جُعلاً على أن يرتحل بجيشه ولا يعترضوا بشيء ، ووجهوا إليه مائة قنطار ذهباً ، فأجابهم إلى ذلك وانصرف عنهم راجعاً إلى مصر ، بعد أن أقام بإفريقية سنة وشهرين ، فلما وصل إلى طرابلس وافته المراكب ، فحمل فيها أثقال جيشه ، ونفذ هو وأصحابه إلى مصر سالمين »^(٢) .

تعجيل
المسلمين
بالعودة ،
وأسباب
ذلك

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٤ ، ولا اختلاف بين المؤرخين في ذلك .

(٢) رياض النفوس ، ورقة ٤ — ونقلها عنه ابن الناجي في معالم الأيمان ، ج ١ ص ٣٨ — ٣٩

قبل تحليل هذه العبارة ينبغي أن نلاحظ بضعة أشياء :

أولها — أن موقعة سبيطة لم تفتح أمام العرب كل سهل تونس بل جزءاً محدوداً منه يحدده الخط الممتد من سبيطة نفسها إلى سوسة من الشمال ، ثم من سبيطة إلى قفصة جهة الشرق ، وشريط ساحلي ضيق محصور بين قابس وشط الجريد من الجنوب ، وبلى ذلك في الشمال بلاد واسعة ملأى بالحصون والمساح والمخارص ، على اتصال دائم بالبحر ، تستطيع أن تقاوم مقاومة عنيفة ، وربما خاف المسلمون — إن هم تقدموا شمالاً — أن ينحدر البربر بجموعهم من الغرب فيحصرهم من الجنوب فيقعوا بين نارين ، وربما انتهى الأمر بهزيمتهم^(١) ، فانتصار عبد الله ابن أبي سرح في سبيطة لا يمكن أن يسمى فتحاً لإفريقية ، وكان لا بد لإكمال هذا الفتح من السير إلى الشمال والاستيلاء على قرطاجنة^(٢) .

وثانيها — أن جيش المسلمين قد قضى حتى هذه الواقعة خمسة عشر شهراً في إفريقية ، وأنه جمع خلال تلك المدة من الغنائم شيئاً كثيراً جداً^(٣) ، كان موضع

(١) وسيحدث هذا مزاراً فيما يلي ذلك من فتوح إفريقية .

(٢) تشبه هذه الواقعة واقعة عين شمس في فتح العرب لمصر ، ولا يمكن أن يقال إن مصر فتحت عقب الموقعة المذكورة ، ولو أن عمرأ انصرف عقب انتصاره في عين شمس لكانت حملته كأن لم تكن .

(٣) في ذلك يقول كودل : « ويدعش الإنسان من كثرة ما أصاب الجندي الواحد من الغنيمة ، ولكن ينبغي أن نذكر جيداً أن هؤلاء الرجال (أي جند المسلمين) ظلوا طوال بضعة أشهر ينتقلون من قرية لقرية ، ومن مدينة لمدينة ، يجمعون — بما عرف عنهم من العناية الفارغة بهذا العمل — كل ما استطاعوا حمله ، ولا بد أن المحصول كان كبيراً ، بحيث فكر عبد الله في التراجع مباشرة حين لاحت له مخايل المقاومة التي أبداهها أهل الساحل »
Caudel, op. cit. II p. 77

ولم يزد كودل في تعليقه على الحملة كلها على أن اعتبرها غارة للسلب والنهب ، لا مقصد وراءها ولا غاية ترمى إليها ، ... ولم تعد للجندي العربي — وقد أغناه ما غنم — رغبة في الحرب ، ولم يعد يفكر إلا في الرجوع ، وكان القادة يملون هذا الميل كذلك ، قم الاتفاق مع الأهليين =

الدهشة عند كل الرواة ، ولا نزاع في أن الجند كانوا يحرسون أشد الحرص على ما يصيبون من غنيمة ، فلا يبعد أن تكون كثرة الغنائم قد مالت بهم إلى العودة إلى بلادهم ، وأنهم خافوا أن يفاجئهم الروم أو البربر فيسلبوا منهم ما غنموا .

وثالثها — أن الوثام لم يكن سائداً بين قادة هذا الجيش ، وقد لاحظنا شيئاً من التوتر بين عبد الله بن الزبير وعبد الله بن سعد ، كلاهما يحاول السيطرة على الآخر وقيادة الجند^(١) ، وتستجد أن ابن أبي سرح لم يكدر يثم له النصر حتى بعث عبد الله بن الزبير ليشير عثمان بالفتح ، وربما أراد بذلك أن يتخلص منه ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من عدم ثقة ابن أبي سرح بمن معه ، وتخوفه منهم ، استطعنا أن نفهم سبباً من أسباب هذه العودة المفاجئة .

ورابعها — أن جيش العرب كان صغيراً ، كان عشرين ألفاً في بادئ الأمر ، ولا بد أنه تناقص كثيراً بعد هذه الوقائع والمناوشات ، ولم تصله أمداد إلا النفر القليل الذي أقبل مع عبد الله بن الزبير . وإذا كان المسلمون قد طال تخوفهم قبل موقعة سبيطلة ، « ودخل ابن أبي سرح فسطاطه مفكراً » ، فلا بد أن قوة الجيش الإسلامي كانت قد ضعفت جداً بعد هذا الكفاح الشديد .

وخامسها — أنه لا يبعد أن تكون حاميات المدائن والمسالح قد تواصلت وتفاهمت على أن تهض لمقاومة ابن أبي سرح ، وربما جرائهم على ذلك ما رأوا من قلة عدد المسلمين .

= الذين فضلوا دفع ضريبة على أن يدخلوا مع العرب في قتال ، فإذا ما دفع المبلغ ، شرع الجيش في العودة ، وبهذا انتهت حملة العرب الأولى على أفريقية . Caudel, op. cit. II, p. 78. وراجع كذلك Fournel, op. cit. I, pp. 127, 128 والغالية ممن تناولوا الكلام على هذه الفزوة من الأفرنج على هذا الرأي .

(١) خصوصاً إذا صدقت رواية الطبري التي يذهب فيها إلى أن عامة الجند كانوا ساخطين على عبد الله بن سعد ، وأنهم طلبوا إلى عثمان أن يعزله عنهم (بعد موقعة سبيطلة) فأجابهم إلى ذلك : « قالوا : فاعزله عنا فإننا لا نريد أن يتأمر علينا وقد وقع ما وقع » : الطبري ، ج ٥ ص ٤٨

سادساً — أن ابن أبي سرح كان قد طالت غيبته عن عاصمة ولايته مصر ، ولا شك في أنه كان يميل بعد ذلك إلى الرجوع للنظر في أمورها .

إذا ذكرنا ذلك كله لم نستبعد أن يكون فيما قاله المالكى بعض الحق ، نعم أن قوله إن ابن أبي سرح بعث إلى خليفته بمصر يطلب منه سفناً يحمل فيها غنائم المسلمين لا يؤيده مصدر آخر ، ولكنه معقول ، وقد يكون ابن أبي سرح قد أراد أن يطمئن الجند على مصير غنائمهم ، فأرسل يطلب سفناً يحمل عليها الغنائم ، حتى لا يخاف الجند أن يفاجئهم الأعداء فيغصبوهم إياها ، بل لا نستبعد كذلك أن يكون ما ذكره المالكى هو التعليل الوحيد المعقول لهذه العودة السريعة التى لا تبررها مقدمات الحملة ، وما كان يرجى من ورائها من عظيم الأمر .

على أى الأحوال تتفق الروايات على أن عبد الله بن سعد صالح الروم وأهل البلاد على أن ينصرف عن بلادهم لقاء مبلغ من المال ، يقدره البعض بألني ألف وخمسمائة ألف دينار^(١) ، ويقدره البعض الآخر بثلاثمائة قنطار من الذهب^(٢) .

وأضاف النويرى إلى شروط الصلح بين الجانبين قوله : « وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم ، وما أصابوه بعد الترداد ردوه عليهم^(٣) » ، وهى ملاحظة على جانب عظيم من الأهمية ، إذ تدل على أن ابن أبي سرح

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥ ، والسلاوى ٣٥ — ٣٦ قدر دى سلين الدينار في ذلك الحين

بعمرة فرنكات والدرهم بعمرة سنتيات Journ. Asiat. 1858

(٢) النويرى ، نهاية الأرب . ورقة ٦٦ (١) ، وكذلك فعل ابن الناجى في معالم الإيمان إذ ذكر الثلاثمائة قنطار من الذهب وقال إنها تساوى ١٥٠٠٠٠٠ دينار ، ثم عاد فنقض نفسه فقال إن الخمس بلغ ٤٠٠٠٠٠ دينار ، مما يجعل المبلغ نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار — معالم الإيمان ، ج ١ ص ٣٣ ؛ وذكر ديل أن الروم صالحوا العرب على ثلاثمائة تالان Talent من الذهب ، مما يفهم منه أن القنطار المذكور هنا يساوى تالان Diehl op. cit. p. 560 وقد حاول ياقوت أن يقدر القنطار بأن قسم قيمة الغنيمة بالدنانير على قيمتها بالقناطير ، فوفق في ذلك ، وقدر القنطار بثمانية آلاف وأربعمائة دينار ، وهو رقم قريب من الصحة (الصحيح ٨٣٣٣) ياقوت ج ١ ص ٣٢٥

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ٦٦ (١)

حرص على أن يستبقى ما فتحه من البلاد ، ولعل النويرى ينفرد بذلك عن غيره من المؤرخين ، وربما كان عبد الله بن أبي سرح قد صالح أهل البلاد على ذلك ولكنه لم يتخذ الإجراء الذى يكفل له تنفيذ هذا الشرط ، فلم يترك خلفه حاكماً ولا حامياً ولا قيرواناً ، فأصبح أهل البلاد فى حل من أن يستردوا ما أخذهم منهم ، وهكذا فعلوا .

وكان عبد الله بن سعد قد سارع بإرسال عبد الله بن الزبير إلى المدينة ليحمل البشارة بالفتح إلى عثمان ، فيقول بعض الناس : « دخل المدينة من سبيلطة فى عشرين ليلة ، وبعضهم يقول وافى المدينة فى أربعة وعشرين يوماً ، ولا يستغرب ذلك من مثله ^(١) » .

بقيت مسألة لا بد من الوقوف عندها لحظة قبل الفراغ من أمر هذه الحملة ، وهى بحث الرواية التى تذهب إلى أن عثمان أعطى خمس فى إفريقية إلى مروان ابن الحكم ، وإلى أن هذا كان من الأمور التى أخذت على عثمان .

نجد تفصيل هذه المسألة فيما رواه الطبرى ^(٢) عن تاريخ فتح إفريقية ، وإليك روايته : « كتب إلى السرى عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة . . . وقال — أى عثمان — لعبد الله بن سعد : إن فتح الله عز وجل عليك غداً إفريقية ،

(١) النويرى ، نهاية ، ورقة ١٦٦ ويذكر المونس (ص ٢٤) أنه بلغها فى خمسة وعشرين يوماً ، وذكر ابن الناجى (معالم الأيمان ، ص ٣٤) أنه بلغ المدينة فى ثمانية عشر يوماً ، وهو مبالغ فيه . وقد ذكر ابن الأثير أن أبا ذؤيب الهذلى الشاعر كان فى محبته ، فسات الشاعر فى طريقه إلى المدينة — ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥

وقد أورد ابن عبد ربه نص الخطبة التى ألقاها عبد الله بن الزبير فى المدينة ، يصف فيها فتح إفريقية ، ونلاحظ أنه ليس فيها إشارة إلى قتله جرجير أو إلى إشارته على عبد الله بن سعد بالخطبة التى اتبعت فى موقعة سبيلطة ، ويشير فيها إلى استيلاء مروان بن الحكم على الغنيمة كلها ، وأول الخطبة وآخرها يدل على أنه قد دخلها تحريف وزيادات كثيرة ، وعليها كلها مسحة الأحاديث الموضوعة . العقد الفريد لابن عبد ربه ، ج ٢ ص ١٨١

(٢) وفى رواية الطبرى لحوادث هذه الغزوة خطأ كبير ، واسنا بسبيل مناقشة روايته ، ولكن المسألة التى نمرض لها الآن تعد من ذيل فتح إفريقية التى تتصل بتاريخ الدولة كلها ، فيحسن الاعتداد عليه فيما يتصل بها .

فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلًا . (ثم يقص قصة الفتح بإيجاز لا يخلو من خطأ) وقسم عبد الله ما أفاء الله عليهم (على الجند) ، وأخذ خمس الخمس ، وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان ، مع ابن دثيمة النضرى ووفد وفد ، فشكوا عبد الله فيما أخذ ، فقال لهم أنا نفلته ! ، وكذلك كان يصنع — أى عثمان — وقد أمرت له بذلك ، وذلك إليكم الآن فإن رضيتم فقد جاز وإن سخطتم فهو رد ، قالوا فإننا نسخطه ، قال فهو رد ، وكتب إلى عبد الله برد ذلك واستصلاحهم . قالوا : فأعزله عنا فإننا لا نريد أن يتأمر علينا وقد وقع ما وقع ، فكتب إليه أن استخلف على إفريقية رجلاً ممن ترضى ويرضون ، واقسم الخمس الذى كنت نفلتك فى سبيل الله ، فإنهم قد سخطوا النفل ، ففعل ، ورجع عبد الله بن سعد إلى مصر وقد فتح إفريقية وقتل الأجل (أى البطريق^(١)) يفهم من هذه الرواية أن هذه الشكوى رفعت إلى عثمان وعبد الله ما زال فى إفريقية ، فممن يكون الخبر قد بلغ أهل المدينة وأسخطهم إلا من عبد الله ابن الزبير ومن وفد معه بأخبار الفتح ؟ لقد رأينا أن الود لم يكن معقوداً بين ابن الزبير وابن أبي سرح فى إفريقية ، ورأينا الأول يُقبل على معسكر المسلمين فلا يسلم على القائد ، ثم يخاطبه فى لهجة لا تخلو من شدة ، ورأينا ابن أبي سرح لا تكاد تسنح له الفرصة للخلاص من ابن الزبير حتى يسارع فيرسله إلى المدينة^(٢) ولا حظنا كذلك أن ابن الزبير لم ينس فى آخر خطبته أن يقول إن مروان بن عبد الحكم صفق على غنائم الحملة كلها^(٣) .

(١) الطبرى ، ج ٥ ص ٤٨ فى حوادث سنة ٢٧ هـ

(٢) لو أن الصفاء كان معقوداً بين الرجلين لكان ابن أبي سرح أحرس على أن يستبق

ابن الزبير لأنه كان ممن لا يستغنى عنهم .

(٣) ولا عبرة بالثناء العريض الذى تخلله الخطبة على ابن أبي سرح ، لاذ يفلب أن ذلك

من تكلف الوضع ، ولا يتفق مع ما سبقت الإشارة إليه من حديث ابن الزبير عن ابن أبي سرح

فى مجلس معاوية — راجع ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٨

فإذا أضفنا إلى ذلك أن المراجع تتفق على أن عبد الله بن عباس^(١) هو الذى قسم غنائم الحملة بين الجند ، — وعبد الله بن عباس رجل له مقامه ولا شبهة فى دينه ونزاهته — تبين أنه من المستبعد أن يستطيع ابن أبى سرح أن يؤثر فيه وأن يجعله ينحرف هذا الانحراف ؛ وكيف يتفق مروان بن الحكم أن يصفق على الغنائم كلها فى حين يقوم بتقسيمها عبد الله بن عباس ؟ وأين شكوى هذا الأخير وهو أحق الناس بالشكوى والاعتراض ؟ ثم إن لدينا رواية أخرى لابن عبد الحكم ساقها عن رواية لا يرقى إلى صدقه شك وهو ابن لهيعة ،^(٢) تدل على أن توزيع الغنى كان يجرى بغاية الدقة والنزاهة ، فكيف يتفق هذا مع ما حدث وشاع ذكره من إساءة التصرف فى غنائم الحملة وأخذ عبد الله بن سعد خمس الخمس لنفسه ؟

بيد أن وعد عثمان لعبد الله بن سعد بأن يعطيه خمس الخمس نفلاً يحتاج إلى شيء من الإثبات ، لقد رواه مع الطبرى ابن الأثير وأبو المحاسن والسلوى ،^(٣) ويغلب أن يكون هؤلاء قد أخذوه عنه ، ولكنه لم يرد عند البلاذرى وابن عبد الحكم ، ولا وجود له كذلك عند من لم يأخذ عن الطبرى كالنويرى وابن عذارى والمالكي والديلمى والباجي ، فكيف غاب أمره عن كل هؤلاء على ما له من الأهمية وبعيد الخطر ؟

قد تكون أموال إفريقية قد نالها العبث حين انتهت إلى المدينة ودخلت بيت المال — وكان يقوم عليه مروان بن الحكم — وقد يكون هذا من الأمور

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٢ (١) — الباجي : الخلاصة النقية ، ص ٧

(٢) فكانت غنائم المسلمين يومئذ — كما حدثنا عبد الملك ابن مسعدة عن ابن لهيعة عن أبى الأسود عن أبى أويس — كان أبو الأسود مولى لنا قال : فقسم لرجل من الجيش توفى بذات الحمام فدفع إلى أهله بعد موته ألف دينار ، ابن عبد الحكم فتوح ، ص ١٨٤

(٣) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٤ — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٩ — السلوى ، ص ٣٦

التي أخذت على عثمان وكانت سبباً من أسباب سخط الناس عليه ؟ وتعليل هذا أن عثمان كان رجلاً مسناً لا يكاد يفطن إلى عبث مروان ، وقد يكون قد تهاون في الرقابة على بيت المال حتى أصاب منه آل الحكم نصيباً وافراً ، ولكن يستبعد أن يكون عثمان قد وعد — بلسانه — أن ينفل ابن أبي سرح مالا هو أعلم الناس أنه مال المسلمين كافة .

وإذا ذكرنا عظم الغنيمة التي أصابها المسلمون من إفريقية . لم نستبعد أن يشك الناس في أن قسم هذا الغنيمة قد سار بالتقسطاس ، بل لا نستبعد أن يختلق ابن الزبير على ابن أبي سرح ذلك وينشره بين الناس ليشير بسخطهم عليه ، وكان كل ما يقال عن عثمان وولاته يصدق في هذه السنوات .

ولا شك أن الناس افترضوا على عثمان بالباطل أضعاف ما أتى ، ولا نزاع في أن جو المدينة كان يرحب في هذه الأيام (أواخر سنة ٢٧ هـ) بكل ما يقال عن عثمان ، ومن هنا لا نستبعد أن يكون ابن الزبير الساخط قد لقي في المدينة نفراً من الساخطين على عثمان ، فاجتمع سخطه إلى سخطهم ، فنشأت هذه الفرية ونمت ، وانتشرت على عثمان وعامله في مصر وإفريقية^(١) .

دامت هذه العزوة خمسة عشر شهراً . إذ بدأت — باتفاق الرواة — سنة ٢٧ هـ^(٢) ، ولا بد أنها انتهت في سنة ٢٨ هـ (٦٤٧ — ٦٤٨ م) ، فإذا صدق

(١) ثم إن من أوردوا هذه الرواية يختلفون فيما بينهم : فيقول أبو المحاسن : « وصالحه بطريقها على ألف دينار ، فأطلقها عثمان كلها في يوم واحد في آل الحكم ، ويقال في آل مروان » ويفهم من هذا أن العبث بأموال إفريقية إنما حدث بعد أن وردت الأموال إلى بيت المال في المدينة — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٩

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٧ — الطبري ، ج ٥ ص ٤٨ — ابن الأثير ج ٣ ص ٣٤ — التويري ، ص ٢٢ (١) — معالم الإيمان ، ج ١ ص ٣٠ — النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٩

ما ذكره النويرى من أن ارتحال الجيش عن المدينة كان في المحرم من سنة ٢٧ هـ ، كان وصول الجيش إلى إفريقية في ربيع الأول في هذه السنة ، وتكون موقعة سبيلة قد دارت في أوائل سنة ٢٨ هـ ، لأن المسلمين طال انتظارهم قبل الموقعة . لم يوفق عبد الله بن سعد فيما قصد إليه من فتح إفريقية ، ولم تزد حملته على غارة طال أمدها وكثرت أحداثها ، ولكنها انتهت دون أن تخلف وراءها أثراً كبيراً ، ولعل الرجل أحس بعد سبيلة أنه غير مستطيع فعل شيء بعد ذلك إلا إذا وصلته إمدادات جديدة يستطيع تثبيت الفتح بها ، فلما تأكد أن عثمان لم يستطع أن يمدّه بما يريد بعد أن سكت عنه هذا الزمن الطويل ، أحب أن يتراجع بانتظام ، وكان يخشى الخشية كلها أن يقوم انسحابه حجة عليه وعلى عثمان في نظر العرب ، فاشتط في طلب المبلغ الذى يدفع إليه لكي يحمل إلى المدينة مبلغاً طائلاً من المال يدل به على أن الحملة وفقت أعظم توفيق ، فلما أجابه الأفارقة إلى ما طلب عجل بالعودة وهو آمن نقد الناس ، واثق من أن جنده سيرضون عنه ويلقون في روع العرب — بعد عودتهم — أن حملة إفريقية كانت من أعظم الحملات وأوفرها غلة .

عاد عبد الله إلى المدينة محملاً بالغنائم ، فحسب الناس أن إفريقية قد تم فتحها ، وتناقلوا هذا الخبر ودونه الرواة ، فاتفقت كلمة المؤرخين على أن فتح إفريقية كان على يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وهذا خلاف الواقع كما سبق بيانه ، إذ لم تكن حملة عبد الله إلا غارة طويلة كثيرة الأحداث وافرة الغنيمة . عاد العرب

== ويذكر السلاوى أن عثمان أمر عبد الله بالمسير إلى إفريقية سنة ٢٦ هـ فيكون المعقول أنه بدأ هذه الغزوة في سنة ٢٧ هـ وعاد إلى مصر في أوائل سنة ٢٨ هـ . أنظر الاستقصاء للسلاوى ص ٣٥ وقد تردد البلاذرى بين سنوات ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ فقال « ثم عزم — عثمان — بعد أن استشار ، وكتب إلى عبد الله في سنة ٢٧ هـ ، ويقال سنة ٢٨ ويقال سنة ٢٩ بأمره بغزوها ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٦ . وقد فعل ذلك ياقوت ، وربما أخذه عن البلاذرى — معجم البلدان ج ١ ص ٣٠١

منها فعادت البلاد إلى ما كانت عليه : مات جرجير فأقام الروم على أنفسهم والياً مكانه ، ثم كانت الأحداث التي عصفت بالبلاد العربية عقب موت عثمان ، فتأخر إتمام الفتح إلى أيام معاوية بن أبي سفيان ، فإذا كانت حملة ابن أبي سرح لم تخلف في إفريقية إلا أثراً باقياً في أذهان أهل البلاد ، لعنت عليه السنوات الثلاث عشرة التي ستنقضي قبل أن تطلا خيل المسلمين بلاد إفريقية مرة أخرى .

المحاولات الأولى (ب)

حملة معاوية بن حديج سنة ٥٤٥ - ٦٦٦ م

وقوف حركة
الفتح عامة

كان لا بد أن تؤثر فتنة عثمان وما تلاها من الأحداث في نشاط الفتوح الإسلامية ، إذ لم يكن من الميسور للقادة والجند أن يستمروا فيما كانوا آخذين فيه من فتوح . بعد أن شبت نيران هذه الفتنة ، ولا شك أن الأمداد قد انقطعت عنهم وتوقعوا أن تحول حروب الداخل دون إرسال الجند إلى الأطراف ، فتركوا ما بأيديهم ، ولبت بعضهم حيث هو ينتظر نتيجة الصراع المحتدم ، وعاد البعض الآخر إلى الحجاز والشام ليسهم بنصيب في هذه المعركة العنيفة .

وإذا كنا لم نتنسم في انصراف عبد الله بن سعد عن إفريقية ربح هذه الفتنة ، فلا بد أننا واجدون في عواصفها الموج علة وقوف الفتوح تماماً — في إفريقية وغيرها — مدى السنوات الخمس التي ظلت مشتتة فيها (بين سنتي ٣٥ و ٤١ هـ) . وإذا ذكرنا أن عبد الله بن سعد وجلة من كان معه من القادة كانوا من رجال عثمان وأنصاره وآل بيته ، توقعنا أن يكون اهتمامهم شديداً بما ترمى إلى أسماعهم — وهم على الثغور — من تعريض الناس بعثمان وتكلمهم في الثورة عليه وسعيهم للخلاص منه وتنديدهم برجاله وعمله ، وإذا ذكرنا كذلك أن مصر كانت مركزاً من مراكز السخط على عثمان والائتمار به ، وأن نفراً من الناقين عليه خف إليها ليدبر الوئوب به بمساعدة عن الحجاز ، إذا ذكرنا ذلك كله فقد بانت أمام أعيننا أسباب هذه العودة المفاجئة والركود الذي أعقبها . ولنصف إلى ذلك أن هوى جند إفريقية كان مع معاوية لأنه رأس شيعة عثمان ، فكان لعودهم السريع ونصرهم إياه أثر حاسم في نتيجة الصراع بين علي ومعاوية .

عودة الفتوح

وكان طبيعياً أن تعود الفتوح سيرتها الأولى بعد استقرار الأمور لمعاوية ، لأن أنصاره ورجاله كانوا هم قادة الجنود ورجال الفتوح الذين كانوا يترقبون الفرصة للعود إليها ، وأعان على ذلك أن جلة هؤلاء أصبحوا أعلام الدولة الجديدة ، فوجد الأمويون في ردهم إلى الولاية والقيادة شيئاً من حسن الجزاء الذي استحقوه

بما نصرروا قضيتهم وأعزوا جانبهم ، وإلى هذا تعزى بعض أسباب النشاط الواسع
المدى الذى أبدته الدولة الإسلامية فى دور الفتوح الثانى .

وكان عمرو بن العاص قد أصبح عاملاً لمعاوية على مصر من سنة ٣٨ هـ ، عمرو بن
العاص يستأنف
الفتح فى إفريقيا
فأصبح بذلك — قياساً على عبد الله بن سعد — صاحب رأى فيما يتصل بأمور
إفريقية ، وأصبح فى مقدوره أن يخرج لغزوها إن أراد ، وكانت الغنائم الوفيرة
التي عاد بها عبد الله بن سعد والنجاح السريع الذى أحرزه دافعان لعمرو إلى التفكير
فى أمر إفريقية ، ولكن همته لم تكن إذ ذاك على ما كانت عليه فى ولايته الأولى ،
إذ علت به السن ، وشغلته شئون المشرق عن أن يوجه اهتمامه كله لغزوة يقودها
إلى المغرب ، فاكتمى بأن يبعث إلى هذه البلاد جنداً يفتحون منها ما يقدرون
عليه ويغنمون من نواحيها ما تصل إليه أيديهم .

بيد أن معاوية لم يرض عن عمل كهذا ، ففكر فى أن يسارع فى رد عمرو
عنه ، إذ رأى فيه ازدياداً لسلطان عمرو — وكان حريصاً على أن يحد من ذلك
السلطان — ورأى فيه كذلك طمعاً من عمرو فى خير إفريقية وغنائمها ، وكان هو
فى حاجة إلى هذه المغنم والأموال ، وربما تحدث فى هذا إلى بعض خاصته ،
ولكنه آثر السكوت وترك عمراً يفعل ما يشاء ما دامت بعوثة التى وجهها إلى
إفريقية لم تخرج عن أن تكون سرايا قصيرة المدى لا تكاد تصل إلى أكثر من
الواحات مثل فزان .

فلما أن توفى عمرو بن العاص سنة ٤٤ هـ ، سارع معاوية إلى استرداد الحق
الذى كسبه عمرو فى ولاية إفريقية ، واعتبرها ولاية قائمة بنفسها يولى عليها من عنده
والياً ، تكون صلته به مباشرة ، دون أن يكون لصاحب مصر دخل فى شئون
هذه البلاد ، فأقام على مصر عقبة بن عامر الجهنى (بعد عزل عبد الله بن عمرو) ،
ثم أعقب ذلك بتولية معاوية بن حديج قيادة الفتوح فى إفريقية والإمارة

على ما يفتحه من بلادها ، وذلك على الرغم من أن عقبة بن نافع كان لا يزال
إذذاك مغازياً في نواحي فزان والواحات القريبة منها .

ولا يفسر هذا الإغفال الظاهر لشأن عقبة بن نافع إلا بأن معاوية فضل
أن يكافئ بهذه الولاية واحداً من أنصاره المقربين إليه الذين أعانوه على الانتصار ،
وكان معاوية بن حديج رأس العثمانية في مصر ، استطاع أن يحول بين أتباع علي وبين
الاستيلاء عليها ، فأقامه معاوية على هذه الولاية مكافأة له على ثباته وإخلاصه .

معاوية بن
حديج يولي
قيادة الفتوح
في إفريقية

— ١ —

كانت عودة عبد الله بن سعد من إفريقية قضاء على ما بذل المسلمون في فتحها
من جهود استمرت ست سنوات من ٢٢ إلى ٢٨ هـ ، إذ أنه غادر البلاد دون
أن يترك عليها والياً ، وربما كانت علة ذلك أنه لم يكن لديه من الجنود ما يستطيع
أن يخلفه على هذه البلاد ليحفظها للمسلمين ، ثم كانت سنوات الفتنة التي تلت ذلك
قضاء على ما عسى أن يكون المسلمون قد تركوه من آثار في نفوس الأهليين ، فكان
على الفاتح الجديد أن يبدأ العمل من جديد كأن أحداً من المسلمين لم تمس قدمه
أرض المغرب قبل ذلك .

ولو أن أحوال الدولة البيزنطية بين سنتي ٣٥ و ٤٥ هـ كانت على شيء
من الانتظام والقوة ، لاستطاعت أن تستعيد إفريقية على أهون سبيل ، ولكنها
كانت هي الأخرى تعاني من الضعف واضطراب الحال أكثر مما كانت تعانيه
الدولة الإسلامية .

لم يكن ماحق بالدولة من المصائب بكاف لإقناع إمبراطورها قسطنطين الثاني
بالانصراف عن التدخل في شئون الدين وإعانت رعيته بالمذاهب التي يفرضها عليهم ،
فابتدع مذهباً جديداً سماه النموذج^(١) ، وأخذ يفرضه على أهل الولايات ، فأثار

الدولة
البيزنطية
في مستهل
النصف
الثاني من
القرن السابع

(١) Liehl, op. cit. p. 556

ذلك اضطراباً شاملاً ، وكان أهل إفريقية — من روم وبربر — قد حمدوا الله على انقطاع صلتهم بالامبراطورية ، وشجعهم على ذلك البابا الذي لاحظنا عظيم أثره في ثورة جريجوريوس وفي فصل إفريقية عن الدولة دينيا ، فأثار ذلك قسطنطين ، وصمم على أن ينهض بنفسه لعقاب البابوية ، فبعث جنداً قبضوا على البابا مارتن وأنزلوا به من العقاب شيئاً كثيراً ، ثم أمر به فنفي في شمال البحر الأسود حتى مات ،^(١) وكان ذلك عقب غزو العرب لصقلية على يد معاوية بن حديج من الشام^(٢) ، فثار به الناس واشتد الصراع بينه وبينهم ، وفيما هو في ذلك ، إذ بلغه نبأ نزول اللومبارد بشمال إيطاليا (٦٦٧ م) ، خف إليهم ليلقاهم ، فكان ذلك من جملة ما نزل بالدولة من أحداث عاقبتها عن الالتفات لاسترجاع إفريقية ، ثم عاد بعد ذلك فأقام ببلاطه في سرقوسة^(٣) ، وظلت هذه البلدة عاصمة الدولة مدى ست سنوات ، استطاع فيها أن يسترجع كلبرية وسردينيه ، وجزءاً صغيراً من إفريقية ، وفرض الضرائب على كل شيء ، واشتط في ذلك « إلى حد أن فصل الأب عن ابنه »^(٤) فأثار ذلك ثائرة الجند ، فقتله أحدهم في ١٢ يولييه سنة ٦٦٨ م ، بأن ألقي عليه ماء غالياً في الحمام ، وأعقب ذلك اضطراب شديد انتهى بالمناداة بقسطنطين الثالث امبراطوراً^(٥) .

في هذه الظروف لا يستبعد أماري أن يكون أهل أفريقية قد استنجدوا

(١) Amari, Hist. Arab. Sic., I, pp. 89, 90

(٢) وتلك هي الغزوة التي أخطأ بعض مؤرخي العرب كابن عذارى فجعلوها سنة ٤٦ هـ في خلافة معاوية ، وذهبوا إلى أن معاوية بن حديج قام بها من أفريقية ، والحقيقة أنه أفلح بها من الشام ، وعادت إلى الشام — البيان المغرب ، ج ١ ص ١١

(٣) Amari, op. cit. I, p. 95 (٤) Diehl, op. cit. p. 567. وأورد ديل ذلك بشيء من الشك ، فقال : نصح قسطنطين الثاني في استعادة إفريقية ، ولا نعرف كيف ولا متى ، ولم يسترجع منها على كل حال إلا ما كان تابعاً للحاكم الأفريقي .

(٥) Ibid. pp. 97-99

بالعرب ليخلصوهم من مظالم الروم ، إذ يتفق كثير من المراجع على أن أهل صقلية استنجدوا بهم فأقبلوا لعونهم^(١) .

يذهب ابن الأثير إلى أن « هرقل أرسل إلى أهلها — أى أهل إفريقية — بطريقاً ، وأمره أن يأخذ منهم مثل ما أخذ المسلمون ، فنزل البطريق قرطاجنة وجمع أهل إفريقية ، وأخبرهم بما أمره الملك ، فأبوا عليه وقالوا : نحن نؤدى ما كان يؤخذ منا ، وقد كان ينبغي له أن يسامحنا لما ناله المسلمون منا ، وكان قد قام بأمر إفريقية بعد قتل جرجير رجل آخر من الروم ، فطرده البطريق بعد فتن كثيرة ، فسار إلى الشام وبه معاوية ، وقد استقر له الأمر بعد قتل على ، فوصف له إفريقية ، وطلب أن يرسل معه جيشاً ، فسير معه معاوية بن أبي سفيان معاوية ، بن حديج السكوني ، فلما وصلوا إلى الإسكندرية هلك الرومى ، ومضى ابن حديج فوصل إلى إفريقية وهى نار تضطرم^(٢) » وقد رأينا أن أحوال إفريقية العامة وأخبارها التى أوردها تيوفانيس وغيره تؤيد رأى ابن الأثير والنويرى ، وقد رأينا أمارى يؤيد استنجد أهل صقلية بالمسلمين الذين خفوا إليهم ، فلم نستبعد أن يكون أهل إفريقية قد فعلوا ذلك ؟ ولم نستبعد أن يكون المؤرخان العربيان على الحق فيما ذهبوا إليه ؟ ومع ذلك فليس من الضروري أن نقبل هذه الرواية بحذافيرها ، بل يكفي أن نأخذ بمعناها إجمالاً ، فنقرر أن نزاعاً شديداً بين البيزنطيين وأهل

(١) فلما وصل الأمبراطور الجديد من القسطنطينية ، انقلب الصقليون على قائدهم الذى كان استنجد بالعرب ، والتفوا حول قسطنطين ، الذى استطاع أن يطرد العرب من الجزيرة — أمارى ج ١ ، ص ٩٥

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥ وقد روى النويرى هذه القصة ، وزاد عليها بأن جعل اسم البطريق الذى أرسله هرقل ليجمع المال أوليه ، واسم الرومى الذى قام بأمر إفريقية بعد مقتل جرجير جناحه : « وولوا على أنفسهم وال يقال له الأطيلون » ، ثم قال إن معاوية بن حديج وصل إفريقية ، وهى حرب ، وقد صارت ناراً — نهاية الأرب ٦٦ (ب) وقد أقر توكسييه ما جاء برواية النويرى وذهب إلى أن جناحه ربما كانت صحنه Gennadius وأوليه

Olympus - Ablavius - Ablimus cf. Revue Afr. 1885, p. 204

إفريقية كان يثير البلاد ويقسم أهلها شيعاً وأحزاباً ، وأن قسطنطين أراد أن يرغمهم على أن يؤدوا إليه مثل ما أخذ العرب منهم ، فزاد ذلك في سخطهم ونفورهم ، وودوا لو أقبل العرب نخلصوم من نير الروم . ثم إن انتقال قسطنطين إلى صقلية في ذلك الحين يؤيد ذلك^(١) ؛ وتتفق المراجع اليونانية على أن الدولة كانت تقاسى إذ ذاك عَوَزاً مالياً شديداً ، وأنها أرهقت صقلية وسردينية وكبرية بالضرائب ، فطبيعى جداً أن تكون قد أرادت بإفريقية مثل ذلك .

ويذهب فورنيل إلى أن قسطنطين لم يكتف بإرسال الرسل يجمعون له المال ، بل حاول أن يسترجع إفريقية بقوة الجند ، وقد أشار أمارى إلى ذلك إشارة يسيرة ، ولكن فورنل أكد أن النصوص تتحدث عن وجود جيش يسمى بالجيش الإفريقي *Exercitus africal* بين جيوش الدولة إذ ذاك ، وأكد بيورى أن قسطنطين حاول أن يستعيدها ، ولكن ديل تسامل عن النصوص التي أخرج بيورى منها رأيه هذا^(٢) .

— ٢ —

يذكر ابن عبد الحكم^(٣) أن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث غزوات . « أما الأولى فسنة ٣٤ هـ قبل مقتل عثمان ، وأعطى مروان الخنس في تلك الغزوة ، وهي غزوة لا يعرفها كثير ، والثانية سنة ٤٠ والثالثة سنة ٥٠^(٤) » وجاراه في ذلك أكثر المؤرخين الغربيين ، ويغلب أنهم نقلوها عنه ، لورود عبارته بالنص في رواياتهم^(٥) .

(١) Bury, op. cit. II, pp. 297, 299. Diehl, op. cit. p. 568

(٢) Bury, op. cit. II, p. 302. Diehl, op. cit. p. 568

(٣) رواية عن عبد الملك بن مسleme عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٣ — ١٩٤

(٥) معالم الأيمان ، ج ١ ص ٤١ ، وطبقات علماء أفريقية ج ١ ص ١٥ ، وقد ذكر أبو العرب =

ولكنه — أى ابن عبد الحكم — يجمع كل أعمال معاوية بن حديج في إفريقية في غزوة سنة ٣٤ ، ويجاريه في ذلك ابن خلدون ، الذى يضيف أن هذه الغزوة (سنة ٣٤ هـ) كانت في خلافة معاوية ابن أبى سفيان ^(١) ، وسياق روايته يدل على أن أعمال ابن حديج كانت متصلة إلى بعضها بعضاً ، دون أن تفرق بينها فترات طويلة كالتى بين سنوات ٣٤ و ٤٠ و ٥٠ ، مما يميل بنا إلى الاعتقاد بأن الرجل قام بغزوة واحدة ، أتم فيها كل ما ينسب له من أعمال ، أما الغزوتان الأخريان فربما شرع فيهما ولم يفعل ، أو لم يتم بهما أصلاً .

ومما يقوى الشك في تلك الرواية أن غالبية المؤرخين الآخرين لا يذكرون إلا غزوة واحدة يجعلون فيها كل فتوح معاوية بن حديج ، ويختلفون في تحديد السنة التى تمت فيها هذه الغزوة الواحدة ، فيجعلها بعضهم سنة ٤٥ هـ ^(٢) وبعضهم الآخر سنة ٤١ هـ ^(٣) ، ونذكر منهم من ذكر شيئاً في سنة ٣٤ أو في سنة ٥٠ هـ ^(٤) ؛ مما يؤكد لنا أن ابن حديج خرج في غزوة واحدة أتم فيها كل ما ينسب إليه من أعمال .
ففى أى سنة كانت ؟

لا جدال في أن معاوية بن حديج كان في مصر سنة ٣٤ هـ ، إذ كان من كبار

= أنه أخذها « عن فرات عن عيسى بن عيسى بن محمد عن ابن وهب عن ابن لهيعة عن ابن أبي حبيب » ولكن الغالب أنه نقلها عن ابن عبد الحكم ونزهة الأقطار (ص ٧٠) ، وهذا المرجع ذكر أن الغزوة الثانية كانت سنة ٤١) ، والمونس (ص ٣٤) ورياض النفوس (ورقة ٤) ويقتصر على ذكر اثنين ولا يذكر سنة ٤٣ هـ)

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨٥ (٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥ ، والنويرى ورقة ٦٧ (١) ، والباجى ، ص ٤ — ٥ ، والبيان المغرب لابن عذارى ، ص ١٠ — ١١ والمونس ص ٢٣ — ٢٤

(٣) البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٥٨ ، والمالكي ، رياض النفوس ، ص ٤ (١) (٤) يذكر ابن عبد الحكم وابن خلدون سنة ٣٤ هـ . أنظر : فتوح ، ص ١٩٣ — ١٩٤ ، العبر ، ج ٤ ص ١٨٥ . ويكتفى ابن مقدشو مؤلف نزهة الأقطار بالقول بأن ابن حديج حفر الآبار المسماة باسمه فقط سنة ٣٤ هـ (أنظر ص ٧٠) . وتردد أبو الحسن بين سنتي ٤٥ ، ٥٠ : أنظر النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٣٠ ، ١٣٩

القواد في جيش عبد الله بن أبي سرح ، ولكن فتنة عثمان كانت في هذه السنة على أشدها ، وكان سخط الناس قد بدأ يستفيض على الألسن ، وبدأ الشعب ، وكانت مصر على الخصوص مركزاً من مراكز السخط على عثمان ، خف إليها نفر كبير من أعدائه ، وجعلوا يدبرون أمرهم للخلاص منه ، وكان عثمان وأنصاره في هذه السنة في شغل عن الغزو الخارجي بما أصاب الخلافة من اضطراب ، فاقترنت جهودهم على الدفاع عن عثمان ، فكيف يتفق أن ينهض معاوية بن حديج بغزوة عظيمة كهذه ، وهو من شيعة عثمان وأنصاره ، والحال في مركز الدولة لا يسمح له بأن ينفق قواته في بلاد نائية بعيدة ؟ وإذا كنا نعلننا عودة ابن أبي سرح السريعة بإحساسه بالخطر على عثمان ، فكيف يطمئن إلى إرسال جنده إلى إفريقية في هذا الظرف الحرج الذي « سارت فيه ركائب المنحرفين عن عثمان » ^(١) كما يقول أبو الحسن ؟ ثم إننا نجد معاوية بن حديج في مصر في العام التالي ، أي سنة ٣٥ هـ ، منالاً عن قضية عثمان مطالباً بدمه ، ^(٢) فكيف اتفق له أن يذهب إلى إفريقية ويفتح جلولاء وسوسة ومثروت ويحاصر هذه المدائن زماناً طويلاً ، ويقوم بناحية القرن مساكن يسميها قيروانا ^(٣) ، ويتم ذلك كله في أقل من سنة ، ثم يعود إلى مصر ؟ ليس المعقول أن تكون هذه الغزوة قد تمت في وقت آخر ساد فيه الهدوء واستقرت الأحوال ، وأمنت فيه شيعة عثمان على أنفسهم ؟ وليس المعقول أن يكون فورنل قد أصاب حينما استبعد أن يخطيء ابن خلدون ، فيذكر أن معاوية كان خليفة سنة ٣٤ وأن ابن حديج كان والياً على مصر إذ ذاك ، وعلل ورود سنة ٣٤ في روايته بخطأ الناسخ الذي ذكر سنة ٣٤ بدلاً من سنة ٤٣ ^(٤) ؟ .

ثم إن رواية ابن عبد الحكم نفسها يشوبها شيء كثير من الاضطراب ،

(١) النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٩١ (٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٩٤ ، ٩٧

(٣) ابن الناجي ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٢ (٤) Fournel, op. cit. l. p. 141

فهو يجعل كل أعمال معاوية بن حديج التي أوردتها جميع المؤرخين ، في سنة ٣٤ ، ثم يعود فيقول أن هذه الغزوة لا يعرفها كثير ، ألا يكون الأقرب للصواب أنه أراد أن يقول إن معاوية بن حديج ربما يكون قد غزا غزوة صغيرة سنة ٣٤ لم يبق فيها بشيء ذى بال ، ولذلك لم يعرفها كثير ^(١) ، ثم عاد فغزا غزوة كبيرة أخرى في سنة لم يذكرها سهواً ؟ ذلك أقرب الآراء إلى الصحة ، وأكثرها اتفاقاً مع منطق الحوادث . أما سنة ٥٠ فقلّ بين المؤرخين من يذكرها ، وربما ذكر بعضهم فيها حوادث قليلة ، أو تردد بينها وبين سنة أخرى ، مما يميل بنا إلى نفيها ، خصوصاً وأننا نعلم أن عامل مصر في هذه السنة (٥٠) كان مسلمة بن مخلد الأنصاري ^(٢) ، وأنه عزل عقبة عن إفريقية ، وولى عليها بدله مولاة أبا المهاجر ، ولم يقل أحد من المؤرخين أنه بعث معاوية بن حديج ثم عزله بعقبة ثم عزل هذا بأبي المهاجر . بقيت سنتا ٤١ و ٤٥ هـ ، فأما الأولى فكانت عقب مقتل علي ، ولم يكن أسر معاوية قد استتب بعد ، ولم تكن الظروف تسمح له بالتفكير في الغزو ، فالمعقول أن الغزوة كانت في الأخرى ، أى في سنة ٤٥ هجرية ، بعد أن ثبتت قدم معاوية واستطاع أن يفكر في التوسع والغزو الخارجي ، ثم إن والى مصر في سنة ٤١ هـ كان عمرو بن العاص (منذ ٣٨ هـ) ، ولم يرد أنه أرسل معاوية بن حديج ، في حين كان هذا الأخير قائد جند مصر في ولاية عتبة بن أبي سفيان عامل مصر لمعاوية سنة ٤٣ هـ ، وبقي في هذا المنصب إلى سنة ٤٧ هـ حين عزله مسلمة بن مخلد وأقام

(١) حاول كودل أن يؤيد ابن عبد الحكم فيما ذهب إليه ، ولكنه لم يوفق ، إذ لم يأت بيينة من النصوص تمل هذا التأيد ، ثم قال معلقاً على هذه الغزوة : « ولكنها كانت على جانب قليل من الأهمية ، وربما تكون قد توقفت في بدايتها ، حيناً ترامت أخبار الأحداث التي كانت تنفي المشرق في ذلك الحين ؟ وكانت قلة أهميتها تلك داعية البعض إلى إهمالها ، والبعض الآخر إلى خلطها بما تلاها من غزوات » ، ثم عقب على هذا الرأي بقوله : « إن جمع الحوادث كلها في سنة واحدة يفسد التاريخ : cf. : Caudel, op. cit. II, pp. 86, 87 »

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٧٥

على جند مصر بدله السائب بن هشام ؛ فالمعقول أن معاوية بن حديج استطاع في هذه السنوات الأربع — أو في بعضها — أن يقوم بحملته على إفريقية ، وما دام أغلب المؤرخين يذكر سنة ٤٥ هـ (٦٦٦ ميلادية) ، فلا يبعد أن يكون ذلك هو التاريخ الصحيح لتلك الغزوة .

أما مداها فغير معروف ، فقد تكون استمرت إلى نهاية سنة ٤٦ هـ ، لأن معاوية عزل عن جند مصر في سنة ٤٧ هـ ، وربما امتدت إلى أوائل سنة ٤٧ هـ ، لأننا نجد عاملاً لمعاوية بن حديج على طرابلس ، وهو رُويع بن ثابت الأنصاري يغزو جزيرة جربة في سنة ٤٧ هـ ^(١) .

وتذهب طائفة من المؤرخين ^(٢) إلى أن معاوية بن حديج خرج بحملته من دمشق ، وهذا غير صحيح ، لأن الثابت المعروف أن معاوية كان على جند مصر إذ ذاك ، وأنه خرج إلى إفريقية من مصر بالطريق العادي ، وليس هناك ما يؤيد القول بأن حملته كانت بحرية ، وإنما الثابت المحقق أنها كانت برية ، وأنها سارت في نفس الطريق الذي سلكه عبد الله بن سعد ، وربما يكون معاوية قد أذن له في فتح المغرب وهو على جند مصر جزاء له على ما أبدى من الإخلاص في الدفاع عن قضية عثمان .

الروم
يرسلون
جيشاً إلى
إفريقية

يبدو أن الأخبار بمسير معاوية بن حديج إلى إفريقية كانت قد اتصلت بالروم قبل وصوله ، لأننا نجد جيشاً بيزنطياً يقوده قائد اسمه نفقور ينزل إفريقية ويتقدم ليلقي العرب ، وربما كان هذا الجيش قد أقبل لأمر آخر غير قتال العرب ، لأن الحرب بين الفريقين كانت قصيرة المدى ، ولعل ابن الأثير لم يصدق حين قدر

(١) المونس ، ص ٢٦

(٢) هم ابن عذارى ، وابن خلدون ، والنويرى ، ويظهر أن السبب في وقوعهم في ذلك الخطأ هو أنهم ظنوا أن معاوية بن حديج كان أميراً على مصر ، وقد أشار إلى ذلك روت في كتابه عن عقبة بن نافع (ص ٢٩ — ٣٠) cl. : Roth, Okba ibn Nafi, pp. 29, 30

هذا الجيش بثلاثين ألف مقاتل ، لأنه يخبرنا بعد ذلك أن معاوية بن حديج سير إلى الروم جيشاً ، فلو كان الروم بهذا العدد الكبير لساار هو إليهم بكل جيشه ، وعدته عشرة آلاف فقط^(١) .

من الثابت أن أمور إفريقية كانت على حال من الاضطراب تؤيد قول ابن الأثير أن معاوية بن حديج وصل إلى إفريقية وهي نار تضطرم^(٢) ، لأن الدولة أرادت أن ترهق الأهلين بدفع مبلغ عظيم يوازي ما دفعوه للعرب ، فاشتد النزاع بين الفريقين كما سبق بيانه ، حتى اضطر الأفارقة إلى طرد عامل الامبراطور فعاد إلى بلاده ، وربما كان ذلك هو السبب في إرسال الجيش الذي لقيه معاوية بن حديج ، وكانت سلطة الامبراطور قد تقلصت من البلاد حتى لم يبق منها إلا ظل خفيف ، وذلك على الرغم من وجود الامبراطور في صقلية في ذلك الحين ، على مقربة من إفريقية ، وقد سبق القول بأنه فشل في أن يعيد سلطانه عليها إلى ما كان عليه .

سار معاوية بن حديج على رأس عشرة آلاف جندي^(٣) يريد إفريقية ، وكان مسيره على مقربة الساحل ، فتقدم حتى أفضى إلى سهل تونس وحط رحاله في ناحية قونية^(٤) ، وكان معه في جيشه نفر كبير من الصحابة والتابعين ، من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير بن العوام وعبد الملك بن

مسير معاوية
ابن حديج

(١) روى ياقوت أن جيش معاوية بن حديج كان عشرة آلاف ، وأيد ذلك ليحيى بروثنسال في دائرة المعارف الإسلامية (معجم البلدان مادة قيروان ودائرة المعارف نفس المادة) . وقد قدّر ابن الأثير جيش الروم بثلاثين ألف مقاتل . وقال : « فلما سمع بهم معاوية سير إليهم جيشاً من المسلمين فانهزمت الروم ، ابن الأثير ج ٣ ص ٣٥ ، وزاد النويري أن تقفور أفلح بمن معه بعد هذه الهزيمة — نهاية الأرب ص ٦٧ |

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥ (٣) القيرواني ، ص ٣٤

(٤) لم يرد لقونية ذكر في معجم البلدان ولا البكري ولا الإدريسي ، وحدد ابن عبد الحكم موضعها بأنها « موضع مدينة قيروان ، ويطلب أنها هي Caput Varda البيزنطية ، وربما كانت إلى شمالها قليلا ، وقد وصفها المالكي بأنها قيروان أفريقية — ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٣ ، ورياض النفوس ورقة ، |

مروان^(١)، ويحيى بن الحكم بن أبي العاص، وعدة من أشرف قريش^(٢)، ونفر كبير من جند مصر^(٣).

لم يكد معاوية يستقر في قونية حتى تسامع بنزول جيش بيزنطى في إفريقية، فتقدم للقائه، ولم يدر بين الفريقين شديد قتال، إذ عجل الروم بالانسحاب والعودة، وبذلك انتهت المقاومة البيزنطية.

تقدم معاوية إلى الشمال، ويبدو أنه اقترب من البحر، لأن المراجع تحدثنا أنه استقر في مكان يسمى القرن^(٤) اتخذ مركزاً لأعماله، ويبدو أنه أقام بذلك السكان زمناً طويلاً، لأنه احتفر فيه آباراً تسمى آبار حديج، وابتنى دوراً^(٥)، ومن هناك أرسل عبد الله بن الزبير يتبع الروم، ويغلب أن هؤلاء تقهقروا بعد المناوشة الأولى حتى أدركوا سوسة، وهناك لبثوا فترة قبل أن يقلعوا، فبعث معاوية في أثرهم عبد الله بن الزبير، فأدركهم وناوشهم مناوشة خفيفة ألقوا بعدها في البحر^(٦)، فاستولى عبد الله بن الزبير على سوسة، وغنم منها بعض الغنائم، ثم عاد إلى معاوية بن حديج في القرن.

كان أمام معاوية بن حديج بعد ذلك أحد أمرين: إما أن يسير غرباً فيتوقل

(١) ولد عبد الملك سنة ٢٦ هـ، فكانت سنة أثناء هذه الغزوة ١٩ سنة، وهى سن مبكرة، ولكنها لا تمنع من قيامه بالدور الذى سيلب إليه.

(٢) المونس، ص ٢٤ — ٢٥ (٣) رياض النفوس، ورقة ٣ (ب)

(٤) تتفق المراجع كلها على ذكر قونية وجبل مطور والقرن، وكلها أماكن لا وجود لها في العاجم، ولا تتفق النصوص كذلك على ترتيب الحوادث وربما كان أقرب ترتيب للمنطق هو أن معاوية استقر أولاً بقونية ثم خف للقاء الروم حتى إذا فرغ من أمرهم استقر بناحية القرن، وأرسل عبد الملك بن مروان إلى جلواء، وابن الزبير إلى سوسة وقد ورد القرن باسم جبل القرن في معالم الأيمان ورجح كودل أنه جبل Ousselet. cf. : Caudel, op. cit. II, p. 96

ج ٢ ص ٩٦ (٥) الباجى، الخلاصة النقية، ص ٣

(٦) ينسب البكرى إلى ابن الزبير أموراً لا نزاع في أنها مختلفة كقوله إن العدو هاجمه وهو يصلى العصر، فلم يكثر له وأكل صلاته ثم هجم عليهم فهزمهم — البكرى، ص ٣٥

الهضبة ليهاجم القوى البربرية في معاقبتها ، أو يتجه إلى الشمال ليفتح مدائن الساحل ومحارسه ، ليم له القضاء على ما بقي من آثار الروم في البلاد ، ويحول دون أية محاولة يدبرونها لفتحها من جديد ، فاتمى إلى أن يحقق الغرضين معاً ، وقر رأيه على أن يندب للتوغل في الداخل أحد قواده ويهم بنفسه بالمسير إلى الشمال^(١) .

وقع اختيار معاوية بن حديج على عبد الملك بن مروان ، ويبدو أنه لم يكن موفقاً في هذا الاختيار إذ كان عبد الملك حدثاً في التاسعة عشرة من عمره لا عهد له بقيادة الجند أو القيام بفتوح ذات خطر ، وسنراه يفشل في فتح جولاء ، على رغم تداعى أسوارها وتهدمها ، ثم يختلف مع معاوية بن حديج في تقسيم غنائم حملته ، وتشتد الخصومة بينهما إلى حد يدعو معاوية بن حديج إلى استشارة معاوية ابن أبي سفيان في دمشق ، ويظل عبد الملك منابذاً قائده إلى أن تعود الحملة أدراجها ، وربما كانت السبب الذي حدا بمعاوية إلى اختيار عبد الملك هو قرابة هذا الأخير من الخليفة ، وميل ابن حديج إلى إرضاء آل أمية باختيار فتى منهم لقيادة هذا البعث ، إذ لا سراة في أن أمراً كهذا يرفع من قدر ابن حديج لدى البيت الحاكم .

(١) ويذهب نفر من المؤرخين كأبي العرب إلى أن معاوية بن حديج قاد بنفسه حملة جولاء ، وقد أبدى في ذلك التورى حيث يقول : « وقاتل معاوية أهل جولاء » ، على باب المدينة مما يفهم منه أن معاوية سار بنفسه ، ولكنه يعود فيقول : « وانصرف عبد الملك إلى معاوية وهو معسكر بالقرن ينتظره ، مما يفهم منه أن معاوية أرسل عبد الملك إلى جولاء ، ولبت ينتظره بالقرن ؟ وتردد ابن عبد الحكم بين الرأيين فقال : « ويقال بل غزاها معاوية بن حديج بنفسه ، فحاصرهم فلم يقدر عليهم فانصرف آيساً منها وقد جرح عامة أصحابه وقتل منهم ، وبقية المؤرخين على أن عبد الملك هو الذى قام بها ، بيد أن ابن « عبد الحكم » يعود فيشير إلى خلاف بين معاوية بن حديج وعبد الملك على غنائم جولاء : « وانصرف عبد الملك إلى معاوية بن أبي سفيان ، فكتب إن السكر رده للسرية ، قسم ذلك بينهم » مما يرجح أن عبد الملك قاد هذه الحملة . ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٤ ، رياض النفوس ، ورقة ، (١) ، نهاية الأرب ، ورقة ٧

فصل عبد الملك بن معه واتجه إلى الغرب ، وكان أقرب حصون الهضبة إليه حصن جلولا^(١) ، ولم تكن من كبار الحصون أو المحارس ، ولكنها كانت أقربها إليه ، « فحاصرها أياماً فلم يصنع شيئاً ، فانصرف راجعاً فلم يسر يسيراً حتى رأى في ساقية الناس غباراً شديداً ، فظن أن العدو قد طلبهم ، فكرر جماعة من الناس لذلك ، وبقي من بقي على مصافهم ، وتسرع سرعان الناس ، فإذا مدينة جلولا قد وقع حائلها ، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها ، وانصرف عبد الملك إلى معاوية ابن حديج^(٢) » . وظاهر من هذه الرواية أن أسوار المدينة كانت متداعية آيلة للانقراض ، ولا يعال عجز عبد الملك عن الاستيلاء عليها إلا بقلة خبرته أو إسرعه بالعودة بعد حصار قصير ، وظاهر من الرواية كذلك أن المدينة لم تكن بها حامية ، وإنما كان أهلها هم الذين يدافعون عنها ، وربما استطعنا أن نأخذ فكرة عن ثروة المدينة في هذه الأيام إذا عرفنا أن نصيب الفارس من غنائمها كان مائتي دينار ، ويغلب أن العرب لم يجدوا بالحصن ناساً كثيرين ، ولم يصيبوا منه سبياً كثيراً ، لأن عبد الملك بن مروان اشترى بتصيبه من الغنيمة جارية ، مما يدل على أن الحصن لم يكن مأهولاً .

(١) جلولا أو جلولا على مقربة من القيروان الحالية ، تبعد عنها أربعة وعشرين ميلاً ، وهي مدينة كبيرة وحصن يزنطى قديم ، ذهب ديل إلى أن أصله البيزنطى Couloulis أحد محارس الهضبة ، في حين ذهب دى فرجير إلى أنها Usilla القديمة ، وأثبت دى سيلين خطأ دى فرجير ، مما يؤكد صحة رأى ديل ، وقد أخذ عنه شو وحقق موضع المدينة بنفسه . واتفق جغرافيو العرب على ذكرها والقول بقدمها ووجود الآثار بها ، وزاد البكرى أنها كانت غنية كثيرة الأشجار والثمار وبها قصب السكر ، أما الإدريسي فيسميها جلولة ، ويقول : « إنها مدينة صغيرة عليها سور وبها عين ماء جارية » البكرى ، وصف أفريقية ، ص ٣١ ، ٣٣ ، ٥٨ والإدريسي ، ص ١٢٠

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٣ — ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥ (مختصرة جداً) — البكرى ، وصف أفريقية ، ص ٣٢ — ٣٣ ؛ ويظهر أنه نقلها عن ابن عبد الحكم . ابن خلدون ، (طبعة دى فرجير) ص ٨ . النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٧ (ب) — ٦٨ (١)

يتفق المؤرخون على أن خلافاً وقع على قسمة غنائم جلولاء بين معاوية بن حديج وعبد الملك بن مروان ، إذ أراد هذا الأخير أن يختص بها من رافقه من الجند ، في حين رأى معاوية أنها من حق الجيش كله : من اشترك منهم في فتح جلولاء ومن لم يشترك ، واشتدت اللجاجة بينهما إلى حد اضطر معه معاوية بن حديج إلى استشارة معاوية بن أبي سفيان ، فحسم النزاع بأن قرر أن غنائم جلولاء من حق الجيش كله ، فقسمت بين الجند جميعاً^(١) ، ويبدو أن الرجلين ظلّا متعاضبين بعد ذلك إلى انتهاء الحملة ، إذ يقول البكري : « قالوا : ولما كان من عبد الملك بن مروان ما كان ، ومنازعتة لمعاوية بن حديج على فيها ، ثقل على معاوية بن حديج ، فكان يتجهمه ولا يقبل عليه ، فرأى حنش الصنعاني عبد الملك بن مروان وهو متفكر متغير اللون ، فقال له ما شأنك ؟ فقال إني أبرد آل قريش مجلساً من الأمير ، فقال له حنش لاهتهم . . . الخ »^(٢).

يذهب نفر من المؤرخين إلى أن معاوية طال مكثه بناحية القرن ، فخر بها آباراً لا تزال تسمى آبار حديج ، وأنه ابتنى بها دوراً سماها قيروانا^(٣) في موضع القيروان قبل أن يأتى عقبة ، ولكن ذلك كله مشكوك فيه ، ويجوز أنه ابتنى بعض المساكن للجند واحفر آباراً لسقيهم ، أما أن يكون قد فكر في ابتناء المدينة فقير صحيح ، ولا وجود له في المراجع الأصلية الأولى كابن عبد الحكم والبكري والبلاذري وابن الأثير .

ثم هم معاوية فتوجه إلى الشمال ، وكانت وجهته بنزرت ، ومن الغريب أنه لم يقصد قرطاجنة عاصمة إفريقية البيزنطية ، وكانت معروفة للعرب إذ ذاك فلا يقال إنه جهلها ، وربما كان السبب في ذلك أنه تهيب حصارها لما كان معروفاً عنها

مسير معاوية
إلى بنزرت

(١) أنظر المراجع المشار إليها في الهامش الأخير من الصفحة السابقة (٢) البكري ص ٣٣
(٣) الباجي ، الخلاصة النقية ، ص ٥ ؛ ابن الناجي ، معالم الأيمان ، ج ١ ص ٤٢ ؛ المالكي ، رياض النفوس ، ٤ (١)

من المنعة والقوة ، ولا نزاع في أن معاوية أخطأ بذلك خطأً كبيراً ، فلو أنه وجه جهوده نحو قرطاجنة لخطا بفتح إفريقية خطوة كبرى ، لا شك في أهميتها ، ولكنه انصرف إلى ميناء لا أهمية له ، ولم يكن لسقوطه أى أثر في تقدم الفتح العربى لهذه البلاد .

والتفاصيل عن فتح بنزرت قليلة ، ويظهر أن أكثرها أضافه مؤرخو المغرب ، فيحسن أن نكتفى بذكر رواية البكرى الذى يقول : « وافتتحها معاوية بن حديج سنة إحدى وأربعين ، وكان معه عبد الملك بن مروان ، فشذ عن الجيش ، فمر بامرأة من العجم من عمل بنزرت ، فقرته وأكرمت مشواه ، فشكر لها ذلك ، فلما ولى الخلافة كتب إلى عامله بإفريقية فى المرأة وأهل بيتها فأحسن إليهم^(١) ، مما يفهم منه أن بعض أهل البلاد كانوا يرحبون بالعرب ويتلقونهم كخلصين من مساوء الروم ، وأن العرب لم يكونوا يهيمون بالبلاد النهب الذريع الذى يصوره كودل وديل وفورنل^(٢) وأضرابهم .

ويذكر بعض المؤرخين غزوة بعثها معاوية بن حديج فى ذلك الحين إلى صقلية^(٣) ، ويجعلون ذلك قبل فتح بنزرت ، وواضح أنهم أخطأوا فوضعوا هنا حملة معاوية بن حديج ، التى بعثه فيها معاوية بن أبى سفيان حوالى سنة ٢٧ هـ ، أو ٢٨ فى خلافة عثمان ، إذ كان معاوية قد غزا بنفسه قبرص ، وأرسل معاوية ابن حديج فغزا رودس ثم صقلية^(٤) ، وربما أخطأ ابن عذارى فى النقل عن البلاذرى

(١) البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٥٨

(٢) راجع Journal, I, pp. 145, 146. Diehl, op. cit. p. 570. Caudel, op. cit. II. pp. 87-96

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ١١ ، وابن الناجى ، معالم الأيمان ، ج ١ ص ٤١ ، والاسلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٦

(٤) وراجع أمارى ، الصفحات ٨٨ — ٩٠ من الجزء الأول حيث يذكر طرفاً من سيرة معاوية بن حديج ومناصرته لمعاوية واشتراكه فى فتح مصر وفتح دقله وفقاً عينه فى تلك الحملة ، ثم تولية معاوية إياه على رأس الأسطول الذى غزا رودس وصقلية وجعه منها غنائم كثيرة ، =

فكتب : « وفي سنة ٤٦ من الهجرة — قال البلاذري — أول من غزا صقلية معاوية بن حديج بعثه إليها عبد الله بن قيس ، وأصاب فيها أصناماً من ذهب وفضة مكالمة بالجوهر ، فحملت إلى معاوية بن أبي سفيان » ، وصحتها في سنة ٢٦ وعن ابن عذارى أخذها الباجي ، وابن الناجي خطأ^(١) ، وكان معاوية قد خلف على طرابلس صحابياً اسمه رويغ بن ثابت الأنصاري ، فقام بحملة قصيرة عبر بها البحر إلى جربة وهي جزيرة مجاورة للساحل ففتحها ، وعاد سريعاً ، ويبدو أنها كانت مأهولة بالسكان لأن المسلمين أصابوا فيها سبياً ، إذ يقول البكري : « قال حنش بن عبد الله الصنعاني^(٢) : غزونا مع رويغ بن ثابت الأنصاري المغرب ففتح قرية من قرى المغرب يقال لها جربة ، فقام فيها خطيباً فقال : « أيها الناس : لا أقول فيكم إلا ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فينا يوم خيبر : قام فينا رسول الله فقال : لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي مازرع غيره ، يعني إتيان الحبالى من السبي »^(٣) .

فتح جزيرة
جربة

ويبدو أن معاوية بن حديج لم يحسن التصرف فيما وقع له من غنائم حملته ، فأساء قسمها ، إذ يقول ابن عبد الحكم ، رواية عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن بكير بن عبد الله عن سليمان بن يسار ، قال : « غزونا إفريقية مع ابن حديج ، ومعنا من المهاجرين والأنصار بشر كثير ، فنقلنا ابن حديج النصف بعد الخمس ،

= ثم ذكر أمارى بعد ذلك أن النزاع بين البابا مارتن والإمبراطور قسطنطين الثاني كان على أشده ، ففاق ذلك العرب إلى فتح الجزيرة ، ولم يكد معاوية يقلع من سرقوسه عائداً إلى الشام ، حتى نزل قسطنطين الثاني الجزيرة .

(١) أنظر cf, Mercier op. cit. I, p. 203 ج ١ ص ٢٠٣

(٢) سبق أن ذكر البكري لحنش حديثاً مع عبد الملك بن مروان بعد فتح جلولاء ، وهذا يدل على أن حنشاً اشترك في فتح جربة بعد فراغه من جلولاء ، ولما كان فتح جربة سنة ٤٦ هـ ، فلا بد أن الفراغ من فتح جلولاء كان في أواخر ٤٥ أو في أوائل ٤٦ ، وفي هذه السنة تم فتح بنزرت الذي يغلب أن يكون قد تم قبل انتهائها — البكري ، وصف أفريقيا ، ص ١٩

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٢

فلم أر أحد أنكر ذلك إلا جبلة بن عمرو الأنصاري»^(١). ولم يكن لتصرفه هذا أثر سيء كما حدث في حملة عبد الله بن سعد، ولم يعترض عليه إلا جبلة هذا، الذي أبى أن يأخذ شيئاً، وكان تصرف معاوية مثار مناقشة الفقهاء، ويدل على ذلك أن ابن عبد الحكم نفسه عاد فروى الحادث عن يوسف بن عدى عن آخرين بالنص، إذ كان في تصرف ابن حديج خلاف لحكم الشرع في تقسيم النفل.

قيمة حملة
معاوية
ابن حديج

تلك كانت حملة معاوية ابن حديج على إفريقية، وذلك هو الموثوق به من أخبارها، ولم يكن لها نتائج تذكر، ولم تكن خطوة لإتمام الفتح الإسلامي للبلاد، وإنما كانت غارة طالت بعض الطول، استولى العرب فيها على مدينتين قليلتي الأهمية ثم تخلوا عنهما وعادوا، ويبدو أن معاوية لم يعد من إفريقية مرغماً، لأن مسامة بن مخلد لم يعزله عن جند مصر إلا بعد ولايته بقليل، ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه استدعاه من ميدان إفريقية. وقد رأينا معاوية يؤثر السهل من الفتوح، فيتجنب كبار المسالح والمعاقل ليهاجم صغارها، ولهذا لا يبعد أن يكون اكتفى بذلك ثم عاد، دون سبب معقول من غير أن يخلف في البلاد أثراً يذكر. لا نخطئ إذنا إذا عددناها إحدى المقدمات الطويلة التي سبقت الفتح الحقيقي، إذ كانت آخر الغارات السريعة التي لم تنتج شيئاً، وستبدأ بعد ذلك أولى حلقات الفتح الحقيقي على يد رجل طالت خبرته بإفريقية وأهلها، فعرف السبيل الموفق لتثبيت قدم المسلمين، فبدأ فتحه بإقامة معقل للمسلمين وقيروان لأسلحته حتى تركز الفتوح ويبدأ العمل المنتج.

(١) نفس المصدر والصفحة

الباب الرابع

فتح إفريقية

حملة عقبة بن نافع الأولى

وبناء القيروان

تطور الفتوح
بقدم عقبة

بقدم عقبة ينتهى دور المحاولات الأولى ، ويبدأ الفتح الثابت المستقر ،
وتعد أعماله الحجر الأول فى بناء إفريقية الإسلامية ، نعم أنه بدأ عمله والمسلمون
فى سهل تونس ، وانتهى منه والمسلمون فى برقة ، وأن حملته الكبرى لم تكن
أكثر من مغامرة طويلة قليلة الجدوى ، ولكنه كان أول من قام بحملة قوية ،
استطاعت أن تشق طريقها وسط البلاد وأهلها ، وتمهد كل شىء فى سبيلها حتى
تنتهى إلى المحيط .

كان عقبة بن نافع (بن عبد القيس بن لقيط) قرشياً من فهر ، ولد قبل الهجرة
بسنة واحدة^(١) ، يتصل نسبه بعمر بن العاص من ناحية أمه ، وإلى هذه القرابة
يرجع كثير من الفضل فى ظهوره على مسرح التاريخ ، إذ كان عمرو يعرف قدره
ويثق فيه ، فعهد إليه يبعث قران — كما مر — فوفى فيه توفيقاً كبيراً ، ثم خلفه
فى برقة أميراً على ما فتح من إفريقية حينما عاد سنة ٢٣ هـ ، فلبث فيها حتى قدم
عبد الله بن سعد سنة ٢٧ هـ ، والغالب أن عبد الله خلفه على برقة ، وتوجه هو
لإفريقية لأننا لا نجد لعقبة ذكراً فى أحداث حملة عبد الله ، ولو أنه اشترك فيها
لكان له دور لا يغفل ذكره ، ولا بد أن عقبة عاد إلى مصر مع عبد الله بن سعد
سنة ٢٨ هـ ، لأن هذا الأخير لم يترك فى إفريقية أحداً من المسلمين ، ويظهر أن
بقاء عقبة فى إفريقية هذه السنوات الست ترك أثراً كبيراً فى نفسه ، فتعلقت آماله
بالتفوح والغزوات ، وكان هذا الميل وراثياً فى نفسه ، إذ كان أبوه نافع بن القيس
فاتحاً ذا شأن ملحوظ ، فكانت السنوات التى قضاها عقبة فى إفريقية مغازيا البربر ،
منتقلا بين قبائلهم وواحاتهم ، فرصة طيبة لتنمية مواهبه الحربية ، وكان بطبيعته
رجلاً صالحاً شديد الإيمان فأخذ — وهو فى هذا المعتزل — يتحول على مدى
الأيام إلى شخصية حربية دينية لا تكاد تميل إلى شىء غير الجهاد فى سبيل الله ،

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢٠ — ٤٢١ . الخلاصة النقية ، للبايى ، ص ٥

ولا ترى غاية أعظم من الاستشهاد على قتال المشركين ، وانصرفت نفسه عن
منازعات السياسة وأساليبها . لهذا لا يجد لعقبة ذكراً في الملحمة السياسية الكبرى
التي شغلت المسلمين عشرين سنوات تباعاً بين سنتي ثلاثين وأربعين هجرية . والغالب
أنه قضى هذه السنوات بمصر مع معاوية بن حديج وُسُرن أبي أرطاه وشريك
ابن سُمي ومسلمة بن مخلد وغيرهم من العثمانية ، وأنه اشترك مع هذا نفر
في كفاح أنصار على ولا نزاع في أن عقبة كان يستطيع أن يصيب من بعد الصيت
في هذه الأيام مثل ما أصابه معاوية بن حديج ، ولكن الميدان لم يكن ميدانه ،
فانزوى ساكناً حتى سكنت الريح واستتب الأمر لمعاوية وعادت مصر إلى عمرو
ابن العاص ، فوجد الفرصة سانحة لتحقيق ما تاملت به نفسه من الفتح والجهاد ،
فلم يلبث أن بدأ النشاط من جديد ، فتابع ما حالت الفتنة بينه وبين إتمامه .
ولما كان عمرو يعرف تمام المعرفة مواهبه وما انطوت عليه نفسه ، ولما كان عمرو
يفكر إذ ذاك في إرسال بعث إلى إفريقية لأسباب مرّ بيانها ، فقد أذن له
في الخروج إلى إفريقية ، فلم يكذب أن أسرع في تنفيذ ذلك من سنة ٤١ هـ .

عقبة يخرج
إلى إفريقية
في بعث صغير
سنة ٤١ هـ

يقول ابن الأثير : « وفي هذه السنة — أي سنة ٤١ هـ — استعمل عمرو
ابن العاص عقبة بن نافع بن عبد قيس ، وهو ابن خالة عمرو ، على إفريقية ، فأتى
إلى لواتة ومزاةة فأطاعوا ، ثم كفروا فغزاهم من سنته فقتل وسبي . ثم افتتح سنة
اثنتين وأربعين غدامس ، فقتل وسبي ، وفتح في سنة ٤٣ هـ كورا من كور السودان ^(١) ،
ويؤيده أبو المحاسن بقوله : « وفيها — أي في سنة ٤٣ هـ — افتتح عقبة بن نافع
الفهري كورا من بلاد السودان وودان ^(٢) » ثم يقول ابن الأثير بعد ذلك أن عقبة
ظل مقبلاً ببرقة وزويله حتى استعمله معاوية بن أبي سفيان على إفريقية سنة ٥٥ هـ ^(٣) ،

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ٣ ص ١٨٤ (٢) أبو المحاسن ، التجويد الزاهرة ، ٢ ص ١٢٥

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ٣ ص ١٨٤

ويؤيد ذلك مؤرخ مصرى آخر هو الكندى إذ يقول : « وعقد عمرو بن العاص لشريك بن سُمى العُظَيمى على غزو لواتة من البربر ، فغزاهم شريك فى سنة ٤٠ هـ فصالحهم ثم انتقضوا بعد ذلك على عمرو بن العاص ، فبعث إليهم عقبة بن نافع ابن عبد القيس الفهرى سنة ٤١ هـ فغزاهم ^(١) » ، ثم يعود فيقول : « وعقد عمرو لعقبة ابن نافع على غزو هواره ولشريك بن سُمى على غزو لَبْدَة ، فغزواهما فى سنة ٤٣ هـ ، وعادا وعمرو شديد الدَّنف فى مرض موته ^(٢) » .

بهذا تجتمع لدينا طائفة من الأخبار تدل على أن العرب عادوا بعد سنوات الفتنة يتمون ما كانوا قد بدءوا به قبل أن يثور بركانها ، وليس هناك ما يحول دون قبول هذه الأخبار التى يوردها هؤلاء المؤرخون الثلاثة ، وأن لم تؤيدها بقيتهم . لأن البكرى وأبا المحاسن مؤرخان يوثق فيما يرويانه من أخبار مصر وما يتصل بها ، وأما ابن الأثير فيذكر صراحة أنه اعتمد فى كتابة هذا الجزء من تاريخه على رواية مَغْرِبِينَ إذ يقول : « والذى ذكره أهل التاريخ من المغاربة أن ولاية عقبة ابن نافع . وهم أخير ببلادهم ، وأنا أذكر ما أثبتوه فى كتبهم ، قالوا . . . » ^(٣) .

لم يكد أمر مصر يستتب لعمرو — إذن — حتى اتجه بأنظاره ناحية المغرب ، فجعل يتخير البارزين من جنده ويرمى بهم هذه البلاد ، ولا يبعد أن يكون هؤلاء الجند هم الذين سعوا إلى الخروج فى هذه البعوث ، لأن امتداد الفتنة قد حال بينهم وبين ما كانت نفوسهم تميل إليه من المغازى والفتوح ، ولكن عزم عمرو فى ولايته الثانية لم يكن على ما كان عليه فى ولايته الأولى ، إذ علت به السن عن تدبير

(١) الكندى ، كتاب القضاة والولاة ، ص ٣٢

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

فتوح واسعة النطاق ، تستدعى الكثير من الإهتمام والعناية ، فلم تزد جهوده على بعوث وطلائع قليلة الأهمية والأثر .

وكان عقبة قد طال به الزمن وهو يتربق الفرصة ليستأنف ما بدأه في ولاية عمرو الأولى من الفتح في فزان وودان وما يجاورهما من نواحي الصحراء ، ولا نزاع في أن طول عهده بإفريقية وكثرة اشتغاله بحروبها قد مكنه من تكوين فكرة واضحة عن هذه البلاد ، إذ اتصل بأهلها وعرف الكثير من أخلاقهم ، وجاس في ربوعها فألم بطبيعتها وتفتن إلى أمثل السبل لفتوحها وإخضاعها ؛ فعرف أن فتح المغرب لا يثبت إلا بأمرين : أولهما إنشاء مركز للعرب في قلب إفريقية ، تعسكر فيه حاميتهم ، وتوضع فيه أموالهم وتأمين نساؤهم وأثقالهم ، ويخرجون منه للغزو بدل أن يخرجوا من القسطاط ، وثانيهما غزو البربر أنفسهم والتوغل في قلب بلادهم ، وإدراكهم في مساكنهم في الهضاب والقفور والصحراء ، وسفوح الجبال بدلا من الاكتفاء بغزو مدائن الساحل ونهبها ثم العودة بالغنيمة ، لأن العرب ما يكادون ينصرفون عن هذه البلاد ، حتى تعود إلى ما كانت عليه قبلا ، لاتصال الأسباب بينها وبين الدولة البيزنطية عن طريق البحر ، ولقلة ما يتركه المسلمون من أثر في غاراتهم السريعة ، ثم لأن غزو روم الساحل لا خير فيه ، وإخضاعهم لا يعنى خضوع إفريقية .

إلى هاتين الغايتين أتجهت همه عقبة ، والغالب أنه كان قد عقد النية — يوم خرج في ولايته الأولى — على أن يتم الشطر الأول ، ثم يعقبه بالشطر الثاني ، ففاجأه العزل وحال بينه وبين تنفيذ ما أراد .

وكان عقبة على الحق فيما رأى ، وكانت خطته هي أمثل ما يتبع في إفريقية ، وقد أكمل شطرها الأول بنجاح ، ولكنه أخطأ في تنفيذ شطرها الثاني ، فكانت حملته الكبرى مغامرة طويلة قليلة الأثر وخيبة العاقبة .

بعث عقبة
في الصحراء

بدأ عقبة عمله من سنة ٤١ هـ ، فبدأ بإخضاع لوائه من جديد ، ثم تقدم إلى غدامس فاحتلها سنة ٤٢ هـ ، ثم اتجه إلى الجنوب ففتح بعض واحات الصحراء التي أرادها ابن الأثير بقوله « كوراً من كور السودان »^(١) ، ولبث مقبياً في هذه النواحي حتى ولاة معاوية جند إفريقية وسيره إليها سنة ٥٠ هـ ، ولا يبعد أن يكون قد رجا أن يوافيه عمرو أو معاوية بالجند وهو على سريته هذه ، ليتيم ما بدأ به ، وربما بعث في طلب ذلك ، وهنا — كما يغلب على الظن — موضع الخطاب الذي ذهب البلاذري إلى أن عقبة ، أرسله إلى عمرو في حملته الأولى سنة ٢٢ هـ ، إذ أن معنى قوله إنه « قد وضع الجزية على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه ، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها إلى الفقراء ، يأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر »^(٢) ، أن أهل هذه البلاد كان قد طال عهدهم بالإسلام حين أرسل هذا الكتاب فاعتنقه منهم نفر وبقى منهم نفر آخر على دينه ، فأخذت الصدقة وجمعت الجزية ، بل يفهم كذلك أن بعضهم كان قد أطاع ثم عاد فارتد ، فغزاهم عقبة مرة أخرى وأقام عليهم العمال والجبابة ، وبعث إلى عمرو بخبر ذلك كله . ومعقول جداً أن يكون عقبة قد أراد بهذا الكتاب أن يدل على عظيم توفيقه ونجاحه ، ويستحث القائمين بالأمر على موافاته بالجند والمدد حتى يتم هذا الأمر الذي بدأ به ، ولبث ينتظر الإذن والمدد ليستأنف المسير . أما أن يكون قد بعث ذلك الخطاب إلى عمرو سنة ٢٢ أو بعدها بقليل ، فأمر بعيد الاحتمال ، إذ يبعد أن يكون البربر قد أقبلوا على الإسلام من يوم دخل العرب إفريقية إقبالاً يستدعى تنظيم أمورهم وإقامة العمال وجباية الصدقات .

توفي عمرو بن العاص في أول شوال سنة ٤٣ هـ ، وأصبحت يد معاوية ابن أبي سفيان مطلقة في شئون مصر وإفريقية يولى عليهما من يشاء ، وكان

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤ (٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٢٤

معاوية بن حديج من أكبر أنصاره في مصر . جاهد في سبيل عثمان ومعاوية جهاداً طويلاً وأدرك للعثمانية ثأرها بقتل محمد بن أبي بكر ، وأصلح بين عمرو ومعاوية حين اشتدت الملاحاة بينهما وكادت تؤدي إلى مالا تحمد عقباه ، وزينت له دمشق يوم وفد عليها بعد استقرار الأمور ، فلما مات عمرو تطلعت نفس ابن حديج إلى شيء من حسن الجزاء الذي استحق ، وعرف له معاوية أياديه ، فأقامه على جند مصر في ولاية عتبة بن أبي سفيان ، وأمره بالمسير إلى إفريقية ، وبعث إليه الإمداد من جند الشام ، فسار في حملته سنة ٤٥ هـ التي مر ذكرها .

ولا نزاع في أن عقبة كان يرجو أن يكون مكان معاوية بن حديج ، ولكنه لم يجد بداً من الرضا بذلك ، لأن معاوية أعلى منه منزلة وأرجح كفة في حساب بنى أمية ، فانتظر حتى عاد معاوية من حملته في أوائل سنة ٤٧ هـ بغنيمة قليلة ، وما هو إلا قليل حتى بعث إليه معاوية يأمره بالمسير إلى إفريقية ويمده بالجنود فحتم مسرعاً^(١) .

— ٢ —

ينفرد ابن عبد الحكم والبكري بذكر تفاصيل وافية عن أعمال عقبة وفتوحه في حملته الأولى ، فيصفان مسيره من برقة إلى موضع القيروان وصفاً يخالطه قصص كثير ، ويذهبان إلى أن عقبة خرج إلى المغرب سنة ٤٦ هـ «ومعه بسر بن أبي أرطاة وشريك بن شمسى المراضى ، فأقبل حتى نزل بمغداش^(٢) من صرت ، وكان توجه بسر إليها كما حدثنا يحيى بن عبدالله بن بكير ، عن الليث بن سعد سنة ٢٦ هـ ، فأدركه الشتاء وكان (مضعفاً) ، وبلغه أن أهل ودان نقضوا عهدهم ومنعوا ما كان

(١) ذكر ياقوت أن عقبة جمع « من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الوارد عليه من معاوية » — معجم البلدان ، ج ٧ ص ١٢٤
 (٢) يغلب أن صحبتها مغداش ، على مرحلة من صرت إلى الغرب — البكري ، وصف لإفريقية ، ص ٧

بسر بن أبي أرطاه قد فرض عليهم ، خلف عقبة بن نافع جيشه هناك ، واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس ، ثم سار بنفسه وبن خف معه أربعائة فارس و.... حتى قدم ودان » ثم ذكر المؤلفان كيف أخذ عقبة مَلِك ودان فصلم أذنه أدباً له وفرض عليه جزية قدرها ثلاثمائة وستون عبداً ، ثم سأل أهل ودان عن وراءهم ، فدلوه على جَرَمَه ^(١) «مدينة فزان العظمى» ، فأخضعها بعد أن أدب ملكها ، وفرض على أهلها جزية قدرها ثلاثمائة وستون عبداً ، ووجه ملكها بعد ذلك إلى المشرق ، ثم افتتح قصور فزان ، وانتقل إلى بلد يسميانه خاوار فعجز عن فتحه بعد حصار شهر ، ففضى إلى كوار فافتتحها وأدب ملكها ، ثم عاد خفية فقاجاً أهل خاوار وفتحها ، ثم عاد إلى جيشه على مقربة من صرت ؛ ويضيف هذان المؤرخان إلى ذلك كرامة لعقبة ، إذ : « أقام عقبة بمكان اسمه اليوم « ماء فرس » — ولم يكن به ماء — فأضاهم عطش شديد أشنى عقبة وأصحابه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين ، ودعا الله وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض ، فكشف عن صفاة فانفجر منها الماء ، فجعل فرس عقبة يمحس ذلك الماء ، فأبصره عقبة فنادى في الناس أن احتفروا حفروا سبعين حسيماً ، فشرّبوا واستقوا فسمى لذلك ماء فرس ^(٢) » .

يحدد المؤرخان سنة ٤٦ هـ هذه الغزاة ، أى أنها كانت في نفس الوقت الذي كان فيه معاوية بن حديج على غزو إفريقية ، ويرويان بعد الفراغ منها أن عقبة اتجه رأساً إلى غدامس ، فأقليم قَسْطِلِيه فكان القيروان ، فإذا قدرنا شهرين لمسير عقبة من صرت إلى غدامس — بعد رجوعه من هذه الجولة الصحراوية —

(١) ذكر الرواة أن عقبة خلف هذين على القيروان حين سار إلى إفريقية

(٢) يظن أن ال Garamantes الذين يذكروهم ديل هم أهل جرمة هذه .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٤ — ١٩٦ ، والبكري ، وصف إفريقية ، ص ١٣ و ١٤ باختلاف بسيط

لكانت المدة التي انقضت بين شروعه في السير الأول من برقة وشروعه في بناء القيروان عشرة شهور أو سنة واحدة على الأكثر . وإذا كان عقبة قد بدأ بناء القيروان سنة ٥٠ هـ فلا بد أن يكون قد قام بغزوته تلك خلال سنة ٤٩ هـ ، وإلا فكيف يتفق ذلك مع قولهما إن عقبة شرع في هذه الغزوة سنة ٤٦ هـ ، وإذا كان عقبة قد أتم جولاته الصحراوية الطويلة في شهور خمسة ، فكيف قطع المسافة من فزان إلى القيروان عن طريق قسطنطينية في ثلاثة السنوات الباقية ؟ أغلب الظن أن المؤرخين أخطأ في تحديد ذلك التاريخ ، فذكرنا سنة ٤٦ هـ بدلا من سنة ٤٩ هـ .

بذلك تستقيم سلسلة الحوادث : رجع معاوية بن حديج في أوائل سنة ٤٨ هـ ، وشرع عقبة في المسير سنة ٤٩ هـ إذ لا يتفق القول بأن معاوية بن أبي سفيان سير عقبة في نفس الوقت الذي كان فيه معاوية بن حديج على غزو إفريقية .

وإذا جاز أن نستنتج شيئا من قول ابن عبد الحكم والبكري إن الوقت كان شتاء ، لصح القول بأن مسير عقبة كان في أوائل سنة ٤٩ هـ لأن أول الحرم من هذه السنة يوافق ٩ فبراير سنة ٦٦٩ م^(١) أي منتصف الشتاء .

عاد عقبة إلى جيشه الذي كان معسكراً على مقربة من صرت بعد غيبة خمسة أشهر استراح الجند خلالها ، وجئت خيولهم وظهورهم ، فسار متوجهاً إلى المغرب ، وجانب الطريق الأعظم ، وأخذ إلى أرض فزان ، ففتح كل قصر منها ، ثم مضى إلى (بياض) فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلاً إلى غدامس فافتتحت غدامس ، فلما انصرفت إليه خيله سار إلى قفصة فافتتحها وافتتح قسطنطينية ثم انصرف إلى القيروان^(٢) .

(١) روث ، ص ٣٥ Roth, op. cit. p. 35 وفورنل ، ج ١ ص ١٥٠ Fournel,

op. cit. I. p. 150 وقد أورد أحداث هذه الرحلة الصحراوية بدون تعليق

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٦ — البكري ، وصف إفريقية ، ص ١٤

يتفق ابن الأثير وابن عذارى والنويرى^(١) على القول بأن معاوية ولى عقبة أمر إفريقية فى سنة ٥٠ هـ ، ويؤيد المؤرخون البيزنطيون ذلك ، فيتفقون على ذكر حملة كبرى على إفريقية فى أول حكم قسطنطين الرابع^(٢) ، ومن هنا كان الراجح أن عقبة قام بحملته فى الصحراء عقب عودة معاوية بن حديج من إفريقية وقبل تولية معاوية إياه وإرساله الإمداد إليه ، ولهذا عاد إلى مركزه الأول على مقربة من صرت ، ولو كان معاوية أمّره على إفريقية آنئذ لساّر إلى إفريقية رأساً دون الحاجة إلى العودة إلى صرت ، فلما وصله الأمر والمدد شرع فى السير إلى الغرب ، واحتل غدامس ، وربما كان هذا هو السبب فى إغفال أكثر المؤرخين ذكر هذه الغزوة الداخلية ، إذ أن معظمهم بدأ تاريخ غزوة عقبة من ساعة وصول العشرة آلاف جندي إليه فى أوائل سنة ٥٠ هـ ، ويبدو أن تتابع حملاته على هذه النواحي من سنة ٢٢ هـ إلى ٤٩ هـ أدى إلى دخول بعض أهلها فى الإسلام ، لأن ابن الأثير والنويرى يذكران أن عقبة أخذ معه من أسلم من البربر عند مسيره إلى إفريقية سنة ٥٠ هـ^(٣) .

مسير عقبة
إلى إفريقية

أخذ عقبة طريقه فى داخل البلاد مباعداً الساحل ، وقد لزم هذه الخطة فى كل أعماله — سواء فى هذه الغزوة أو فيما بعدها — وربما كان دافعه إلى ذلك إثاره الابتعاد عن الإقليم الساحلى الملىء بالحصون والحارس وتفضيله الطريق الداخلى المقفر الذى لا تكون فيه إلا مقاومة ضئيلة من القبائل البربرية وسكان الواحات ؛ ولا نزاع فى أن عقبة لم يكن على الصواب دائماً فى التزام هذه الخطة

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤ — النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٨ ١ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ١١ — ١٢

(٢) السمي Pogonat الذى بدأ حكمه فى ١٥ يوليوسنة ٦٦٨ أى ما يوافق أواخر سنة ٤٨ هـ (٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤ — النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٦٨ ١ ، ويؤيد ذلك ليني برونسفال إذ يؤكد أن جيش الساميين أخذ يتزايد بانضمام البربر إليه أثناء مسيره فى البلاد ، أنظر د . م ١ ، مادة عقبة

وتجنب غيرها ، لأنها جعلت من غزواته مغامرات قليلة الجدوى ، لقلة ما فتح أثناءها من مدائن البلاد الكبرى وحصونها المهمة ، وذلك على الرغم مما كان جنوده يلقون من متاعب المسير في هذه النواحي الجبلية القاحلة .

سار عقبة متنقلاً بين أقاليم الواحات التي لقيها في طريقه مثل غدامس وقسطلية ومن ثم أفضى إلى إفريقية فاتجه رأساً إلى موضع قسطنطينية الذي كان معاوية بن حديج قد عسكر فيه قبله ، فوقع اختياره عليه ليقم فيه المدينة التي كان قد عقد العزم على بنائها . .

لم يكن أهل إفريقية يتوقعون مجيء العرب إذ ذاك ، فلم يتخذوا الحذر ولم يلجأوا إلى حصونهم كما عهدناهم في الغزوات السابقة ، فدهمهم عقبة ، وأصاب منهم كثيراً ، بهذا يحدثنا النويري : « فافتتحها ووضع السيف حتى أفنى من بها من النصارى ^(١) » .

ولسنا نجد ذكراً لذلك القتل الذريع في غير النويري والاستبصار ^(٢) من المراجع العربية ، وإن كان المؤرخون البيزنطيون من أمثال تيوفانيس وقديريوس وانسطاس الكتيبي ، يجمعون على وقوع اضطهاد شديد بالمسيحيين في إفريقية في أوائل حكم قسطنطين الرابع (بجونات) ، أي في نفس الفترة التي قاد عقبة فيها حملته على إفريقية ^(٣) .

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ٦٨ ١
(٢) الاستبصار ، (طبعة كريمة ، فبا) ص ٣ . وظاهر أنه نقل ذلك عن النويري ، لأن عبارتهما تتفقان حرفياً .

(٣) Theophanes, I, p. 549. Cedrenus, Compendium, I, p. 764 Anastase
Hist. Eccl. II, p. 177. Fournel, op. cit. I, p. 151

وقد أيد المستشرقون من أمثال فورنل وديل وروت هذه الأخبار ، وبالفوا في تصوير هذا الاضطهاد مبالغة جعلت منه بجرأ من الدماء كما قال روت ، أنظر Roth, op. cit. p. 842—
Fournel : op. cit. I, p. 151

عقبة يفكر
في اختطاط
القيروان

كان عقبة يقدر أهمية إقامة مدينة للمسلمين في إفريقية ، لأنه قال : « إن إفريقية (إذا دخلها إمام) تحوَّموا بالإسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أسلم بها ، وارتد إلى الكفر ، وأرى لكم — يامعشر المسلمين — أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكرياً وتكون عز الإسلام إلى أول الدهر^(١) » . فشرع في اختطاط هذه المدينة دون أن ينتظر طويلاً ، ولا شك أن تفتن عقبة إلى ذلك الأمر ، ومبادرته بإنفاذه كان إيذاناً ببدأ العمل المنتج لفتح إفريقية ، فتأسيس هذه المدينة هو الحد الفاصل بين المحاولات الأولى التي تقدمتها والتي لم تنته إلى شيء ، والأعمال التي ستليها والتي ستنتهي بفتح البلاد فتحاً دائماً يجعل منها بلداً إسلامية صرفة ، إذ أن جند المسلمين كانوا قبل ذلك يخرجون من مصر للأغارة على ما يستطيعون من بلاد إفريقية ثم يعودون إلى مصر أو إلى برقة محملين بالغنائم — أو من غير غنائم — دون أن يخلفوا في البلاد أثراً ودون أن يكون في غاراتهم معنى الفتح .

يذكر ابن عبد الحكم أن عقبة « لم يعجب بالقيروان الذي كان معاوية ابن حديج بناه قبله ، فركب والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم ، وكان وادياً كثير الشجر والعطف . تأوى إليه السباع والوحوش والهوام^(٢) » ؛ ويجمع المؤرخون — عدا المالكي — على ذكر ما قاله ابن عبد الحكم بالنص أو بالمعنى ، ويزيد الغربيون منهم فيحيطون تخطيط القيروان بعدد كبير من الأساطير ظاهراً الانتحال ، فهل كان موضع القيروان كما قال ابن عبد الحكم حقاً و « شعارى لا يسلك^(٣) » و « دجلة مشتبكة بها أنواع الحيوان من السباع والحيات^(٤) » أم كان « حصناً لطيف الكروم ، وكان فيه كنيسة وفيها الساريتان الحراوان اللتان

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٦

(٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٦٨

(٣) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٦٨ ب

ها اليوم في المسجد»^(١) كما يقول المالكي ؟ لكي نصل إلى الحقيقة لابد من تحقيق قونية هذه التي اختطت القيروان موضعها أو فيها .

يتفق البكري واليعقوبي والتيجاني^(٢) على أن قونية قطر فسيح كثير العمران والزروع ، ويذكره الإدريسي وابن حوقل باسم قودة^(٣) ، وأنه يضم عدداً من القرى والمدائن مثل قاصرة ومذكور ونقاوس وجونس الصابون ، ويجعلون حدها الجنوبي إقليم قسطنطينية وحدها الشمالي سوسة ، ويذهب التيجاني إلى أن هذا الإقليم يصل إلى البحر ، لأنه يذكر ساحل قونية وشاطئ قونية^(٤) ، وذكر ياقوت أن قونية هي المدينة المعروفة بسوسة المغرب^(٥) . ولما كان المعروف أن سوسة هذه هي هادروميثوم الرومانية ، وإلى جنوبها تقع بلدة Caput-Vada الرومية كذلك (التي يظن أن العرب حرفوا اسمها إلى قودة أو قونية) فإنه يغلب على الظن أن ياقوت أراد أن يقول إن قونية هي المنطقة المحيطة بمدينة سوسة .

قونية إذن — كما يحددها الجغرافيون — هي قلب إفريقية البيزنطية ، وكانت غاصة بالحصون والمدائن والمزارع والطرق وما إليها من معالم العمران ، فكيف اتفق إذن وجود هذه الغابات الكثيفة الملائى بالحشرات والهوام والسباع والحيات في وسط هذا الإقليم العاصم المطروق ؟ ولولم يكن التيجاني قد أكد اتصاله بالبحر لكان معقولاً أن توجد فيه نواح مقفرة من السكان والعمران ، لأن بعض أجزاء الولاية الداخلية كان قد أدركه الخراب من منتصف العصر البيزنطي ، أما وهي مطلة على البحر فيستبعد جداً وجود هذه الغابات الملتفة والشعاري التي

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٧

(٢) التيجاني ، رحلة ، ١٤ ، ١٤٠ ب والبكري ، وصف إفريقية ، ص ٧٥

(٣) الإدريسي ، ص ١٣٣ وابن حوقل ويتفق وصف هذين الإثنين لقودة مع وصف البكري لقونية ويذكرون فيها مدناً واحدة مما يدل على أن قونية وقودة إقليم واحد

(٤) التيجاني ، رحلة ، ١٤ ، ١٠ ب (٥) معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٧٦

لا تسلك فيها ولو أن ذلك قيل عن مكان آخر بداخل البلاد لقبلة العقل ، لأن هذه المنطقة كانت قبل أن يسكنها الإنسان منطقة غابات معتدلة ملتفة الأشجار ، أما إقليم قونية كما يحده الجغرافيون فليس من المعقول أن تكون هذه الغابات قد تركت فيه على حالها خلال العصور الماضية كلها ، مع أنه على بعد ثلاثة أيام من قرطاجنة نفسها .

لعل قول المالكى إن موضع القيروان كان حصنا لطيف الكروم وإنه كان موضعا لكنيسة حسنة البناء ، فيها الساريتان الحمراوان اللتان نقلهما حسان بن النعمان إلى مسجد عقبة فيما بعد ، لعل هذا القول هو الصواب^(١) ومن المعقول أن يكون هذا الحصن اللطيف الكروم قد أدركه الخراب فى أوائل القرن السابع وهجره أهله فسكنت إلى كرومه بعض الذئاب والضباع وما إلى هذه من الوحوش التى تجاور العمران ؛ فلما أقبل عقبة وأصحابه وقع اختيارهم على موقع ذلك الحصن ، فخطوا رحالهم على مقربة منه وأخذوا يستعدون لتخطيط مدينتهم إلى جواره ، ففرغت الضواري من جلبية الجيش الذى عسكر إلى جوارها ، فأخذت تتسرب هاربة ، فرآها العرب تفعل ذلك فظنوا أنها معجزة من معجزات عقبة ، فكان ذلك موضعا خصبا لخيال الرواة ، فأضافوا خطابة للوحوش وصوروا الكرم هذا التصوير المبالغ فيه حتى تتم المعجزة ويصح للقيروان ما يريدونه لها من القداسة والجلال .

هكذا يمكن تفسير ما اجتمع عليه رأى المؤرخين من وقوف عقبة على الموضع الذى تخيره لاختطاط القيروان ومناداته : « أيتها الحيات والسباع ! نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إرحلوا عنا إنا نازلون ! ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه ؛ فنظر الناس فى ذلك اليوم إلى السباع تحمل أشبالها والذئاب تحمل أجراها

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٨ ويؤيد لإفيه ذلك إذ يقول إن قونية أو قودة مدينة رومانية قديمة وينهب إلى أن العرب استعملوا موادها فى بناء القيروان — أنظر دائرة المعارف الإسلامية مادة قيروان

والحيات تحمل أولادها ، فأسلم كثير من البربر^(١) . وقد أفاض المؤرخون الغربيون في تفصيل ما دار بين عقبة وأصحابه في تحديد موضع القيروان ، فذهب الدباغ في معالم الأيمان إلى أن عقبة تحرى أن يكون لأهلها ثواب الرباط وشرف الجهاد ، وابتعد بها عن الساحل حذراً من مفاجأة الروم لها ، وجعلها على مقربة من سبعة لتكون قريبة من المراعى ، فترعى الإبل فيها آمنة من غارة البربر والنصارى^(٢) ، بل بلغ من إعجاب رواة المغرب باختيار عقبة أن أحد رواة الدباغ — وهو الشيخ الصالح الفقيه أبو مهدي عيسى الضميلي — زعم أنه استبان أن القيروان رابعة الثلاثة مكة والمدينة وبيت المقدس^(٣) .

موقع
القيروان

والواقع أن عقبة أحسن اختيار هذا الموقع ، فقد كان تنظيم الفتح يستدعى إقامة مدينة في هذا الموضع المتوسط بين الساحل والهضبة ، القريب من السفوح الصالحة للمرعى وقد علق كودل على ذلك بقوله : « وكان اختيار المكان موقفاً بل بلغ من التوفيق في اختياره أن ولاية المغرب ومن خلفهم من الحكم المستقلين قاموا بها زماناً طويلاً ، ولم ينتقلوا عنها إلا حينما اضطرتهم ظروف سياسية جديدة إلى ذلك . كما كان موقعها الحربي معروفاً ملحوظ الأهمية ، إذ كان الحاكم الذى يتخذ هذا الموضع مركزاً لأعماله ، يستطيع أن يرى العدو من بعيد ويتحرز من الغارات المفاجئة الكثيرة الحدوث عند البربر . وإذا أراد أن يطاردهم إلى هضابهم وجد الطريق مفتحة أمامه ، إذ كان يستطيع بعد مسير بضع ساعات الوصول إلى أعلى الهضاب ، عن طريق وادى زُرُود ووادى مَرَجِلٍّ ومسالك جبل بارجو ، ومن أعلى الهضاب كان يستطيع الإشراف على ما يجاورها ، فيتيسر له حكمها إذا كانت لديه

(١) التويرى ، نهاية الأرب ، ٦٨ ب وقد أوردتها بقية المؤرخين بصور مختلفة —

ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٦ — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

(٢) الدباغ ، معالم الأيمان ، ج ١ ص ٨ و٩

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٦

القوة الكافية لذلك . كذلك كان فرسانه الخفاف قديرين على أن يقوموا بهذا النوع من أعمال الاستطلاع والغارات السريعة والحراسة الدائمة^(١) .

بدأ عقبة في تخطيط المدينة « فاختط دار الإمارة والمسجد الأعظم ولم يحدث فيه بناء وكان يصلى فيه وهو كذلك^(٢) » ثم « بنى الناس مساجدهم ومسكنهم^(٣) » وهكذا كانت المدينة في أول أمرها وعلى ذلك بقيت زماناً طويلاً « فلم يكن المسجد كما أقامه عقبة بالبناء الكامل وإنما كان — كما يفهم من رواية النويرى — عقبة قد حدد موضعه فقط وربما أحاطه بسياج وجعل له قبلة كما حدث في كل المساجد الإسلامية التى بنيت في ذلك الحين^(٤) ، ويؤكد النويرى أن خلافاً قام بين عقبة وأصحابه على موضع القبلة فقالوا له : « إن أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد فاجهد نفسك في أمرها^(٥) » فظل عقبة متحيراً أياماً حتى ألهمه الله باتجاهها فأقامها وتلك أسطورة أخرى مما يحيط بعقبة ينفيها مجرد التساؤل عن القبلة التى كان عقبة وأصحابه يتوجهون إليها في صلاتهم قبل أن يبدءوا في بناء المسجد ، وتأخذهم الحيرة في تحديد اتجاه القبلة .

وقد ذهب ابن عذارى إلى أن دور المدينة في ذلك الحين بلغت « ثلاثة عشر ألف

(١) كودل ، ج ٢ ص ١٠٤ — ١٠٥ Caudel, op. cit. II. pp.104,105

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ٦٩ ١

(٣) ابن الأثير، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤ وقد أبان البكرى عن ميزات موضعها بقوله لأنها « فى بساط من الأرض مديد ، من الجوف منها بحر تونس وفى الشرق بحر سوسة والمهدية ، وفى القبلة أسفاس وقابس وبينها وبين الجبل مسيرة يوم ، وبينه وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم ، وشرقها سبخة مانح عظيم طيب نظيف ، وسائر جوانبها أرضون طيبة كريمة البكرى ، وصف أفريقية ، ص ٢٤ »

(٤) روى الطبرى فى حوادث سنة ٥٠ هـ عن الفصل بن فضالة ما يلى : « عن يزيد بن أبى حبيب عن رجل من جند مصر قال قدمنا مع عقبة بن نافع ، وهو أول الناس اختطها وقطعها للناس مساكن ودوراً ، وبني مسجدنا فأقننا معه حتى عزل وهو خير وال وخير أمير ، مما يفهم منه أن عقبة اهتم ببناء الدور والمساكن وأنه وفق لى شىء من ذلك — الطبرى ، ج ٦ ص ١٢٩ (٥) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٦٩ ١

ذراع وستمائة ذراع^(١) » وتلك مبالغة ظاهرة والغالب أنها لم تزد في ذلك الحين على قول روث : « ومن المحتمل أن لا تكون القيروان في زمن عقبة أكثر من مخزن للسلاح (قيروان) ثم أخذت المباني والمنازل تقام حوله بعد ذلك^(٢) » وربما يكون عقبة قد أقام حولها سوراً لأن الباجي يقول : « إنه — أى عقبة — جعل دور سورها إثني عشر ميلاً^(٣) » ولم يذكر أحد من المؤرخين ذلك ، ولكن ليس هناك ما يمنع من قبوله مع الإشارة إلى المبالغة الظاهرة في تحديد طول سور مدينة ناشئة باثني عشر ميلاً .

كان عقبة يعرف أهمية إقامة القيروان . وكان قد أراد منها : « أن تتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد^(٤) » . فأنفق في بنائها وتخطيطها هذا الوقت الطويل ، دون أن ينصرف إلى عمل آخر من أعمال الفتوح التي كان قد عقد العزم على القيام بها . وقد أبدى فورنل دهشته من أن العرب أنفقوا هذا الوقت الطويل في بناء القيروان ، مطمئنين تمام الاطمئنان من هجوم الروم عليهم ، مع أن القيروان لم تكن تبعد عن قرطاجنة أكثر من ثلاثة أيام ، وعلل ذلك بأن الروم كانوا إذ ذاك في شغل عن إفريقية وغيرها من ولاياتهم ، إذ كان العرب يحاصرون القسطنطينية حصارهم الثاني الذي بدأ سنة ٤٩ هـ وانتهى سنة ٥٢ هـ ، فانقطعت الإمداد عن الروم بإفريقية ، طوال هذه المدة وعدة سنوات بعدها ، إذ ظلت الدولة تقاسى آثار هذا الحصار الشديد زماناً طويلاً^(٥) ، وقد وصف ديل عمل عقبة بأنه كان « شجاعة عظيمة » وعلل انصراف روم إفريقية عن العرب بضعفهم وانقسامهم على أنفسهم^(٦) ، ومهما يكن من الأمر

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ١٤ (٢) روث ، ص ٤٩ ، Roth, op. cit. p. 49

(٣) الباجي ، الخلاصة النقية ، ص ٥ (٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

(٥) فورنل ، ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ Fournel, op. cit. I. pp. 157—158.

(٦) ديل ، ص ٥٧٣ Diehl, op. cit. p. 573

فقيام العرب بإقامة هذه المدينة في وسط ولاية إفريقية البيزنطية ، يدل تمام الدلالة على أن سلطان الروم كان قد تقلص من الداخل تماماً .

ويبدو من قول ابن الأثير : « وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السراية فتغير وتنهب ، ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين ، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها » ^(١) أن عقبة لم يظل ساكناً ، طوال هذه السنوات الأربعة التي قام فيها بتخطيط المدينة ، وإنما أخذ يبعث السرايا إلى الجهات المجاورة ، فيصيرون ما يصلون إليه ثم يعودون على عادة العرب في غاراتهم السريعة . وربما كانت تلك الغارات هي بعض ما أراده المؤرخون البيزنطيون — الذين سبقت الإشارة إليهم — من ذكرهم المذبحة الشديدة التي نزلت بمسيحيي إفريقية في ذلك الحين . ويفهم من تلك الرواية كذلك أن استقرار المسلمين في ذلك المكان أربع سنوات ، وقيامهم ببناء المدينة قد أثار بين البربر اضطراباً شديداً ، وأنهم جعلوا يقدون على المسلمين إما لحاربتهم أو للصلح معهم فأخذت دعوة الإسلام تلقى هوى من نفوسهم .

بدأت إفريقية تصبح ولاية ذات أهمية بعد بناء القيروان ، إذ كانت المدينة الجديدة نواة إفريقية الإسلامية ، كما كانت القسطنطينية نواة مصر الإسلامية ، فكان طبيعياً أن يطمع فيها ولاة مصر ويسعوا ليجعلوا منها جزءاً من ولايتهم ، كما كانت قبل قيام القيروان ، وكان ميدان إفريقية أوسع من ميدان مصر ففيه المجال مفتوح للغزوات والغنائم والأسلاب . وكان عامل مصر منذ سنة ٤٧ هـ ، هو مسلمة بن مخلد الأنصاري ، وهو أموي ملحوظ الأثر في نصرة عثمان ، وكان أثيراً على معاوية وأولى الشأن في هذه الأيام . وكانت إفريقية في أول ولايته شيئاً آخر يختلف عما صارت إليه بعد سنوات ثمان من حكمه ، كانت في أول الأمر ميداناً غير محدود

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

ليس للعرب فيه أملاك ولا رعية ولا مدائن . فلم يلق إليها بالا ولم يجد بأساً في أن يولى عقبة قيادة الحرب فيها من قبل معاوية رأساً دون طلب رأيه ، أما الآن — وبعد قيام القيروان وبناء المسجد والمدينة — فقد بدأت الولاية الجديدة تسترعى التفاته ، فالتت نفسه إلى السيطرة عليها وجعلها من بلاده ، وساءه من عقبة انصرافه عنه وعدم حفله به ، وصدوره في عمله غير ملق إليه بالا ، فأحفظه ذلك منه وزاده رغبة في السيطرة على إفريقية ، ولبت يتحين الفرصة لذلك .

لماذا عزل
عقبة ؟

وكان عقبة قد انصرف عن كل شيء — خلا تخطيط المدينة — خلال هذه السنوات ، فلم يبق بما تعود قواد العرب القيام به ، من غزو المدائن والمزارع والفوز منها بالغنائم الوافرة ، ومن ثم انقطع ما كان العرب تعودوا وروده من إفريقية من وفرة الغنائم والأموال . ولما كانت هذه هي المقياس الذي كان يقاس به جهد الفاتحين ، ولما كانت أهمية القيروان لم تتضح إلا لعقبة وحده ، فقد سهل لمسلمة ومن معه ، أن يهونوا من شأن عقبة لدى الخليفة عن ذلك السبيل ، فأقنعوه آخر الأمر بالتخلي عنه ، واستبدال غيره به على حكومة البلاد .

ذلك أقرب التفسير لعزل عقبة المفاجيء الذي تنبئنا به المصادر من غير تعليل أو بتعليل طفيف ، وربما كان إغفالهم أسباب هذا العزل راجعاً إلى خطئهم في ترتيب ولاية مصر ، وفي تحديد علاقة هذه الأخيرة بإفريقية في هذا الحين .

قال الطبرى في حوادث سنة ٤٧ هـ : « وفيها عزل عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر ، ووليها معاوية بن حديج ، وسار — فيما ذكر الواقدي — في المغرب وكان عثمانياً »^(١) وقال في حوادث سنة ٥٠ هـ : « وفيها عزل معاوية بن حديج عن مصر ، وولى مسلمة بن مخلد مصر وإفريقية ، وكان معاوية بن أبي سفيان قد بعث — قبل أن يولى مسلمة مصر وإفريقية — عقبة بن نافع الفهري ، إلى إفريقية

(١) الطبرى ، ج ٦ ص ١٢٩

فافتتحها واختط قيروانها . . . وعزل معاوية هذه السنة أعنى سنة ٥٠ هـ معاوية ابن حديج عن مصر ، وعقبة بن نافع عن إفريقية ، وولى مسلمة بن مخلد مصر والمغرب كله ومصر و برقة وإفريقية وطرابلس . فولى مسلمة بن مخلد مولى يقال له أبو المهاجر على إفريقية من قبل حتى هلك معاوية بن أبي سفيان^(١) ، أى أن الطبرى يجعل ولاية عبد الله بن عمرو تمتد إلى سنة ٤٧ هـ ، ثم يعقبه معاوية بن حديج إلى سنة ٥٠ هـ ، ثم مسلمة بن مخلد إلى وفاة معاوية . وليس الواقع كذلك ، كما نعلم أن عبد الله بن عمرو عزل في نفس السنة التى ولى فيها وهى سنة ٤٤ هـ وخلفه عقبة ابن أبي سفيان فظل إلى سنة ٤٥ هـ ، ثم عقبة بن عامر الجهنى الذى ظل إلى سنة ٤٧ هـ ، حين ولى مسلمة بن مخلد . فلا محل لولاية معاوية بن حديج إذن ، وإنما استنتج المؤرخون ولايته استنتاجاً ، إذ قالوا إن عمرو بن العاص كان والى مصر ، فقام بغزو إفريقية ، وكذلك عبد الله بن سعد ، فلما تسامعوا بغزو معاوية ابن حديج ، فقد استنتجوا من ذلك أنه كان والى مصر إذ ذاك ، ولما كانت غزوة عقبة تقع — فى حسابهم — فى ولاية معاوية بن حديج فقد استنتجوا أن هذا الأخير هو الذى سيره إلى إفريقية ، وما دام معاوية بن حديج قد عزل سنة ٥٠ هـ بمسلة بن مخلد ، فطبعى أن يعزل معه قائده على إفريقية عقبة بن نافع ، ويولى مسلمة بن مخلد على مصر والمغرب معاً .

ومن هنا كان خطأ ابن الأثير وابن عذارى ومن أخذ عنهم من رواة المغرب ، وسكوتهم عن استقصاء أسباب عزل عقبة ، ومن هنا كذلك كان خطأ أبى العرب تميم وقوله : « إن عقبة بن عامر هو الذى بنى القيروان » وخطأ المالكى الشديد فى هذا الجزء وأخطاء أخرى شديدة وقع فيها القيروانى : فى المؤنس وابن مقديش فى نزهة الأنظار^(٢) .

(١) الطبرى ، ج ٦ ص ١٢٩

(٢) قال ابن الأثير : « وقد ذكر أبو جعفر الطبرى أن فى هذه السنة (٥٠ هـ) ، ولى مسلمة بن مخلد إفريقية ، وأن عقبة تولى قبله وبنى القيروان » ثم عاد فذكر رواية أخرى بعد =

وقد يبدو قول ابن الأثير والنويرى وأبو الحسن ، إن مسامة بن مخلد أول من جمع له المغرب ومصر غريباً ، لأن عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد كانا قبله واليين على مصر وعلى ما كان العرب قد فتحوه من إفريقية . فلماذا لقب مسامة بذلك اللقب ؟ . وهل لقب به من أول ولايته أى سنة ٤٧ هـ ، أم أطلق عليه هذا اللقب بعد ذلك ؟ قبل تفسير ذلك ، ينبغي أن نرجح أنه لم يلقب بذلك اللقب إلا بعد ولايته بنحو ثمان سنين أى سنة ٥٥ هـ ، وهى السنة التى عزل فيها عقبة عن إفريقية لأن ولاية إفريقية لم تكن إليه هذه السنوات الثمانية . إذ كان معاوية ابن حديج قد ولى من قبل معاوية بن أبي سفيان حتى سنة ٥٠ هـ ، ثم عقبة بن نافع من قبل معاوية كذلك . فلا يتفق أن معاوية ولى على إفريقية مسامة بن مخلد

== ذلك أقرب للصحة ، قال قبل روايتها : « والذى ذكره أهل التاريخ من المغاربة أن ولاية عقبة ابن نافع لإفريقية ، كانت هذه السنة وبنى القيروان وبقى إلى سنة ٥٥ هـ وولياها مسامة بن مخلد ، وهم أخير بيلاذهم ، وأنا أذكر ما أثبتوه فى كتبهم قالوا ... » وقد أخطأ فجعل ولاية مسامة بن مخلد تبدأ سنة ٥٥ هـ ولكنه ذكر تأسيس القيروان على صحته . وقال ابن عذارى : « وفى سنة ٤٧ هـ عزل معاوية بن أبي سفيان عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر ، وولاهها معاوية بن حديج الكندى » وقد روى محمد بن أحمد بن تميم (أبو العرب) عن أحمد بن أبي سليمان ، وحبيب صاحب مظالم صحنون وغيرها ، عن سحنون عن ابن وهب عن الليث بن سعد قال : « بلغنى أن عقبة بن عامر غزا قبل ذلك لإفريقية ، يعنى قبل عقبة بن نافع ، ثم روى بناء عقبة للقيروان وقصته مع الحيات منسوبة إلى عقبة بن عامر » والخطأ فى هذا ظاهر . وانفرد المالكى فى رياض النفوس بأخطاء لم يشاركه فيها أحد ، فجعل سعيد بن يزيد (يكتبه بن زيد) يبعث عقبة إلى إفريقية ، مع أن سعيداً ولى مصر سنة ٦٣ هـ ، أى فى السنة التى سار عقبة فيها إلى إفريقية فى غزوته الثانية . ثم جعل معاوية بن أبي سفيان (الذى توفى سنة ٦٠ هـ) ، يعزل سعيداً بعد ذلك ، ويولى مسامة بن مخلد الذى يعيد أبا المهاجر إلى إفريقية سنة ٥٧ هـ وهذا خلط واضح . أما ابن أبي دينا فقد جعل غزوة عقبة التى بنى فيها القيروان سنة ٤٢ هـ أو ٥١ هـ . وذهب ابن مقديش إلى أن معاوية بن أبي سفيان : « أعاد معاوية بن حديج بجيوش الشام سنة ٥٠ هـ » والحقيقة أن الذى أعيد فى هذه السنة هو عقبة . وذكر كذلك أن مسامة بن مخلد ولى على إفريقية خالد ابن ثابت الفهرى سنة ٥٤ هـ ، ولأصح لذلك وربما أخذه عن المالكى الذى يسميه ثابت الفهمى - ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ١١ ، طبقات علماء إفريقية ، ص ٨ المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٧ ، القيروانى ، المؤنس ، ص ٣٦ ، ابن مقديش ، نزعة الأنظار ص ٧٠

كان بينهما^(١)» ولم يفسر لنا هذا الشيء الذى كان بين عقبة وأبي المهاجر .
والراجح أن هذا تعليل غير صحيح ، فإذا يكون بين مولى صغير كدينار وفتح عظيم
كعقبة من الأشياء ؟ إنما تكون الأشياء بين مسلمة وعقبة وكلاهما وال ظاهر
عظيم القدر ، يكون بينهما التحاسد والنزاع على الولاية والشرف والغنيمة ، والحظوة
لدى الخليفة ، ويبدو أن السلاوى استنتج ذلك من قول ابن عبد الحكم :
« فلما قدم عقبة مصر ركب إليه مسلمة بن مخلد فأقسم له بالله لقد خالفه فيما صنع
أبو المهاجر ولقد أوصيته بك خاصة^(٢) » فأخذ بظاهر هذه الرواية ، ونسب إساءة عقبة
إلى أبي المهاجر ، مع أن سعى مسلمة إلى عقبة واعتذاره له ونفيه التهمة عن نفسه ،
لا يعلل إلا بأن مسلمة خشى أن يفضب معاوية عليه ، حين يقص عليه عقبة
ما نزل به من مساءة على يديه ، فأسرع وألقى التهمة على أبي المهاجر خوفا من
معاوية . بيد أن ابن عبد الحكم يروى رواية أخرى يفهم منها بوضوح ، أن مسلمة
هو الذى سعى لعزل عقبة ودفع معاوية إليه ، فإن عقبة لم يكذب يسط له ظلامته
من أبي المهاجر حتى أجاب : « قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم ،
وتقديمه إياه وقيامه بدمه وبذله مهيجته وقد رددتلك إلى عملك^(٣) » ، وفى هذا اعتراف
من معاوية بأن المستول عما نزل بعقبة هو مسلمة ، لا أبو المهاجر . وأن عزل عقبة
كان على هوى منه ، وأن عقاب أبي المهاجر كان يسىء مسلمة . ومسلمة رجل أثير
على معاوية ، ذو مكانة عظيمة عنده ، لما كان له من الحظوة عند عثمان الإمام
المظلوم ، وإذا جاز أن نستنتج شيئا من قول ابن عبد الحكم إن معاوية قال لعقبة :
« قد رددتلك إلى عملك » ، لقلنا إن معاوية أراد أن يؤكد لعقبة ، أنه لا يمانع فى رده
إلى ولايته ، ولكن مسلمة كان يعارض فى ذلك .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٦

(١) السلاوى ، الاستقصاء ، ص ٣٧

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٨

وإذا صدق ما تؤكد الروايات من أن عقبة دعا على أبي المهاجر ، فظل هذا خائفاً من دعاء عقبة لأنه كان محاب الدعوة^(١) ، فإن ذلك يكون برهاناً جديداً على براءة أبي المهاجر من تهمة إيذاء عقبة ولأن يدل على أن أبا المهاجر كان يوقر عقبة ، ويعرف ما له من المقام العظيم ، وأنه مستجاب الدعوة ، فكيف يعاقبه ويسىء إليه بعد ذلك من تلقاء نفسه ؟ وكيف يفعل ذلك إلا مضطراً راغماً ؟

(١) نفس المصدر ، ص ١٩٨

معنى لفظ قيروان

ينبغي أن عقبه وأصحابه أرادوا بلفظ قيروان « مدينة » أو معسكر أو مسلحة .
هكذا نفهم من قول عقبه « وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة
نعمل فيها معسكراً وتكون عزاً للإسلام إلى أول الدهر »
ومن قوله حين انتهى إلى اختيار موضعها « هذه قيروانكم » أى أن قيروانهم
هذه ، هى مدينتهم التى يجعلون بها معسكرهم ، أى معسكرهم . وبهذا المعنى استعمل
لفظ قيروان فى الروايات الخاصة بإفريقية . فقد قال المالكى إن معاوية بن حديج :
« بنى بناحية القرن مساكن سماها قيروانا » أى معسكراً للجند ، وذلك قبل
اختطاط القيروان وابن الأثير يقول إن ديناراً أبا المهاجر « خرب قيروان عقبه »
أى معسكره .

ولفظ قيروان فارسى معرب ، أصله كروان أو كربان ومعناه قافلة أو سراح
القوافل ، ويفهم من لسان العرب أنه كان مستعملاً حتى فى الجاهلية بهذا المعنى ،
إذ روى أن امرئ القيس قال فى وصف غارة له .

« وغارة ذات قيروان كأن أسرابها الرمال »

ونقل ذلك عنه ياقوت .

وقد ذهب ابن الأثير فى تفسير معنى هذا اللفظ ، إلى أن معناه : « معظم العسكر
والقافلة من الجماعة » وقال الدباغ فى تفسيره : « واختلف فى لغة العرب فى لفظ
القيروان ، ف قيل هى موضع اجتماع الناس والجيش ، وقيل محط أثقال الجيش ، وقيل
هى الجيش نفسه والمعنى متقارب »^(١)

(١) الدباغ ، معالم الأيمان ، ج ١ ص ٧

بيد أننا نلاحظ أن ديناراً أبا المهاجر حين أخذ الناس يتركون قيروان عقبة ،
تخبرهم قرية تعرف بتكيراوان ، وهو لفظ قريب جداً من قيروان . وقد رأينا هذه
القرية بأسماء مختلفة عند المؤرخين الغربيين فهي « تيكروان » و « دكور »
و « تكرور » مما يحمل على الظن أن لفظ تكيراوان أصله بربرى ، وأنه كان يطلق
على قرية قريبة من القيراوان . فهل لفظ « قيروان » تحريف لتكيراوان ؟ إن قول
المالكي عن مدينة أبي المهاجر : « فسمها البربر بتكيراوان » يؤيد ذلك . إذ يفهم منه
أن هذا اللفظ بربرى . أراد به بربر هذه الأيام نفس المعنى الذى أرادته العرب
من « قيروان » ، ولكن أحداً من المتضلعين فى اللهجات البربرية لم يجد للفظ قيروان
أو تكيراوان أو تيكروان معنى أو وجوداً فى هذه اللهجات ، مما لا يجعل سبيلاً
إلى الأخذ بهذا الرأى .

وليس هناك ما يؤيد القول بأن « قيروان » كان علماً على مدينة قديمة
بإفريقية ، اختطت القيراوان مكانها كلفظ بغداد مثلاً ، فلم يبق إلا القول بأن
عقبة وأصحابه أرادوا به خطأ لقوا فلهم ومراحاً لعسكرهم .

الباب الخامس

فتح المغرب الأوسط

دينار أبو المهاجر ودوره في فتح إفريقية

٥٥ - ٦٣ هـ = ٦٧٤ - ٦٨٢ م

قال ابن عبد الحكم رواية عن عبد الملك بن مسلمة ، عن ابن لهيعة وأحمد بن عمرو عن ابن وهب عن يزيد بن أبي حبيب : « وكان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ، ثم يقلون منها إلى الفسطاط ، وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار ، أقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلاً ، وكان مسلمة بن مخلد الذي عقد له على الجيش أحد الذين خرجوا معه إليها فلم يزالوا بها حتى قتل ابن الزبير فخرجوا منها »^(١) . وتلك عبارة يفهم منها أمر على جانب عظيم من الأهمية ، وهو أن إفريقية أصبحت مقراً يقيم به المسلمون ويطمثون فيه دون أن يعودوا إلى مصر بعد كل غزوة ، أي أنها أصبحت — رغم تبعيتها لمصر — ولاية إسلامية مستقلة الشخصية بعض الشيء ، وهذه هي الخطوة الأولى نحو ظهور ولاية إفريقية إسلامية ، فقد كان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ، ثم يقلون منها إلى الفسطاط ، أما في ولاية أبي المهاجر وما بعدها ، فإنهم يقيمون بها العام كله ، ويخرجون للغزو من قيروانها ثم يعودون إليه مرة أخرى ، أي أن إفريقية أصبحت ولاية صغيرة ملحقة بولاية مصر ، لها عاصمتها وواليها الذي يختاره حاكم مصر ، وجيشها الذي يعسكر فيها طول العام .

ولاية أبي المهاجر إذن تعين بدء هذا التطور في مركز إفريقية في الدولة الإسلامية ونهايتها تعين تطوراً آخر هو تحول إفريقية إلى ولاية مستقلة الشخصية قائمة بنفسها ، يولى حاكمها من قبل الخليفة رأساً .

صاحب هذا التغير السياسي الذي جدّ على المركز السياسي للبلاد تحول جوهري في سير الفتوح فيها ، والأساليب التي يتبعها القادة في إتمام فتحها ، إذ كانت الغزوات قبل ذلك لا يرجى منها شيء بعد الغنيمة الوفيرة والسبي الكثير . أما الآن — وقد أصبح للعرب عاصمة فيها — فقد أصبحت غاية الغزوات إخضاع نواحي

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٧

البلاد لهذا المركز ، و بمعنى آخر إتمام فتحها وجعلها بلاداً إسلامية ك مصر والشام سواء بسواء ، ولهذا لم نجد العرب يقبلون الانصراف عن البلاد لقاء مبلغ من المال كما فعل عبد الله بن سعد قبل ذلك ببضع عشرة سنة ، ولن يتوجهوا بجهدهم نحو المدائن الغنية أو المزارع الوافرة الزروع ، وإنما إلى العواصم ذات الأهمية السياسية كقرطاجنة ، ولن يؤثروا العافية فيكتفوا بمهاجمة المدائن الضعيفة ، وإنما سيحاولون بذليل الجبال والهضاب باختراقها وفتح ما فيها من مراكز البربر ، وستكون لأكثرهم الخطة المدبرة المرسومة ، طبقاً لحالة البلاد وما يناسبها ، وهذان التغيران متلازمان في الواقع والمعنى ، ناشتان عن تغير شامل في نظر المسلمين إلى إفريقية ، فلو كانت إفريقية عندهم إذ ذاك ما كانت في الغزوات السابقة لما ألزم القائد نفسه المقام بإفريقية على نأى من مصر ودمشق ، ولعاد بما معه من الغنائم ليتقدم بها إلى أولى الأمر ، ولكنه الآن كحاكم مكلف بإتمام فتح البلاد وتمهيد أمورها ، فلا حاجة له بالغنائم .

— ١ —

أصبح دينار أبو المهاجر — مولى مسلمة بن مخلد — أميراً على إفريقية من سنة ٥٥ هجرية ، واستمر على ولايتها مدى سبع سنوات تنتهى سنة ٦٢ هجرية ، أى بعودة عقبة بن نافع إلى إفريقية ، فكانت ولايته بذلك فاصلاً بين ولايتي عقبة أو بين شطرى برنامجي ، فكان هذا سبباً في انصراف المؤرخين عنه وإهمالهم إياه ، إذ شغل الرواة بعقبة وتتبع أعماله ، فعبروا بأبى المهاجر مسرعين . بل ربما تعمد بعضهم إغفال شأنه والتهوين من أمره لما نزل بعقبة على يديه ، ولهذا كان أقل فاتحى إفريقية ذكراً وأيسرهم لفتاً لانتباه المؤرخين ، على الرغم من أن أعماله كانت على جانب كبير من الأهمية والخطورة ، لأنه أول من جعل غايته الأخيرة فتح البلاد وتثبيت قدم العرب والإسلام فيها ،

ولهذا كانت له خطة مرسومة وسياسة مقدرة يجرى عليها ويتحرى إنفاذها ، بخلاف من مررنا بهم إلى الآن .

لم تأتنا المراجع الموثوق فيها بشيء ذى بال عن أبى المهاجر ، بل إننا مجهل كل شيء عن أصله ومولده ونشأته الأولى ، إذ أغفله المؤرخون للأسباب التى مرّ بيانها . وأغفله كتاب التراجم ، لأنه ليس بصاحب ولا تابع ولا عربى ، وإنما هو مولى ، وربما كان من أهل مصر ، أعتقه مسلمة بن مخلد أمير مصر وقربه إليه لذكائه وفطنته ، ويسدو من قول مسلمة : « إن أبى المهاجر صبر علينا فى غير ولاية ، ولا كبير ميل ، فنحن نحب أن نكافيه »^(١) . أن أبى المهاجر أخلص فى خدمة مسلمة فرضى عنه وولاه إفريقية مكافأة له .

وكان مسلمة قد نفس على عقبة مركزه فى إفريقية ، وساء منه انصرافه عنه وعدم حمله به ، فلم يكدر يتمكن من عزله عن إفريقية ، حتى أنشأ ينتقم منه ، فأوصى أبى المهاجر بذلك ، وتنصل هو من التهمة ، فلزمت أبى المهاجر فى كتب التاريخ ، فيقول ابن الأثير : « فاستعمل مسلمة على إفريقية مولى له يقال له أبى المهاجر ، فقدم إفريقية وأساء عزل عقبة واستخف به »^(٢) . ثم عاد فأكد ذلك بقوله : « ولم يزل عقبة على إفريقية إلى سنة ٦٢ هـ فعزله يزيد بن معاوية ، واستعمل أبى المهاجر مولى الأنصار ، فحبس عقبة وضيق عليه ، فلما بلغ يزيد بن معاوية ما فعل عقبة ، كتب إليه يأمره بإطلاقه وإرساله إليه »^(٣) . وكذلك النويرى لا يكاد يذكر للرجل إلا هذه الإساءة التى أنزلها بعقبة : « ولما وصل مسلمة إلى مصر ، استعمل على إفريقية مولى له يقال له دينار ويكنى أبى المهاجر ، وذلك فى سنة ٥٥ هـ وعزل عقبة ، فلما وصل كره أن ينزل فى الموضع الذى اختطه عقبة ، فنزل عنه

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٧ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٥

بمسافة ميلين ، واختط مدينة يكون له ذكرها ويفسد ما عمله ، فسماها البربر بتكير وان ، فأخذ في عمارتها وأمر الناس أن يخربوا القيروان ويعمروا مدينته ، وتوجه عقبة إلى معاوية بن أبي سفيان ^(١) . ثم يلى ذلك شكوى عقبة إلى معاوية ثم رده على يد يزيد ، وبهذا أهمل الرجل إهمالا تاما . ولو لم يذكر ابن خلدون طرفاً من أخباره عرضاً ، في سياق حديثه عن قبيلة أوربة البربرية ، ولو لم يشر أبو المحاسن إشارة موجزة إلى بعض أعماله في ختام حوادث السنة الثانية عشرة ، من ولاية مسامة بن مخلد وهي سنة ٥٩ هـ ، لما كان لدينا شيء يوثق فيه من أخبار هذا الرجل وأعماله ، ولظل تاريخه حلقة مفقودة بين حلقات الفتح العربي لشمال إفريقيا .

بيد أن روايات المؤرخين المغربيين كأبي العرب والمالكي وابن أبي دينار وابن مقديش والساوى ، تسد بعض هذا النقص بما ورد فيها من الأخبار ، فعلى الرغم من أن روايات هؤلاء مشحونة بالأخطاء والزيادات التي لا يمكن الأخذ بها ، ففي الإمكان الاستعانة ببعض ما ورد فيها ، لإكمال ما أهمل المؤرخون المصريون والشرقيون ذكره .

— ٢ —

شغل الروم عن إفريقية خلال حملة عقبة الأولى ، لأن العرب كانوا إذ ذاك ، نشاط الروم يحاصرون القسطنطينية حصارهم الثانى الذى بدأ سنة ٤٨ هـ ، واستمر إلى ما بعد سنة ٥٠ هـ ، ولبثت الدولة بضعة أعوام بعد ذلك تقاسى عقابيل هذه المحنة التي كادت تودى بها ، فلم يعد إليها الهدوء الذى يسمح لها بالاهتمام بولاياتها ، إلا بعد سنة ٥٥ هـ أى بعد عزل عقبة ، وقد ذهب فورنل إلى أن معاوية تعمد أن يهاجم القسطنطينية إذ ذاك ، ليشغل الروم عن إفريقية ، فيتمكن عقبة من بناء مدينته ، وليس لدينا

(١) التويرى ، نهاية الأرب ، ص ٦٩ ب

ما يؤيد هذا الرأي ، وإن كان الواقع أن حصار القسطنطينية كان عظيم الفائدة لعقبة ، إذ سمح له بفترة هدوء تام ، استطاع في خلالها أن يخطط القيروان ، دون أن يعوقه هجوم الروم ، أو تهديدهم إياه عن ذلك .

أنشأ إمبراطور الروم إذ ذاك ، وهو قسطنطين الرابع ، يصلح من أمر الدولة ، ليتداركها قبل أن تهوى إلى درك سحيق ، فنشط نشاطاً عظيماً لذلك ، وكان يعرف أن السياسة الدينية التي جرى عليها أسلافه ، هي علة العلل في ضعف الدولة البيزنطية ، فعول على وضع حد لها ، وجمع مجلساً دينياً سنة ٦٨٠ م^(١) ، ليضع حداً لخصومات المذاهب التي باعدت بين الدولة ، وبين ما بقي لها من الرعايا في البلقان وإيطاليا وإفريقية ، فلم يلبث أثر عمله هذا أن ظهر في الولايات ، فبدأ ما كان أهل إفريقية يضمرونه للدولة من البغض والكراهية يزول ، وبدأ بعضهم يميل إلى محالفتها ، وتلك ظاهرة جديدة أخرى ستلاحظ في الحملات المقبلة وسيكون لها أثر بعيد . كانت المقاومة التي لقيها العرب في الحملات الماضية ضئيلة لم تشتد إلا في موقعة سُبَيْطَلَة ، لأن جريجور يوش كان يدافع عن كيان ملكه ، أما عدا ذلك فلا مقاومة عنيفة ولا حرب طويلة المدى ، وإنما مناجزات قصيرة أو اعتصام خلف الأسوار ، ولهذا سقطت جلولاء وبنزرت وسوسة وقفصة على هيئته ، أما من الآن فما بعد ، فنجد الروم والبربر إلماً واحداً ، يحاربون العرب حرباً عنيفة جداً ، حتى يكاد العرب ييأسون من أنفسهم ، بل نجد العرب يفشلون في الاستيلاء على أغلب الحصون والمدائن التي يحاولون الاستيلاء عليها ، وعلة ذلك أن جهود قسطنطين أثمرت بمرور الأيام ، فعادت الحياة تدب في الولايات ومنها إفريقية ، واتصلت الأسباب بينها وبين بيزنطة لطلب الأمداد والمعونة وما إلى ذلك ، وأخذ البربر

(١) ديل ، ص ٥٧٦ ، ويذهب المؤلف إلى أن هذا المجلس ختم نزاع المونوثيلية ، وأعاد الأرثوذكس إلى حظيرة الدولة ، ويؤكد أن هذا كان بعيد الأثر في إفريقية .

Diehl, op. cit. p. 576.

يتكون ما في نفوسهم من ضيق بالروم ، لما بدا لهم من تسامح الروم ، فدوا لهم يد المعاونة وكان منهم حلف قوى ، يبدى من المقاومة شيئاً كثيراً ، ومما يؤيد تحليل حلف البربر والروم بسبب الإصلاح الدينى الذى أدخله قسطنطين ، أن نصارى البربر وحدهم هم الذين سيحالفون الروم ويقفون معهم لرد العرب .

على أنه لا تنبغى المبالغة فى تقدير أثر هذه السياسة البيزنطية الجديدة ، فلا يقال إنها أعادت الروم فى إفريقية إلى ما كانوا عليه أيام جوستينيان ، أو اجتذبت البربر إليهم كما جذبهم سياسة آل جريجوريوس ، وإنما يقال إن نصارى البربر اطمأنوا إلى الروم ، وقبأوا حلفهم ومدوا لهم يد العون ، ولا يقال إن الدولة نشطت فأرسلت الجيوش إلى إفريقية ، وإنما يقال إنها بعثت معونة من مال ، أو واث الأهلين بالنصح والإرشاد ، وإن روم إفريقية شعروا بذلك فذب فى نفوسهم نشاط جديد .

ابتداء مقاومة
البربر

اضطلع الروم وحدهم بعبء المقاومة حتى الآن ولم يقم أصحاب البلاد — البربر — بشيء يذكر منها ، وهذا غير ما كان منتظراً منهم بعد الذى سبق بيانه ، من تحررهم من سلطان الروم فى أواخر العصر البيزنطى . بيد أن الظاهر أنهم بدأوا يتحركون للمقاومة ، إذ يقول ابن خلدون : « وكانت البطون التى فيها الكثرة والغلب ، من هؤلاء البربر البتر كلهم لعهد الفتح ، أوربة وهواره وصنهاجة من البرانس ونفوسة وزناتة ومطغرة ونفزاوة من البتر ، وكان التقدم لعهد الفتح لأوربة هؤلاء ، بما كانوا أكثر عدداً وأشد بأساً وقوة ، وكان أميرهم بين يدى الفتح ، ستردير ابن رومى بن بارز بن يرزيات ، ولى عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة ، وأدرك الفتح الإسلامى ومات سنة إحدى وسبعين هجرية وولى عليهم كسيلة بن لزم الأوربى ، فكان أميراً على البرانس كلهم ^(١) » مما يفهم منه أن البربر كانوا فى ذلك الحين ،

=

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤٦

الذى وجد فيه كسيلة على درجة من القوة والانتظام ، إذ كان فيهم ملك مثل ستردير ، استطاع أن يحكم هذه المدة الطويلة ، ولما مات خلفه ملك آخر ، هو كسيلة الأوربي المعروف ، وكانت أوربة على الخصوص كثيرة العدد شديدة البأس ، فكيف لم تشعر هذه القبائل كلها خطر العرب وتنهض لرده من أول الأمر ؟ لقد فتح العرب قسطنطينية ، وفيها مساكن نفاوة وورخومة وقونية ، وفي جنوبها منازل زواغة وقفصة ، وعلى مقربة منها مضارب نفوسة وجولاء ، وهي باب مواقع هوارة وجراوة ، فأين هذه القبائل كلها حتى الساعة ؟ ولماذا لا يذكر ابن خلدون من ملوكهم إلا كسيلة وسلفه ؟ ألا يمكن أن نستنتج من ذلك أن هذه القبائل ظلت في سكونها وخولها من أول الفتح العربي ، ولم تنشط إلا قبيل ظهور كسيلة ، أي حوالى الوقت الذى أقبل فيه دينار على إفريقية ، وأصلح قسطنطين سياسته الدينية ؟

إذا جاز أن نفهم من قول ابن خلدون : « وكان التقدم لعهد الفتح لأوربة هؤلاء ، بما كانوا أكثر عدداً وقوة وأشد بأساً ، وكان أميرهم بين يدي الفتح ستردير بن رومي ^(١) » أن هذه القبائل اجتمعت إلى أوربة واقتربت منها ، لصح أن يقال إن هذه القبائل كانت قد تركت مواقعها هذه زمان الفتح ، واتجهت نحو الغرب ونزل جمهورها جبال الأوراس موطن أوربة ، ويؤيد هذا الرأى أن المقاومة البربرية ستظهر حينما يحاول العرب اختراق الأوراس فى حملة عقبة بن نافع الثانية ، فإذا لم يصح فهم عبارة ابن خلدون على هذا النحو ، لقلب على الظن

== ويبدو أن طبعة بولاق التى أقل عنها ، تضم أخطاء كثيرة فى رسم الأعلام ، فالنسخ التى نقل عنها فورنل ودى سلين تكتب سقرديد لا ستردير ولزم لا لزم وهذا هو الأصح لأن المراجع العربية الأخرى تورد كسيلة بهذا الرسم -

(١) أنظر ابن خلدون ، ج ٦ الصفحات ١١٤ و ١١٥ و ١٢٩ و ١٣١ عن مواقع هذه القبائل ، ويلاحظ أن تلك الأماكن كانت مساكن فروع من هذه القبائل لا القبائل جميعها .

أنه بالغ في تقدير قوة البربر أيام الفتح ، خصوصاً وأن الظروف كلها تؤكد ضعف البربر إلى ذلك الحين وخمود نشاطهم ، فعلى فرض أنهم بدأوا ينشطون ، فيستبعد جداً أن يكونوا قد بلغوا كل ذلك المبلغ من القوة دفعة واحدة ، وإنما المعقول أن يكونوا قد بدءوا يتحركون للمقاومة فقط في ذلك الحين .

بيد أننا نستطيع أن نفهم من قول النويرى إن عقبة بن نافع أخذ معه « من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الوارد عليه »^(١) حين سار في حملته الأولى سنة ٥٠ هـ ، أن نفرأ من البربر كان قد اتصل بالعرب اتصالاً مكنه من معرفة الإسلام واعتناقه ، ويؤيد ذلك قول ابن الأثير يصف ما فعل البربر حيناً رأوا عقبة يخطط القيروان : « فرآه قبيل من البربر فأسلموا »^(٢) ، إذ فيه دلالة كافية على أن بعض الصلات قامت بين العرب والبربر ، صلات ودية وتفاهم تؤدي ببعضهم إلى الدخول في الإسلام ، إذا صدق هذا جاز أن نستنتج منه أن العرب لم يجدوا في طريقهم قبائل قوية تنهض لردهم أو تعاديهم ، وإنما جماعات قليلة ضعيفة تلتف حولهم وتصاحبهم ، فيما أسامت أو ظلت على ما هي عليه ، وكان العرب بالطبع في حاجة إلى مثل هذا النفر للاسترشاد به على السير في البلاد على الأقل ، وذلك كله يؤيد القول بأن بعض قبائل هذه الأقاليم كانت قد فارقتها بعد خرابها إلى نواح أخرى في الغرب أو في الجنوب ، ولم يبق في مساكنها الأصلية إلا طوائف قليلة منهم « تشبثوا بمقامهم في بقايا خرابهم حناناً للوطن »^(٣) ، كما قال الإدريسي عن الذين بقوا في نبرنتة إحدى قرى فزان بعد خرابها .

يقول السلاوى : « وكان كسيلة بن (أغز) الأوربي ثم البرتس من أهل المغرب الأقصى من عظماء البربر ، وكان نصرانياً قد جمع الجوع من البربر والفرنج ،

(١) النويرى ، نهاية الأرب ص ٦٨ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

(٣) الإدريسي ، ص ٣٥

وزحف نحو المسلمين فهزمه أبو المهاجر وأسره^(١) ، « أى أن البربر بدأوا يحسون خطر العرب في ولاية أبي المهاجر ، فأخذ زعيمهم كسيلة يجمع القبائل ويؤلبها ، ثم سار على رأسها نحو المسلمين ، فكان ذلك حافزا لأبي المهاجر على التعجيل بغزوته الطويلة التي وصل فيها إلى تلمسان ، والتي لم يفعل فيها أكثر من هزيمة كسيلة والعودة به في ركابه ، أى أنه لم يقيم بهذه الحملة البعيدة المدى ، إلا ليقضى على هذه المقاومة ، فلما تم له ذلك عاد إلى القيروان ، وربما كان قول ابن خلدون : « ولما نزل (ابن) المهاجر تلمسان سنة خمس وخمسين ، كان كسيلة بن لزم مرتاداً بالمغرب الأقصى في جملة من أوربة وغيرهم ، فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم^(٢) » دليلاً على أن كسيلة كان على جهل تام بما فعل العرب في إفريقية ، وأنه لم يقصدهم بشر وإنما هم الذين سعوا إليه حتى أدركوه عند تلمسان فظفروا به ، ولكنه يؤيد السلاوى في الواقع ، فهو يدل على أن العرب أحسوا ربح المقاومة في هذه الناحية فاتجهوا إليها ، وكيف أحس العرب هذه المقاومة إلا أن يكون أهل هذه النواحي قد تبدل موقفهم من السكون إلى النشاط ومن الهدوء إلى المقاومة ؟ ولو أنهم كانوا على ما عهدناهم عليه من السكون ، لما كلف أبو المهاجر نفسه مؤونة السير إليهم ، لبعد الشقة وعظم الجهد الذى يتطلبه السير إلى تلمسان ، وماذا يكون سبب هذا التغير في موقف البربر من المسلمين ، إلا إحساسهم بأن المسلمين يقتربون منهم ، ويهددون منازلهم التي اعتصموا بها في الجبال والهضاب ؟ بهذا تتساند الروايات فتؤدى إلى نتيجة واحدة معقولة ، وتتعاون الظواهر فتعطى صورة واضحة بعض الوضوح ، وللمؤرخين المغربيين آراء مختلفة في موضوع كسيلة هذا ، فالباجي يقول في الخلاصة إن كسيلة كان قد أسلم قبل حملة أبي المهاجر ، « ثم ارتد وخالف وجمع أمماً من البربر والروم ، فصمد لهم

(١) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٧ (٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤٦

دينار وهزمهم حول تلمسان ، وأسلم كسيلة فأطلقه وتمكن من البلاد^(١) » وفي هذه الرواية أخطاء ينبغي تصحيحها ، وهي وإن كانت في مجموعها تؤيد السلاوي وابن خلدون فيما ذهبوا إليه ، من تحرك البربر للمقاومة في ذلك الحين ، إلا أن فيها دليلاً قوياً على نشاط البربر ، يرجع في بعض أسبابه إلى شعورهم بتقدم العرب نحوهم وتحفزهم للقضاء عليهم ، أما الخطأ فقوله إن كسيلة كان قد أسلم قبل مجيء أبي المهاجر ثم عاد فارتد وهذا غير الواقع كما مر بيانه ، وإنما الحقيقة أن أوربة وأحلافها كانت قد اتخذت نواحي تلمسان والمرتفعات المجاورة لها منزلاً منذ أواخر العصر البيزنطي واطمأنت هناك زماناً طويلاً ، فلم تحس مقدم العرب إلا حين ساروا نحوها في حملة أبي المهاجر هذه .

لا يتفق المؤرخون إذن على رأي فيما يتصل بحال البربر ، يوم بدأ دينار ولايته ، وكان لا بد أن نعرف ذلك على وجه التحقيق ، حتى نستطيع ترتيب أعمال دينار ، إذ هي نفسها في حاجة إلى ترتيب ، فلنأخذ بأبسط ما يفهم من هذه الآراء جميعاً ، وهو أن البربر أحسوا خطر العرب وتنبهوا إلى غزوهم البلاد ، فبدأوا يتحركون لهذه المقاومة ، ولكن مقاومتهم لم تأخذ شكلاً ظاهراً ، إلا حين بدأ العرب يهاجمون جبال الأوراس ، وهي موطن أوربة أقوى قبائل البربر إذ ذاك ، فبدأ الصراع بين الجانبين ، وكانت قيادة أوربة لكسيلة بن لمزم أميرها من سنة ٥١ هـ^(٢) .

(١) الباجي ، الخلاصة النقية ، ص ٥ — ٦ وقد أيد المالكي ذلك بقوله : « إن أبا المهاجر صالح بربر إفريقية وفيهم كسيلة الأوربي وأحسن إليه » . وقد ذكر مرسيه أن جماعة البربر ثارت على العرب ، عند رحيل عقبة إلى المشرق ومقدم دينار ، وكان على رأس الثائرين كسيلة رئيس قبيلة أوربة — وهي رواية لا تؤيدها المراجع الأخرى ، ولكنها تدل على أن مرسيه يؤمن على الرأي القائل ، بأن البربر نشطوا نشاطاً مفاجئاً في ذلك الحين ، وهبوا للمقاومة .

Mercier : Hist. de l'Afrique op. cit. Sept. I, p. 204.

(٢) يقول ابن خلدون : « وكان أميرهم بين يدي الفتح سقرديد بن رومي بن بارزت =

على أن رأى جوتييه عن كسيلة جدير جداً بالنظر ، فقد استرعى انتباهه اتفاق مؤرخى العرب على أن كسيلة كان نصرانياً ، وتسميتهم سافه بسقرديد بن رومى ، وذكرهم ما كان من حلف كسيلة مع الروم على عقبة فى آخر الأمر ، فاستنتج من ذلك أن أوربة كانت على علاقات متصلة مع الروم ، وأن هذه العلاقات لم تقتصر على الاشتراك فى الدين ، بل ليس هناك ما يمنع القول بأنه كانت هناك علاقات مصاهرة بين الحيين ، وقد عزز جوتييه رأيه بالقول : « بأن مركز قوة كسيلة أيام الفتح ، كانت المنطقة الجبلية الواقعة بين تاهرت ووهران ، والتي تتوسطها تلمسان ، وهذه المنطقة كانت منذ قديم الزمان ، مركز البربر الذين تأثروا بالحضارة الرومانية ، وأخذوا صبغتها وحملوا لواءها فى إفريقية : مركز ما كسن وسيفاكس ويوجورثا » ، ومن هنا استنتج أن كسيلة وسقرديد وقومهما كانوا هم أكثر البربر تأثراً بالحضارة البيزنطية فى أيام الفتح ، وكانت هذه الناحية نقطة اتصال بين الروم والبربر ، ثم خلس من هذا كله ، إلى القول : « بأن مقاومة كسيلة كانت مقاومة بيزنطية فى الواقع ^(١) » ، وبهذا ألقى على الموضوع ضوءاً جديداً ، واكتشف للروم إصباعاً فى حركة كسيلة ، فلم يعد سبب ثورته مجرد شعوره بمسير العرب نحوه ،

== ابن برزيات ، ولى عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة ، وأدرك الفتح الإسلامى ومات سنة لإحدى وسبعين هجرية . وولى عليهم كسيلة بن لزم الأوربي فكان أميراً على البرانس كلهم » ، وبهذا تبدأ إمارة كسيلة من سنة ٧١ هـ أى فى ولاية زهير بن قيس ، وهذا لا يتفق مع المعروف من أن كسيلة لقي أبا المهاجر وصحبه . وقد ذهب فورنيل إلى أن ابن خلدون أراد أن يقول سنة ٥١ هـ فأخطأ النساخ ورموه ٧١ هـ ، وهذا تعليل معقول لأن الحوادث تستقيم به ، على أن ابن خلدون يقول فى موضع آخر إن سقرديد كان قائد كسيلة ، فصحح فورنيل ذلك بالقول بأن كسيلة كان قائد سقرديد ، وهو أمر قريب الاحتمال ، فمن المعقول أن يكون سقرديد قد عجز عن القيام بأعباء الحكم فى أواخر أيامه ، فعهد به إلى كسيلة الذى خلفه فيه بعد موته . وقد ذهب ماسكرى إلى أن كسيلة كان واسع الملك وأن ملكه امتد إلى الأوراس وإلى ما يليها غرباً .

(١) جوتييه ، ص ٢٤٠ — ٢٤٢ وربما كان رأى باسيه أقرب إلى الصحة إذ ذهب إلى أن كسيلة ربما كان زميل سقرديد فى قيادة أوربة ، التي كانت تحتل الأراضى الواقعة غربى تلمسان وأنه كان نصرانياً فأسلم Gautier, op. cit. pp. 240—242 أنظر دائرة المعارف الإسلامية مادة كسيلة .

وإنما حرصه الروم على المقاومة ، ووضعوا يدهم في يده ، وربما كانت الحوادث التالية ، أكبر مؤيد لرأيه .

— ٣ —

لم يتفق المؤرخون على رأى واحد في ترتيب ما ينسب لأبى المهاجر من أعمال ، بل يفهم من روايات بعضهم طرف واحد دون الباقي ، فابن خلدون يذكر غزوه للبربر ، ووصوله إلى تلمسان ، ويترك حملته على قرطاجنة بدون إشارة ، وأبو المحاسن يذكر حملته على قرطاجنة بتفصيل ، ثم يشير بعد ذلك إلى الحملة على البربر إشارة موجزة بقوله : « ثم افتتح أبو المهاجر المذكور ميلة (مدينة صغيرة بينها وبين بجاية ثلاثة أيام) ، وكانت إقامته في هذا الغزو نحو من سنتين ^(١) » وذلك بعد أن فصل حصار العرب لقرطاجنة وانصرافهم عنها ، فإذا علمنا أن ميلة في الطريق إلى تلمسان فهمنا أنه أراد أن يجعل الحملة على قرطاجنة سابقة للحملة على تلمسان ، فروى أحداث الأولى ، ثم أعقبها بطرف من أخبار الثانية ، ولكنه يجعل سنة ٥٩ هـ تاريخا لمحاصرة أبى المهاجر قرطاجنة ، فإذا كان هذا الأخير قد بدأ ولايته سنة ٥٥ هـ ، فأين قضى السنوات الأربع التي انقضت بين هذين التاريخين ؟ وكيف يتفق أن ينفق أربع سنوات من ولايته دون أن يؤدي عملا مع أنه كان مكلفا بتعفية آثار أعمال عقبة ، بأعمال أعظم منها ، ثم ينشط بعد ذلك ليقوم بكل هذه الأعمال في ثلاث سنوات ؟

كان ترتيب أعمال أبى المهاجر مثار الجدل بين فورنل وكودل ، فذكر الأول أن أبا المهاجر لم يكذب ينزل إفريقية حتى أعلن الحرب على البربر ، وتقدم نحوهم حتى أدرك أقوى قبائلهم — أوربة — في الأوراس ، فهزمها وأسر قائدها كسيلة وكاد يقتله لو لم يمتنع الإسلام . ثم قرر — رواية عن أبى المحاسن كما يقول —

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٥٧

أن إسلام كسيلة حسن بعد ذلك ، فاستصفاه دينار واتصلت بينهما صداقة موصولة الأسباب ، استطاع البربري عن سبيلها أن يؤثر في أبي المهاجر الذي أسلم له قياده ، ويدفعه إلى تخريب القيروان عقبة ، فخر بها واتجه إلى الشمال بعد ذلك ، وحاصر قرطاجنة مدة طويلة فلم يقدر عليها ، فانصرف عنها بعد أن نزل له أهلها عن جزيرة شريك ، ثم توجه بعد ذلك إلى ميلة رأساً ، حيث بقي هناك سنتين ، حتى عزله يزيد بن معاوية بعقبة سنة ٦٢ هـ^(١) ، وبهذا لم يفعل أكثر من أن روى رواية ابن خلدون ، ثم أعقبها برواية أبي المحاسن ، لأن الأول حدد سنة ٥٥ هجرية لرحلة أبي المهاجر على أوربة ، والثاني جعل حملته على قرطاجنة سنة ٥٩ هـ .

أما كودل فيأبى أن يسجل لأبي المهاجر خطأ سياسياً كالذي ارتضاه له فورنل ؛ فهو يستبعد أن يكون دينار قد غامر بجنده في قلب البلاد ، وترك ظهره مكشوفاً للروم الذين كانوا يتحفزون للوثوب به من قرطاجنة ، وإنما يرجح أن ديناراً بدأ بخالف البربر ليستعين بهم على الروم أو ليضمن حيادهم على الأقل ، فإذا تم له القضاء على الروم ، توجه بهيمته بعد ذلك للبربر فغزاهم . وقد اعتمد كودل على روايات المغربيين الذين لم يظهر فورنل على شيء مما كتبوا ، فقد قال المالكي : «ثم إن أبا المهاجر صالح بربر إفريقيا ، وفيهم كسيلة (الأوربي) ، وأحسن إليه ، وصالح عجم إفريقيا وخرج بجيوشه نحو المغرب ، ففتح كل مامر عليه ، حتى انتهى إلى العيون المعروفة بأبي المهاجر نحو تلمسان ، ولم يستخلف على القيروان أحداً ،

(١) فورنل ، ج ١ ص ١٦٠ — ١٦٥ ويلاحظ أنه جعل كسيلة ، هو المسيطر على دينار وجعله يخدعه ويغربه ، ولا أصل لذلك في الواقع ، ولا يفهم ذلك من روايتي أبي المحاسن وابن خلدون ، وإنما فورنل يفسر التاريخ تبعاً لنظريته ، التي ألف من أجلها كتابه ، وهي إثبات أن البربر كانوا دائماً سادة العرب وقادتهم من أول الأمر .

ولم يبق بها إلا شيوخ ونساء ، ثم رجع إليها فأقام بها ^(١) ، ووضح أن عبارة المالكى لا تؤدى بالضبط إلى التفسير الذى انتهى إليه كودل ، فإنه يجعل الصلح بين كسيلة وأبى المهاجر سابقا على مسيره إلى تلمسان ، وليس هناك ما يؤيد ذلك ، والأصح الذى يمكن الأخذ به ، هو أن الرجلين لم يتصافيا إلا بعد ذلك ، ثم إنه يذهب إلى أن المالكى أوجز بقوله إن أبى المهاجر : « صالح عجم إفريقية » ، حوادث حملة أبى المهاجر على قرطاجنة التى انتهت بالصلح مع الروم ، وهذا تفسير واسع غير دقيق . وحجة كودل فى ذلك أن تحديد أبى الحاسن لغزوة قرطاجنة بسنة ٥٩ هـ أمر غير ذى بال ، فأبو الحاسن — فى اعتباره — لا يفتأ يخطئ فى التواريخ ، وليس هذا الخطأ بأقل من جعله حملة حسان بن النعمان سنة ٥٧ هـ . إزاء هذا التناقض والغموض ، يحسن الأخذ بظاهر روايتى ابن خلدون وأبى الحاسن ، بعد إضافة إحداها للأخرى ، فتكون حملة تلمسان سابقة على حملة قرطاجنة ، مع رفض ما ذهب إليه فورنل ، من أن تخريب أبى المهاجر للقيروان إنما كان برأى كسيلة وخداعه ، وإنه — لذلك — كان بعد عودة أبى المهاجر من حملة تلمسان .

ويعرض الباجى والسلاوى رأياً جديداً يختلف عما سلف بيانه ، خلاصته أن أبى المهاجر لم يتوجه بنفسه لمهاجمة الروم بل وجه إليهم أحد رجاله ، وهو حنش بن عبد الله الصنعانى ، ولم يبعثه إلى قرطاجنة ، بل إلى جزيرة شريك فافتتحها ، ثم توجه

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٧

وقد ذكر هذه الرواية بالنسب ابن مقديش فى نزعة الأقطار ص ٧٠ أما المؤنس فأشارته مضطربة مفككة ناقصة ، ليس فيها إلا إرسال أبى المهاجر لحنش الصنعانى إلى جزيرة شريك ، ورواية ابن الناجى ناقصة ليس فيها إلا تخريب أبى المهاجر للقيروان ، ومحاولة بناء مدينة اسمها تاكروان ، وقد فاضل كودل بين قول المالكى ، إن حملة قرطاجنة كانت سنة ٥٥ هـ وقول أبى الحاسن إنها كانت سنة ٥٩ هـ ثم رجع رأى المالكى بدون تعليل مقول . الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٢ و٤٣ وكودل ، ج ٢ ص ١١٣

هو بنفسه — أى أبو المهاجر — إلى كسيلة (ابن أغز الأوربي) الذى «كان نصرانياً قد جمع الجموع من البربر والفرنج وزحف نحو المسلمين» (١) فهزمه أبو المهاجر قرب تلمسان وظفر به ، فأظهر الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه (٢) وهذا رأى معقول جداً لولا أنه غير مؤيد بأسانيد كافية ، ولولا أن أبا المحاسن وابن خلدون أرجح فى حسابنا من مؤرخين حديثين كالباجي والسلوى (٣) .

— ع —

وصل أبو المهاجر إفريقية سنة ٥٥ هـ ، فكان أول أعماله تنفيذ ما أوصاه به مسلمة ، من الإساءة إلى عقبة بالانتقام منه ، وتخريب هذه المدينة التى أراد أن يجعل نفسه بها والياً كسلمة سواء بسواء ، وقد سبق لإثبات براءة أبي المهاجر من جريرة ما نزل بعقبة ، فاتضح أنه لم يكن إلا منفذاً لإرادة مسلمة .

وصول
أبي المهاجر

يبدو أن المؤرخين بالغوا فى رواية ما فعله أبو المهاجر بالقيروان ، لأنه إذا كان قد خرب دورها وهدم جامعها ، لقضى عقبة فى إعادتها لأصلها زمناً طويلاً ، ولا تحدثنا المراجع بأن عقبة أنفق فى ذلك كبير جهد أو طويل وقت ، وإنما الأصح أن يقال إنه نقل الناس منها إلى جهة أخرى ، فأقترت وأوحشت ربوعها ، وهذا ما نفهمه من قول النويرى : « فلما وصل كره أن ينزل بالموضع الذى اختطه عقبة ، فنزل عنه بمسافة ميلين واختط مدينة وأراد أن يكون له ذكرها ، ويفسد ما عمله عقبة فسمها البربر بتكويروان ، فأخذ الناس فى عمارتها وأمر الناس أن يخرّبوا

هل هدم
أبو المهاجر
القيروان ؟

(١) السلوى ، الاستقصا ، ص ٣٧

(٢) الباجي ، الخلاصة النقية ، ص ٥ و ٦

(٣) ربما كان المؤيد الوحيد الذى نستطيع الاعتماد عليه ، فى تقرير هذا رأى هو وجود حش الصنعاني حقاً فى هذه الحملة ، وكونه من القواد البارزين الذين يعتمد عليهم فى مثل هذا العمل ، وقد ذهب كودل ، لى أنه من الجائز أن يكون أبو المهاجر — بعد أن عجز عن الاستيلاء على قرطاجنة ، والتحالف مع أهلها — عاد لى القيروان ، وبعث حشاً لى جزيرة شريك ليحتلها — كودل ، ج ٢ ص ١١٠ و ١١١ Caudel, op. cit. II. pp. 110, 111

القيروان ، ويعمروا مدينته^(١) » فأبو المهاجر لم ينزل بالقيروان ، وإنما ابتعد عنها بميلين وأخذ يحتفظ مدينته ثم أمر الناس أن يخرّبوا القيروان ويعمروا مدينته ؛ أى يتركوا القيروان ويسكنوا مدينته .

ثم ما معنى قوله : « فسمّاها البربر بتكثيروان » ؟ لماذا سمّاها البربر كذلك ، ولم يسمّها (العرب) مع أنهم بنّاها كما تقول الرواية ؟ وإذا كان أبو المهاجر قد أراد بعمله هذا أن يخلد اسمه بهذه المدينة الجديدة ، فلم لم يختزلها اسماً عربياً يقترب بذكره ، كما اقترب ذكر عقبة بالقيروان ؟ . أليس المعقول أن يكون هذا الموضع الذى انتقل إليه أبو المهاجر ، قرية بربرية بهذا الاسم أو ما يقربه ؟ إن قول المالكى المغربى : « ثم انصرف فنزل بدكروور مدينة البربر ، بالقرب من موضع القيروان^(٢) » يعزز هذا الرأى ، وهذا أقرب للواقع ، فلم يكن لدى أبى المهاجر من الوقت ما يمكنه من بناء مدينة جديدة ، وإنما اكتفى بالنزول فى قرية بربرية على مقربة من القيروان ، وأمر الناس بإخلاء مدينة عقبة فأخلوها ، ولعل قول المالكى إن أبا المهاجر حين سار إلى تلمسان : « لم يستخلف على القيروان أحداً ، ولم يبق فيها إلا شيوخ ونساء » يؤيد هذا الرأى ، فما دامت المدينة الجديدة بربرية أصلاً ، فلا محل لحراستها أو ترك حامية عندها ، ولو أنها كانت مدينة حديثة البناء خلف عليها من يحميها .

سواء أكان كسيلة :^(٣) « مرتاداً بالمغرب الأقصى فى جموعه من أوربة^(٤) »

(١) نهاية الأرب ، النويرى ، ٦٩ ب ولا يشير ابن عبد الحكم أو ابن الأثير إلى تخريب القيروان ، واتخاذ أبى المهاجر لمدينة أخرى ، وقد رسم المؤرخ هذه القرية تيكروان .

(٢) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٧

(٣) يرسمه أكثر المستشرقين كسيلة Kocella وهذا خطأ إذ أن ابن الأثير ضبطه فى أسد الغابة هكذا ، كسيلة بفتح الكاف وكسر السين المهملة ولرم بفتح اللام والراء وبينهما ميم ساكنة وآخره ميم — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٣٢١ (٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢٦

كما يقول ابن خلدون ، أم كان : « قد جمع الجموع من البربر والفرنج ، وزحف نحو المسلمين »^(١) . كما يقول السلاوى ، فإن أبا المهاجر قد عجل بالمسير نحو البربر ، ليقضى على ما بدا له من بوادر مقاومتهم ، وكانت زعامة البربر إذا ذاك لأوربة وزعيمها كسيلة النصرانى ، وكان مقامه فى المنطقة المحيطة بتلمسان وجنوبيها ، فسار إليهم أبو المهاجر حتى أدركهم فى هذه المنطقة ، وعسكر إلى جوارها وقضى زمناً طويلاً فى معسكره هذا ، فخر لجيشه آباراً سميت باسمه وقضى زمناً طويلاً هناك وسميت الآبار بعيون أبى المهاجر^(٢) ، ثم اتجه بعد ذلك إلى مركز المقاومة رأساً ، ولم ينفق وقته فى حصار مدن فى الطريق للاستيلاء عليها والغنم منها ، وهذا يدل على أنه كان يعلم أهمية العمل الذى كان فى سبيل إتمامه ، وهذا أمر جديد يختلف عن كل ما رأينا ، فقد كان السابقون لا يكادون ينجرون على خطة مرسومة ، أو حتى على علم بحالة البلاد ، وكان همهم منصرفاً دائماً إلى محاصرة بعض المدن ، والغنم منها .

أبو المهاجر
وكسيلة

لا تذكر المراجع أن أبا المهاجر حارب كسيلة حرباً عنيفة ، وربما كان سبب ذلك حرصه على أن يتخذ السياسة قبل الحرب ، إذ الثابت أن هذا الرجل كان على شئ كثير من الحكمة وبعد النظر ، وإذا كان قد نصح عقبة بقوله : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب ، وأنت تعتمد إلى رجل جبار فى قوله فى دار عزه ، قريب بالشرك ، (فتفسد قلبه)^(٣) » حين أخذ عقبة يستبد بكسيلة ، ويسىء إليه ، فأولى بنا أن نستنتج أن تلك السياسة كانت رائده مع كسيلة ، حين توجه لحربه فى تلمسان ، ومصدق ذلك أن المراجع لم تذكر حرباً

(١) السلاوى ، الاستقصاء ، ص ٣٧

(٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٧

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٦

بين الرجلين ، وربما أيد ذلك أن الرجلين تحابا بعد ذلك ، وأعجب أحدهما بالآخر إعجاباً شديداً ، مما يدل على أنهما تفاهما قبل أن يحتربا^(١) .

وإذا كان أبو المهاجر قد بدأ حصار قرطاجنة سنة ٥٥٩ هـ ، فيكون قد قضى سنوات أربعاً أو ثلاثاً في رحلته إلى تلمسان وعودته منها ، وإذا كان المفهوم من المراجع أنه سار إليها وعاد منها رأساً دون أن يعيل إلى قرية أو حصن ، فيكون قد لبث عند تلمسان عامين أو ثلاثة كسب فيها ودّ ذلك الرجل ، واطمأن إلى طاعة من معه من البربر .

لسنا نعلم إذا كان أبو المهاجر قد عاد إلى القيروان بعد حملة تلمسان ، أو اتجه إلى قرطاجنة رأساً ، وعلى أى الأحوال فالغالب أن حملته على قرطاجنة كانت مدبرة حتى قبل المسير إلى تلمسان إذ يغلب أن يكون قد اتجه للبربر ، لاختلاص من أمرهم ثم التفرغ للروم بعد ذلك ، فلما تم له الأمر الأول اتجه لإنفاذ الثاني رأساً .

يذكر أبو المحاسن في حوادث السنة الثانية عشرة من ولاية مسامة بن مخلد على مصر وهي سنة ٥٥٩ هـ : « وفيها غزا أبو المهاجر دينار فنزل على قرطاجنة وخرج إليه أهلها ، فالتقوا وكثر القتل بين الفريقين حتى حجز الليل بينهم ، وانحاز المسلمون من ليلتهم ، فنزلوا جبلاً في قبلة بولس (تونس) ، ثم عاودوهم وصالحوهم على أن يخلوا لهم الجزيرة ، ثم افتتح أبو المهاجر المذكور ميلاً (ميلاً مدينة صغيرة بأقصى إفريقية ، بينها وبين بجاية ثلاثة أيام) وكانت إقامته بها في هذا الغزو نحواً من سنتين^(٢) .

(١) أبدى فورنل شكاً في قيمة إسلام كسيلة ، وذهب إلى أنه مصطنع ، لجأ إليه الرجل لينجو من القتل ، وليس هناك ما يؤيد ذلك ، والغالب أن فورنل أضافه من عنده على عادته .

(٢) أبو المحاسن ، التجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٥٢ .
والمراد بالجزيرة هنا جزيرة شريك ، وهو شبه الجزيرة المحصور بين الحمامات وتونس ، وإنما سماه العرب شبه جزيرة ، جرياً على عادتهم في تسمية شبه الجزيرة بالجزيرة ، كقولهم =

ووفرة الغنيمة ، وأنه وإن لم يكن لدينا ما يؤيد هذا العمل ، أو حتى ما يبرره ، فإننا لا نستطيع إلا أن نذكره كما هو ، دون تأييد أو نفي لأنه ليس لدينا ما ينفيه . يذكر الدباغ أن أبا المهاجر عاد بعد ذلك إلى القيروان فأقام بها ويغلب أنه أراد أن يقول إنه عاد إلى تكرر المدينة التي اختارها ، لأنه كان يكره نزول قيروان عقبة ، ولبت بها حتى عزل سنة ٦٢ هـ .

وقد ذكر أبو الحسن أن أبا المهاجر قضى في غزو قرطاجنة وميلة نحواً من سنتين ، فإذا كان قد شرع فيه سنة ٥٩ هـ فيكون قد عاد منه سنة ٦١ هـ ، فأقام في هدوء عاماً واحداً عزل في نهايته .

* * *

يذكر السلاوي أن أبا المهاجر : « كان أول أمير مسلم ، وطئت خيله المغرب الأوسط »^(١) ويريد بذلك أنه كان أول من حمل الإسلام إلى هذه النواحي ، وبشر به في ربوعها وكسب له أنصاراً من أهلها ، ولا نزاع في أن إسلام كسيلة

(١) وقف كودل من أبي المهاجر موقفاً لا يخلو من تناقض ، فقد أعجب به في أول الأمر إعجاباً عظيماً فقال — وهو يحاور فورنل — إن أبا المهاجر كان : « قائداً من الدرجة الأولى ، يفوق مجده مجد عقبة نفسه ، وكل الآخرين . . . كان دينار في الواقع رجلاً ماهراً ، لم يفره الانتصار بعد أن غلب كسيلة ، وإنما استفاد من حياد القائد البربري ورضاه ، لكي يقضى على الروم » ، ثم عاد فهبط به ونقده في أسلوب شديد قائلًا : « إن أبا المهاجر هو المثل الأول في ذلك التاريخ ، للجندى الطارىء الذى نشأ من لا شيء ، وقفز إلى القيادة برضا سيده ، لا بمواهبه الشخصية » ثم قال عن مهمته وعمله : « أراد دينار قبل كل شيء أن يرضى سيده ، وعرف أنه لا يوفق إلى ذلك إلا بالحصول على مبالغ طائلة من المال وإرسالها إلى مصر ، فذهب يلتمسها حيثما كانت ، واستعمل لإدراكها من كان يستطيع معاوته » وهذا قول خاطئ ، لأن أبا المهاجر لم يسع إلى الغنيمة ، ولم يهتم بالمال ، بل كان يرمى إلى إتمام فتح البلاد فقط ، وكان يستطيع أن يأخذ من أهل قرطاجنة ، بياناً طائلاً من المال حين فاضوه ليرجع عنهم ، ولكنه أبى ذلك وعاهدهم على أن ينزلوا له عن أرضهم ، وفيما خلا ذلك أصاب كودل كل الصواب ، حتى دافع عن دينار وأكد أن كونه مولى ليس عربياً ، قد قال من قدره في حساب المؤرخين ، وجعله عند المقارنة أقل عقبة ، مع أنه ليس أقل منه كفاءة ولا مهارة .

راجع كودل ، ج ٢ ص ١١٤ و ١١٢ و ١٢٢ ، Caudel, op. cit. II. pp. 1

كان حادثاً عظيماً له معناه وأثره البعيدان ، فأما معناه ففتح الفتح الإسلامى فى تأدية الغرض الأسمى من هذا الفتح ، وهو نشر الإسلام ، وأما تأثيره فلا نزاع فى أن كسيلة لم يسلم بمفرده ، وإنما تبعه نفر كبير من قومه ، من القادة والأقارب والأنباع والأصاغر ، وربما خفيت أهمية هذا الأمر الآن ، لأنه ليس ظاهراً ملموساً ، أولأن المؤرخين الذين نأخذ عنهم لم يعنوا به ، ولم يجهـدوا أنفسهم فى استقصائه ، ولكن أهميته ستتضح لنا بعد ثلاثين سنة فقط ، حين نجد رجالاً من البربر وأهل البلاد ، مسلمين على ثقة وتمكن من دينهم يسرون مع العرب جنباً لجنب لفتح البلاد ونشر راية الإسلام ، وكيف نفسر ظهور رجل كطارق بن زياد عربى الإسم عربى الأب فى سنة ٩١ هـ ، إلا بأن أباه زياداً قد تزوج امرأة من أهل البلاد ، فى مثل هذا الوقت الذى نتحدث فيه ؟ وإنما ضربنا المثل بطارق لى نؤكد أن حركة الاختلاط بين البربر والعرب — بالزواج والإسلام — كانت تسير جنباً إلى جنب مع الفتوح التى شغل المؤرخون بها .

الباب السادس

محاولة فتح المغرب الأقصى

حملة عقبة الثانية

(من سنة ٦٠ هـ — سنة ٦٣ هـ)

كان عقبة على وشك الخروج للغزو حين عزله مسامة بأبي المهاجر ، فوقع هذا العزل من نفسه موقعاً سيئاً ، لأنه حرمه من الثمر الذي بذل في غراسه ما بذل ، وطال به الأمد وهو يتربص الفرصة لإنفاذه . ولو اقتصر الأمر على العزل لكان الخطر على نفسه ، ولكن أبا المهاجر كان قد أمر بأن يسنىء إليه ، وينال منه ويعنى على آثاره . فأخذ الناس بترك القيروان ، فأصبحت خلاء قواء ، ولا يبعد أن يكون الخراب قد غشيها ، بعد إذ هجرها الناس وهي بعد ناشئة لا قوام لها . ثم أخذ عقبة بالمهانة السيئة والسجن الشديد ، فخلت نفس عقبة بالسخط عليه . فلما أن وصلت الأخبار بذلك إلى معاوية ساءته ، فأسرع بأمره بتخلية سبيله وإشخاصه إليه^(١) ، فمضى وقلبه يفيض بالسخط حتى أتى معاوية ، فشكا إليه ما نزل به ، فكان رد معاوية يشعر بأنه أسف لما أصابه ، وأنه رجا أن يرده ، ولكنه خشى أن يسوء ذلك مسامة ، فقال لعقبة : « قد عرفت مكان مسامة بن مخلد من الإمام المظلوم ، وتقديمه إياه وقيامه بدمه وبذل مهجته^(٢) » . إذ كان مسامة ممن شهد معه — أى مع معاوية — صفين ، وقيل لم يشهدا وكان فيمن شهد قتل محمد بن أبي بكر^(٣) ، فأثر معاوية أن يدع الأمر على ما هو عليه ، مرجحاً إنصاف عقبة إلى زمن سيجيء ، وهكذا ظل إنصاف عقبة معلقاً حتى انتهت أيام معاوية . فلما مات معاوية في أول رجب سنة ٦٠ هـ وخلفه يزيد توقع عقبة الخير على يديه ، ولا بد أنه بسط له شكاته ، والتمس منه الإنصاف ، لأن الدباغ يحدثنا أن يزيد قال عقب ذلك : « أدركوها قبل أن يخربها ، ورد عقبة إليها^(٤) » . ويغلب أن ذلك لم يكن إلا عقب وفاة مسامة ، لأن إجماع المراجع منعقد على أن عقبة رد إلى عمله سنة ٦٢ هـ ، وما دام مسامة قد توفي في ٢٥ رجب من هذه السنة ،

مقي سار عقبة
في حملته
الثانية ؟

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٧ (٢) نفس المصدر ، ص ١٩٨
(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ١ ص ٣٦٥ (٤) الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٥

فالراجح أن عقبة رد عقب ذلك^(١) ، ولو كان عقبة رد قبل وفاة مسلمة ، فلماذا تمحدد المراجع سنة ٦٢ هـ بالذات أى بعد سنتين من ولاية يزيد ؟ ولم لم يرد يزيد من أول ولايته ؟ وفيم كان الانتظار ؟ بل لو كان مسلمة حياً حين رد عقبة إلى عمله لتولى حماية أبي المهاجر منه ، أو لاستغاث به هذا الأخير على الأقل ، فأما وقد كان عقبة مطلق اليد ، يفعل بأبي المهاجر ما يشاء ، فإن في ذلك لدليلاً على أن هذا الأخير كان قد فقد وليه ونصيره فهان أمره على الناس^(٢) .

بدأ عقبة عمله بالاقتصاص من أبي المهاجر ، فأوثقه في وثاق شديد ، وأساء عزله وغزا به السوس وهو في حديد^(٣) ، وأبقى عليه ليتشفى منه على مهل ، ويذهب المالكي والديباغ إلى أن عقبة وجد معه مبلغاً طائلاً من المال ، قدره بمائة ألف دينار فأخذها^(٤) ، وهي رواية ظاهرة المبالغة ، يؤيد ضعفها ما سبق بيانه من عدم اهتمام أبي المهاجر بالأموال والغنائم ، فلم تذكر النصوص أنه جمع من الأموال ما يمكنه من الحصول على هذا القدر من المال .

ثم انثنى عقبة إلى قيروانه يصلحها مما نزل بها على يد أبي المهاجر ، وقد ذهب المالكي إلى أنه « جدد البناء وشيدها فعمرت وعظم شأنها^(٥) » . ولكن الغالب

(١) وقد جاء في النجوم الزاهرة سنة ٦٣ هـ ، وهي السنة الأولى من ولاية سعيد بن يزيد على مصر ، وفيها غزا عقبة بن نافع القيروان ، وسار حتى دخل السوس الأقصى ، وهذا يؤكد أن عقبة رد في أواخر سنة ٦٢ هـ ، وبدأ عمله في إفريقية سنة ٦٣ هـ . — أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٩٠

(٢) من هنا نستطيع أن نقطع بخطأ النويري فيما زعمه من سعى مسلمة للقاء عقبة في عودته إلى إفريقية ، واعتذاره إليه عما نزل به ، لأن مسلمة كان قد مات إذ ذاك ، والغالب أن النويري نقل هذه العبارة بالنص عن ابن عبد الحكم ، ولكنه أخطأ فجعلها في رجوع عقبة من دمشق سنة ٦٢ هـ ، في حين حدث هذا في مسيره إليها حين عزل سنة ٥٥ هـ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٨ (٤) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٧ الديباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٣ ، ابن مقديش ، نزهة الأنظار ، ص ٧٠ (٥) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٧

أن قول ابن أبي دينار أنه : « أعاد الناس إلى القيروان وعمرها »^(١) هو الأصح ،
إذ سبق القول بأن أبا المهاجر لم يخرب القيروان ، وأنه لم يهدم دورها كما يذكر
بعض المؤرخين ، وإنما اكتفى بنقل الناس منها فخرت ، فلما عاد عقبة أعاد الناس
إليها فعاد إليها العمران .

فإذا انتهى عقبة من ذلك ، فقد عجل بإنفاذ ما حالت الظروف بينه وبين
إنفاذه سبع سنوات متواليات ، وربما كان الخوف من أن يفاجأ بعزل جديد
هو الذى دفع به إلى التعجيل بالسير دون أن يرسم لنفسه خطة أو غاية ، ولو قد تفكر
فى هذا لاستطاع أن يفيد خيراً عمياً من جهود سلفه أبى المهاجر ، الذى استطاع
بالسياسة والتدبير أن يضرب الروم ضربة شديدة ، وأن يملك زمام البربر بما وفق
إليه من حجة أميرهم كسيلة وإسلامه . لو أن عقبة تبين هذا على وجهه ، لكانت
مهمته ولكان نصيبه من التوفيق أعظم وأبقى أثراً . وربما جعل ذلك لغزوته
الكبرى وجهاً آخر ، إذ كان يستطيع بما يضمن من ولاء البربر ، أن يقضى القضاء
الأخير على ما بقى للروم فى إفريقية ، وأن يضمن طاعة من بقى من أهل البلاد ،
وكان يستطيع إلى جانب ذلك ، أن يكسب أمراً هو أجدى عليه من كل فتح ،
وهو تحييب الإسلام إلى أهل البلاد بالحسنى والرفق والمودة كما فعل أبو المهاجر ،
وقد حاول هذا الأخير أن يلفت نظر عقبة إلى ذلك ، ولكنه أبى الأخذ به
تحتيراً له ، فقد روى المالكي أن أبا المهاجر قال لعقبة حين هم بالسير لحرب بربر
طنجة : « ليس بطنجة عدوك لأن الناس قد أسلموا ، وهذا رئيس البلاد
— يريد كسيلة — قابض معه والياً ، فأبى عقبة إلا أن خرج بنفسه »^(٢) . وهكذا
أضاع عقبة على نفسه فرصة كبرى ، واستعاض عن ذلك بحرب شعواء هوجاء .

(١) القيروانى ، المؤنس ، ص ٢٧

(٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٨

شنها على أهل البلاد ، بلا غرض محدود ولا نتيجة ترجى ولا معنى يفهم ،
فضاع جهده هباء .

يبدو أن قول الديباغ^(١) : « إن جند عقبة كانوا خمسة عشر ألفاً » ، أقرب
إلى الصحة من قول ابن عبد الحكم إنهم كانوا خمسة آلاف فقط^(٢) ، لأن خمسة
آلاف جندي أقل من أن ينهضوا بعمل ضخ كالأذى قام به عقبة في حملته
الكبرى . وإذا كان قد سار في حملته الأولى بعشرة آلاف فقط ، وسار بمثلها دينار
فليس بمعقول أن يسير هذه المرة بخمسة آلاف فقط ، وخلف عقبة على القيروان
رجل سيكون له شأن عظيم في فتوح إفريقية هوزهير بن قيس البلوى^(٣) ، على رأس
حامية صغيرة من الجند ، وفصل عن القيروان ، وقد اصطحب معه أبا المهاجر
مقيداً مكبلاً . وتذكر المراجع كذلك أنه أخذ معه كسيلة أيضاً في حديد ، وكانت
تلك أكبر أخطاء عقبة وأوخمها عاقبة ، فقد غيرت عليه البربر ، ودفعتهم إلى مقاومته
مقاومة عنيفة ، ويذهب المؤرخون إلى أن عقبة أراد بذلك أن يعاقب كسيلة
على ما أخلص لأبي المهاجر ، وما بذله من الود وحسن المعونة ، وهذا تعليل ضعيف
لا يبرر هذا الأمر ، والغالب أن عقبة خاف شر كسيلة إن هو أطلقه ، وخشى
أن تثير قومه ثاراً لصديقه أبي المهاجر ، بل الغالب أن عقبة خشى أن يدفعه
أبو المهاجر إلى ذلك ، وربما أراد عقبة بحبس كسيلة وإهانته ، أن يؤكد لأهل
البلاد استخفافه بهم وتحقيره لشأنهم ، فغضبت أوربة ومن والاهما من القبائل
لما لحق كسيلة من المهانة . وإذا كانت المراجع تتفق على أن كسيلة قد اتصل بأله

(١) الديباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٣ ، — ونقله عنه ابن مقديش في نزهة الأقطار ، ص ٧٠

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٦٩

(٣) ذهب ابن عبد الحكم إلى أنه ترك مع زهير شخصاً آخر اسمه عمر بن علي الفرس ،
وقد سبق أن ذكر أن عقبة خلف هذا الشخص أيضاً على غدامس حين سار في بعثه
الصحراوي ، ويغلب أن ذلك راجع إلى اختلاط أخبار حملتي عقبة — ابن عبد الحكم ،
فتوح ، ص ١٦٩

في أواخر أيام عقبة ، وأحكم معهم تدبير مصرعه ، فإن الدلائل كلها ناطقة بأنه كان على اتصال بهم من أول الأمر ، وأنه أخذ يدبر معهم الأمر لخلاصه والانتقام من عقبة .

عود النشاط
إلى الروم

سبق القول بأن روم الساحل كانوا قد نشطوا منذ أوائل أيام أبي المهاجر ، وأن هذا الأخير استطاع أن يكسر شوكتهم بما أنزل بهم في حصار قرطاجنة ، إذ أجبرهم على التنازل للعرب عن جزيرة شريك ، وأرسل قائده حنش الصفقاتي فمسكر فيها ، فكان بمثابة الحارس يهدد قرطاجنة ويرقب أعمال الروم بها ، ويمنعهم من التقدم نحو الجنوب أي نحو القيروان ، فاشتد خوفهم وسعوا للخلاص من ذلك القيد الثقيل . وليس في المراجع ما يدل صراحة على ذلك ، ولكنه يفهم من مجمل الحوادث التي ستلى .

يذكر ابن الأثير أن عقبة تقدم : « فصار إلى بلاد الزاب ، وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة ، فقصده مدينتها العظمى واسمها أربة ، فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى ^(١) » فمن هم النصارى الذين يذكرهم ابن الأثير ؟ يغلب أنه يريد قوماً آخرين غير الروم لأنه يذكر الروم كذلك ، وربما أراد نصارى البربر بذلك القول ، ومن هم نصارى البربر إلا أربة ومن والها ؟ ثم ماذا أقدم الروم بلاد الزاب وقد تركوها منذ زمن بعيد ؟ أي شيء لهم في هذه الناحية أو عاصمتها أربة حتى يقاتلوا المسلمين عنها هذا القتال العنيف ؟ ولماذا تخير الروم هذه المنطقة بالذات ؟ أليست تلك دلائل تحمل على الظن بأنه كان هناك شبهة حلف بين الروم وأربة ؟ وأليس المعقول أن تكون أربة قد غضبت لما نزل برئيسها ، فسعت للاتصال بالروم الذين كانوا في خوف منذ عسكر العرب في جزيرة شريك ؟ فلم يلبث هؤلاء أن أسرعوا لعون البربر ، إذ وجدوا إلى ذلك سبيلا

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٢

لمقاومة العرب والقضاء عليهم . ربما استطعنا بذلك أن نفسر المقاومة الشديدة التي لقيها عقبة في مسيره ، وهي مقاومة من البربر والروم معاً لم يسبق لها مثيل فيما سلف من غزوات ، بل ربما استطعنا أن نعلل الكثير مما يلي من أعمال عقبة وما يلقاه من عنف وكيد ، وهي أمور اكتفى غالب المؤرخين بروايتها على علاقتها دون تعاليق أو تحقيق ، ولا سبيل إلى فهمها إلا عن هذا السبيل .

بيد أن الغالب أن عون الروم للبربر لم يزد عن توجيههم إلى أساليب القتال ، ومعاونتهم على تحصين مدنهم ومقاومة هجوم المسلمين ، فلم يكن روم إفريقية إذ ذاك على قوة تمكنهم من تجهيش الجيوش أو المعاونة المادية القوية ، ومصدق ذلك أن البربر يجرون في مقاومة عقبة على شيء يشبه الخطة المنظمة أو الحيلة المرسومة كاجتذابهم عقبة من طينة إلى تهودة لحصره هناك والقضاء عليه ، ولا يخفى كذلك أصبح كسيلة في هذا كله ، إذ كان عيناً على المسلمين ، يرسل أهله وذويه ويرشدهم إلى ما يجب اتباعه .

— ٢ —

ويخلط نفر من المؤرخين بين أحداث هذه الحملة وأحداث حملة عقبة الأولى ، فيذكرون فيها غزوة لقسطيلية وقصة^(١) ، بل يزيد البعض فيخلطون بينها وبين بعثه الأول ، فيذكرون غزو فزان^(٢) وقصة ماء الفرس^(٣) ، والراجح الذي يتفق عليه أكثر المؤرخين أنه خرج من القيروان رأساً إلى باغاية ، دون أن يعرج نحو الجنوب ليعيد غزو قسطيلية وقفصة ، ثم يعود إلى الشمال مرة أخرى نحو باغاية . ينقسم المؤرخون طوائف ثلاثة في تفصيل ما وقع في غزوة عقبة هذه : ففريق يوردها موجزة إيجازاً شديداً كالبلاذري وأبي المحاسن ، وفريق آخر يطيل التفصيل

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٨ — ، رحلة التيجاني ، ص ٧٠ أ

(٢) الباجي ، الخلاصة النقية ، ص ٦٢٥ (٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٣

في أحداثها ، ويجعل منها قصة حافلة بالوقائع والانتصارات ، والآيات الناطقة
برعاية عقبة وقربه من الله ، كابن الأثير والنويرى وابن عذارى وطائفة المؤرخين
المغربيين ، وفريق آخر يفصل أمرها بعض التفصيل ، ولكنه يذكر أحداثاً
يختلف عما ذكر غيره وهو ابن الحكم .

فأما البلاذرى ، فيكتفى من أمر هذه الحيلة بقوله : « فلما ولي يزيد بن معاوية
رد عقبة بن نافع إلى عمله ، فغزا السوس الأدنى وهو خلف طنجة ، وجول فيما هناك
لا يعرض له أحد ولا يقاتله ، فانصرف ومات يزيد بن معاوية ^(١) ، وهو قول موجز
فيه خطأ كثير فقد أهمل ذكر ما قام به عقبة والبربر والروم من حرب عنيفة
عند باغاية وفي الزاب ، ولم يشر إلى استشهاد عقبة في تهودة ، وهو أمر متوارد
مذكور لامعنى للاستطراد عنه ، وسيتضح من إشارات البلاذرى إلى مايلي ذلك
من فتوح إفريقية أنه لم يعد يذكر شيئاً من التفاصيل الصحيحة التي تعودنا
وجودها فيه ، مما يدل على أن مصادره التي كان ينقل عنها قد انقطعت عنه بعد
موقعة سببلة ^(٢) .

وكذلك أبو المحاسن لا يكاد يذكر شيئاً مما حدث لعقبة في مسيره الطويل
من القيروان إلى طنجة ثم إلى المحيط ، ثم يبدأ يقص مسير عقبة إلى تهودة
ومصره هناك بتفصيل دقيق ، فلندع روايته إلى حينها من أعمال عقبة ^(٣) .

ويورد ابن عبد الحكم روايتين مختلفتين : أولاهما شديدة الشبه برواية الواقدي
التي ذكرها البلاذرى : « فخرج عقبة بن نافع سريعاً بحنقه على أبي المهاجر ، حتى قدم
إفريقية فأوثق أبا المهاجر في وثاق شديد ، وغزاه به معه إلى السوس وهو في حديد ،
وأهل السوس بطن من البربر يقال لهم أنبية (أننة . أننة) ، فجول في بلادهم

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٨ (٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٨

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٥٨ — ١٦٠

لا يعرض له أحد ولا يقاتل فانصرف إلى إفريقية ، فلما دنا من ثغرها أمر أصحابه فافترقوا عنه وأذن لهم حتى بقى في قلة ، فأخذ على مكان يقال له تهوذة (تهوذة) فعرض له كسيلة بن لمزم في جمع كثير من الروم والبربر ، وقد كان بلغه افتراق الناس عن عقبة ، فافتتلوا قتالا شديداً فقتل عقبة ومن كان معه ، وقتل أبو المهاجر وهو موثق في الحديد^(١) . وقد أهمل ابن عبد الحكم فيها كل ما وقع لعقبة حتى بدأ عودته ، وذكر بعض التفصيل عن مصرع عقبة ، ويلاحظ أنه لم يشر إلى وجود كسيلة مع عقبة في جيشه موثقاً بالحديد ، كأنما أراد أن يقول إن كسيلة كان بعيداً عن عقبة ، وأنه « بلغه » فقط افتراق الناس عن عقبة ، فعاجله عند تهوذة وقضى عليه ، ولم يكن الواقع كذلك .

ثم عاد ابن عبد الحكم فروى رواية أخرى ، لا شبه بينها وبين روايته الأولى أو أية رواية أخرى لأى مؤرخ آخر ، ولم يذكر إسنادها بل اكتفى بقوله : « ويقال » بدأها بذكر خروج عقبة إلى السوس ، وتركه عمر بن على القرشى وزهير بن قيس على القيروان^(٢) ، فلم يكده فصل عن المدينة حتى هاجم القيروان رجل من العجم في ثلاثين ألفاً ، ولكن الله نصر المسلمين ورد الأعجم ، ثم يذكر ابن عبد الحكم عبارة أخرى ، إذا صحت كانت عظيمة الأهمية في تاريخ عقبة وما انتهت إليه حياته ، وهى قوله : « وخرج ابن الكاهنة البربرى على أثر عقبة ، كلما رحل عقبة من منهل (ودمه — منهل) دفنه ابن الكاهنة ، فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة إلى السوس ولا يشعر بما صنع البربرى ، فلما انتهى عقبة إلى البحر ألجم فرسه فيه . . . وانصرف راجعاً ، والمياه قد غورت ، وتعاونت عليه البربر فلم يزل يقاتل

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٨

(٢) ذكر السلاوى أن عقبة جعل زهير بن قيس على مقدمة جيشه ، ولكن الغالب أنه خلفه على القيروان كما يقول ابن الأثير . السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٧ — ٣٨ . ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٧ — ١٩٩ ، والزيادة التى بين الأقواس من عمل الناشر .

وأبو المهاجر معه في الحديد ، فلما استحر الأمر أمر عقبة بفتح الحديد عنه فأبى أبو المهاجر وقال : « ألقى الله في حديدي ، فقتل عقبة وأبو المهاجر ومن معهما »^(١) إذا صح ذلك كان دليلاً على أن عقبة كان محاطاً من أول الأمر بشبكة واسعة النطاق وهو جاهل بأمرها ، فهذه الرواية تذكر أن نفرًا من البربر كان يتتبعه ، ويردم الآبار التي يمر بها حتى انتهى عقبة إلى المحيط ثم انقلب راجعاً ، فإذا المياه قد تلفت وأصبح المسير عليه صعباً ، فأخذ البربر يتجمعون في طريقه ، ويأخذون عليه السبيل حتى أوقعوا به عند تهودة ، إذا جاز أن نشك في هذه الرواية لانعدام ما يؤيدها من الروايات الأخرى ، لما جاز أن نستبعدا تماماً لأن فيها إشارات لها أهميتها ، فلا نزاع في أن ابن عبد الحكم عنى بابن الكاهنة هذا « كسيلة » نفسه مما ينتهي بنا إلى رأى جديد له أهميته ، وهو أن موت عقبة لم يقع بمحض المصادفة وإنما كان نتيجة لتدبير بعيد بدأ من ساعة فصله عن القيروان^(٢) ، لأن بعض المراجع تجعل بين كسيلة وبين الكاهنة صلة وسبباً ، فكان ابن عبد الحكم أراد أن يقول إن كسيلة كان يتتبع عقبة ، ويغور الماء في طريقه ليقطع عليه خط العودة ، بيد أن المعروف أن كسيلة كان أسيراً لدى عقبة طوال حملته ، فكيف يتفق ذلك مع تفسير رواية ابن عبد الحكم على هذا النحو ؟ ربما جاز القول بأن

(١) فهم روث تغوير الماء هذا على أنه تسميم الآبار والواضح من الرواية أن البربر لم يكونوا يسمون الآبار ، وإنما يطمرونها فقط كما هو ظاهر من النص .

(٢) ذكر النويري أن عقبة خطب في أولاده خطبة نفيسة قبل رحيله ، أعلن فيها أنه مستشهد لا محالة وأوصاهم ببعض وصايا ، وقد تناول المالكي هذا الخطاب فأضاف إليه وزاده حتى أصبح ثلاثة أضعاف ما ذكره النويري ، وكلامه ظاهر الاختراع بل فيه ما يدل على أن واضعه إفريقي أو من العرب النازلين في إفريقية ، والغالب أن هذه الخطب وضعت بعد ذلك بقليل ، أي حينما استبد أبناء عقبة بالحكم في إفريقية في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، فوضعت هذه الخطب لتشد من أزرهم وتثبت من حقهم ، وكفى بهم نفراً أنهم أبناء ولي الله عقبة وأنه تركهم على البلاد ، وأوصاهم بالناس من بعده — النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٠ (أ) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٨

سطور ابن عبد الحكم تخفى أمراً آخر له أهميته ، وهو أن ابن الكاهنة « كسيلة » كان يدبر لعقبة من أول الأمر وهو سجين في جيشه ، يتصل بآله وذويه ويدبر معهم المكيدة لعقبة ، فجعلهم يغفرون الماء في طريقه وأخذ يوافيهم بأخباره وأسراره ، ويرسم لهم المؤامرة الأخيرة التي انتهت بمصرع عقبة في تهودة .

بقيت الطائفة الثانية وهم : ابن الأثير وابن خلدون والنويرى وابن عذارى وطائفة المؤرخين المغربيين . فأما ابن الأثير فقد سبق بيان اعتماده على مراجع مغربية أصلية في كتابة هذا الجزء من تاريخه ، فروايته جديرة بالاعتبار ففيها دقة مطابقة للواقع . وأما النويرى وابن عذارى فقد أخذوا — كما هو معروف — عن ابن أبى الرقيق فتشابهت روايتهما تشابهاً تاماً ، وعنهما أخذ المغربيون وزادوا على ذلك أساطير كثيرة وخطباً شتى نسبت لعقبة ، تنحصر أهميتها في أنها تعطينا فكرة عن شخصية عقبة كما يفهمها المغربيون .

ذكر ابن الأثير أن عقبة خرج من القيروان : « ثم سار في معسكر عظيم حتى دخل مدينة باغاية ؛ وقد اجتمع بها خلق كثير من الروم فقاتلوه قتالاً شديداً وانهزموا عنه ، وقتل فيهم قتلاً ذريعاً وغنم منهم غنائم كثيرة ودخل المهزومون المدينة ، وحاصروهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الزاب »^(١) . والرواية على هذا النحو غير مستقيمة النسق ، إذ كيف يتفق قوله إن عقبة : « دخل مدينة باغاية » ، وقوله بعد ذلك : « إنه فشل في الاستيلاء عليها فانصرف عنها » ؟ ربما كانت رواية النويرى أصح إذ يقول : « ومضى في عسكر عظيم حتى أشرف على مدينة باغاية وقاتل أهلها قتالاً شديداً ، وغنم منهم خيلاً ودخل الروم حصنهم فكره عقبة أن يقيم عليهم فمضى إلى بليش »^(٢) ، وهذا هو الأقرب للصحة . لم يستول

(١) ابن الأثير ، أسد الغاية ، ج ٤ ص ٤٢

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ورقة ٧٠ (أ) و ٧٠ (ب) والغالب أن بليش هذه هي لميزة =

عقبة على باغاية وإنما أشرف عليها وقاتل أهلها بظاھرھا ، وغنم منهم خيلاً ثم كره أن ينفق وقته في حصارها فأنصرف عنها وسار إلى الغرب حتى وصل إلى لميزة . يدل مسير عقبة من القيروان إلى باغاية إلى لميزة على أنه اتبع طريق السهل الذي سبقت الإشارة إليه ، وتجنب المسير على الهضبة الوعرة . ولهذا لم يثر على تبسا ولا الأربس لأنهما على شاطئ منها . ولما كانت لميزة على باب الهضبة مشرفة على المخرج منها ، فلم يكن له بد من المرور بها والوقوف عندها لأنها على باب سهل متسع ، يتوسطه شط هذنة الذي تنحدر إليه وديان ونهيرات كثيرة ، فيقوم على جانبيه عمران قليل .

وقع لعقبة عند لميزة مثلاً وقع له عند باغاية ، إذ : « مضى إلى بليش وهي من أعظم مدن الروم فلجأ إليها من كان حولها منهم ، وخرجوا إليه وقاتلوه قتالاً شديداً حتى ظن الناس أنه الفناء ، فهزمهم وتبعهم إلى باب حصنهم وأصاب غنائم كثيرة ، وكره المقام عليها فوصل إلى الزاب^(١) » كما يقول النويري . في حين لا يذكر ابن الأثير مروره بللميزة ، بل يذكر أنه أتجه من باغاية إلى الزاب رأساً^(٢) ، وإنما يفلب أن النويري هو الأصوب لأنه ما دام قد انحدر من الهضبة إلى وادي الزاب للمتسع وما دام مقبلاً من باغاية فلا مفر له من المرور بللميزة .

كيف استطاع الروم أن يثبتوا هذا الثبات في هذه النواحي الداخلية ؟ لقد رأيناهم منذ حين لا يكادون يعتصمون من العرب في بنيزرت وسوسة وجلولاء وما إليها ، بل يسرعون بالتسليم مع أن القوى التي سارت إليهم إذ ذاك كانت في أحيان كثيرة بعوناً صغيرة يقودها قواد صفار . فكيف أبدى الروم هذه المقاومة

= الحصن الروماني المعروف ، وأخطأ النساخ فكتبوها كذلك ، وقد وردت في ابن خلدون ليس ، ومعقول أن أصل ليس هذه ليس ، والتعريف من ليس إلى بليش قريب الوقوع ، وقد كتبها كودل لميزة دون حاجة إلى تعليل هذا التصحيح

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٠ (ب) (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١٢

الشديدة التي لم تكن تتوقع في هذه النواحي التي لم تكن لهم فيها منعة حتى في أعز أيامهم منذ زمن بعيد ؟ أليس هذا بمصداق لما سبق بيانه من عود النشاط إلى روم إفريقية ؟ وكيف يعمل هذا النشاط الجديد إلا بأن الأسباب عادت فارتبطت بين بيزنطة وقرطاجنة على أثر السياسة الجديدة التي اتبعها قسطنطين الرابع ؟ فأخذوا يفكرون في سبيل للمقاومة ، ووجدوا في البربر عوناً صادقاً على مناهضة العرب وردهم ، فتشجعوا وتوغلوا — بمعاونة البربر — إلى باغاية ولبيزة ، حيث استطاعوا أن يحصنوا هذه المدائن أمام العرب ويمكنوها من مقاومة الحصار الطويل .

عقبة
في الزاب

أفضى عقبة إلى الزاب وبهذا خرج من شدة الهضبة ووعورتها إلى إقليم كثير الوديان والزروع والعرمان ، تنتشر فيه القرى التي تذكر المراجع أن عددها كان ثلاثمائة وأن أكبرها كانت تسمى أربة^(١) ، ومن عجب أن عقبة لم يوفق في الاستيلاء على مدينة صغيرة كهذه تدل الدلائل كلها على أنها لم تكن إلا محرساً صغيراً قديماً ، هجره الروم منذ زمن طويل فيقول ابن الأثير : « فسار إلى بلاد الزاب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة ، فقصد مدينتها العظمى واسمها أربة فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى ، وهرب بعضهم إلى الجبال فاقتتل المسلمون ومن في المدينة من النصارى عدة دفعات ، ثم انهزم النصارى وقتل من فرسانهم ورحل إلى تاهرت^(٢) » ورواية النويرى أكثر تفصيلاً إذ يقول : « فلما أصبح أمر بالقتال فكانت بينهم حرب حتى يئس المسلمون من الحياة ،

(١) يذكرها ابن خلدون أذنة والنويرى أربة ورسمها الكبرى أدنة ، بلد كثير الأنهار والعيون العذبة ، وهناك عين الكتان عين عذبة في مغارة عليها أربع نخلات ، بينها وبين المسيلة مرحلة ، ولم يذكرها الإدريسي وقد وردت في بعض النصوص أربة وربما كانت هذه الصيغة هي الأصح لأن الإقليم كله اسمه الزاب فمقول أن تكون عاصمته « أربة » ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٥ — النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٠ (ب) — الكبرى ، وصف لإفريقية ، ص ١٤٤ — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢
(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢

فأعطاه الله الظفر فانهزم القوم^(١) » ويضيف المغربيون تفاصيل لطيفة لا بأس من إثباتها ، إذ يقولون : « إن المسلمين باتوا ليلتهم تلك على حذر وأنهم خافوا أن يأخذهم الأعداء على غرة ، فتوافق القوم الليل كله لا راحة ولا فترة ولا نوم فسماه الناس اليوم وادى سهر لأنهم سهرروا عليه ، فلما أصبح عقبة صلى الصبح . . .^(٢) » ويلي ذلك كلام شديد الشبه بكلام ابن الأثير والنويري .

ربما كان قول ابن الأثير : « فامتنع من بها من الروم والنصارى . . . فاقنتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى^(٣) » ، كافياً لتعليل هذه المقاومة الشديدة . الزاب بلاد بربرية كما يفهم من قول ابن خلدون : « وفتح أذنة قاعدة الزاب بعد أن قاتله ملوكها من البربر فهزمهم^(٤) » فابن الأثير يريد أن يقول فامتنع من بها من الروم والبربر النصارى أى الروم وأوربة ومن حالفها ، ومصادق ذلك أن هذه الناحية إحدى مراكز أوربة ومركز البربر المتأثرين بالحضارة اللاتينية .

بهذا يتضح تماماً أن هذه المقاومة الشديدة كانت مدبرة محكمة ، دبرتها أوربة بإشارة كسيلة وإرشاده ، وبالاتفاق مع الروم الذين أسرعوا لنجدة البربر في الزاب بعد أن أفلحوا في رد العرب عن باغاية ولميزة ، وربما كانوا يتتبعون عقبة خطوة خطوة ليطمروا الآبار في طريقه ويكونوا على أهبة الهجوم حينما تسنح الفرصة . فرغ عقبة من سهل الزاب الخصب وأخذ يرقى جزءاً من الهضبة قليل الارتفاع كثير الشعاب والوديان والشطوط ، فعبر نهر شلف واتجه إلى تاهرت حيث سارع الحلف الرومي البربري للوقوف في وجهه مرة ثالثة ، وكان في تاهرت حصن يزنطى قديم ، فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأعانوهم ونصروهم ، فقام عقبة وخطب

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ (أ) (٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٨ — الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٥ بتغيير طفيف في الألفاظ .

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٣ ،

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨٥

الناس وحرضهم على القتال ، فالتقوا واقتتلوا فلم يكن للروم والبربر طاقة بقتالهم فقتلهم قتلاً ذريعاً ، وفرق جموع الروم عن المدينة ثم رحل حتى نزل طنجة^(١) ، ويبدو من قول ابن الأثير : « إن الأمر اشتد على المسلمين لكثرة العدد^(٢) » أن مقاومة البربر والروم اشتدت إلى درجة كبيرة مما يدل على أن جماعاتهم كانت تتسارع لتقف في وجه المسلمين ، وكلما خلف عقبة حصناً سارع أهله للوقوف مع من أمامه حتى أصبح القتال شديداً عنيفاً ، لا يكاد المسلمون يظفرون منه إلا بنصر قليل ، وربما كان الروم يتراجعون بعد القتال لكي يغروا بالعرب ويغروهم بالتقدم والتوغل ، فالتخدد المسلمون في حماس الفتح ومضوا في وجههم لا يكادون يفتنون إلى شيء مما حولهم .

عقبة
في طنجة

انحدر عقبة من الهضبة إلى السهل الساحلي بعد رحيله عن تاهرت وسار ساحلاً حتى انتهى إلى طنجة^(٣) ، ولا يفسر انتهاءه إلى هذه المدينة رأساً دون أن يمر بمدينة أخرى من مدائن الساحل مثل باديس ونكور وتطوان ، إلا بأنه اختار الممر الضيق المحصور بين هضبة الريف وجبال الأطلس الوسطى ، لكي يجنب نفسه مشقة المرور بالساحل المليء بالمدائن الحصينة التي ربما لقي فيها مثل مالتى في باغاية ومليزة وتاهرت .

وجد عقبة على طنجة رجلاً تسميه المراجع العربية بيليان ، ويختلف المؤرخون في حقيقة أمره اختلافاً كبيراً . فيذهب ابن الأثير إلى أنه : « بطريق من الروم اسمه بليان^(٤) » . ويذهب النويري إلى أنه : « رجل من الروم فقط^(٥) » في حين يذكر ابن خلدون أنه بربري ويسميه : « يليان ملك غمارة وصاحب طنجة^(٦) »

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٠ (ب) (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢

(٣) ذكر الديباغ في معالم الإيمان أن عقبة فتح تلمسان قبل طنجة وهذا مشكوك فيه —

الديباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٤ (٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢

(٥) النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٠ (ب) (٦) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨٥

ويؤكد مؤرخو الأندلس أنه قوطى تجمعته أسباب كثيرة بلذريق ملك قوطية
إسبانية^(١) ، فلا بد من تحقيق شخصيته لأن له علاقة وثيقة بتاريخ عقبة .

يذكر ابن الأثير أن هذا الرجل أسرع حين اقترب منه عقبة فأهدى هدية
حسنة ونزل على حكمه ، ثم سألته عن الأندلس فعظم عليه الأمر ، فسأله عن البربر
فقال : « هم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله ، وهم بالسوس الأدنى وهو مغرب طنجة^(٢) »
وعبارة النویری أوضح وأشد دلالة إذ يقول : « فسأله عن بحر الأندلس فقال له
إنه محفوظ لا يرام ، فقال دلتني على رجال البربر والروم ، قال قد تركت الروم خلفك
وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم ، فقال عقبة وأين موضعهم ؟ قال في السوس
الأدنى وهم قوم ليس لهم دين يأكلون الميتة ويشربون الدم من أنعامهم ،
وهم أمثال البهائم يكفرون بالله ولا يعرفونه^(٣) » ، وهذه أقوال يفهم منها أن الرجل
لم يكن برومی ولا ببربری ، فقد قال لعقبة : « إن الروم وراءه وإن البربر أمامه » .
ثم إن تحذيره لعقبة من العبور إلى الأندلس يدل على أنه كان حريصاً على أن
يجنب الأندلس شر المسلمين ، ولا يتفق هذا إلا إذا كان هو نفسه من أهل الأندلس
ومن يهمهم أمره ، وهذا يؤيد القول بأنه قوطى معين من قبل ملوك القوط
في أسبانيا ، فكان عليه أن يحرس مدخل البلاد ويرد العرب وغيرهم عنها .

وإذا كان هذا الرجل رومياً أو بربرياً ، فماذا منعه من الاستعانة بالحلف
الرومی البربری الذي أثبت قدرته على صد المسلمين وحماية البلدان منهم ؟ ما الذي
حال دون أن يستدعى أجناد الروم وفرسان البربر لمنازلة العرب دون طنجسة
والاحتماء منهم خلف أسوارها ؟ لقد كان تصرفه مع عقبة ناطقاً بأنه غريب عن
البلاد لا صلة له برومها أو ببربرها ، وإنما أهمه أن يعرف العرب عن نزول

(١) البيان المغرب ، ابن عذاري ، ج ٢ ص ٧٠ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٣

(٣) النویری ، نهاية الأرب ، ورقة ٧١ أ و ب

الأندلس فوق إلى ذلك ، ولو كان الرجل بطريقاً رومياً لكان معه من الجند ما يكفيه مثونة المصانعة والاحتتيال ، ولو كان أمير غمارة لما انتظر في طنجة وعقبة يجتاز بلاد غمارة منذ انحدر إلى السهل بعد رحيله عن تاهرت ، وإذا كان النويرى صادقا فيما روى من وصف يليان للبربر هذا الوصف السيء ، لجاز أن تقطع بأن هذا الرجل لم يكن بربريا غماريا [كما قال ابن خلدون] .

بيد أن تصرف عقبة مع يليان جدير بالنظر ، فقد سارع هذا الرجل حين تسمع بمقدم العرب فأهدى هدية حسنة إلى عقبة وتلطف في معاملته ، فكان هذا كافياً لينصرف عنه العرب ولا يمسسه عقبة بأذى . فهل كان عقبة طالباً لهذه الهدايا الحسنة فقط ، فمن بذلها جاز أن يعفى من قبول الإسلام أو بذل الجزية أو الحرب ؟ أو أن عقبة اكتفى بما بذل هذا الرجل من طاعة إسمية فأعفاه من كل قيد ، وقبل نصيحته وعمل بها ؟ إن الرواية لا تستقيم على هذا النسق ، خصوصاً إذا كان هذا التصرف منسوباً إلى عقبة ، لما نعرف من عدم حفله بالسياسة وبعده عن أساليبها . ثم إن قول ابن الأثير : « إن يليان نزل على حكم عقبة » غير مفهوم على وجه صحيح لأنه لم يحدث في غير هذه المناسبة أمر كهذا : جيوش إسلامية غازية تقبل على بلاد لتفتتحها ، فيقدم ملك هذه البلاد بالهدايا الحسنة والنصيحة الطيبة ، فينصرف عنه المسلمون لا إسلام ولا جزية ولا قتال .

ثم إن رأى القائل بأن يليان هذا هو نفس يليان صاحب طارق بن زياد بعد ذلك بثلاثين سنة يحتاج هو الآخر إلى ما يعززه .

ربما جاز أن نشك في وجود هذا الرجل في ذلك الحين ، وأن نعلل ذكر العرب له بما هو معروف من طريقة العرب في تسمية الأعلام الأجنبية : فكل من وجد على القسطنطينية هرقل ، وكل من وجد على مصر مقوقس ، وكل من وجد في إفريقية جرجير ، وكل من أقام في طنجة يليان ، ولا يبعد أن يكون وجود

يليان صاحب طارق ذا أثر رجعى على الشخص المسمى الذى وجد على طنجة
إذ ذاك ، وقد أنكر وجوده نفر من المؤرخين مثل ماسديو ورومى .

كان على عقبة أن يعود أدراجه بعد ذلك ، وربما كان فى استطاعته — لو أنه
سار مساحلا — أن يعود إلى القيروان سالماً ، فطريق الساحل مأمون على ما فيه
من المدائن والمخارس ، أما الداخل فكثير الشعاب والهضاب والمفاوز التى يخشى
الضلال فيها والمكيدة فى شعابها ، ولكنه آثر أن يتوجه إلى البربر بعد أن عرف
مكانهم فأنحدر نحو الجنوب إلى السوس الأدنى .

وصول عقبة
إلى المحيط

بين المؤرخين خلاف على الطريق الذى سلكه عقبة حتى أشرف على المحيط
الأطلسى ، فيذكر ابن الأثير أنه سار حتى وصل إلى السوس الأقصى ، فقاتل
جمعا عظيما من البربر وسبى منهم سبياً كثيراً وسار حتى بلغ البحر المحيط ، فقال :
« يارب^(١) » وبهذا لا يكون عقبة قد سار إلى الجنوب فى السهل الساحلى الغربى ،
وإنما عاد أدراجه فى السهل الساحلى الشمالى حتى أدرك ماليان^(٢) ، ومن ثم اتجه
شمالا حتى أشرف على البحر الأبيض . أما ابن خلدون فيذكر أن : « يليان دل
عقبة على بلد البربر وراءه بالمغرب مثل ولىلى عند زرهون وبلاد المصامدة وبلاد
السوس ، وكانوا على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية ، فسار عقبة وفتح وغنم
وسبى وقتل فيهم وانهى إلى السوس ، وقاتل مسوفة من أهل اللثام وراء السوس ،
ووقف على البحر ثم عاذ راجعا^(٣) » أى أن عقبة انحدر إلى الجنوب وراء السوس ،
ولا يعرف بالضبط ما أراده ابن خلدون من قوله : « وراء السوس » ، أراد غربه
أم جنوبه ؟ الراجح الغرب ، لأن عقبة أشرف منه على المحيط ، وهنا يغلب

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣

(٢) ذكر فانيان فى تعقيبه على ترجمة ابن الأثير « ماليان » ولم أجد هذا الاسم فى مراجع
آخر ، ولا يذكره النويرى .

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٦

أنه سرّ بوليلي ثم انحرف من عندها إلى المحيط . أما النويرى فلا يحدد شيئاً ، وإنما يقول عبارة مبهمّة يفهم منها أن عقبة اتجه إلى الجنوب ثم انحرف إلى الغرب حيث أشرف على المحيط ، فدخل فيه حتى بلغ الماء صدر فرسه ورفع يده إلى السماء وقال : « يارب لولا هذا البحر المحيط لمضيت في البلاد إلى ملك ذى القرنين ^(١) ، مدافعاً عن دينك ومقاتلاً من كفر بك وعبد غيرك ^(٢) » .

ومهما يكن من اختلاف هذه الروايات فقد أشرف عقبة بجنده على المحيط الأطلسى ، بل أوقف فرسه في مياهه وأسف لعجزه عن اجتيازه ، ثم انقلب بعد ذلك عائداً أدراجه ليعود إلى القيروان دون أن يترك بأى ناحية مر بها أثراً يذكر .

يبدو أن عقبة كان يخشى أن يسعى أبو المهاجر للغدربه ، وكان هذا مكبلاً بالحديد كالأسير في جيشه ينتقل به من مكان إلى مكان ، فكان عاجزاً بذلك عن الانتقام وإن فكر فيه ، فخشى عقبة أن يسعى ليشأ منه مستعيناً بكسيلة وقومه ، فسارع بحبس هذا الأخير فساء ذلك أبا المهاجر ، لأنه حال بينه وبين الانتقام وإنما لأنه رأى عقبة يرتكب بهذا العمل خطأ سياسياً كبيراً . وقد سبق بيان سياسة أبي المهاجر التي كانت ترمى إلى تقريب البربر إليه وكسبهم بالمودة وحسن المعاملة ، فلما رأى عقبة يفعل هذا فزع وخشى العاقبة وتقدم ينصحه وقال : « ما هذا الذى صنعت ؟ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن ، وأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومه في دار عزه قريب عهد بالكفر فتفسد قلبه ! توثق من الرجل فأنى أخاف فتكه ^(٣) » فكانت نصيحة أبي المهاجر توكيداً لشكوك

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٨ (٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧١ ب —

(٣) المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٩

عقبة فبالغ في تحقير كسيلة والنيل منه ، ليؤكد لأبي المهاجر أنه لا يخشى البربر ولا غدرهم وليسفه رأيه وسياسته في تقريب أهل البلاد ومصانعتهم .

ظل كسيلة أسيراً في جيش عقبة يلقي من المهانة شيئاً كثيراً ، وربما بالغ المؤرخون في تصوير الأساليب التي كان عقبة يلجأ إليها للنيل من الزعيم البربري ، فيتفقون على ما رواه ابن الأثير من أن عقبة : « أتى بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السالخين ، فقال كسيلة : « هؤلاء فتيانى وغلمانى يكفوننى المئونة » فشتمه وأمره بسلخها ، ففعل^(١) » ، لأن مثل هذا الأمر إذا صدر عن عقبة كان دليل فساد في رأيه وميل شديد للاستبداد الفاشم ، وهى صفات نزه عنها عقبة ونستبعد اتصافه بها مهما كان من جهله بشئون السياسة وأساليبها . وإنما يغلب على الظن أن عقبة أهل أمر الرجل وازدراه ، ولم يضعه في الموضع الذى كان أبو المهاجر يضعه فيه ، فنال هذا من نفس كسيلة وآذاه خصوصاً وأنه رجل شريف في قومه عظيم المنزلة بين البربر والمسلمين جميعاً . ومصادق هذا الرأى أن كسيلة استطاع أن يفر دون أن يشعر به عقبة ، ولو كان هذا الأخير كبله بالحديد واهتم بالنيل منه وركوبه بالسخر والإساءة في كل حين لما استطاع أن يفر دون علمه ، فأما وقد أهمله وأبعده عن مجلسه وازدراه فقد كان من السهل عليه الهروب إلى قومه لتدبير المؤامرة معهم ، فظل الرجل في جيش عقبة حيناً ، ثم غادره دون أن يهتم عقبة لذلك أو يفرزع منه^(٢) ، وآية ذلك أن أبا المهاجر ساءه من عقبة إهماله الرجل وعدم حذره منه وقال لعقبة : « توثق من الرجل فأنى أخاف فتكه^(٣) » فزاد عقبة تهاونا ،

(١) ابن الأثير، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣ ، وابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٦ ، وأبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٨٥ والنويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٢ أ

(٢) ويفهم من قول ابن خلدون : « فانتهر فيه الفرصة وأرسل للبربر فاعترضوا عليه في تهودة » أن كسيلة كان يتغافل عقبة ليراسل أهله — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٦

(٣) المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٩

فلبت كسيلة في جيشه زمانا يرقب الأمر ثم فر هاربا ، فكان هروبه إيذانا بشورة البربر ، وفي هذا يقول المالكى : « فلما انصرف نكت البربر ما كانوا عليه ^(١) » . واستمر عقبة في طريقه يجتاح بلاد البربر وينزل بها من الأذى شيئا كثيرا ، فأفرغها ذلك ودفع بأهلها إلى التفكير في الانتقام ، وشجعهم عليه قلة من مع عقبة من الجند وإهماله ما ينبغي اتخاذه من الحذر والحيلة في مثل غزوته تلك ، وأقبل الروم فشدوا أزرهم وعقد الحيان الخناصر على القضاء على ما بنى المسلمون في إفريقية ، وأنشأ كسيلة يتصل بهم ويرشدهم إلى ما يجب اتباعه ، ويؤيد هذا ابن الأثير الذى يذهب إلى أن الروم كانوا يرسلون كسيلة « فسعى هذا حتى جمع أهله وبني عمه وقصد عقبة ^(٢) » .

إذا جاز أن نحكم بما يفهم إجمالا من رواية ابن عبد الحكم الثانية التى سبقت الإشارة إليها ، لصح القول بأن كسيلة فر في وقت مبكر جداً أى قبل وصول عقبة إلى طنجة ، لأن ابن الكاهنة (أى كسيلة) كان يتعقبه ويردم الآبار خلفه ليقطع عليه سبيل العودة . وإذا لم يصح الأخذ بها كان كسيلة قد فر من جيش عقبة بعد ارتداده من السوس وعوده إلى إفريقية .

يغلب أن عقبة اتخذ في عوده طريق السهل المتوسط ، فسلك وادى سبواً ووادى ملوية حتى أدرك الهضبة ، فمضى شمال شط هدنة حتى أدرك مدينة طُبنة ، ويبدو أنه كان مسرعاً في عودته لأنه لم يقاتل أحداً في رجوعه ولم يمل إلى حصار بلد مما مر به ، وربما كان سبب هذا الإسراع بدء إحساسه بما كان الروم

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٩ نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣ ويفهم من نص عبارته : « وراء الروم قلة ممن مع عقبة فأرسلوا إلى كسيلة وأعلموه حاله ، وكان في عسكر عقبة مضمرأ بالندر وقد أعلم الروم ذلك وأطمعهم ، فلما راسلوه أظهر ما كان يضره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة » .

والبربر يدبرونه له ، وربما أحس من فساد الماء في طريقه بشيء من المكيدة المدبرة فآثر العودة مسرعاً ، ويؤيد ذلك ما تتفق عليه المراجع من أن عقبة أذن لبعض فرق جنده في أن تسرع إلى القيروان بعد وصوله طبنة ، مما يدل على أن الجيش كله كان شديد الرغبة في الإسراع بالعودة ، فأخذوا يتسابقون في إدراك القيروان ، وأذن لهم عقبة في ذلك لأنه وجد الطريق خالياً أمامه لأن أهل البلاد — ممن لم يأتروا مع المؤتمرين — كان قد أفرعهم منازل بهم على يد عقبة في مسيره الأول ، فأفسحوا له طريق الرجعى .

أسرع البربر والروم بالعمل بعد إذ أدرك عقبة طبنة ، فقد سنحت الفرصة لذلك بانصراف أكثر جنده وبقائه في نفر قليل ، وخافوا إن هم تركوه بعد ذلك أن يدرك القيروان. أو يكون على مقربة منها فيمكنه الاستمئانة بمن فيها ، ويغلب أن يكون من انصرف من جند عقبة قد اتجه إلى الشرق في طريق تمجاد مثلاً ، فحرص البربر والروم على أن ينحرفوا بعقبة عن ذلك الطريق ، فحاولوا أن يجذبوه إلى الجنوب الغربي في اتجاه تهودة ، حتى لا يستطيع جنده العثور عليه إذا هو استنجد بهم أو يعجز عن اللحاق بهم إذا طلبهم وجد في أثرهم .

يذكر ابن الأثير أن أبا المهاجر قال لعقبة حين رأى تحفز كسيلة ومسيره نحو المسلمين : «عاجله قبل أن يقوى جمعه»^(١) ، ثم يقول : «فزحف عقبة ، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه»^(٢) « أى أن كسيلة انحرف عن طريق عقبة ، وتراجع أمامه حتى وصل أمام حصن رومى قديم عند تهودة ، كان الروم قد عسكروا فيه وتحفzوا

(١) كان موقف أبى المهاجر طوال حملة عقبة مما يستدعى الإعجاب ، فإن المراجع كلها تؤكد إلحاحه في نصيح عقبة والإخلاص للمسلمين مما يبرئه تمام التبرئة من جريمة إهانة عقبة الأولى ، ومما يؤكد أنه كان مسلماً مخلصاً متفانياً واسع الإدراك صادق الفهم ، ومن هنا لا محل لقول المالكي : « وقيل إن كسيلة إنما أتى ناصراً لأبى المهاجر » مما يفهم منه أن أبا المهاجر كان عضواً في الحلف البربرى الرومى وشريكاً في المؤامرة على عقبة وهذا غير صحيح — المالكي ، رياض النفوس ، ص ٨ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣

للقاء عقبة عنده واجتهد الروم في اجتذابه إلى حصنهم ، وطعموا فيه وأغلقوا أبواب حصونهم دونه وشتموه ورموه بالنبل والحجارة ، وهو يدعوهم إلى الله عن وجل^(١) ، وقد أوضح النويرى خطة كسيلة وأحلافه بقوله : « فزحف عقبة إلى كسيلة فتنحى عنه ، فقال البربر له ، لم (تتنحى) من بين يديه ونحن في خمسة آلاف ؟ فقال إنكم كل يوم في زيادة وهو في نقصان ، ومدد الرجل قد افترق عنه فإذا طلب إفريقية زحفت إليه^(٢) » ، مما يفهم منه أن جموعاً من البربر كانت تهرع إلى صفوف كسيلة كل يوم ، فيزداد جنده بينما جند عقبة في نقص ، وقد انقطع طريق الإمداد إليه بانحرافه نحو تهودة وأصبح من العسير وصول شيء إليه .

دارت الواقعة الأخيرة على مقربة من تهودة ، وأدرك عقبة وأصحابه أنهم واقع تهودة هالكون لا محالة ، واحتاط بهم الأعداء ولم يبق لهم مهرب ، فرحب عقبة وأصحابه بالموت واستقبلوه في شجاعة جديرة بالذكر والإعجاب ، وجعلوا يتنازعون فخر الاستشهاد ، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي :

« كفى حزناً أن ترتدى الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقيه
إذا قت عناني الحديد وأغلقت مصارع من دوني نصم المناديه^(٣) »
فبلغ عقبة ذلك فأطلقه فقال له : « إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم . وأنا أغتيم الشهادة » ، فلم يفعل وقال : « وأنا أيضاً أريد الشهادة ! فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر وقتلواهم ، فقتل المسلمون جميعهم ولم يفلت منهم أحد ، وأسر محمد بن أوس الأنصارى ، فخلصهم صاحب قفصة وبعث بهم إلى القيروان^(٤) » ، وهكذا كانت خاتمة عقبة وأصحابه استشهاداً جليلاً خلد ذكرهم

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٢ أ (٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) أخطأ المالكي في رواية البيت الأول فقال : « أليس عظيماً أن تفرح الخيل بالقنا ... الخ »

المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩

(٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣ — وقد ذكر المالكي أن الأعداء أحاطوا =

في هذه البلاد ، وزادته الأفاصيص الكثيرة التي نسبت إلى عقبة جلالاً فأجتمع منها في ذهن الناس « عقبة أسطوري » آخر غير الذي نعرفه في التاريخ .

ما الذي نفهمه من قول ابن الأثير : « إن صاحب قفصة سعى لخلاص من أسر من المسامين وردهم إلى القيروان ؟ » لقد أيد كثير من المؤرخين قوله هذا وزاد بعضهم فسعى صاحب قفصة هذا ابن مصاد^(١) ، وإذا أضفنا إلى ذلك ما يذكره السلاوي من أن عقبة حين وصل إلى جبل درن : « نهضت زناته وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة » وقوله : « إن عقبة أثنى في المصامدة حتى حملهم على طاعة الإسلام^(٢) » تكونت لدينا صورة واضحة بعض الوضوح عن نشوء جماعات بربرية إسلامية ، أو تميل إلى المسلمين على الأقل في ذلك الحين ، وأن هذه الجماعات لم تكن قليلة وإنما كانت كثيرة نوعاً ، فيها بعض زناته وبعض نفوسة وبعض مصمودة . وإذا لوحظ أن هذه القبائل التي بدأت تدخل الإسلام أو تميل إليه من ذلك الحين كانت تسكن الجنوب فتدخل فيها برغواطة^(٣) وزناته^(٤) ونفوسة^(٥) ، كان من السهل تكوين فكرة عن بدء إسلام إفريقية الفعلية

= بعقة من الساء وأن اللقاء والاستشهاد كانا في صبيحة اليوم التالي — المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩ — الديباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ٤٨
(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٦ — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٥٩
(٢) السلاوي ، الاستقصاء ، ص ٣٨ — ويفهم من ذلك أن بعض زناته ومغراوة كانتا قد أسلمتا منذ زمن لأنهما نهضتا للدفاع عن المسلمين .

(٣) ذكر السلاوي أن عقبة : « أثنى في المصامدة حتى حملهم على طاعة الإسلام » أي أن نفراً منهم اعتنق الإسلام على يديه ، وقد قال ابن خلدون مؤيداً ذلك وموضحاً له : « وكانت التقدم فيهم — أي في المصامدة — قبيل الإسلام وصدره لبرغواطة ، ثم سار التقدم بعد ذلك لمصامدة جبل درن » أي أن هاتين القبيلتين كانتا أول قبائل المصامدة إسلاماً ، ومساكن القبيلتين في الجنوب : إحداهما بين السوس الأدنى والأقصى (برغواطة) والأخرى جنوب الأطلس المتوسط — السلاوي ، الاستقصاء ، ص ٣٨ — ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٠٦

(٤) مساكن زناته جنوبي المنطقة التي تلي الأوراس ويمتدون حتى الأطلس الأدنى وهم بدو .
(٥) سبقت الإشارة إلى أن نفراً من نفوسة أسلم على يدى عقبة في بعته الأول سنة ٤٣ هـ =

واتجاهه : بدأ عند القبائل الجنوبية الكثيرة الشبه بالعرب التي تميل للرحلة وتحيا حياة مشطورة بين الظعن والإقامة ، ثم أخذ يمتد إلى الشمال شيئاً فشيئاً كما سيري ، وواضح جداً أن سبب انصراف القبائل الشمالية عن الإسلام ونهوضها لمقاومته وقيادتها حركة العداء راجع إلى أن أغلبها كان مسيحياً أو مسيحياً الصبغة ، أى أن جواره للآتين والروم جعل بينه وبين النصرانية بعض الأسباب ، ثم إن هذه القبائل — إلى ذلك — كانت متأثرة إلى حد بعيد بالحضارة البيزنطية ، وكان البيزنطيون على جانب من القوة ما يزالون ، فصعب على المسلمين اجتذاب أهل هذه القبائل في أول الأمر ، وكان لابد لكسبهم من القضاء التام على كل أثر للروم وللتفكير اللاتيني من شريط الساحل ، حتى ينقطع هذا المدد الذي كان يقوى أهل هذه القبائل وحتى يمكن الإسلام أن يجتذبهم إليه .

وإذا جاز اتباع التقسيم الاصطلاحي الذي اتبعه مؤرخو البربر — وفي مقدمتهم ابن خلدون — في جعل البربر طائفتين : طائفة البتر وطائفة البرانس ، لصح القول بأن البتر كانوا أول إسلاماً لأن نفوسة ولواتة وزناتة كلها بترية ، وأن البرانس ظلوا على المقاومة زماناً طويلاً ، لأن الروم كانوا يمدونهم بالعون ، وقد لاحظنا أن حركة المقاومة قادها قائد البرانس إذ ذاك كسيطة بن لمزم الأوربي البرنسي ، وسيظل على قيادتها حتى يقضى عليه زهير فتتولى القيادة بعده الكاهنة ، وهي وإن كانت بترية من جراوة ، إلا أنها هي نفسها كانت شديدة الصلة بالروم إذ كان لها زوج رومي (إغريقى) أولدها أحد ابنها اللذين سيأتى ذكرهما .

لهذا لم يكن موت عقبة وأصحابه بقاض على كل أثر للمسلمين فيما فتحوه من البلاد ولكنه كان قاضياً على بعض الأثر السياسى ، لأن عمل عقبة لم يكن

== وأنه أخذ معه من أسلم منهم حين أمره معاوية بالمسير سنة ٥٠ هـ ، وكانت طائفة أخرى من نفوسة تسكن شمال شط الجريد ، وهذا لإقليم تتوسطه قفصة مما يدل على أن ابن مصاد صاحبها سعى لخلاص المسلمين لأنه كان مسلماً — ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١١٤

سياسياً وإنما كان دينياً ، وقد لاحظنا إسلام نفر كبير من البربر حين رأوا بناء القبروان وطرده الحيات ، ولا بد أن نفراً كبيراً منهم كذلك كان يتبعه في مسيره في البلاد ويسلم وينقل أخباره إلى طوائف البربر فيسلمون أو يميلون إلى الإسلام ، حتى إذا كان استشهاده اهتزت له البلاد كلها وأصبحت « ناراً » كما يقول المالكى ، وترامت أنباء هذه الفاجعة وما أظهره عقبة والمسلمون فيها من الشجاعة والتضحية في سبيل الله ، فبدأت نفوس أهل البلاد تهوى إلى الإسلام شيئاً فشيئاً ، ومن هنا لانحطىء إذا قلنا إن عمل عقبة كان نجاحاً من الناحية الدينية وإن كان فشلاً من الناحية السياسية .

نترك ذكر حياة عقبة ومغامراته وأعماله واستشهاده تنتقل على ألسن أهل البلاد ، ويضيفون إليها ما تبتكره أخيلتهم ويتذكرونها بين الدهش والإعجاب ، لنتركها تختمر في نفوسهم ولنخلف ذكرها راقدة في أذهانهم لنعود إليها بعد حين .

ماذا أراد عقبة من حملته الكبرى ؟ وما هى الخطة التى رسمها لنفسه لإدراك ما أراد ؟ سؤالان لاجواب عليهما ، لأن الواضح أن الرجل لم يكن يرى إلى غاية معينة ، وربما كان هذا موضع نقد شديد لو أن الذى فعل ذلك امراً آخر غير عقبة . فقد مضى دور المحاولات والمقدمات وكان لا بد لكل من يتولى قيادة الفتح فى إفريقية أن تكون له الخطة المرسومة . أما عقبة فالأمر معه على خلاف ذلك ، فلم يكن الرجل من أصحاب السياسات المرسومة المدبرة ولا الغايات البعيدة ، وإنما كان ولياً من أولياء الله كما تصفه المراجع وكما كان أصحابه يسمونه . وماذا يرجى من ولى الله إلا أن يمضى فى طريقه متوكلاً على خالقه لا غرض له إلا محاربة المشركين والتمسك الشهادة فى سبيل الدين ؟ بل لم يكن نشر الإسلام غاية واضحة فى ذهن عقبة ، إذ لو كان يطلب هذا فليست تلك هى السبيل التى تؤدى إلى إدراك

هذه الغاية ، إنما تدرك بالوقوف بكل قوم و بلد وعرض الإسلام ، وتخيير الناس بينه وبين الحرب والجزية ، فإن أبوا كانت الحرب . هكذا كان الفاتحون في الشام ومصر يفعلون ، بل هكذا فعل عبد الله بن سعد مع جرجير . أما عقبة فكان ينقض على اللدائن محارباً مقاتلاً ويلبث على ذلك فترة ثم ينصرف دون أن ينتهي مع أهل البلد إلى شيء معلوم . بل لو كان يرجو نشر الإسلام لخلف فيما مرّ به من البلاد نفراً يعلم أهله الإسلام . أما هذه التحايا الحربية التي دأب على توزيعها طوال مسيره ، وهذا التماذى في المسير والمجازفة في التوغل والوقوف بالحيط ، والأسف على العجز عن الاسترسال في الفتح فأمر لا معنى لها ولا غناء فيها ، ولو لم تكن قد انتهت بمأساة تهودة لكنت عاقبتها أوخم على عقبة . إذ ماذا يكون جوابه لو سأله الخليفة ماذا فعلت ؟ وماذا جنيت من تضحياتك هذه الآلاف من الجنود التي سارت معك ؟ إنما كان عقبة شديد الشبه بفرسان الصليبيين الذين كانوا يخرجون من دورهم ويعبرون البحر إلى غير غاية معلومة ، فما يدري أحدهم أخلاص بيت المقدس أراد أم مجرد قتال المسلمين أم كسب الثروة والعودة بالمال ! بل لم يكن عقبة بالقائد الماهر أو المحارب ذى الشأن ، فليس هناك قائد واحد يسترسل هذا الاسترسال دون أن يؤمن ظهره وخط رجعتيه تاركاً أعداءه متحصنين خلف ظهره . وليس بالقائد الماهر من يستمع نصيحة رجل من أعدائه دون تبصر أو حذر كما فعل عقبة ، فسهل على أعدائه اجتذابه إلى خانق ضيق بين طبنة وتهودة والإيقاع به والقضاء عليه في سهولة ويسر .

وكم كان المؤرخون موقنين في صياغة الخطب التي نسبوها لعقبة قبل نزوله الميدان ، إذ ليست فيها إشارة واحدة إلى خطة القتال أو مكيدة الحرب ، وإنما هي مواظب حسنة فيها حث على أخذ العلم عن آله وتحذير من الاستماع إلى المناقنين الذين يدعون العلم ليغرروا بالناس ، والنصح بمجانبة الدين حفظاً للكرامة وغير ذلك

مما هو أليق بالأولياء والوعاظ منه بالقادة أو الساسة ، لأن عقبة كان في نظرهم ولياً واعظاً متديناً لا فائداً سياسياً ، وتلك هي الصورة الصحيحة التي ينبغي أخذها عن عقبة بن نافع ، ولا بد من مراعاتها في تتبع أعماله ودراستها ولا يمكن فهمها بغير ذلك .

ويبدو أن الرجل كان يخشى أن يفاجأ بعزل جديد فعجل بإفناذ ما أراد دون تريث أو إبطاء ، ولهذا كان لا يكاد يحاصر بلداً حتى ينصرف عنه إلى غيره حتى انتهى إلى أقصى البلاد . ولا يخطئ كذلك من يقول إن الحق قد وصل على أبي المهاجر والرغبة في التقليل من شأنه كانا بعض ما أضل سبيله ، فقد وصل أبو المهاجر إلى تلمسان فكان لابد لعقبة من الوصول إلى أبعد من تلمسان . ولا يبعد أن يكون قد عيب عليه ما أنفق من الوقت في حملته الأولى دون فتح كبير ، فعول هذه المرة على أن يفتح الفتح الذي لن يأتي بمثله أحد من بعده ، فيصل إلى المحيط ويقحم فرسه في مائه ويشهد الله على أن الاسترسال إلى أبعد من ذلك محال .

وقد كان كسيلة بيد عقبة ما كان قيرس بيد عمرو ، كلاهما سيد في قومه عظيم المهابة فيهم شديد الإجلال للعرب وثيق الصلة بالروم . وقد أفاد عمرو من قيرس ما نعرف وجنى من صداقته ومصانعته أعظم الغنم . وكان عقبة يستطيع أن يفوز من كسيلة بأعظم من هذا لو كانت له سياسة عمرو ، ولكن الحق قد أضله في هذا الأمر ونأى به عن الصواب ، فأخذ كسيلة بجريرة أبي المهاجر فتغير قلب الرجل على العرب والإسلام ، وكان الرجل على صلة بآله فتغيروا هم الآخرون على العرب والإسلام ، وانقلبوا فأصبحوا أنصار الروم . وبهذا فسد ما كان قد أثمر من جهود الفاتحين قبله ، وأصبح المسلمون في نظر أهل هذه البلاد طلاب غنم ودماء ، يحبون الحرب للغنيمة والظفر ، فكان ذلك وخيم العاقبة

على مسير الفتوح راح عقبة ضحيته واستنفذ جهود فاتحين عظمين هما زهير وحسان .

كان عقبة قد خلف على القيروان حامية صغيرة ذكر ابن عبد الحكم أن عدتها كانت خمسة آلاف رجل على رأسهم زهير بن قيس البلوى^(١) ، فلما وصلته أخبار مذبحة تهودة عنهم على القتال وأخذ يتأهب له ، ولكن الظاهر أن أخبار تهودة أفرغت نفراً كبيراً من الجند فمالوا إلى العودة ، والغالب كذلك أن إجهاد عقبة لهم بهذا الغزو الطويل كان قد أسأهمهم ، وجعلهم عاجزين عن القيام بأى عمل آخر فترة من الزمان . وجاءت فاجعة تهودة فأضافت الفزع إلى الإجهاد وجعلتهم يميلون إلى العودة ميلاً شديداً ، وكان على رأس هؤلاء الراغبين في العودة خنش الصنعاني الذي كان دينار قد أرسله إلى جزيرة شريك^(٢) ، لخالف زهيراً وعاد إلى مصرفتبعه أكثر الناس ، فاضطر زهير إلى العودة معهم فصار إلى برقة وأقام بها . وأما كسيلة : « فاجتمع إليه جمع أهل إفريقية وقصد إفريقية (يريد القيروان) ، وبها أصحاب الأتقال والذراري من المسامين فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم ، ودخل القيرواني واستولى على إفريقية وأقام بها إلى أن قوى أمر عبد الملك ابن مروان ، فاستعمل على إفريقية زهير بن قيس البلوى وكان مقياً ببرقة صراطاً^(٣) » .

(١) يذهب لينى بروفنسال إلى أن زهيراً لم يبق على القيروان وإنما سار على رأس طليعة فتقدم عقبة في حملته الكبرى وليس هناك ما يؤيد ذلك . مقال عقبة — أنظر د . م . ل .

(٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣ — وقد روى الباجي لزهير خطبة في استنهاض الناس في تلك المناسبة وربما كانت موضوعة — الخلاصة النقية ، ص ٦ — وقد جاء في النجوم الزاهرة : « جيش الصفاني » وهذا خطأ طباعاً ، ثم قال بعد ذلك إن حنثاً حين ثم بالقول إلى مصر : « تبعه أكثر الناس من العساكر المصرية من جند سعيد حاكم مصر » مما يؤيد القول بأن عقبة إنما سار إلى إفريقية بعد موت مسلمة وولاية سعيد فبعث هذا معه بنفر من الجند ، والمراد بالمصريين هنا هم العرب النازلون بمصر — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٥٩

آمن كسيلة من بقي بإفريقية من المسلمين ، وهذا يدل على أنهم لم يكونوا
كلهم من العرب وإنما كان فيهم نفر كبير من أهل البلاد فلم يرحلوا مع العرب ،
فكان كسيلة مضطراً إلى منحهم الأمان لأن لهم قبائلهم القوية التي ربما
ثارت عليه إذا هو مسهم بأذى ، وهذا هو السبب في بقاء مسلمي إفريقية
— العرب منهم وغير العرب — بخير حتى عود جنود المسلمين لفتح البلاد مرة أخرى.
ولو كان هؤلاء المسلمون الذين بقوا في البلاد — بعد رحيل زهير — كلهم من العرب
لما توانى كسيلة عن قتلهم والقضاء عليهم كما قضى على إخوانهم في تهودة لأنه
كان مسيراً برأى أحلافه من الروم . أما وفيهم نفر كبير من أهل البلاد : بعضهم
من نفوسة وبعضهم من أهل درن وبعضهم من زناتة ، فلم يكن له بد من
أن يؤامنهم ليكسب ودهم وطاعتهم في هذا الظرف العصيب ^(١) .

كان ارتداد زهير إلى برقة « هزيمة إلى مصر » كما قال ابن حيان الحضرمي
أحد أصحاب زهير ، فقد خرجت إفريقية عن أيدي العرب مرة أخرى وحكها كسيلة
البربري النصراني ، فكان لا بد من فتحها من جديد ، ولكن فرق بين ارتداد
زهير اليوم وارتداد عبد الله بن سعد بالأمس ، فعلى الرغم من أن ابن أبي سرح
ارتد منتصراً وأن زهيراً ارتد منهزماً ، وعلى الرغم من هذا الفرق الجوهرى
بين الحالين ، فإن ابن أبي سرح ارتد عن بلاد كان هو معتدياً عليها ولا شيء له
فيها ، أما زهير فارتد عن بلاد للمسلمين فيها القيروان ومساجد وحقوق كسب
بعضها بمعاهدات ثابتة ، ولهم فيها طوائف كبيرة من المسلمين أو من يميل كل الميل

(١) ويبدو أن كسيلة كان منصرفاً — بعد دخوله القيروان — إلى تأمين إفريقية
من العرب ، فذكر ابن عبد الحكم أنه أرسل جنداً وصلوا باب قابس وأنه جعل يرسل أجناده
في كل وجه ليقضوا على كل أثر لجنود العرب . « ثم سار كسيلة ومن معه حتى نزلوا الموضع الذي
كان عقبة اختطه فأقام به ، وقهر من قرب من باب قابس وما يليه ، وجعل يبعث أصحابه
في كل وجه »

إلى عودة المسلمين ، أى أن المسلمين ارتدوا عن بلادهم . وبينما كان عبد الله ابن سعد حراً فى أن يعود أو لا يعود إلى إفريقية ، فإن زهيراً كان لا بد أن يعود ليستعيد ما فقد من أرض إسلامية وليستنقذ القيروان وليخلص الشعب الإفريقى الإسلامى الناشئ من يد مستبد ككسيلة .

وفيه من قول المالكى عن كسيلة : « وزحف على القيروان فانقلبت إفريقية ماراً^(١) » ، أن ثورة عظيمة شملت البلاد بأسرها بعد انصراف المسلمين وسقوط القيروان فى يد كسيلة ، فكيف نعلل هذه الثورة إلا بأنه كان فى إفريقية فى ذلك الحين نفر عظيم لم يرضهم سقوط القيروان فى يد كسيلة فأثارهم ذلك وثارَت المنازعات بينهم وبين أنصاره ؟ ومن يكون هؤلاء الذين ثاروا تلك الثورة إلا بربراً مسلمين أو أنصاراً للمسلمين ؟ ذلك أن كل جند العرب قد عادوا إلى برقة مع زهير ، فكان أولى بإفريقية أن يهدأ حالها بعد انصراف المسلمين منها وخلاصها للبربر والروم .

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩

الباب السابع

تمام الفتح

— ١ —

حالة زهير بن قيس البلوى على إفريقية

ارتدّ المسلمون بعد « تهودة » إلى برقة ، وسقطت القيروان في يد البربر ، وقام في سهل تونس شبه دولة بربرية مسيحية ، وبهذا خيّل للرأى أن كل أثر للمسلمين قد امحى من البلاد ، فعادت سيرتها الأولى كأن لم تمسها أقدامهم ، وأكد ذلك فورنل بقوله : « وهكذا بعد أن أريق كل هذا الدم العربي مدى سبع وثلاثين سنة ، أصبح البربر سادة لإفريقية والقيروان نفسها ^(١) » . أى أن دولة بربرية قوية قامت محل العرب وحكمت إفريقية من برقة إلى المحيط ، وهى دعوى ظاهرة الخطأ قال الأستاذ كودل في مناقشتها : « إلى هذه الغاية يريد المؤلف أن ينتهى ، لقد انتصرت نظريته المحببة إليه ^(٢) — فيما يبدو — انتصاراً لا يقبل مناقشة ولا جدالاً : أصبح البربر سادة في القيروان ! وهذا هو الواقع ، ولكنه في رأى فورنل فتح عظيم لا مجرد معسكر أقامه جماعة من اللصوص وأسّسوه تأسيساً واهياً على قدر ما يسمح الفن الحربى البربرى ، بلغ من ضعف تحصينه أن أصحابه اضطروا إلى التخلّى عنه عندما تهدده الأعداء أول مرة . . . إذا كان البربر في القيروان قيل إنهم أصبحوا سادة إفريقية ؟ بالطبع لا . لقد خُذع فورنل هنا بأقوال رواة العرب ، فهؤلاء لا يفهمون من موت عقبة في تهودة إلا أن إفريقية قد ضاعت من المسلمين وأصبح كسيلة سيدها وصاحبها ^(٣) » . ثم يقول بعد ذلك بقليل في وصف حكومة كسيلة التى أقامها في القيروان : « لم تكن هناك حكومة ولا يستطيع المرء أن يقول إن البلاد — التى حكمها جرجير من قبل ونهبها العرب مراراً عديدة — أصبحت اليوم محكومة بسلطان كسيلة ، لأن هذا الأخير لم يفعل

(١) Fournel, op. cit. I. p. 181

(٢) ألف فورنل كتابه للدفاع عن البربر وإظهار أنهم خير من العرب وسادة لهم ، وحاول أن يبرهن في كل صفحة من صفحاته على أن العرب إن هم إلا لصوص ، لا يحفلون إلا للسلب والنهب ، وتلك هى النظرية المحبوبة التى سخر منها كودل في هذا التعليق — أنظر صفحة ١٤١ من هذه الرسالة .

(٣) Caudel, op. cit. II. p. 141

أكثر من احتلالها ، وهذا أمر يختلف عن الحكم تمام الاختلاف ، فلم يزد الأمر على أن حلت القبيلة البربرية محل جموع العرب ، وضربت خيامها جوار العيون التي كان العرب يستقون منها . . . فلم يكن كسيلة يحكم بالمعنى الذي نفهمه من هذه الكلمة ، إذ لو كان يحكم حقاً لتوقع عود العرب ولا اتخذ العدة لذلك ، وسترى أن شيئاً من ذلك لم يكن^(١)» أصاب كودل في مناقشة فورنل ، ووفق إلى وصف حكومة كسيلة وصفاً قريباً من الحقيقة ، ولكن غابت عنه أمور أخرى على جانب عظيم من الخطورة والأهمية ، وهي الآثار التي خلفها العرب في البلاد بعد هذه الحملات الكثيرة .

سبقت الإشارة إلى ما كان من مناصرة بعض قبائل البربر للعرب وانضمامهم لهم ، وما كان من دخول بعضهم في الإسلام ، وسبق القول بأن أغلب هؤلاء الأنصار كانوا من بربر الجنوب لا من بربر الشمال أو من قبائل الأوراس أو من نواحي مرطانية ، أى أنهم كانوا من قبائل البدو من أمثال نفوسة ولواتة وبعض زناتة ونفر من برغواطة ، وأن مناصرة هذه القبائل للعرب لم تقتصر على مجرد الترحيب بهم أو التزام الحياد معهم — كما فعل قبط مصر مثلاً — بل كانوا يخفون لعون العرب كلما تخرج بهم الأمر ، كما خفت زناتة لنجدة العرب عند ويلي ، وكما أسرع ابن مصاد صاحب قفصة لاستنقاذ أسارى المسلمين بعد تهودة ، بل لم يسكن هؤلاء الأنصار بعد مبارحة العرب للبلاد ، وإنما لبثوا يشغبون على كسيلة ومن معه من البرانس بحيث أصبحت البلاد « ناراً » طوال الفترة التي غابتها العرب عنها كما قال النويرى .

لذلك لا يصح القول بأن كل أثر للعرب قد امحى من البلاد ، وإن كان على خليفة عقبة أن يبدأ كما بدأ عمرو بن العاص قبل ذلك بنحو خمسين سنة ، وإنما

(١) Caudel, op. cit. II. pp. 142,143

الأصح أن يقال : إن مهمته كانت إخماد ثورة في بلاد كانت للعرب وانتقضت عليهم .
وإذا كان أصحاب الأمر في الدولة الإسلامية مخيرين فيما مضى بين أن يواصلوا
الفتوح أو ينصرفوا عنها ، وإذا كانت الغزوات على المغرب قد ظلت إلى الآن
رهنًا برغبة الخليفة أو إلحاح عامل مصر ، فقد أصبحت إعادة ما كان قد تم فتحه
إلى الطاعة وإتمام فتح بقية البلاد ضرورة لا بد منها ، لا للمسلمين وحدهم
بل للمغرب وأهله كذلك . فأما المسلمون فلمهم رعية في البلاد وأنصار ينبغي
إتقاذهم من الأسر الذي خضعوا له بانتصار كسيلة ، وما برحت القيروان ومسجدها
الجامع يذكran المسلمين بضرورة العود ؛ وأما البربر فقد وجدت بعض قبائلهم
في المسلمين نصيراً لم على الروم وأحلافهم من القبائل المسيحية أو المتأثرة بالحضارة
اللاتينية ، ورحبت بمجنودهم التماساً للفتح معهم والاشتراك في الأسلاب وإيائهم
فانحازت إلى جانبهم . فلما كانت هزيمة تهودة وارتد المسلمون إلى برقة ، لبثت
على عدا كسيلة وحكومته ، وظلت تنتظر عود العرب لتنضم إليهم وتوازرهم على
القضاء على كسيلة ومن معه ، وذلك هو الأمر الذي غاب عن فورنل وكودل ،
وهو على أكبر جانب من الأهمية والخطورة ، لأنه الثمرة الوحيدة التي نتجت
عن جهود العرب طوال هذه السنوات ، ولأنه يفسر لنا السهولة الظاهرة — نسبياً —
التي استطاع بها العرب إخضاع البلاد . وكان كسيلة نفسه يشعر بذلك ويبذل
وسعه في اتقاء شره : كان يعلم أن البلاد ليست خالصة له ولأنصاره ، ولهذا حرص
على أن لا يمس من بالقيروان من المسلمين بأذى حتى في الساعة التي أُنذره العرب
فيها بعودهم ؛ فمع أن وجود هؤلاء المسلمين كان يقلقه ويثير مخاوفه ، ومع أنه كان
في استطاعته أن يتخلص منهم دون أن يكون عليه بأس من ذلك ، فإنه لم يفعل
ثراً الانتقال بنفسه من القيروان إلى تمس حذراً من وثوبهم به . وقد سبق القول
بأن هؤلاء المسلمين الذين خلفهم زهير في القيروان إنهم إلا : « الذراري وذوو الأثقال

من التجار» كما يقول المالكي ، فكيف يعلل خوف كسيلة منهم وقوله :
« فإن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ، ولهم علينا عهد فلا نفدر بهم ، ونخاف
إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء من ورائنا ، فإذا نزلنا ممس أمنّاهم^(١) » ؟ ليس
من المعقول أنه فعل ذلك اتقاء غضب العرب أو مصانعة لهم ، ولا يصح تعليله بميل
الرجل إلى العدل وكرهه للدماء ، فإن المذبحة التي دبرها لعقبة تنفي ذلك ، وإنما
تعليلها الوحيد أنه وجد لهؤلاء المسلمين أنصاراً من أهل البلاد تثيرهم الإساءة
إليهم ، ولا بد أن هؤلاء الأنصار كانوا من الكثرة بحيث يخشاهم كسيلة ويؤثر
مصانعتهم ، ولا بد كذلك أنه كان يعرف أنهم يضمرون له الشر ويتربصون
به الدوائر ، فحرص أشد الحرص على أن لا يثير نائرتهم في اللحظة التي أبصر فيها
خيل العرب مسرعة نحوه للأخذ بثأر تهودة .

— ٢ —

سكن الروم فترة طويلة بعد هزيمة سبيطة ، لأن أحوال الدولة المركزية
اضطربت وتهددها العرب من الشرق ومن الغرب بالإغارات والهجمات المتوالية ،
فانقطعت الأمداد عن إفريقية ، وأخذ أمر رومها في الضعف حتى انعدمت
مقاومتهم أصلاً كما رأينا في حملة معاوية بن حديج والسرائيا الصغيرة التي بعث بها
إلى بنزرت وسوسة وغيرها من كبريات مدائن الروم . وقد لوحظ كذلك أن روم
إفريقية بدأوا يظهرن بعض النشاط بعد هذا التحول ، وكان ذلك بعد خلاص الدولة
من حصار القسطنطينية الثاني الذي استمر تأثيره عليها حتى نهاية حملة أبي المهاجر .
فلما بدأ عقبة حملته الكبرى سنة ٥٥ هـ ظهر بجلاء أن الروم نشطوا نشاطاً مفاجئاً ،
ترجع أسبابه إلى استرداد الدولة عافيتها بفضل جهود قسطنطين الرابع وإصلاحه
الديني ، واجتهاده في وصل ما كان قد وهى من علاقات الدولة مع أملاكها في إفريقية

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣

وغيرها ، وإلى انتفاض كسيلة على العرب ومحالفته الروم وتعاون الحيين معاً على مقاومة عقبة . ويبدو أن الروم تشجعوا بعد تهودة وانهزوا فرصة انشغال كسيلة بتنظيم أسره فاستعادوا بعض ما كان لهم في البلاد ، وحرصوا على أن يثبتوا أقدامهم من جديد . فيؤكد ديل أن : « رجال الإمبراطورية ظلوا يحتلون الولاية القنصلية احتلالاً قوياً ، والشريط الساحلى من الولاية الداخلية والجزء الأكبر من نوميديّة . وكانوا في القرن السابع كذلك لا يقتصرون على محارس الساحل وحدها مثل سوسة (Hadrumentum) وقرطاجنة وبنزرت Hippone Diarryte وبنونة Hippone بل وضعوا يدهم على عدد كبير من الحصون الداخلية . وقد كان الرباط الثانى سليما لم يمسه الهجوم بعد . وكانت الحاميات باقية على حالها في نوميديّة حتى في المحارس التي تحمي الأوراس ، بل يمكن القول بأن علاقة ما — تشبه ما بين السيد والتابع — كانت تصل الحكومة البيزنطية في إفريقية بمملكة كسيلة ، وعلى أى الأحوال فقد كان الأمير الوطنى على صلة ضعيفة بالبيزنطيين^(١) ، وربما جاز أن نشك إلى حد ما في بعض ما جاء بعبارة ديل هذه ، فالقول بأن : « الرباط الثانى كان إلى ذلك الحين سليما لم يمسه هجوم » غير صحيح ، لأن المعروف أن معاوية بن حديج اخترقه في بعثه الذى أرسله إلى بنزرت والبعث الآخر الذى وجهه إلى سوسة ، وأن دينار أبا المهاجر هاجم قرطاجنة وحاصرها ولم ينصرف عنها إلا بعد أن نزل الروم له عن جزيرة شريك الواقعة داخل الرباط الثانى ، ثم إن مركز أعمال العرب كان منطقة ساحلية تنحصر بين الهضبة وساحل سوسة وهى منطقة قونية الداخلة في هذا الرباط . وليس هناك كذلك ما يدل على وجود الحاميات التي ذكرها ديل في محارس الأوراس وحصونه ، وإنما لا شك أنه لم يخطئ حين أكد وجود صلة ما بين روم إفريقية وكسيلة .

(١) Diehl, op. cit. p. 519.

وإنما يمكن تصحيح عبارة ديل بالقول بأن روم إفريقية أخذوا يستعيدون نشاطهم بعد سنة ٥٥ هـ ، وأن ظروفهم وظروف الدولة نفسها أعانت على ذلك ، فاستطاعوا أن يستعيدوا مدائن الساحل وبعض محارس الداخل وأن الدولة نشطت فأخذت توافيهم بالأمداد ، ولم يرد لهذه الأمداد ذكر صريح في هذه السنوات التي نقص أخبارها ، وإنما سنجد أحدها في برقة سنة ٧١ هـ أثناء عود زهير ابن قيس من إفريقية ، وكان انشغال العرب بكسيلة وتوجه اهتمامهم للقضاء عليه فرصة طيبة استطاع الروم فيها أن يشدوا أمرهم ويثبتوا أقدامهم استعداداً لصراع حاسم يشتد أواره في حملة حسان بن النعمان سنة ٧٨ هـ .

— ٣ —

تتفق المراجع كلها ما عدا فتوح مصر والمغرب على أن زهيراً أقام ببرقة طوال السنوات الأربع التي انقضت بين انسحابه من إفريقية سنة ٦٥ هـ ثم مسيره إليها سنة ٦٩ هـ ، ولكن ابن عبد الحكم ينفرد هذه المرة — كما انفرد في سابقتها — برواية شديدة الغموض بينة الاختلاف عما انعقد عليه إجماع غيره ، فيقول بعد ذكر عدة حوادث فيها خطأ كثير : « إن الروم أغاروا على أنطابلس (برقة) وبقوا فيها أربعين ليلة أنزلوا بها أثناءها من الفساد شيئاً كثيراً ، وبلغ ذلك عبد العزيز ابن مروان ، فأرسل إلى زهير بن قيس وكان خرج مع حسان ، فلما بلغ مصر أقام بها ، فأمره عبد العزيز بالنهوض إلى الروم ، ولم يجتمع زهير من أصحابه إلا سبعون رجلاً ، وكان عارض من الصدف يقال له جندل بن صخر — وكان فظاً غليظاً — فقال زهير لعبد العزيز بن مروان : أما إذا أمرتني بالخروج فلا تبعن معي جندلاً عارضاً فيحبس على (عني) الناس لشدة وفظاظته ، وكان عبد العزيز عاتباً على زهير بن قيس ، لأنه كان قاتله حين وجهه أبوه مروان بن الحكم من ناحية أبلّة من قبل أن يدخل مصر ، فقال له : ما علمتك يا زهير إلا جلفاً جافياً ! فقال

له زهير . . . : أنا منطلق فلا ردني الله إليك ! فخرج^(١) . وهذه الرواية منسوبة إلى الليث بن سعد ، ونقلها عن يحيى بن بكير ، وليس هناك ما يؤيدها ، ولكنها تضم إشارات على جانب عظيم من الأهمية مما يميل بنا إلى قبول معناها جملة . فهي تدل على أن زهيراً لم يازم برقة طوال هذه السنوات الأربع وإنما عاد إلى مصر وأقام بها فترة من الزمن ، وعاد معه أصحابه كذلك وتفرقوا يلتمسون الراحة وتقاعد أكثرهم عنه حين هم بالعود إلى إفريقية . ويفهم منها كذلك أن ملاحاة وقعت بينه وبين عبد العزيز بن مروان إما للسبب الذي ذكره ابن عبد الحكم أو لأي سبب آخر ، وربما أيد ذلك ما ورد في الإصابة من تشاحن عبد العزيز ابن مروان مع زهير بن قيس ووقوع النفرة بينهما إذ يقول : « وذكر له قصته مع عبد العزيز بن مروان وقد توجه إلى برقة ، فخطبه بشيء فأجابه زهير : أقول لرجل جمع ما أنزل الله على نبيه قبل أن يجمع أبواك هذا ؟ ونهض إلى برقة^(٢) » وهذا برهان صريح على ما كان بين الرجلين من بغض وكراهية ، وهذا المقام بمصر يفسر لنا السبب الذي دفع بابن عبد الحكم والبلاذري^(٣) إلى القول بأن عبد العزيز ابن مروان هو الذي أرسله ، وهي دعوى لا صحة لها ، وأبسط ما ينهض من الأدلة لدحضها هي الملاحاة والمضاء الذي كان بين الرجلين . ويفهم من هذه الرواية كذلك أن سعى عبد العزيز بن مروان لضم إفريقية إلى ولايته بدأ قبل حملة زهير ، فحرص على أن يبعث معه نفراً ممن يكرههم زهير كجندل الصدفى هذا ليعرقل مساعيه ، وهو سعى سيوفى إلى تحقيقه بعد ذلك بزمان طويل ، أى حوالى سنة ٨٤ هـ حين يتمكن من عزل حسان بن النعمان بتابعه موسى بن نصير^(٤) .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٢ — ٢٠٣

(٢) الإصابة : مادة زهير بن قيس .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، نفس الصفحة — البلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٦

(٤) أما أخطاء ابن عبد الحكم التي مرت الإشارة إليها فقله : « إن كسيلة قتل =

أقام زهير إذن بعض هذه الفترة في مصر وبعضها الآخر في برقة ، وكان لا يكف أثناء ذلك مستغيثاً بعبد الملك بن مروان حتى يبعث إليه بالجند ليستنقذ المسلمين الذين خلفهم في إفريقية حين عاد ، ولكن عبد الملك كان في شغل عنه بما حزن به من أمور وما تهدده من أخطار ، فقد قضى السنوات العشرة الأولى من ولايته في صراع مع أعدائه الذين توابوا عليه تباعاً من بدء ولايته ، بل كان قد ولى الخلافة والثورة قائمة في نواح كثيرة من الدولة ، كالمدينة التي لم يخذل ثورتها انتهاك مسلم بن عقبة المري إياها وتخريبها سنة ٦٣ هـ ، والكوفة التي تحرك بها الشيعة وظهر التوابون فيها سنة ٦٥ هـ ، واستمرت هذه الاضطرابات قائمة على حدتها ولم يبدأ أمرها في السكون إلا بعد سنة ٧٠ هـ ، أى بعد مقتل مصعب ابن الزبير بدير الجاثليق ومقتل أخيه عبد الله بن الزبير في جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ . ولهذا كان طبيعياً أن تذهب صرخات زهير دون جدوى ، ولو تأخر عبد الملك في إمداده حتى بعد سنة ٧٣ هـ لكان له العذر في ذلك ، ولكن الغالب أن عبد الملك ورجاله كان لهم اهتمام بأمر إفريقية ورغبة في تخليص من بها من المسلمين ، فعلى الرغم من أن ثورة ابن الزبير وأخيه واضطرابات الشيعة كانت على أشدها في سنة ٦٩ هـ ، فقد استطاع عبد الملك أن يبعث بالأمداد إلى زهير في هذه السنة ويأمره بالمسير إلى إفريقية ، وفي هذا دليل على أن أمور إفريقية أصبحت تهم أولى الأمر في الدولة الإسلامية كما تهمهم أمور العراق والحجاز مثلاً ، فقد بُعث زهير إلى إفريقية سنة ٦٩ هـ في حين لم يسر عبد الملك نفسه لقتال مصعب بن الزبير في العراق إلا سنة ٧١ هـ ، بل نستطيع القول بأن سبب الاهتمام باسترجاع إفريقية لم يكن مجرد استنقاذ من بها من المسلمين وإنما كان الرغبة

عبد الملك
يسير زهيراً
إلى إفريقية
سنة ٦٩ هـ

== سنة ٦٤ هـ « وهذا أمر لا يستقيم ، لأن زهيراً لم يصرع في حملته إلا سنة ٦٩ هـ ، وقوله : « إن عبد العزيز هو الذى بعث زهيراً إلى إفريقية » .

في تهدة أمورها وإتمام فتحها ، لأن الخلافة أصبحت تنظر إليها كبلاد إسلامية لا مفر من الاهتمام بأمرها اهتماماً لا يقل عن الاهتمام بالموصل والجزيرة . ومصدق هذا أن هزيمة زهير ومقتله في برقة لم تثن عبد الملك عن مواصلة العمل على استرجاع إفريقية ، فبعث حسان بن النعمان في نفس الوقت الذي كان الحجاج يعمل فيه لإخماد ثورة الصفرية في الموصل والجزيرة سنة ٧٦ هـ .

ومما يؤيد اهتمام عبد الملك بأمر إفريقية وتقديره أهمية إتمام فتحها أنه عني بأن يعد الحملة التي يرسلها إليها عناية خاصة ، فأرسل إلى أشرف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام ، وأفرغ عليهم أموال مصر فسارع الناس إلى الجهاد ، واجتمع منهم خلق عظيم فأمرهم أن يلحقوا بزهير فلما وصلوا إليه خرج بهم إلى إفريقية^(١) .

اهتمام
عبد الملك
بحملة إفريقية

بين المؤرخين اتفاق على تاريخ هذه الحملة ، فكلهم عدا ابن خلدون^(٢) يجعلونها سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) ، وإذا صدق المالكي فيما ذكر من أن زهيراً وصل القيروان في عيد الأضحى كان من الممكن القول بأنه شرع في المسير في ذي القعدة سنة ٦٩ هـ .

كان اختيار عبد الملك لزهير^(٣) قائماً على معرفته به وثقة رجال الدولة فيه . فقد روى النويري أنه : « لما أشير على عبد الملك بن مروان بإرسال الجيش

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩

(٢) ذكرها ابن خلدون سنة ٦٧ هـ : طبعة دي فرجير ص ٤

(٣) جاء في الإصابة ما يلي عن زهير : قال ابن يونس : « يقال له محبة ، ويكنى أباشداد ، وشهد فتح مصر ، وروى عن علقمة بن رمثة البلوي ، وروى عنه سويد بن قيس ، وقتله الروم ببرقة سنة ٧٦ هـ » ثم أعقب ذلك بكلام يؤيد ما سيرد ذكره من وقوع الجفوة بين زهير وعبد العزيز بن مروان عامل مصر إذ ذاك إذ يقول : « وذكر له قصته مع عبد العزيز بن مروان وقد ندبه إلى برقة فخطبه بمضى فأجابه زهير : أتقول لرجل جمع ما أنزل الله على نبيه قبل أن يجمع أبواك هذا ؟ ونهض إلى برقة فلقى الروم في عدد قليل فقاتل حتى قتل شهيداً » .

إلى إفريقية قال لا يصلح للطلب بثأر عقبة بن نافع من المشركين إلا من هو مثله في دين الله عز وجل ، فاتفق رأيهم على زهير بن قيس ، وقالوا هو صاحب عقبة وأعرف الناس بسيرته وأولاهم بطلب ثأره^(١) . وكان قد صحب عقبة منذ سنة ٤٣ هـ واشترك في فتوح إفريقية من ذلك الحين ، ويبدو أنه كان أعظم رجاله شأنًا لأنه خلفه على جنده حين سار في بعثه الصحراوي ، ثم خلفه مرة أخرى على القيروان حين سار بحملته الكبرى ، وكانت صحبة عقبة الطويلة قد أثرت فيه فغلبت عليه هو الآخر مسحة دينية زادها قوة ووضوحًا علو سنه حين قام بحملته هذه .

انضمام نفر
من البربر
إلى زهير

يفهم من قول ابن عذارى : « فكتب إليه (أى إلى عبد الملك) زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم ، فأمدّه بالخييل والرجال والأموال ، وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليه ، فوفدت الجيوش على زهير وتسرع الناس معه إلى إفريقية^(٢) » أن الاستعداد لحملة زهير كان عظيمًا ، وأن الخليفة لم يقتصر على حشد قوة عظيمة إليه بل دعا الناس للمسير معه ، فلقيت الدعوة إقبالًا من الناس فتسارعوا للاشتراك مع زهير . ويذهب المالكي إلى أن زهيراً لم يقتصر على ما وصله من مدد بل ضم إليه نفرًا كبيراً من البربر تبلغ عدتهم ألفين في حين كان العرب أربعة آلاف^(٣) ، ويغلب أن العرب كانوا أكثر من هذا العدد الذى أورده المالكي ولكن روايته تدل على أن جيش زهير كان فيه نفر كبير من البربر على أى حال . وتلك ظاهرة ستلاحظ في كل الجيوش العربية التى ستتولى إتمام الفتح وسيهم مؤرخو العرب بتسجيلها ، إذ سنجد

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ ١ ويروى المالكي رواية تشبه هذه من ناحية المعنى وتخالفها في بعض ألفاظها ، ويفهم منها أن اختيار زهير كان بناء على رغبة نفر كبير من المسلمين لا عبد الملك ورجال بلاطه فقط ، إذ يقول : فاتفق رأيهم ورأى المسلمين على زهير بن قيس البلوى وكان من رؤساء العابدين وأشرف المجاهدين — المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٥

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ١٦

(٣) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩

المالكي يقول : « إن حسناً كانت ترافقه طائفة من البربر يقال لهم البتر^(١) » ،
ويؤكد ذلك ابن الأثير حين يقول : « وجمع كسيلة له البرانس^(٢) » وكل أولئك
دلائل تعزز ما سبقت الإشارة إليه من أن البربر البدو الجنوبيين أخذوا جانب
العرب ، وانحصرت المقاومة في القبائل الشمالية التي يسميها نسبة البربر البرانس
لأنها كانت بعيدة التأثير بالحضارة البيزنطية والمسيحية ، ولا نزاع في أن الروم كانوا
يوالونها بالعون والإرشاد ، وسيلاحظ بجلاء أن مقاومتها تضعف تماماً بمد قضاء
حسان على الروم .

فزع كسيلة
لسير العرب

ظل كسيلة مقياً بالقيروان على حذر من العرب طوال هذه المدة ، فلم تكذب
الأخبار ترد إليه بمسير زهير نحوه حتى تولاه جزع شديد ، « وجمع حشد البربر والروم
وأحضر أشراف أصحابه وقال : قد رأيت أن أرحل إلى ممش^(٣) فأنزلهما ،
فإن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا تغدر بهم ، ونخاف
إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء من ورائنا ؛ فإذا نزلنا ممش أمنائهم وقاتلنا زهيراً
فإن ظفرونا بهم تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا أثرهم من إفريقية ، وإن ظفروا بنا
تعلقنا بالجبال ونجونا ، فأجابوه إلى ذلك ورحل إلى ممش .^(٤) »

لماذا انتقل
كسيلة
إلى ممش ؟

أما تعليل انسحاب كسيلة إلى ممش بخوفه من المسلمين الذين بالقيروان فقط

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤
(٣) ممش أو ممس Mamma مدينة بيزنطية حصينة قديمة ، كانت من محارس الرباط
الثاني الكبرى ، وقد ذكر البكري عن محمد بن يوسف : « أنها قرية عاصرة آهلة بها مسجد
وفندق » مما يدل على أنها كانت مزدهرة إلى أيامه ، ويسمى ساقية ممس ، وقد وردت بصور
مختلفة في الروايات العربية فذكرها ابن الأثير ممش ، وذكر ابن خلدون ميس ، والنويري
ممش ، وقد أخطأ الأستاذ دي فرجير في قراءة لفظ ممس فقرأها عس وأثبتها بالعربية
والإنجليزية ، وربما كان ابن مقديش أشد المؤرخين تحريفاً لهذا اللفظ فقد أورده : « معصرة » —
البكري ، وصف إفريقية ، ص ١٤٦ — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤ — النويري ،
نهاية الأرب ، ص ٧٣ أ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٧ — دي فرجير ، ص ٤ و ٢٣ — ابن مقديش ،
نزهة الأقطار ، ص ٧٣ (٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤

فضعيف ، لأن هذا النفر كان قليلا لا يخشى منه بأس ، وكان أكثره من غير المقاتلين أو القادرين على المقاومة . وكذلك لا يستقيم تعليل المالكي لهذا الانتقال بأن ممش أكثر ماء من القيروان^(١) ، لأن هذا غير صحيح . والحقيقة أن القيروان لم تكن حصينة في حين كانت ممس كذلك ، وكانت القيروان في وسط السهل مما يسهل الالتفاف حولها ومهاجمتها من أى ناحية ، ولو هاجمها العرب من الغرب لقطعوا عنها المدد من الجنوب . وأما ممس فعلى شرف من الهضبة تطل بحصنها على السهل وتقف حائلا يصد المتقدم من السهل ولا يستطيع العرب مهاجمتها من خلف ، ثم كانت على اتصال بالهضبة وجبال الأوراس ، فيمكن الحصول على الأمداد والمؤن ، فإذا دارت الدائرة على كسيلة تعلق بالجبال كما قال .

ولا بد كذلك أن القيروان كانت محوطة بطوائف من البربر المواليين للعرب . فقد رأينا بعضهم يسلم وعقبة قائم بيناء القروان ؛ وأعان على ذلك قرب موقعها من منازل نفوسة التي ثبت ولاؤها للعرب وإسلام بعضها من أيام عقبة ، وربما كان قول كسيلة : « فإن بالقيروان خلقا كثيرا من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نفدر بهم ، ونخاف إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء من ورائنا^(٢) » إشارة إلى ذلك . فإن خوفه من هؤلاء المسلمين وتفضيله تركهم والانتقال إلى مكان آخر لا يعلل إلا بأنهم كانوا عددا كبيرا يخشى بأسه . وقد عرفنا أن زهيراً لم يخلف بإفريقية إلا عددا ضئيلا من العرب فلا بد أن كسيلة أراد بذلك مسلمي البربر أو أنصار العرب منهم . اتخذ زهير الطريق الساحلى الذى سلكه عبد الله بن سعد فى حملته الأولى حتى أفضى آخر الأمر إلى جوار القيروان^(٣) وعسكر جوارها دون أن يدخلها^(٤) ،

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٠ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ج ٤ ، ص ٤٤

(٣) يقول ابن عبد الحكم : « نخرج زهير في جمع كثير ، فلما دنا من قونية وبها عسكر كسيلة بن لزم عباً زهير لقتاله » والأغلب أنه أراد بقونية هذه قونية ، أى موضع القيروان — ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٠

(٤) اتفق ابن الأثير والنويرى على القول بأنه أقام بظاهر القيروان دون أن يدخلها =

وربما كان هذا موضع تساؤل لأنه إذا كان قد طلب الراحة هذه الأيام الثلاثة ، فإنما بداخل المدن لا بظاهرها يستريح الناس . وربما جاز تعليقه بأنه كان مسرعا فخشى أن يطول به الأمد إن هو دخل القیروان ، وربما خشي أن يفاجئته العدو وهو بداخلها وقد خلع لباس الحرب ، ففضل البقاء كما هو على استعداد لكل طارئ .

زهير يهادن
الروم

يورد المالكي تفصيلات عظيمة الأهمية في توضيح أعمال زهير ، فيذكر أن زهيراً لم يسر إلى ممس وإنما ثبت في القیروان « حتى زحف كسيلة في جمع كثير من البربر والروم ، ونقض الروم العهد وخرجوا من حصونهم ، ووافق جميعهم عيد الأضحى فاعتذر زهير ومن معه : أربعة آلاف (كذا) : ألسان من البربر وأربعة آلاف من العرب » فلما رأى زهير ما حل به من الروم والبربر أرسل إلى الروم وقال لهم : « وإنا وإياكم أهل الكتاب وقد حضرنا يوم نعظمه . . . بنا حتى ينقض العيد فأجابوه إلى ذلك ، فلما انقضى العيد زحف إلى كسيلة فقاتله قتالاً شديداً ، فانهزم كسيلة وقتل من أصحابه ما لا يحصى وتفرقوا ، فأقام زهير بالقیروان يسيراً ثم رحل إلى مصر^(١) » وبذلك لا يكون زهير قد أقام بظاهر القیروان ثلاثة أيام « حتى استراح وأراح ، ثم رحل إلى كسيلة والتقى^(٢) » وإنما كان مقام زهير بظاهر القیروان للتدبير وبحث الحالة عن كسب .

وجد زهير أن الحلف الرومي البربري لا زال قوياً يخشى بأسه ، ولاحظ

= وخالفهما المالكي فأكد أنه دخلها ، وقد غلبت رأى الإثنين الأولين — ابن الأثير ، أسد الغابة ٤ ، ص ٤٤ والنويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ أ — المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩ (١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩ — وقد عاد المالكي فأورد بعد ذلك رواية أخرى تنفق تماماً مع ما أجمع عليه المؤرخون الآخرون دون أن يذكر إسناد أى الروايتين ، ويقعهم من سياق حديثه أنه يقرر حملتين لزهير وهذا خطأ ؛ ويؤكد خطأه قوله : إن اتجاها الحملتين معاً كان ممس وكسيلة وأنه قتله في كل منهما (٢) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ أ

أن الروم لا زالوا محتفظين بحصونهم القديمة إلى شمال القيروان وشرقها ، ولاحظ أن البربر رُصد له بباب الهضبة يردونه عنها إن هو حاول اقتحامها ، ومن ثم خشي أن يتجه إلى إحدى الناحيتين مخافة أن تهمل به إحدى الطائفتين من خلف ، فأحب أن يبعد الروم عن الميدان ريثما يخلص من أمر البربر وكسيلة ثم يعود ليرى ما يكون من أمر الروم معه . ويبدو أن الروم مالوا إلى أن يتركوا العرب والبربر يكافح بعضهم البعض ليخلصوا من أيهم فيسهل ذلك لهم استرجاع سلطانهم في البلاد^(١) .

خلص زهير من الروم فانطلق للقاء كسيلة في ممس التي تحصن بها
ولبت ينتظر العرب عندها . وتتفق المراجع كلها على أن اللقاء كان بممس
عدا المالكى الذى يذهب إلى أن ذلك كان بناحية قرية من ممس تسمى قصر
عبيدة^(٢) . ويبدو من مختلف الروايات أن المعركة بين زهير وكسيلة كانت
شديدة عنيفة إذ : « اشتد القتال وكثر القتل في الفريقين ، وانجلت الحرب عن قتل
كسيلة وجماعة من أصحابه ، وانهزم من بقي منهم وتبعهم الجيش فقتلوا
من أدركوه منهم ، فذهب رجال البربر والروم وأشرفهم وملوكهم في هذه الموقعة
وعاد زهير إلى القيروان^(٣) » كما يقول النويرى . ولم تزد المراجع الأخرى على ذلك
شيئا ، مما يدل على أن الموقعة كانت قصيرة الأمد على رغم أهميتها ، وربما صح
تعليل ذلك بأن العرب كانوا مدفوعين لقتال كسيلة بتشوق إلى الانتقام فشد
ذلك من عزائمهم ، ولم يثبت لهم كسيلة ولا أحد ممن كان معه . ولا تفوتنا ملاحظة
ضعف القوى البربرية أمام العرب حينما تخلف الروم عنهم ، ولو أن الروم كانوا
بجانب البربر أثناء موقعة ممس لربما كان شأن العرب فيها كشأنهم في باغاية

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩ (٢) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ أ و ب

أو لميزة وغيرها من الحصون . ولكن كيف لم يفر كسيلة ومن معه حين اشتد عليهم الأمر ؟ لقد عرفنا أن أحد الأسباب التي أُلجأت كسيلة إلى ممس هو اقترابها من الهضبة وسهولة الفرار إلى الجبال منها ، فكيف لم يتمكنوا من الفرار ؟ ربما صح تعليل ذلك بأن كسيلة وكبار الزعماء قتلوا في بداية المعركة ، أو بأن زهيراً أجاد توزيع قواته ساعة الهجوم فلم يستطع البربر تنفيذ ما كانوا عزموا عليه من التقهقر إلى الهضاب . وبهذا تم القضاء على مقاومة البرانس في موقعة واحدة . ويبدو أن زهيراً كان يعرف أهمية هذه الموقعة فأصر على القضاء على البرانس قضاء تاماً ، فحينما انهزم نفر منهم إلى الجبال وطلبوا النجاة « تتبعهم الجيش فقتلوا من أدركوه منهم ، فذهب رجال البربر والروم في هذه الموقعة وعاد زهير إلى القيروان ^(١) » .

تعرض السلاوي لإيضاح النتائج السياسية لهذه الواقعة ، فأكد أنها كانت شديدة الأثر على البربر والروم كذلك (ويسميه الفرنجة خطأ) ، وأضاف أن البربر رعبوا من العرب بعدها زعبا عظيماً ، فلجأوا إلى الحصون والتلاع وفارقوا الأوراس وتحصنوا بالمغرب الأقصى « في ويلي بين فاس ومكناس بجوار جبل زرهون ^(٢) » وليس هذا الكلام صحيحاً على إطلاقه ، لأن مركز المقاومة لم ينتقل من الأوراس إلى المغرب الأقصى بعد ذلك مباشرة ، وإنما الصحيح أن هذه الموقعة كسرت شوكة البرانس وقضت على مقاومتهم ، وقضت على ما كان معقوداً بينهم وبين الروم من تحالف على العرب وتعاون على طردهم . وسلاحظ أن خليفة زهير وهو حسان بن يحارب البرانس وإنما البتر ممثلين في قبيلة جراوة . أما قوله إن البربر تحصنوا بالمغرب الأقصى بعد ذلك « في ويلي بين فاس ومكناس بجوار جبل زرهون » فلا تؤيده الحوادث التي وقعت بعد ذلك ، فقد كان مركز

النتائج
السياسية
لواقعة ممس

(١) نفس المصدر والصفحة . (٢) السلاوي ، الاستقضاء ، ص ٤٣

المقاومة التي لقيها حسان في الأوراس أيضاً ، وإن يجحد موسى بن نصير في المغرب الأقصى إلا أيسر المقاومة^(١).

يذهب المالكي إلى أن العرب تتبعوا الفارين من البربر إلى المغرب الأقصى ، « وتمادت العرب في طلبهم حتى سقوا خيلهم من ملوية وادى طنجة^(٢) » ، وربما كانت تلك مبالغة ، لأن ملوية قريب من طنجة ولا يسهل الاسترسال إليه بهذه السهولة التي تفهم من رواية المالكي .

الاسنيلاء
على شقبنارية
اكتفى زهير بانتصاره في ممس فعاد أدراجه يريد القيروان ، ويبدو من قول المالكي : « وفتح شقبنارية وقلاعاً أخرى ورجع وقد خرج جميع الروم والبربر^(٣) » أنه لم يعد إلى القيروان رأساً ، وإنما اتجه إلى الشمال حتى أدرك شقبنارية Sicca Vaneria البيزنطية (الكف الحالية) وبضع قلاع أخرى كما استولى عليها قبل العود إلى القيروان .

— ٥ —

الروم
يدبرون
لزهير
ترك الروم زهيراً يفعل مع البربر ما يستطيع وانصرفوا هم لتدبير أمر آخر شديد الشبه بما دبروه لعقبة ، وربما دفعهم إلى ذلك أن زهيراً وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه عقبة ، فلم يؤمن طريق عودته بل تمادى إلى إفريقية دون أن يخلف في برقة أو طرابلس من يحمي طريق عودته ، فاتصلوا بالدولة واستنجدوا بها ، وفصلوا لها حال إفريقية حتى توافيهم بالإمداد ؛ وفي هذا يقول ابن الأثير : « وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى إفريقية لقتال كسيلة ، فاعتنموا خلوها فخرجوا إليها في سراكب كثيرة وقوة عظيمة من جزيرة صقلية ، وأغاروا على برقة

(١) كذلك أخطأ البلاذري في قوله : « إن زهيراً فتح تونس » لأن تونس كانت قد فتحت قبله مزاراً ، ولا بعد انتصار ممس فتحاً لها ، وربما أراد البلاذري بذلك الغزوات القصيرة التي شنها زهير بعد ذلك على بعض مدائن السهل مثل شقبنارية — البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٩
(٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٠ (٣) نفس المصدر والصفحة .

فأصابوا منها سبياً كثيراً وقتلوا ونهبوا ، ووافق ذلك قدوم زهير^(١) « مما يدل على أن الروم اتهمزوا فرصة اشتغال زهير بحرب كسيلة وأخذوا يدبرون سبيل الخلاص منه مع روم بيزنطة .

يفهم من رواية ابن الأثير السابقة أن مدداً رومياً وصل إفريقية إذ ذاك ، وألقى مراسيه في برقة وأغار عليها وأمر نقرأ ممن كان بها من المسلمين ، فلماذا اختار هذا المدد برقة دون سواها ؟ وقد كان أولى به وفي مقدوره أن ينزل قرطاجنة نفسها ، أو أية مدينة أخرى من مدائن إفريقية البيزنطية ؟ لا يمكن تعليل ذلك بالقول بأنهم إنما قصدوا بعملهم هذا مجرد السلب والنهب كما يفهم من رواية ابن الأثير ، فلو كان هذا هو غرضهم الوحيد لما كلفوا أنفسهم عناء قتال زهير حين مر بهم ، ولأقلموا في سفنهم سالمين موفورين ، بل لكانوا تخيروا مكاناً لسلبهم غير برقة ، إنما الصحيح الذي يفهم من رواية ابن الأثير أن هذه المراكب الرومية^(٢) أتت بناء على دعوة من الروم (روم إفريقية) وتفاهم معهم ، وأنها تخيرت برقة بناء على رأيهم وبنصيحتهم ، فإذا صدق ذلك جاز القول بأنهم وجدوا زهير يسترسل في فتوحه دون أن يترك خلفه حامية تؤمن طريقه ، ففضلوا تركه مع البربر يقاتلهم ويضعف من قواته في حربهم ، حتى إذا كان في طريق العودة إلى مصر رابطوا له في برقة فسهل عليهم القضاء عليه ، كما سهل عليهم القضاء على عقبة بأسلوب مشابه لذلك .

وكان نفر من المسلمين قد تخلف عن الجيش ببرقة ، وربما كان هذا نفر

وصول
مدد من
القسطنطينية

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤

(٢) يؤكد ابن الأثير أن هذه السفن أقبلت من صقلية ، بينما يذهب ابن خلدون إلى أنها أتت من القسطنطينية نفسها ، وربما صح التوفيق بين الرأيين بالقول بأن الدولة البيزنطية قامت بإعداد هذا الأسطول في صقلية ووجهته من هناك — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤
ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٧

من درج المورحون على تسميتهم : « أصحاب الذراري والأثقال » تخلفوا هناك ليروا ما يكون من أمر زهير مع كسيلة ، فإن انتصر مصوا إلى إفريقية وإلا فهم على مقرنة من مصر يسهل عليهم إدراكها في حالة الهزيمة ، ويبدو من قول ابن عبد الحكم : « وأغارت الروم بعد حسان على أنطابلس وأهل ذمتها في أيدي الروم فهرب إبراهيم بن النصراني ، وخلي أهل أنطابلس وأهل ذمتها في أيدي الروم فرأسوها أربعين ليلة حتى أسرعوا إليها الفساد^(١) » أن زهيراً كان قد خلف على برقة إبراهيم بن النصراني هذا ، وربما كان من قبض مصر كما يبين من اسمه ، وسيورد ابن عبد الحكم ذكره في مناسبة أخرى لمعرفته البلاد ولغة أهلها ، فلما فاجأ الروم برقة ولى هارباً ، وربما كان قول ابن عبد الحكم « وأهل ذمتها » معيناً على فهم مهمة إبراهيم هذا ، إذ كان وسيطاً بين أهل الذمة والمسلمين ، ولم يكن هؤلاء قد تعلموا العربية بعد .

لماذا ارتد زهير عن إفريقية مسرعاً لغير سبب ظاهر بعد انتصاره في مرس ؟ يبدو أن تعليل المراجع^(٢) لذلك بقولها : « إنه رأى بإفريقية ملكاً عظيماً فأبى أن يقيم وقال : إنما قدمت للجهاد وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك ، وكان عابداً زاهداً » تعليل ضعيف ، لأن الزاهد الورع الذي يخاف على نفسه فتنة الدنيا هو الذي يقيم على الثغور ويرابط على باب دار الحرب ، فإذا فضل على ذلك العود إلى العواصم والمدن لم يكن ذلك دليلاً على الورع أو بدافعه بل دليل أمور أخرى وبدافعها . ثم أين هي رفاهة العيش وسعة الملك التي خافها على نفسه فآثر الانصراف عنها

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٢ وقد ذكر اسم حسان خطأ لأنه يقول بعد ذلك : « وبلغ ذلك عبد العزيز بن مهوان ، فأرسل إلى زهير بن قيس ، وكان خرج مع (حسان) ، فلما بلغ مصر أقام بها ، فأمره عبد العزيز بالتهوض إلى الروم ولم يجتمع لزهير من أصحابه إلا سبعون رجلاً . . . » ثم يلي ذلك بقية أحداث غزوة زهير ، والراجع أنه أراد أن يقول عقبة فذكر « حسان » .

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤ — البويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ ب — المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٠ — القيرواني ، المؤنس ، ص ٣٠ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٧ — الباجي ، الخلاصة القية ، ص ٩ — والرواية الواردة هنا هي رواية ابن الأثير والنويري معاً .

زهذا فيهما ؟ لقد كانت إفريقية حتى هذا الزمان دار حرب صرف ، لا أمان فيها ولا سعة في العيش ولا بسطة في السلطان ، وسترى من أعمال خليفته حسان أن هذه البلاد لن تصبح دار استقرار وأمان للعرب إلا بعد عشرين سنة ، وبعد حروب طويلة تكاد تعدل أضعاف ما قام به زهير ، فاهى الأسباب الحقيقية التي اضطرت زهيراً إلى هذا العود السريع ؟ يبدو أن زهيراً اعتبر مهمته انتهت بعد قتل كسيلة وتخليص من بإفريقية من المسلمين ، وقد كان هذا الرجل صديقاً لعقبة مقرباً إليه ، فألمه غدر كسيلة به وقتله إياه ، فغضبه ذلك إلى طلب المسير إلى إفريقية والإلحاح في ذلك ، حتى إذا أمكنته الفرصة بادر بانتهازها وتوجه مسرعاً إلى إفريقية ، فلما وفق إلى إدراك ثأر عقبة رأى أنه بلغ بذلك غايته من المسير إلى إفريقية ، فترك بالقيروان حامية وأمن أهلها وعاد مسرعاً . ويبدو كذلك أن زهيراً لم يكن مطمئناً إلى عبد العزيز بن مروان ، وقد رأينا الجفاء يسود علاقتهما ، فخشى الرجل أن يشي به عبد العزيز عند أخيه عبد الملك ففضل العود السريع . ويبدو كذلك أن الرجل كان مسنّاً حين هم بحملته تلك ، وأنه لم يقدّر بها إلا طلباً لثأر صاحبه عقبة ، فلما فرغ منه عجل بالعود . ذلك قصارى ما يمكن افتراضه لتعليل تلك العودة ، وعلى الرغم من ذلك يبدو أن الأمر لا زال غامضاً يحتاج إلى كثير من الإيضاح .

تتفق المراجع كلها على ما تذكر من الحوادث التي وقعت لزهير ببرقة وانتهت بمقتله ، فيقول المالكى وهو أكثر المؤرخين تفصيلاً في تلك المناسبة : « ولما بلغ الروم أن زهيراً خرج (إلى) برقة أمكنهم ما يريدون ، فخرجوا إليها في سراكب كثيرة وقوة عظيمة ، وأغاروا عليها فسبوا وقتلوا ، فوافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى برقة ، فأخبر بخبرهم فأمر عسكره أن يمضى على الطريق ، وعدل هوفى خيل كثيرة من فرسان أصحابه ، وطمع أن يدرك العدو فيستنقذ منه أسارى

مقتل زهير
ببرقة

المسلمين^(١) . وفي هذه الرواية عبارتان على درجة عظيمة من الأهمية ، أولاهما قوله : « إن زهيراً أمكن الروم الغرض بعوده إلى مصر » مما يفهم منه أن الروم كانوا متربصين له منتظرين فرصة سروره لبيادروها ، وثانيهما قوله : « إنه عدل إلى الساحل في خيف من أصحابه » ، فقد كان أولى به بعد أن سمع بوجود الروم بالساحل أن يسرع نحوهم بكل من معه ليلقاهم ، ولا يعلل ذلك إلا بأن زهيراً لم يكن يتوقع أن يجد الروم في قوة عظيمة أو عدد كبير ، وإنما بلغه أن مراكب رومية ألفت مراسيها بالساحل تخف بنفر يسير من أصحابه ليستطلع أسرهم وليستولى على هذه السفن إذا قدر ، فلما أشرف على الساحل وجد الأمر أعظم مما كان قدر إذ كان الروم في سراكب كثيرة ، ولم يقتصر أسرهم على مجرد النزول بالساحل بل إنهم أسروا من مسلمي المدينة عدداً عظيماً ، فلم يكده هؤلاء الأسرى يرونه حتى استغاثوا به ، فلم يجد بداً من مهاجمة الروم لاستنقاذ من معهم من المسلمين ، ومصدق ذلك قول المالكي بعد ذلك : « فلما وصل إلى الساحل أشرف على الروم فإذا هم خلق عظيم ، فاستغاث ذراري المسلمين وصاحوا والروم يدخلون بهم في المراكب وعسكر الروم في البر ، فنادى زهير في أصحابه أنزلوا رحمكم الله ، فنزل المسلمون وبرز الروم لقتالهم^(٢) » مما يدل على أن الروم كانوا معسكرين في البر على أهبة القتال ، فخافهم من مع زهير وفكروا في العود ، فاستحلفهم زهير ورجاهم في النزول ومبادرة الروم فأجابوا ونشب القتال بين الفريقين .

هكذا كانت خاتمة حياة زهير ، إذ استشهد استشهاده لا يقل روعة ولا جلالاً عن استشهاد عقبة ، فأثار مصرعه نائرة العرب وحفزهم على مواصلة الفتح لإدراك ثأر زهير وأصحابه ، وقد كان لمقتله على يد الروم أثر عظيم في مسير الفتوح ، إذ كان

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٠

(٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٠

زهير قد حسب — بعد قتله كسيلة — أن كل مقاومة للبلاد قد خمدت ، البلاد وأن أصبحت آمنة مطمئنة ، فكان مقتل زهير منبهاً للعرب إلى ما ينجم عن ترك الروم من خطر ، وإلى ما يمكن أن يسببوه للعرب من المتاعب إذا تركوا في مدائن الساحل يستعيدون ما ضاع من قوتهم ويستمدون العون من بيزنطة نفسها . وكما كان مصرع عقبة محمداً لمهمة زهير ، فصرف همه في القضاء على مقاومة برانس البربر ، كان مقتل زهير محمداً لمهمة حسان : فأنفق ما قدر عليه من جهد في القضاء على الروم حتى تمكن من ذلك تماماً .

قضى زهير على مقاومة البرانس فكان هذا القضاء عظيم الأثر في مستقبل الفتوح ، فقد سبقت الإشارة إلى أن بُتِر البربر كانوا إلماً مع العرب أنصاراً لهم ، وأن برانسهم حملوا لواء المقاومة يمدهم الروم بالعون ، فكانت ضربة زهير قاضية على رأس المقاومة وخاتمة لآمال الروم في الاستعانة بأهل البلاد على العرب^(١) ، وبقيت ضربة أخرى توجه إلى بقايا الروم في البلاد ليقال بعدها إن البلاد قد فتحت تماماً .

(١) أما ثورة الكاهنة فلم تكن أكثر من ثورة وقتية لها أسبابها الخاصة ، وسيأتي بيان ذلك .

الباب الثامن

تمام الفتح

- ٢ -

حسان بن النعمان

ودوره في فتح إفريقيا

أثر مقتل
عقبة في سير
الفتوح

كان مقتل عقبة على يد البربر منهاجاً للفاتحين المسلمين إلى ناحية انصرفوا عنها فيما انقضى من المحاولات ، ومبيناً لخلفه زهير بن قيس إلى الخطة التي يتبعها حتى يكون عمله أدنى للغاية وأقوم سبيلاً ، ومن ثم كان عمله عظيم الأهمية من الناحية السياسية لأنه جرى على خطة ثابتة واضحة ، إذ قضى على مقاومة بربر الشمال وهم أقوى عناصر المقاومة ، ولكنه أغفل شأن الروم — وهم عنصر المقاومة الثاني — فلم يحفل لهم لأن ربحهم كانت قد سكنت منذ زمن طويل ، ولم يكن يتوقع أن يستيقظ الروم مرة أخرى ويعودوا إلى محاولة استعادة البلاد ، ففاجأوه هذه المفاجأة التي استشهد فيها ببرقة .

لهذا كان مقتل زهير على يد الروم ببرقة منهاجاً لخلفه إلى العمل على استدراك ما فاتته ، ومبيناً له الخطة التي ينبغي اتباعها حتى يكون عمله خطوة موفقة في إتمام هذا الفتح ، إذ عرف العرب من هذا الحادث أنه لا تمام لفتح هذه البلاد إلا إذا أزيل من ربوعها كل أثر للروم .

ومن الجلي أن حركة المقاومة كانت تختلف ضعفاً وشدة تبعاً لحالة الروم في إفريقية وفي بيزنطة كذلك ، فقد ركزت المقاومة بعد سيطرة ركوندأ طويلاً استمر طوال السنوات التي شغلت فيها الدولة البيزنطية بصراع العرب في المشرق . فلما خفت حدة هذا الصراع وتنفست الإمبراطورية الصعداء بعد سنة ٥٥٠ هـ ، تنفس الروم في إفريقية وسرى النشاط إليهم ، ومن ثم نشطت المقاومة نشاطاً لوحظ أثره في المقاومة العنيفة التي لقيها عقبة في مسيره ، وفي هذا التدبير الذي انتهى بموته . وأعقب ذلك محاولة صريحة من الدولة لاستعادة إفريقية ، فأقلع من بيزنطة الأسطول الذي لقي زهيراً في برقة ففضى عليه ، فكان معنى ذلك انتصارهم عليه وعودهم إلى ما كانوا عليه من النشاط في البلاد ، ومن هنا كان على الفاتح الجديد أن يتوجه بهمة نحو الروم ، فإما قضى عليهم فيكون ذلك حداً فاصلاً بين إفريقية

البيزنطية وإفريقية الإسلامية ، وإما غلبوه ومحو الآثار التي تخلفت عن حملات معاوية وعقبة ودينار وزهير وعادت البلاد سيرتها الأولى قبل سيطرة .
 وكان مقتل زهير بعد عقبة عظيم الأثر في موقف الخلافة من إفريقية ، فقد حفزها إلى إتمام فتحها حفاظاً لهيبة الدولة الإسلامية أن تهبط في أعين الروم ، فلو وقف المسلمون بالفتوح قبل مقتل هذين القائدين الكبيرين لما نتج من ذلك كبير ضرر ، أما وقد هزمت جيوش الإسلام وقتل قوادها على يد الروم ، فلا بد من العمل على إزالة أثر هاتين الهزيمتين وتلافى ما يكون قد نجم عنهما من مساس بسعة الجيوش الإسلامية ، وهذا هو سر الاهتمام العظيم الذي سيبيده عبد الملك ابن مروان بأمر إفريقية ، وتعجيله بإرسال الجيوش إليها على الرغم من كثرة مشاغله ووثوب الشيعة في العراق في تلك السنوات .

— ١ —

عود النشاط
 للروم
 وأسباب
 ذلك

تتفق المراجع اليونانية على القول بأن انتصار الروم في برقة أعقبه اهتمام عظيم من جانب الدولة بأمر إفريقية ، فيؤكد ديل (عن صاحب الكتاب البابوي) أن إفريقية عادت إلى طاعة الدولة حوالي سنة ٦٨٥ م (٦٦ هـ)^(١) ، ولم يحدد المصدر البيزنطى تاريخاً لتلك العودة ، ولكن ديل جعلها سنة ٦٨٥ م ، وهو تاريخ لا يتفق كثيراً مع ما سبق تفصيله من أحداث إفريقية ، إذ في ذلك الحين كانت حركة كسيلة في عنفوانها ، فالأصح جعلها بعد مقتله أى بعد سنة ٦٩٠ م (٧١ هـ) وبهذا يكون الترتيب منطقياً . انتصر الروم في برقة سنة ٦٩٠ م فكان ذلك كافياً ليحكم المؤرخ البيزنطى بمقتضاه بأن إفريقية عادت إلى طاعة الدولة وسلطانها ، وقد أيد ديل ذلك بقوله : « يبدو أن البيزنطيين أفادوا من الاضطرابات

Diehl. op. cit. p. 581. (١)

التي أعقبت مقتل عقبة وانتقاض البربر لكي يعيدوا الولاية الداخلية إلى سلطانهم بشكل أقوى» .

تؤيد الحوادث التالية رأى المؤرخين البيزنطيين ، ويعرزه ما يعرف من أن جستنيان الثاني إمبراطور الدولة إذ ذاك كان قد استبان اشتغال عبد الملك بن مروان بالخارجين عليه ، فبادر بالاستفادة من تلك الفرصة وهدد بالهجوم على تخوم الدولة الإسلامية في المشرق سنة ٥٧٠ هـ ، ولم يرجع إلا بعد أن صالحه عبد الملك على جزية يؤديها إليه كل عام ، وربما فكر جستنيان في انتهاز هذه الفرصة والمبادرة بإرسال جيش يستعيد إفريقية فمضى في إعداد ذلك ، ولكن المنية عاجلته ، فكان إنفاذ هذا المشروع من نصيب خلفه ليونس الذي استهل به حكمه سنة ٦٩٥ م (٥٧٩ هـ) .

وصاحب هذا التغيير في موقف الدولة تغييرٌ يناسبه ويؤيده في موقف روم إفريقية من البربر ، إذ لم تكن تتوارد عليهم الأخبار بعودة الدولة إلى التفكير في أمرهم وإجابتها مطالبهم — بإرسالها إليهم السفن التي لقيت زهيراً في برقة — حتى وجدوا أنفسهم في غير حاجة إلى عون البربر أو الاتحاد معهم ، ومن ثم أخذت عرى الحلف البربري الرومي تنحل شيئاً فشيئاً ، وقد استبان ذلك حسان ففكر من بادية الأمر في القضاء على كل من الفريقين على حدة .

أثر ذلك في
روم إفريقية

وربما كان قول جوتييه في معرض الكلام على الكاهنة : « كان للروم إذ ذاك الحاميات المتفرقة في الحصون المستعصية على الجيش العربي ، وكانت الأسباب موصولة بين قرطاجنة وبيزنطة ، وكانت المدائن بيزنطية ما تزال — في الواقع الملموس أو المفهوم — وكانت بيزنطة توالى البربر بالمال والجند والرأى ، فوجد العرب حينذاك حلفاء يضم المغرب جميعه : روما وبربراً ، بدواً وحضراً ، وكانت مهمة حسان هي محاولة تحطيم هذا التحالف بالاستيلاء على قرطاجنة ، ولكنه لم يوفق إلى النتيجة المرجوة من ذلك ، لأنه هزم تماماً بعد ذلك بقليل

واضططر إلى إخلاء إفريقية^(١) « موضحاً لحال الروم يوم دخل حسان البلاد ،
ومبيناً الخطة التي كان عليه أن يسير عليها .

— ٢ —

متى سار
حسان ؟

بين المؤرخين اختلاف على تاريخ حملة حسان ، فيذكر ابن عبد الحكم
أنه سار سنة ٧٣ هـ وأنه انتهى من حملته سنة ٧٦ هـ ، ثم عاد فروى عن الليث بن سعد
أن الانتهاء من الحملتين كان سنة ٧٨ هـ^(٢) ، وذكر ابن الأثير سنة ٧٤ هـ^(٣) ، وأيده
ابن خلدون^(٤) في ذلك ، وحدد ابن عذارى سنة ٧٨ هـ^(٥) ، وتردد القيرواني بين
سنوات ٧٦ و ٧٧ و ٧٩ هـ^(٦) ولم يحدد إحداها ، وذكر الباجي سنة ٧٩ هـ^(٧) . فإعلة
هذا التباين الشديد ؟ ربما جاز تعليل ذلك بأن حسان قام بحملتين لاحدة واحدة ،
فتح في الأولى قرطاجنة ثم اتجه نحو الكاهنة فانهزم ، وانهج في الثانية نحو الكاهنة
ثم فتح قرطاجنة مرة أخرى ، فاختلط الأمر على المؤرخين لتشابه أعمال الرجل
في كليتهما ، وترددوا بين كل السنوات التي انقضت بين مسيره الأول ومسيره
الثاني ، ويبدو إلى ذلك كما سيري أن ابن عبد الملك أعد حملة حسان ثم أبقاها
في مصر فترة من الزمن نظراً لما كان يحيط به من أحداث في المشرق ، حتى إذا اطمأن
على مركزه أذن لحسان في المسير فصار ، فوقع في ظن المؤرخين أن حسان أفضى
إلى إفريقية منذ أمره عبد الملك على الجيش وأعدده للمسير .

فإذا كان عبد الملك قد فعل ذلك فيغلب أنه شرع في التفكير في أمر إفريقية جدياً
بعد فراغه من ابن الزبير في جمادى الآخرة سنة ٧١ هـ ، ويستبعد أن يكون قد أعد
جيش إفريقية بعد ذلك بسنتين أو ثلاث سنوات فقط أي سنة ٧٣ هـ ، لأنه كان محاطاً

(١) Gautier, op. cit. p. 248 (٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٠ — ٢٠٢

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١١٣ (٤) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٧

(٥) البيان المغرب ، ابن عذارى ، ص ٢٤ (٦) القيرواني ، كتاب المؤنس ، ص ٣١

(٧) الباجي ، الخلاصة النقية ، ص ١٠

إذ ذاك بالخارجين عليه والواثين به من طوائف الشيعة وغيرهم ، وإنما يغلب أن الحملة سارت سنة ٧٦ هـ أو سنة ٧٨ هـ لأن عبد الملك ما كان ليستغنى عن أربعين ألفاً من جنوده إلا بعد خمود الفتن واستقرار الأحوال ، ولم يكن ذلك إلا بعد سنة ٨٧٥ هـ . يتفق المؤرخان البيزنطيان تيوفانيس ونقفور^(١) على القول بأن حسان هاجم قرطاجنة هجومه الأول سنة ٦٩٥ م أي سنة ٧٦ هـ ، أي أنهما يؤيدان رأي القيرواني ، وقد وافق كودل على ذلك بعد تردد كثير^(٢) إذ قال : « إنه يرجح هذه السنة مع إضافة شكوكه إلى شكوك فورنل وأماري ودبل^(٣) » . وليس هناك ما يمنع قبول رأيه هذا وتحديد سنة ٧٦ هـ لهذه الحملة .

— ٣ —

لم يرد لحسان بن النعمان ذكر في فتوح إفريقية قبل ذلك ، و« كان أول أمير شامي يدخل إفريقية أيام الأمويين^(٤) » كما يقول المالكي . ويبدو أنه كان من رجال بنى أمية المقرين الموثوق فيهم ، لأن الباسجي والساوي يذكران أنه كان يلتقب بالشيخ الأمين^(٥) ، وسيتضح من أعماله وخططه أنه كان على شيء كبير من القدرة السياسية والمهارة الحربية وبعد النظر ، مما يدل على أن ذلك لم يكن أول عهده بالإمارة والقيادة ، وعلى أن عبد الملك تخيره بالذات لإتمام هذا الفتح الذي انقضت إلى الآن خمسون سنة ونيف دون أن ينتهي إلى نتيجة حاسمة .

اهتم عبد الملك اهتماماً عظيماً بأمر الجيش الذاهب إلى إفريقية ، فلما قتل ابن الزبير

اهتمام
عبد الملك
بحملة حسان

(١) Theophanes, op. cit. p. 370. — Neciphore, op. cit. p. 39. — Diehl, op. cit. p. 583.

(٢) Caudel, op. cit. p. 159.

(٣) اختار فورنل سنة ٧٧ هـ أي وقف مؤقتاً وسطاً بين سنة ٧٦ هـ وسنة ٧٨ هـ وتردد أماري بين سنة ٧٤ هـ وسنة ٧٥ هـ معتداً على ابن الأثير ، وقبل دبل سنة ٧٣ هـ نقلا عن ابن عبد الحكم ، وفي عباراتهم جميعاً ترجيح لا قطع .

(٤) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١١

(٥) الباسجي ، الخلاصة النقية ، ص ١٠ — السلاوي ، كتاب الاستقصاء ، ص ٤٢

واجتمع المسلمون عليه جهز جيشاً كثيراً واستعمل على إفريقية حسان بن النعمان
 الفسائي ، وسيرهم إليها في هذه السنة (٧٤هـ) فلم يدخل إفريقية قط جيش مثله ^(١) .
 ولم يبلغ ابن الأثير فيما ذكر ، لأن عدة الجيش كانت أربعين ألفاً ^(٢) ، ويبدو
 أن عبد الملك تردد قبل أن يبعث بهذا العدد الكبير من الجند إلى إفريقية ،
 لأنه كان محاطاً بالمصاعب والأعداء الذين كانوا يهددون بالوثوب به بين ساعة
 وأخرى ، « فأمر حسان بن النعمان بالمقام في مصر في عسكر عدته أربعون ألفاً
 وتركه عدة لما يحدث ، فكتب إليه بالهوض إلى إفريقية ويقول : إنى أطلقت
 يدك في أموال مصر فاعط من معك ومن ورد عليك من الناس واخرج على جهاد
 إفريقية على بركة الله ^(٣) » . ولا نعلم متى أمر حسان بالمقام في مصر ولا متى شخص
 إلى إفريقية ، ولكن الظاهر أن حسان لم ينفق هذه الفترة التي قضاها في مصر
 سدى ، وإنما جعل يعد جنده لهذا الفتح ، لأن القيرواني يذكر أن عبد الملك
 أطلق يده في أموال مصر يعطى منها ما شاء لمن يرد عليه من الناس ^(٤) .

سار حسان إلى إفريقية مسرعاً ، فاجتاز برقة وطرابلس دون أن يلقي مقاومة
 حتى أفضى إلى سهل تونس ، ولا نزاع في أنه كان قد رسم لنفسه خطة العمل قبل
 مسيره ، لأنه سيجتبه إلى قرطاجنة رأساً للقضاء على الروم وسيلج في ذلك إلحاحاً
 شديداً حتى يتم له ما يريد ، ويذكر ابن عبد الحكم رواية يفهم منها أنه وجد
 بطرابلس نفراً من المسلمين — ما بين عرب وبربر — فأخذهم معه إذ يقول :
 « ثم قدم حسان بن النعمان والياً على المغرب ، أمره عليها عبد الملك بن مروان
 في سنة ٧٣هـ ، ففضى في جيش كبير حتى نزل طرابلس ، واجتمع إليه بها من كان

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١١٣

(٢) يتفق ابن عذاري والنويري والقيرواني والبايجي والسلاوي على ذلك ، وينفرد المالكي
 بالقول بأن عدة الجيش كانت ستة آلاف وهو ظاهر الخطأ .

(٣) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٤ (٤) القيرواني ، المؤنس ، ص ٣١

خرج من إفريقية وطرابلس ، فوجه على مقدمته محمد بن أبي بكير وهلال بن شروان (في بعض النسخ مالك بن مروان وفي بعضها الآخر ابن تومان) وزهير بن قيس^(١) . ولم يرد لهلال اللواتي هذا ذكر في غير ابن عبد الحكم ، ولم يوضح لنا هذا الأخير حقيقة أمره ، ولكن ذكره هنا عظيم الأهمية فهو يدل على أحد أسرين : إما أن هلالا هذا أسلم وانضم للعرب ، وإما أنه ناصرهم وأخذ جانبهم فوثقوا فيه ، وأقاموه في مقام كبير من جيشهم ، ويفهم منه في كلتا الحالتين أن المسلمين كسبوا لأنفسهم أنصاراً من أهل البلاد ، يدلونهم في مسيرهم وينصرونهم ويقاتلون معهم جنباً إلى جنب ، وهذا أمر عظيم الأهمية لهذا الفتح ، وكونه لواتياً يعزز الرأي الذي سبق بيانه من أن جل أنصار العرب في البلاد كانوا من البربر الجنوبيين البدو ، وقد سبقت إلى ذلك إشارات طفيفة ، ولكن عبارة ابن عبد الحكم هذه صريحة لا تحتمل إلا تأويلاً واحداً ، وهو أن نفرأ من لواتة دخل في الإسلام أو حارب في صفوف العرب ودخل في خدمتهم ، إذ لا نزاع في أن العرب كسبوا منها أنصاراً كثيرين غير هلال هذا .

وصل حسان إلى القيروان ودخلها وأقام فيها آمناً السرب لا يهدده أحد ، وهذا نهض دليلاً على بطلان دعوى « ديل » أن الروم استعادوا الولاية الداخلية كلها بعد انتصارهم في برقة ، فلو قد صدق في ذلك لوجد حسان للروم أثراً في مسيره في هذه الولاية التي دخلها بعد عبوره بقابس ؛ بيد أن قول النويري إن حسان سأل عن أعظم ملك بقي بإفريقية فقيل له صاحب قرطاجنة^(٢) ، يدل على أن الموقف السياسي تغير في البلاد بعد مقتل كسيلة ورحيل العرب ، فانتقلت الزعامة من البربر إلى الروم ، وأن قرطاجنة نهضت مرة أخرى واشتد ساعدها وأقام فيها حاكم

وصول
حسان
إلى القيروان

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٠

(٢) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٤ أ

سرهوب الجانب من أهل البلاد ، فيعتفون بأنه أعظم ملك بقي بإفريقية . ولا يبعد أن تكون الدولة البيزنطية قد عينت في إفريقية بطريقاً جديداً يقوم بشئونها بعد إذ تركها العرب وعادت سيرتها الأولى .

والغالب أن الروم لم يكونوا يتوقعون مسير العرب إليهم بهذه السرعة ، ففوجئوا بجيش حسان قبل أن يتخذوا الأهبة لرده ، وعرف حسان أهمية التعجيل بالعمل فلم يبطئ ، بل جمع جنده ومضى إلى الشمال ، على أن الغالب أن عودته ومسيره نحو قرطاجنة أقلق الروم ونفراً من البربر فتسارعوا نحو هذا البلد ، ويقول ابن الأثير : « فلما ورد القيروان تجهز منها وسار إلى قرطاجنة وكان صاحبها أعظم ملوك إفريقية ، ولم يكن المسلمون قط حاربوها (كذا) فلما وصل إليها رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة ، فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيراً ، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب ، فركبوا سراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ، ودخلها حسان بالسيف فسي ونهب ^(١) » مما يدل على أن وقوف حسان بقرطاجنة لم يطل ، وأنه لم يكذب ينازل الروم بظاهرها حتى طلبوا النجاة ، فأسلموا المدينة وفروا في سفنهم وبهذا سقطت قرطاجنة بدون عناء كبير ^(٢) .

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١١٣

(٢) روى البكري أن : « حسان بن النعمان سار إلى أوطنة فقاتل الروم بفحص تونس ، فسأله الروم أن لا يدخل عليهم وأن يضع الخراج عليهم ويقوموا له بما يحمله وأصحابه ، فأجابهم إلى ذلك ، وكانت لهم سفن معدة من ناحية الباب الذي يقال له باب النساء ، فاحتلوا فيها أهلهم وأموالهم وهربوا ليلاً وأسلموا المدينة ، فدخلها حسان فخرق وخرّب وبنى فيها مسجداً وبقي هناك طائفة من المسلمين » وهذا كلام غير مفهوم ، لأن تونس لم تكن قامت حتى الآن ، ولم تكن القرية التي أقيمت عليها واقعة على البحر حتى يقلع الروم منها في سفنهم ، مما يدل على أن هذا القتال لم يقع في تونس بل في مدينة أخرى ، ثم يعقب ذلك بذكر حادث جرى لحسان مع صاحب قرطاجنة في تلك الحملة ، مما يؤكد أن البكري أراد بقوله هذا حملة حسان على قرطاجنة ، فإذا صحت ذلك كان دليلاً على أن قرطاجنة كان فيها بطريق إذ ذاك يقال له صرناق ، وأن أهلها فوجئوا بحسان فلم يجنّوا بدا من الفرار ليعودوا مع مدد قوى كما يرى ، وهذا =

لم يلبث حساز أن انصرف عن قرطاجنة عائداً إلى القيروان ، وكان أهلها الذين هربوا منها قد تفرقوا فيما يحيط بها من النواحي طلباً للنجاة . فلما وجدوه يبرحها على عجل عادوا إليها مسرعين للاعتصام فيها . وكان الخوف من العرب قد بلغ منهم مبلغاً عظيماً ، فأسرعوا يحصنون المدينة ويصاحون أسوارها ، فتسامع حسان بذلك فأهمه ، وعرف أن لهذا الأمر معناه ، فعاد بمن معه مرة أخرى إلى قرطاجنة « ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف ، فقتلهم قتيلاً ذريعاً وسباهم ونهبهم ، وأرسل لمن حوالها فاجتمعوا إليها مسارعين خوفاً من عظيم سطوته وشدة بأسه ، فلما أتوه ولم يبق منهم أحد أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدمها فخرّبوها حتى صارت كأس الغابر »^(١) ويبدو أن ابن عذارى بالغ في وصف ما فعل حسان بقرطاجنة ، لأن الأحداث المقبلة تدل على أن المسلمين لم يخرّبوها تماماً ، وإنما بقيت على درجة كبيرة من المنعة ، حتى أن الروم سيتحصنون بها مرة أخرى بعد ذلك بسنوات ، وهذا ما يفهم من قول النويري : « فهدم المسلمون ما أمكنهم منها »^(٢) . تنبه حسان بعد ذلك الحادث إلى أن الروم لا زالوا على شيء من القوة والكثرة في نواحي كثيرة مما يحيط بقرطاجنة ، وأنه لا زالت لهم مدائن وحصون يحتمون بها بعد إذ انقطع رجاؤهم من قرطاجنة نفسها ، أي أن المقاطعة القنصلية كانت عاصمة الجوانب بهم ما تزال ، ولهذا لم يعجل بالعود إلى القيروان وإنما أعد العدة لضربة أخرى ينزلها بالروم .

عودته
للى قرطاجنة

يقول ابن الأثير : « ثم بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له في صطّفورَة وبنزيرت وهما مدينتان ، فسار إليهم وقتلهم واتى منهم شدة وقوة ، فصر لهم المسلمون = يدل على أن فتح المدينة لم يكن إلا مجرد محاولة كما يفهم من قول ابن عبد الحسك : « وخرج إلى مدينة قرطاجنة وفيها الروم فلم يصب فيها إلا قليلاً من صنائعهم فانصرف » — وقد نقل ابن الباجي رواية البكري حرفياً .

ابن عبد الحسك ، فتوح ، ص ٢٠٠ . البكري وصف إفريقية ، ص ٢٧
(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٢٠ (٢) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٤ ب

فانهزمت الروم وكثر القتل فيهم واستولوا على بلادهم ، ولم يترك حسان موضعاً من بلادهم إلا ووطئه ، وخافه أهل إفريقية خوفاً شديداً ، ولجأ المنهمزمون من الروم إلى مدينة باجة فتحصنوا بها ، وتحصن البربر بمدينة بونة ، فعاد حسان إلى القيروان ، لأن الجراح قد كثرت في أصحابه فأقام بها حتى صحوا^(١) » وقد نقل النويرى هذه الرواية عنه ، وأوردها ابن خلدون وابن عذارى باختلاف قليل في الألفاظ^(٢) مما يؤيد صدقها ويؤكد أن حسان أعقب حملته على قرطاجنة بسير إلى الشمال حيث لقي جموعاً من الروم اعتصمت في هذا الجزء البحرى للهروب في السفن في الغالب ، ويبدو من افتراق الروم عن البربر واتجاه كل منهما ناحية أن الفزع والجهن معاً استوليا عليهم فلم يعودوا يطلبون إلا النجاة .

بهذه الضربات الثلاث اطمأن حسان إلى أنه قضى على الروم القضاء الذى لن تقوم لهم بعده قائمة ، ويبدو أن طول القتال قد نال من أصحابه وأصاب منهم كثيراً ، فمال إلى العودة إلى القيروان ليريحهم بعد ذلك العناء الطويل ، فانصرف عائداً إلى القيروان غير عالم بأنه مادام روم إفريقية^(٣) محتلين بعض مدائن الساحل مستطيعين الاتصال ببلاد الدولة لطلب المدد والعون فلا قضاء عليهم .

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١١٣ . وسطفورة إقليم بحرى وصفه ابن حوقل بأنه إقليم بحرى فسيح ، يضم ثلاث مدن قريبة جداً من تونس وهى : أنبلونة وباجة وبنزرت ، أما الإدريسي فيذكر ثلاثة المدن هكذا : أشالونة وشنجة وبنزرت وكلا الوصفين غير دقيق ، وربما صح القول جلة بأن إقليم سطفورة هو شبه الجزيرة الواقع شمالي تونس الذى تقع فيه بنزرت ، وقد ذكرها ياقوت سطفورة ، وابن الأثير اصطفورة ، وقد اعترض فورنل على ذكر باجة في هذا الموضع حاسماً أن المراد بها بجاية .

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٤ ب — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٧ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٠

(٣) أخطأ المالكي فذكر أن حسان أنشأ دار الصناعة في تونس في هجومه هذا على قرطاجنة لأن ذلك تم في حملته الثانية التى سيأتى ذكرها ، وقد وافقه كودل في ذلك على عادته — المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ١١

عاد حسان إلى القيروان ليربح أصحابه مما أصابهم في حملة قرطاجنة ، وأغلب الظن أن أخبار الكاهنة لم تكن قد وصلت إلى أسماعه قبل ذلك العود ، لأن المراجع تذكر أنه عرف أخبارها وسأل عنها بعد عوده إلى القيروان ، فيذكر ابن الأثير أنه قال : « دلوني على أعظم من بقى من ملوك إفريقية ؟ فدلوه على امرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة^(١) » ويؤيده في ذلك مؤرخون كثيرون .

نورة
الكاهنة

يختلف الناس في شأن الكاهنة اختلافاً بيناً ، بل يميل بعضهم إلى إنكارها أصلاً معتمداً على ما يشوب أخبارها كلها من المسحة الأسطورية ، ومن هؤلاء ليو الذي يزعم أن هذه الكاهنة ما هي إلا البطريق يوحنا نفسه^(٢) ، مؤكداً أن ذلك الرأي قال به نفر من أوثق العلماء ذكر في مقدمتهم أوتر Otter ، وهذا مذهب لا يقل خيالا أو خطأ عن روايات المؤرخين المسلمين الذين سخرهم منهم ، فعلاوة على ما سيتضح بعد قليل من أن البطريق يوحنا وحملته مذكوران في الكتب العربية بوضوح إلى جانب قصة الكاهنة ، فقد أكد فورنل أن ليو اختلق على أوتر ذلك القول ، إذ لم يقل الرجل منه شيئاً .

من هي
الكاهنة ؟

تجتمع الآراء كلها على وجود الكاهنة وعلى ذكر الدور العظيم الذي قامت به أثناء فتوح إفريقية ، ولكن شخصيتها وحقيقة أمرها لازالت غامضة في حاجة إلى كثير من التوضيح والتفصيل .

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١٤٣

(٢) قال ليو : « أحاط العرب — الذين يفرمون بفريب الحديث غراماً شديداً — قصة هزم الثورة بمجو من الخيال ، فيذهبون كما تزعم رواياتهم إلى أنه كانت هناك ملكة للبربر تسمى الكاهنة تمكنت من هزيمة العرب أول الأمر ، وهذه الكاهنة — كما استبان لنفر من أوثق العلماء — ليست إلا البطريق يوحنا نفسه ؛ أظهره المؤرخون في شكل امرأة لأنه كان خصياً » وقد ذكر أنه أخذ ذلك الرأي عن أوتر ولكن فورنل أكد أن أوتر لم يقل ذلك .

يذكر السلاوي رواية عن هانيء بن نكور الضريسى : « أن الكاهنة كان لها ثلاثة أبناء ورثوا رئاسة قومهم عن أبيهم » ويبدو أنهم كانوا صغاراً ، « فاستبدت بهم وصارت رئاسة قبيلة جراوة لها » ثم يذكر أنها ملكت البربر خمسا وثلاثين سنة وأن انتقاضها على حسان لم يكن أول عهدا بكفاح العرب ، وإنما كان لها ضلع فى مقتل عقبة إذ أغرت به بربرة الزاب فقتلوه ، وأن زعامة البربر صارت إليها بعد مقتل كسيلة ، إذ اجتمعوا إليها ونصرها منهم نفر غفير فيهم : « بنو يفرن ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البستر^(١) » ويذكر ابن عذارى أنه : « كان لها ابنان : أحدهما بربرى والآخر يونانى^(٢) » وهاتان هما الروايتان الوحيدتان اللتان تعطياننا فكرة واضحة بعض الشيء عن حقيقة هذه المرأة وأصلها .

كانت الكاهنة إذن فى أول أمرها زوجا لرئيس من رؤساء قبيلة جراوة ، وجراوة إحدى قبائل البتر الحضر المقيمين فى الأوراس ، وفيهم من رواية ابن عذارى أن جراوة كانت على صلة بالروم وثيقة بعض الشيء فى هذه الأيام ، صلة تسمح بالمصاهرة والنسب ، ثم توفى عنها زوجها وخلف لها ابنين أوصى لها برئاسة القبيلة من بعده ، والظاهر أنها كانت مسموعة الكلمة فى قومها ، مهيبة الجانب بين ذويها ، فاستطاعت أن تحفظ الأمر لابنيها القاصرين ، ويستبعد أن تكون استأثرت بالأمر من دونهما أو استبدت بهما كما يذكر السلاوي ، لأن الحوادث التالية تدل على أنها كانت شديدة الحب لها ، لا تتردد عن تضحية نفسها فى سبيلهما .

أما علاقة الكاهنة بكسيلة وقومه وثورته فغير واضحة ، ويبدو أنها غير صحيحة ،

(١) السلاوي ، الاستقصاء ، ص ٤٢ — ٤٣

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢١

بل يغلب أن القول بأن الكاهنة قادت ثورة البربر بعد كسيلة ضعيف لا تؤيده الحوادث ولا المعروف عن البلاد وأهلها ونظام قبائلها ، والحقيقة أن لا صلة بين كسيلة والكاهنة ولم تكن بين الاثنين علاقة ما .

ثورة كسيلة هي مقاومة البرانس المستقرين يمزجهم الروم وينصرونهم لأنهم نصارى أو آخذون بأسباب الحضارة البيزنطية ، ودفاعهم كان عن النواحي العامة الفسيحة التي كان هؤلاء البرانس الحضر يعمرونها ويفلحون أرضها ويرسلون سوانهم في مراعيها وسفوحها ، وهي ثورة مدبرة مرسومة الخطة فيها معنى الانتقام لما أصاب كسيلة من المهانة على يد عقبة .

أما ثورة الكاهنة فتورة قبيلة يهودية احتفظت ببقايا من الحضارة القديمة ، وطال عهدها بالاستقلال لضعف الحكام البيزنطيين وعجزهم من إخضاع البتر في الصحراء والهضاب ، والراجح أن هذه المرأة لم ترفع راية العصيان إلا حين تسامعت بمسير حسان إليها ، وأنها كانت مطمئنة في نواحيها ترقب مصير كسيلة ثم مصير الروم على يد حسان ، فلما رأت حسان ينوى المسير نحوها أخذت تستعد للقائه وردده عن بلادها ، ويقلب أنها ما كانت لتثور أو تنتفض لولا مسير حسان نحوها وتهديده ببلادها ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنها كانت شديدة الحب لابنيها عظيمة الحرص على أن تستبق لهما الملك الذي خلفه لهما أبوهما ، عرفنا أن مسير حسان نحوها أفزعها على مصيرها ، ودليل هذا أنها مالت إلى التسليم حين اطمأنت على مصير ولديها عند حسان ، وأن القبيلة كلها بدأت تدخل الإسلام وتأخذ جانب العرب عقب مقتل الكاهنة مباشرة .

حقيقة ثورة
الكاهنة

أما رفض قصة الكاهنة والشك في أمرها لمجرد أنها امرأة فحجة ضعيفة ، يؤكد بطلانها أن المرأة لا تكاد تقل مقاماً أو احتراماً عن الرجل عند كثير من قبائل البربر ، بل من النساء البربريات صالحات يقمن إلى اليوم مقام الأولياء الرجال ،

يعكهن ويستشيرهن الناس ويحجون بالزيارة والدعاء إلى أضرحتهن^(١)، بيد أن ذلك لا يمنع من القول أن المؤرخين بالغوا في وصف سلطان الكاهنة بمبالغة غير محمودة، يقول ابن عذارى: « فدلوه على امرأة بجبال أوراس يقال لها الكاهنة وجميع من بإفريقية من الروم منها خائفون وجميع البربر لها مطيعون.... فإن قتلها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ولا معاند »،^(٢) يوم بأن سلطان هذه المرأة كان يشمل المغرب كله وأنها كانت مرهوبة الجانب في كافة أنحاء البلاد، وليس هناك دليل واحد يؤيد ذلك، ولعل أقرب أقوال هؤلاء المؤرخين إلى الصحة هو قول ابن خلدون يصف حال البربر بعد استشهاد زهير: « واضطربت إفريقية نارا وانترق البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم، وكان من أعظمهم شأنًا يومئذ الكاهنة داهيا بنت ماتي بن تيفان ملكة جبل أوراس، وقومها من جراوة ملوك البتر وزعمائهم »^(٣). فهذا تصوير صحيح يضع الأمور في نصابها ويجعل الكاهنة زعيمة على جراوة فقط.

(١) راجع: Fournel, op. cit. I. p. 217، وقد ذكر الدكتور إدوارد وسترمارك هؤلاء الصالحات كثيرات الوجود بمراكش، وأن هذه البلاد تنفرد بذلك عن عامة بلاد المسلمين، وأكد أن مسلمي مراكش استبقوا ذلك من أيام وثنياتهم الأولى. وذكر ليفير امرأة شديدة الشبه بالكاهنة كانت لها شبه زعامة على بعض البربر الذين كانوا يناوئون الفرنسيين واسمها لالا فاطمة Lalla Fatma أنظر: E. Westermarck, Ritual and belief in Morocco, vol. I, p. 51
Enc. de l'islam : Kahina (G. Yver).

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١، ص ٢٠

(٣) ابن خلدون، ج ٦، ص ١٠٩. ولا يستطيع تحقيق هذا الاسم الذي أطلقه ابن خلدون على الكاهنة، وقد حرفة غيره فجعله دامية، وظاهر أن « الكاهنة » لقب أطلقه العرب عليها لا اسم علم، ولكن جوتييه حاول أن يثبت أنه اسم علم أصله فينيقي، لأن كلمة « كاهنة » عبرية لا عربية، وأنها مؤنث كوهين، وذلك رأى غير مستقيم أساسه عبث بالألفاظ، وقد علل ابن الأثير سبب إطلاقه عليها بقوله: « وكانت تخبرهم بشيء من الغيب فسميت الكاهنة »
Gautier, op. cit p 245. — ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٤، ص ١٤٣.

بيد أن المؤلفين الفرنسيين يرون في الكاهنة رأياً آخر ، ويفسرون حركتها
تفاسير تذهب بالقارىء مذاهب لا تنقل خطأ عن آراء من اتبع الخيال من العرب ،
فهم يرون فيها زعيمة للجنس البربرى منافخة عن استقلاله أمام العرب الفاصيين
المعتدين ، حتى كودل وجوتيه على الرغم من اعتدالهما وإنصافهما (في أكثر الأحيان)
فأنهما رأيا في الحركة لونا من الوطنية ، بل أكد كودل أن الكاهنة أثارت
في البلاد روحاً وطنياً^(١) ، وبهذا أصبح هذا الحادث العادى مشكلة من
مشاكل التاريخ البربرى ، لا يكاد الفكر يستقر فيه على رأى بين خيال الرواة.
ودعاوى الفرنسيين .

أغلب الظن أن الكاهنة كانت تتوقع مسير العرب إليها ، لأنها لم تكذب تتسامح
بمسير حسان إليها حتى رحلت من الجبل في عدد « لا يحصى ولا يدرك بالاستقصا »
كما يقول ابن عذارى^(٢) ، فلو لم تكن تتوقع مسيره لما سهل عليها جمع هذا العدد
العظيم والانتقال بهم إلى الجبل بسرعة ، وحطت رحالها عند بآغاية وهى مدينة
حصينة على سفح الأوراس تقوم من الجبال مقام الباب من الدار ، وقد أرادت

خوف
الكاهنة
من مسير
حسان

(١) من ذلك قول مرسيه يعلق على انتصار الكاهنة على حسان ومعامتها لأسرى المسلمين :
« وهكذا ضرب البربر المتوحشون — للمرة الثانية — مثلاً في الإنسانية لهؤلاء الذين لم يكونوا
يتخذون أساليب أخرى غير العنف والقتل » ثم قال مرة أخرى في معرض الكلام عن تخريب
الكاهنة لإفريقية : « كانت هذه تضحية وطنية ، وقد أقدم عليها الوطنيون أكثر من مرة
إذ يفضلون خراب بلادهم على الاستعباد » أما فورنل نصير البربر الذى ألف كتابه ليظهر أنهم
أشرف من العرب وأفضل ، وأنهم أصحاب البلاد والعرب دخلاء فقد حرص أثناء كلامه على
أن لا يكف مندداً بالعرب ساخراً منهم كقوله عن الكاهنة : « والمرأة عند البربر مخلوق محترم
وليس كما هى عند العرب مخلوقاً محترماً مهاناً » وهكذا . ويؤكد كودل أن الكاهنة أثارت
في البلاد روحاً وطنياً وحفزت القوم إلى الاستعداد للقاء العرب ، وستأتى مناقشة آراء جوتيه
لأنها على جانب كبير من الأهمية في توضيح الحالة السياسية للبلاد .

Mercier, op. cit. I, pp. 214-215 . Fournel, op. cit. I, pp. 217-219 .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٠ ، وقد ذكر مرسيه أن الكاهنة كانت — أثناء
اشتغال حسان بالحملة على قرطاجنة — تثير القبائل وتحمسها لقتال العرب ، وليس هناك
ما يؤيد ذلك وإن كان ممكن التصديق . Mercier, op. cit. vol. I. p. 211 .

الكاهنة بذلك أن تكون على مقربة من مواطن جراوة الأصلية في الأوراس ، لكي تستمد منها العون أو تطلب النجاة فيها إذا دارت الدائرة عليها ، ولم يكد المقام يستقر بها هناك حتى خشيت أن يتحصن العرب في باغاية ، فيحتلوا ذلك المحرس الهام الذي يشرف على مدخل الأوراس ، فأمرت بهدمها فهدمت وهذا العمل يدل دلالة واضحة على أن الكاهنة كانت تحارب منفردة بدون عون من الروم ، ولو كان هؤلاء إلى جانبها كما كانوا إلى جانب البربر أثناء حملة عقبة وثورة كسيلة لنصحوا لها بالتحصن في باغاية والاحتماء من العرب فيها ، فقد سبق أن استطاع هذا الحصن أن يصمد للعرب ويستعصى عليهم ، ولكن حركة الكاهنة كانت حركة بربرية صرفة لا تعرف حرب الحصون ولا المناجزة خلف الأسوار ، وإنما أسلوبها هو اللقاء في الأرض الفضاء بالحرب والسيوف وما إلى ذلك ، وكان حسان مثلها لا يفكر في الاحتماء بالحصون ، فلم يرجع على ذلك الحصن وسار إليها فالتقوا على نهر نينى ^(١) .

بذلك يمكن تصور الطريق الذي اتخذته حسان : خرج من القيروان وسار محاذياً « واد فيكّا » الذي يسمى في مجراه الأدنى « واد حاطوب » ومضى حتى أدرك تَبَسَّة على المجرى الأعلى لواد مِلْج ، ومن تبسة اتجه شمالاً بشرق في واد كثير النهرات والأخوار والزرورع حتى أدرك واد نينى ، ويغلب أنه أحد النهرات التي تصب في « جرعة الطرف » ^(٢) ، وهناك عسكر وجعل ينتظر الكاهنة .

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١٤٤

(٢) يسميه ابن عذارى وادى سكتانة ، وابن خلدون مسكيانة ، ولم يرد لنهر نينى ذكر إلا في ياقوت الذي وصفه بأنه واد شهير في طرف إفريقية ، وقد جاء في شو أن نينى Neeny مدينة كبيرة شرق بجاية — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢١ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص Shaw, Voyages, op. cit. I, p. 164 وقد ذهب ليفير إلى أن مسكيانة قريبة من موضع
عسطينة الحالية Enc. de L'Islam : Kahina.

كانت معركة نينى شديدة حامية اضطر حسانُ جندَه إلى خوض غمارها وهم بعد مجهدون من آثار حملة قرطاجنة وما تلاها ، ولهذا تخونهم التوفيق والعزم . وإذا أضفنا إلى ذلك أن العرب كانوا يقاتلون هذه المرة قوماً مثلهم ؛ بدأوا يجيدون النزال في الميدان ، طال عهدهم بصراع البزنطيين ، وأن الكاهنة استطاعت بما لها من السلطان عليهم والمكانة من نفوسهم أن تثيرهم وتحفز همهم لقتال العرب وردهم عن الأوراس ، إذا ذكرنا هذا كله أمكننا أن نتصور كيف ثبت البربر للعرب هذه المرة ، بل كيف استبانوا ضعفهم فتحمسوا تحمساً شديداً وهجموا عليهم جميعاً هجوماً لم يكونوا يتوقعونه ، فدارت الدائرة على العرب واضطروا إلى التقهقر بعد قتال شديد يصفه ابن عذارى بقوله : « فلما أصبح الصباح التقى الجمعان وصبر الفريقان صبراً لم ينسبه أحد إلى بعضه فضلاً عن كله ، إلى أن انهزم حسان بن النعمان ومن معه من المسلمين الشجعان ، وقتلت الكاهنة العرب قتلاً ذريعاً وأسرت ثمانين رجلاً من أعيان أصحابه ، وسمى ذلك الوادى وادى العذارى ، واتبعته الكاهنة حتى خرج من عمل قابس^(٢) » وبهذا لم تكن الكاهنة بهزيمة العرب في قلب الأوراس وإنما تتبع حسان حتى أخرجته من حدود إفريقية واطمأنت على سلطانها منه ثم عادت أدراجها .

(١) قال كودل : « تقاربت القبائل البربرية تحت ضغط العرب ، وجمعوا جمعهم وبجثوا عن رئيس ، فوجدوا في المرة الأولى الحاكم اليوناني جرجير فاضواوا تحت لوائه فجرم معه حين انهزم ، فلم يلبثوا أن تجمعوا مرة أخرى واختاروا أميراً من جنسهم وهو كسيلة فقامسموه الظفر ثم الهزيمة الأخيرة ، وفي هذه المرة ارتضوا لأنفسهم امرأة رئيسة » ثم أعقب ذلك كلام عن مراكز المرأة في المجتمع البربرى ، وفي هذا ما يفهم أن البربر أمة واحدة تشعر بشعور واحد وتمس إحساساً وطنياً ولا تفتأ تقاوم العرب ، وأنهم — بترابراونس يونان وبربر — كانوا إلماً واحداً على العرب ، وليست الحقيقة كذلك ، بل كودل نفسه يكذب هذا الرأى في الجزء الأول من كتابه : Caudel, op. cit. II. pp. 160-161

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٠ — ٢١ .

اكتفت الكاهنة بذلك ، وكان في إمكانها أن تسير إلى القيروان ولكنها لم تفعل ، مما يدل على أنها لم تكن على تمام العلم بما أتاه كسيلة حين انتصر على عقبة ، ثم سار إلى القيروان رأساً فطرد زهير وأخذ العاصمة الإسلامية له مركزاً ، ولو كانت الكاهنة تريد أن تقيم إمبراطورية كالتى ينسبها إليها كودل^(١) لما ترددت في المسير إلى القيروان ، ولكنها لم تكن ترجو شيئاً بعد خلاص منازل قبيلتها وملك أبنائها في الأوراس ، فاكثفت بإبعاد العرب ، وكانت القيروان إذ ذاك وبعد انصراف حسان عامرة بالمسلمين كما يفهم من قول ابن عبد الحكم ، « وأفلت حسان ونفذ من مكانه إلى أنطابلس ، فنزل قصوراً من حيز برقة ، فسميت قصور حسان واستخلف على إفريقية أبا صالح^(٢) » ويبدو كذلك أن حسان لم يجد من الفراغ ما يسمح له بالمرور بالقيروان واصطحاب من كان خلفه بها من المسلمين ، وإنما اضطر إلى التعجيل بالتقهقر إلى قابس ، فلم يجد بداً من أن يرسل أحد رجاله — أبا صالح — إلى القيروان ليلبغ أهلها ما نزل بالمسلمين ولينبهم للفرار أو اتخاذ الحذر ، وهذا ما يفهم من قول الديباغ في معالم الإيمان : « وطلق يرفق في سيره طمعاً فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا به^(٣) » .

ومهما يكن من شيء فقد بقيت القيروان على حالها لم تمسسها الكاهنة بسوء ، فأقام من بها من المسلمين يقوم بأمرهم أبو صالح هذا ، ولم تحفل الكاهنة لهم وإنما عادت إلى الأوراس ، وبهذا لا نخطئ إذا وصفنا حركة الكاهنة بأنها لم تكن أكثر من ثورة محلية في ناحية من نواحي البلاد لا حركة انتفاض تام ، وكان حسان يفهم الحركة هذا الفهم ، ولهذا أقام في طرابلس ينتظر المدد وينظم أموره هناك ، فابتنى لنفسه منازل على مقربة من صرت سميت قصور حسان ؛ « وكانت أنطابلس ولوبية

القيروان
في غياب
المسلمين

(١) Caudel, op. cit. II, p. 160

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ج ١ ، ص ٥٧ (٣) الديباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ٥٧

ومراقبة إلى حد أجدائية من عمل حسان^(١) » وأرسل حسان يبسط
لأمير المؤمنين عبد الملك ما حدث له ، فوصل كتاب حسان إلى عبد الملك في فترة
اصطلحت عليه فيها الأحداث ، فأرسل يستعمل حسان ويأمره أن يقيم حيث
هو : « فكتب حسان إلى أمير المؤمنين عبد الملك يخبره بذلك ، وأن أم المغرب
ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية ، كلما بادت أمة خلقتها أم وهم من الخفل
والكثرة كسائمة النعم ، فعاد له جواب أمير المؤمنين يأمره أن يقيم حيثما وافاه
الجواب ، فورد عليه في عمل برقة فأقام بهسا وبني هناك قصوراً تسمى إلى الآن
قصور حسان^(٢) » .

— ٥ —

يبدو من مجموع الروايات أن البلاد لم يهدأ أمرها بعد مسير العرب منها ،
فيذكر ابن الأثير : « وملك الكاهنة إفريقية كلها وأساءت السيرة
في أهلها وعسفهم وظلمتهم »^(٣) أى أن الاضطرابات سادت البلاد طوال الفترة
التي تغيب العرب عنها خلالها ، وذلك طبعاً لأن البربر لا يميلون بطبعهم إلى الخضوع
لقوم منهم ، فلما حاولت الكاهنة أن تؤلف منهم جبهة لانتقاء هجوم العرب عارضها
نفرهم فاضطرت إلى اصطناع الشدة معهم فتاروا بها . فانتشر الاضطراب في البلاد
بل فكر بعضهم في الاستنجاد بالعرب واستدعائهم كما سيري . فلم يخطئ ابن الأثير
فيما ذهب إليه ، وإنما أخطأ مرسية حين قال : « بهذا خضع الغرب من أقصاه
إلى أقصاه لطاعة الكاهنة » .

حال البلاد
بعد انصراف
حسان

وكانت الكاهنة قد أسرت نفراً من المسلمين في موقعة نيني ولم تشأ أن تقتلهم ،

(١-٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢١

(٣) ابن الأثير ، أسد الغاية ، ج ٤ ، ص ١٤٣

وإنما فضلت الإبقاء عليهم لتتعرف منهم أخبار العرب وحقيقة أمرهم^(١) ولهذا تجمع الروايات على أنها أحسنت معاملة هؤلاء الأسرى وأنزلتهم منزلاً كريماً، بل يذهب بعض المؤرخين إلى أنها أطلقت سراحهم، وكان من بين هؤلاء الأسرى رجل من المقربين إلى حسان وهو خالد بن يزيد العبسي، فتخيرته من بين هؤلاء الأسرى، ورأت أن تستميله إليها ليعلمها بنواياحسان ومراميه، وبالفعل في إكرامه حتى آخته بولديها، وجعلته كأحد قومها حتى يأنس إليها ويتخذ جانبها ويتخون قومه العرب، وهذا هو التعليل المعقول لقول ابن عذارى: « وحبت عندها خالد بن يزيد، فقالت له يوماً: ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع، وأنا أريد أن أرضعك فتكون أبا لولدي، وكان لها ابنان: أحدهما بربري والآخر يوناني، وقالت له: نحن جميع البربر لنا رضاع إذا فعلناه نتوارث به، فعمدت إلى دقيق الشعير فلفته بزيت وجعلته على ثديها، ودعت ولديها وقالت: كلا من على ثديي، وقالت لهم: قد صرتم إخوة »^(٢).

ولكن خالداً لم يكن عند ظن الكاهنة به، فانتهاز فرصة عناية الكاهنة بأمره وإبعاد الرقباء عنه، وجعل يرأسل حسان ويصف له أمر الكاهنة وحال إفريقية في حكمها، فكان عينا على البربر، وأفاد حسان من ذلك فائدة كبرى كما سنرى. ثم لاحظت الكاهنة أن العرب ما يكادون ينزلون البلاد حتى تتوجه همهم إلى المدائن والنواحي العاصرة يبدلون وسعهم في الاستيلاء عليها، فإذا تم لهم ذلك انقضوا على الخيرات والنفائس والأموال فانتهبوها ولم يخلفوا وراءهم منها شيئاً، ثم ينصرفون بعد ذلك عن إفريقية كأنما كانوا يأتون لهذا وحده، فوقع في ظنها

الكاهنة
تخرب
إفريقية

(١) انتهاز مراسييه موقف الكاهنة هذا ليقول: « وهكذا ضرب البربر المتوحشون للعرب — الذين زعموا أنهم رسل الله والذين كانوا لا يستعملون وسائل أخرى غير العنف والقتل والتخريب — مثلاً عظيماً في الكرم والمغو » Mercier, op. cit. vol. I. p. 214
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١، ص ٢٢

أن العرب لا يريدون من فتح هذه البلاد إلا أسراً واحداً : الأموال والغنائم والأسلاب والسبي ، فأحبت أن تقطع رجاء العرب في البلاد بأن تقضى على كل معالم العمران فيها فتجعلها قاعاً صافياً لا أرب فيها لنهاب أو سالب ، وقد أخطأت في ذلك وخفي عنها التطور الكبير الذي شمل حركة الفتوح الإسلامية من بدء حملة عقبة الأولى وبعد قيام القيروان ، فقد كانت وجهة الفتوح قبل ذلك لا تختلف كثيراً عما رأته الكاهنة ، ولكنها أصبحت بعد ذلك ترمى إلى استكمال فتح البلاد وإدخال أهلها في الإسلام ، ومن ثم نزلت الأسلاب والغنائم إلى الموضع الثاني من اهتمام العرب ، ولم تعد همهم منصرفة إلى المدائن والمزارع وإنما إلى أهل البلاد أنفسهم ، ولهذا لن يكون لعمل الكاهنة هذا أثر في نفس حسان ولا سياسته ، ولم تجن الكاهنة منه إلا سخط أهل البلاد عليها وتركهم إياها وميائهم إلى جانب العرب ، وهذا ما يفهم من قول ابن عذارى : « فلما رأيت إبطاء العرب عنها قالت للبربر : إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعى ^(١) ، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها حتى يئس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر ، فوجهت قومها يقطعون الشجر ويهدمون الحصون ، فذكروا أن إفريقية كانت ظلاً واحداً ^(٢) ،

(١) هذا القول يؤكد أن حركة الكاهنة حركة بترية خالصة ، فلم يكن في صفوفها أحد ممن يسكنون المدن أو يتناولون الصناعة ، ولهذا أجابوها إلى ما سألت ، أما الذين عارضوها فهم البرانس والمستقرون وأهل المدائن .

(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الوصف عند الكلام على حال إفريقية عندما فتحها العرب ، وهي أوصاف مبالغ فيها بعض الشيء كقول ابن عذارى : « فذكروا أن إفريقية كانت ظلاً واحداً من أنطابلس إلى طنجة : قرى متصلة ومدائن منتظمة حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن وحصوناً من إقليم إفريقية ، والمغرب مسيرة ألفا ميل في مثله ، وهذا مبالغ فيه مبالغة ظاهرة ، وقد روى النويري هذا الوصف بعارة أكثر اعتدالا ولكنها ظاهرة المبالغة كذلك ونسبها إلى رجل أسماه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم — النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٥ أ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٦ ، ص ٢١

فخرت الكاهنة اعنها الله ذلك كله ، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغِيثين مما نزل بهم من الكاهنة ، ففترقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية^(١) »
 أضر هذا العمل بقضية الكاهنة ضرراً عظيماً ، لأنه إذا كان قد وُجد من أهل البلاد من يؤيدها في مناهضة العرب وطردهم من البلاد ، فليس فيهم من يقف مكتوف الأيدي إزاء هذا التعريب الذريع الذي اختارته الكاهنة للبلاد على يديها . وفيهم جهادهم العرب إذن ؟ وعلام يبذلون النفس في صدمهم عن البلاد إذا كان مصير البلاد إلى الخراب على أي الحالين ؟ سواء أدخل العرب أم لم يدخلوا ؟ ولهذا لم يلبث الاستياء أن عم البلاد من تصرف الكاهنة ، وأسرع بعض أهلها فاستغاث بحسان واستقدمه ، وأخذوا يعارضون الكاهنة ويناجزونها ، فاضطرب الأمر بيدها وزادت البلاد سوءاً على سوء ، ولما كان رجاء الناس قد انقطع من الروم فقد تملقت آمالهم كلها بالعرب ، ويؤكد النويري ذلك بقوله : « فلما قرب حسان من البلاد لقيه جمع أهلها من الروم يستغيثون به من الكاهنة ، فصره ذلك وسار إلى قابس فلقية أهلها بالأموال والطاعة^(٢) » أي أن أهل البلاد أصبحوا ينظرون للعرب كمخلصين ، وهذا تطور له أهميته في علاقة البربر بالعرب واعتبار كل منها للآخر ، وسيكون له أبعاد الأثر في إتمام فتح البلاد .

- ٦ -

وجد الروم في خروج حسان من إفريقية فرصة سانحة لاستعادتها وبسط سلطانهم عليها من جديد ، وكان الإمبراطور الجديد ليونتيوس — الذي خلف جستنيان الثاني سنة ٦٩٥ م^(٣) (٥٧٤ هـ) — قد أهمله سقوط قرطاجنة في يد العرب

(١) ابن عذراى ، البيان المغرب ، ج ٦ ، ص ٢١ (٢) النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ١٧٥

(٣) في سنة ٦٩٥ م ثار ليونتيوس (ليونس) على جستنيان الثاني فتمكن من عزله — بعد أن

حكم سنة وبعة أشهر — ثم عذبه وقطع أشفه وأعلن نفسه إمبراطوراً .

{ Theophanes, op. cit. I, p. 566

{ Fournel, op. cit. I, p. 214.

وتخريب حسان لها إذ: « لم يجد تسليم هذا الجزء الكبير من الإمبراطورية — دون مقاومة — أمراً سهلاً على نفسه ^(١) » كما يقول ديل . فلم نكد أخبار هريرة حسان على مهر نينى ترد إليه حتى عجل بالعمل .

أعد الإمبراطور حملة كبيرة لإفريقية ، ويبدو أنه بذل في إعدادها جهداً عظيماً ، لأنه تخير لقيادتها قائداً من أشهر قواد الدولة وأقدرهم وهو البطريق يوحنا Patricius Jean ^(٢) وأعد أسطولاً كبيراً لنقل الجند إلى إفريقية .

ظهر الأسطول البيزنطى فى مياه قرطاجنة فى سنة ٦٩٧ م (٥٧٨) ، وتمكن من الاستيلاء على المدينة فى يسر ، وطرد المسلمين الذين كانوا فيها (الذين كان على رأسهم أبو صالح) ، وقسا فى معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة حتى أنه كان يقتل الكفار بيده كما يقول تيوفانس ونقفور ^(٣) ، فلما تم له ذلك اكتفى به وأراح فى قرطاجنة طيلة شتاء هذه السنة غير حاسب لعودة العرب حساباً ، فلم يكلف نفسه عناء الشروع فى عمل آخر .

الروم
فى إفريقية

ذهب فورنل إلى أن أخبار استيلاء الروم على قرطاجنة غابت من العرب فلم يذكرها منهم أحد ، وعلل ذلك بأنهم شغلوا بأخبار الكاهنة فلم يتبينوا حملة يوحنا ^(٤) ، ولكنه لم يكن موقفاً فى ملاحظته تلك ، لأن اثنين من أعلام مؤرخى هذا الفتح أشارا إليها إشارة مقتضبة ولكنها صريحة الدلالة : أولهما البكرى الذى يقول : « وأغارت الروم من البحر على من كان بقى من المسلمين بمدينة تونس (كذا) ، خرجت إليهم فى المراكب ، فقتلوا من بها وسبوا وغنموا ولم يكن للمسلمين شئ يحصنهم من عدوهم ، إنما كانوا معسكرين هناك ، وبلغ حسان ذلك (فورنل

(١) Diehl, op. cit. p. 583

(٢) Diehl, op. cit. p. 583

(٣) Theophanes, op. cit. p. 370 — Neophore, op. cit. p. 39 — Diehl, op. cit.

p. 583

(٤) Fournel, op. cit. l. p. 213

إلى تونس) وأرسل أربعين رجلاً من أشرف العرب إلى عبد الملك بن مروان ، وكتب إليه بما نال المسلمين من البلاء ، وأقام هناك مرابطاً ينتظر رأى عبد الملك^(١) » وثانيهما التيجاني الذي قال : « وكان الروم أغاروا عليها (أى على قرطاجنة) في ولاية عبد الملك بن مروان في مراكب لهم فقتلوا من بها وسبوا وغنموا » ثم يذكر بعد ذلك أن حسان انتقل إليها وأقام بها مرابطاً ، وبعث أربعين من أشرف المسلمين إلى عبد الملك يستنجدون به ويخبرونه بما نال المسلمين من الجهد فعمم ذلك عليه^(٢) .

بهاتين الحركتين — حركة الكاهنة وحركة البطريق يوحنا — تم انتقاض إفريقية على العرب وخرجت من يدهم جملة ، ولم يبق في طاعتهم شبر واحد من الأرض مما يلي قابس غرباً ، وكان التقاسم بين البطريق والكاهنة سهلاً لا اختلاف فيه : أقامت هى في الجنوب في السهل الداخلى بينما اهتم يوحنا بأن يعيد الرباط الذى يمتد من سوسة Hadrumentum إلى شَقَبْنَارِيَّة^(٣) .

— V —

أقام حسان هذه السنوات على مقربة من صرت — في المكان المسمى قصور حسان على مقربة من صرت — يلح على الخليفة في موافاته بما طلب من العون والمسدد ، وكان الخليفة

(١) البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٣٧ — ٣٨ ويلاحظ أن البكرى يخطئ دائماً فيذكر تونس محل قرطاجنة ، لأن تونس لم تكن قد اتخذت مدينة للمسلمين بعد ، بل كانت لى ذاك قرية صغيرة اسمها Tynes ، وقد أخطأ البكرى كذلك في قوله : « فرحل إلى تونس » لأن حسان بقى حيث هو وأرسل يستنجد بعبد الملك .

(٢) رحلة التيجاني ، ورقة ٣ أ ، ويلاحظ أن التيجاني نقل هذه العبارة بالنس من البكرى ، وربما أخذ الإثنان من مرجع واحد ، ولما كان المعروف أن التيجاني يستقى النقط التى يذكرها من هذا الفتح من ابن الرقيق ، فربما صح القول بأن البكرى اعتمد على ابراهيم بن الرقيق في بعض تاريخه .

(٣) Caudel, op. cit. II. p. 171.

قد أمره : « بالمقام إلى أن يأتيه أمره^(١) » فأقام بعمل برقة خمس سنين ، فلما فرغ عبد الملك من مشاغله سارع بإرسال المدد إلى حسان وأمره بالمسير إلى إفريقية في أواخر سنة ٨١ هـ .

ويبدو أن المراسلات كانت متصلة أثناء ذلك بين حسان وخالد بن يزيد ، فلما توافت عليه — أى على حسان — فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين دعا برجل يثق به وبعثه إلى خالد بن يزيد بكتاب فقرأه وكتب في ظهره : « إن البربر متفرون لأنظام لهم ولا رأى عندهم فاطو المراحل وجّد في المسير^(٢) » وتجميع المراجع على أن الكاهنة كانت تشعر بضعف أمرها وتتوقع مسير العرب إليها وقضاءهم عليها بين الحين والحين ، وللمؤرخين في ذلك روايات أشبه ماتكون بالقصص مثل قول ابن عبد الحكم إن حسان لما توجه إليها : « خرجت ناشرة شعرها فقالت : يا بني انظروا ماذا ترون في السماء ؟ قالوا : نرى شيئاً من سحب أحمر ، قالت : لا وإلهي ولكنها وهج خيل العرب^(٣) ! » وفي هذه العبارة وأمثالها تصوير قصصى لطيف. لهذا الخوف الذي داخل الكاهنة من العرب « حتى كانت تنظر إلى رأسها يركض به إلى ناحية المشرق^(٤) » كما يقول القيروانى ، وتلك كلها دلائل على أنها استيقنت أن البربر بدءوا ينفضون من حولها ، وأن كثيرين منهم كانوا ينتظرون عود حسان بفارغ الصبر لينقضوا عليها ويثبوا بها ، فأخذت تفكر

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ١٧٥ أ — المبرد ، الكامل ، ج ٣ ، ص ١١٣ — ويبدو أن مقام حسان ببرقة لم يطل هذه المدة كلها ، لأن المعلوم أن مسيره الأول إلى إفريقية كان سنة ٧٦ هـ ، وليس لدينا تحديد ثابت لتاريخ عودته إلا ما ذكره ابن عذارى من أن حسان فرغ من أمر الكاهنة وعاد إلى القيروان في رمضان سنة ٨٢ هـ ، وعلى هذا الحساب يكون قد بدأ المسير إلى الكاهنة في أوائل سنة ٨٢ هـ أى أن مقامه ببرقة استمر إلى ما بعد سنة ٨١ هـ ، وبهذا يكون قد أقام ببرقة ثلاث سنوات وبضعة شهور لا خمس سنوات — ابن عذارى ، البيان المغرب ،

ج ١ ، ص ٢٢ (٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٣

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠١ (٤) المؤنس ، القيروانى ، ص ٣٥

في وسيلة تنفذ بها ولديها اللذين دفع بها حبهما إلى مناهضة العرب وحر بهم ، فأحببت أن تسالم العرب وتستأمن لنفسها وأولادها من حسان ، ولكنها خشيت إن هي فعلت ذلك أن ينقض عليها من بقي على الولاء لها ، وتؤكد المراجع أنها استحييت أن تسلم نفسها لحسان ووجدت ذلك عاراً عليها ، وربما خشيت أن يأسرها العرب ويحملوها سبيبة إلى دمشق ، ففضلت أن تستأمن لولديها عند حسان وأن تظل هي — ومن بقي على الولاء لها — على حرب العرب ، فاستقدمت خالد ابن يزيد وقالت له : « إنما كنت تبنيّتك لمثل هذا اليوم ، فأوصيك بأخويك هذين خيراً ، فقال خالد : إني أخاف إن كان ما تقولين حقاً ! ألا يستبقيا ؟ قالت : بلى ويكون أحدهما عند العرب أعظم شأنًا من اليوم ، فانطلق فخذ لهما أماناً ، فانطلق خالد فلقى حسان فأخبره خبرها وأخذ لابنيها أماناً ، وكان مع حسان جماعة من البربر البتر فولى عليهم حسان الأكبر من ابني الكاهنة وقربه »^(١) كما يقول ابن عبد الحكم ، ورواية ابن عذارى تضم إشارات على جانب عظيم من الأهمية إذ يقول : « فرحل حسان إليها وبلغ الكاهنة خبره ، فرحلت من جبل أوراس في خلق عظيم ، ورحل إليها حسان ، فلما كان في الليل قالت لابنيها : إني مقتولة ! وأعلنتم أنها رأت رأسها مقطوعاً موضوعاً بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث حسان ، فقال لها خالد : فارحلي بنا وخلي له عن البلاد ، فامتنعت ورأته عاراً لقومها ، فقال لها خالد وأولادها : ما نحن صانعون بعدك ؟ فقالت : أما أنت يا خالد فتدرك ملكاً عظيماً عند الملك الأعظم ، وأما أولادي فيدركون سلطاناً مع هذا الرجل الذي يقتلني ، ويعقدون للبربر عزاً ، ثم قالت : اركبوا واستأمنوا إليه »^(٢) ، ورواية الحوادث على هذا النسق أدخل في باب القصص منها في التاريخ ، ولكن جوتييه

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠١

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٢ — ٢٣

يؤكد أنه لا يبعد أن يكون هذا هو الواقع بعينه بدون زيادة أو اختراع ، ويورد مثلاً حياً حدث أثناء حرب الفرنسيين مع البربر شديد الشبه بقصة الكاهنة ، إذ استأمن زعيم بربرى لأولاده عند القائد الفرنسى ، وأقام هو على الحرب فكان أولاده يقاتلونه فى الميدان ^(١) فى الموقعة التى مات فيها .

عودة حسان
إلى إفريقية

على أى الأحوال يمكن القول بأن حسان وجد الكاهنة سنة ٨١ هـ على غير الحال التى خلفها عليها سنة ٧٨ هـ ، فقد خلفها بالأمس قوية الجانب عزيزة الأنصار وعاد اليوم ليجد الروم والبرانس ونفراً من البترمنفضين عنها يستحثون حسان فى القضاء عليها ، بل يبدو إلى جانب ذلك أن أهل البلاد كانوا قد سثموا طول كفاح العرب ومالوا إلى التسليم ، ولهذا لن تطول المقاومة هذه المرة إلا ريثما تقتل الكاهنة ، ثم يهدأ الأمر بعد ذلك ويسود البلاد هدوء ، فيبدأ العرب فى تنظيم أمورهم . بل يبدو من قول النويرى : « فلما قرب حسان من البلاد ، ولقيه جمع من أهلها من

(١) قال جوتيه فى التعليق على هذه القصة : « هذه القصة فى الواقع بربرية لحماً ودماً سببها تقسيمهم إلى بتر وبرانس ، ويحيد الإنسان شبيهاً لها - فى مراكش فى القرن العشرين - حدث للفاخ الفرنسى ، لاذ استطاع رئيس قبيلة جبلية يسكن منطقة زيان واسمه موحا أو حمو أن ينتصر على الفاخ الفرنسى انتصاراً حاسماً ، وبعد انقضاء بضع سنوات أيقن أن جانبه قد ضعف وأن للمقاومة مستحيلة ، فإذا يعمل ؟ لجأ إلى حل خاص جداً ، هو بعينه ما فعلت الكاهنة ، وهو عمل يدهشنا كما أدهش العرب عملها منذ خمسمائة وألف سنة ، هل يدع القتال ؟ لا ! كما فعلت الكاهنة ، رأى ذلك عاراً عليه ، ولكنه أمر أولاده أن يستأمنوا عند الفاخ ويسلموا له ، وأطاع هؤلاء دون تفكير واشتركوا فى الموقعة الفاصلة الأخيرة التى قتل فيها أبوم ، أى أنهم اشتركوا فى قتله ، ثم أصبحوا بعد ذلك أنصاراً أعزاء لبوعراو Poeymirau خليفة حسان البعيد ثم قال بعد ذلك معلقاً : « لقد فسرت فى مكان آخر العامل النفسانى فى تصرف غريب كهذا ، ويكفى الآن أن يقال إن البربر فى القرن العشرين - كما كانوا فى القرن السابع - لا يعرفون معنى الوطنية ، بل لا يفهمون المغرب كوحدة عليهم واجبات نحوها ، بل هم لا يحسون بالحب نحو وطنهم الصغير مثل نوميديا أو منطقة زايان ، فليست لديهم هذه الفكرة ، أما الأمر الوحيد الذى يتحسس له البربرى ولا يتردد فى بذل نفسه فى سبيله فهو قومه وقبيلته . والمرجع الذى كتب فيه المقال الذى فسر فيه ذلك هو مجلة Hespérís عدد الثلاثة أشهر الثالثة لسنة ١٩٢٤ وعنوان المقال : « Un passage d'Ibn Khaldun et du Bayan »

الروم يستغيثون به من الكاهنة ، فسرّه ذلك ، وسار إلى قابس فلقية أهلها بالأموال والطاعة ، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأسماء^(١) « أن أهل البلاد تسارعوا للقاء العرب وانضموا تحت لوائهم ، ويؤيد ذلك قول ابن عذارى : « وكان مع حسان جماعة من البربر يستأمنون إليه^(٢) » .

ينفرد الدباغ بإيراد بعض التفاصيل التي تتصل بالصراع الأخير بين العرب والكاهنة ، فيذكر أن حسان لم يكذب يعبر بقابس حتى : « لقيته الكاهنة في جيوش عظيمة ، فقاتلهم حسان ، وهزمهم الله وهربت الكاهنة منهزمة تريد قلعة بشر تتحصن بها ، فأصبحت القلعة لاصقة بالأرض ، فضت تريد جبال أوراس ومعها صنم كبير من خشب تعبده ، فتبعها حسان حتى أدركها وانتصر عليها وقتلها عند بئر الكاهنة ، فنزل حسان الموضع الذي قتلت فيه ، ويقال إنها قتلت عند طبرقة^(٣) » .

هكذا قضى العرب على آخر حركة قام بها أهالي البلاد لردهم ، إذ كانت الكاهنة هي الحصن الأخير الذي احتسب وراءه أهل البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ، ولم يبق أمام العرب بعد ذلك إلا « غبار قبائل » كما يقول جوتييه : « ولم تبق إلا ضربة صغيرة تنفض عن البلاد هذا الخيال البيزنطي الذي استقر في قرطاجنة » حتى يمكن القول بأن فتح البلاد قد تم .

يشير البكري والمالكي والدباغ بإشارات طفيفة إلى مسير حسان إلى قرطاجنة وإجلائه الروم عنها ، ولكن المؤرخين البيزنطيين تيوفانيس ونقفور^(٤) يسدان هذا

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٥ أ

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٣

(٣) الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ٦٠ — ٦١ ويستبعد أن تكون المعركة الأخيرة التي قتلت فيها الكاهنة قد دارت عند طبرقة ، لأن هذه المدينة تقع على البحر شمال قرطاجنة ، وإنما المقول أنها كانت في جبل أوراس .

Theophanes, op. cit. p. 370—Neciphore, (٤)

op. cit. p. 39. — Diehl, op. cit. p. 584.

النقص ويفصلان هذا الأمر بعض التفصيل ، فيذكر أن الأسطول البيزنطي هزم في موقعة كبيرة سقطت بعدها قرطاجنة في يد حسان ، فأدرك اليأس البطريق يوحنا ، فجمع أجناده وتولى إلى بيزنطة ليعود منها سرّة أخرى بعدة أقوى ، ولكنه كان واهماً لأن الظروف لم تسمح له بعد ذلك بالعودة إلى قرطاجنة قط^(١) .

بهذا خلصت إفريقية لحسان ، ولم تعد هناك قوة تعارضه أو تنتقص من إمارته على البلاد ، نعم بقيت بضع نواح لم يصل إليها العرب بعد ، وبضع قبائل لم تعلم بمقدمهم ، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن الفتح الحربي قد تم ، وأن واجب الأمير العربي الآن أن يرفع السيف ليهتم بناحية أخرى ، وهي نشر الإسلام في البلاد وتقرير أمورها وخارجها وشؤونها وما إلى ذلك .

بيد أن حسان لم يطمئن إلى ما نزل بقرطاجنة على يديه ، ووجد أن سقوطها في يده لا يمنع الروم من الإغارة عليها من البحر مرة أخرى والتحصن فيها من جديد ، فأحب أن يضع حداً لمحاولات الروم ويقفل باب إفريقية في وجههم ، ففكر في أن لا يكتفى باحتلال الداخل وترك الساحل ، وإنما يحتل الساحل نفسه وينشئ فيه محرساً قوياً حصيناً يلقي الروم إذا حاولوا النزول إلى البر . هكذا بدأ حسان يفكر في إنشاء ميناء جديدة في إفريقية لتحل محل قرطاجنة ، فلا يعود أهل البلاد يفكرون في تعمير هذه الأخيرة وسكنها لشئون التجارة البحرية ، ولتكون محرساً لإفريقية الإسلامية من الروم الذين كانوا لا يفتأون ينقضون على الساحل بين الحين والحين ، ويهددون البلاد كلها ، وليبني فيها أسطولا يغير به على « ساحل الروم فيشغلهم بأنفسهم عن الإغارة على إفريقية »^(٢) كما يقول التيجاني .

(١) يحدد المؤرخان البيزنطيان لهذا الحادث سنة ٦٩٨ م أي سنة ٧٩ هـ ، ولما كنا نعلم أن حسان لم يفرغ من أمر الكاهنة إلا في رمضان سنة ٨٣ هـ ، فلا بد أن مسيره إلى قرطاجنة كان بعد ذلك بقليل ، أي في شهر شوال أو ذي القعدة أو ذي الحجة سنة ٨٣ هـ أو أوائل سنة ٨٣ هـ أي سنة ٦٩٩ م وهذا هو التاريخ الصحيح لهذا الأمر . (٢) رحلة التيجاني ، ص ٢٣ أ

لهذه الأسباب أنشأ حسان يبحث عن موضع على البحر يستطيع أن ينشئ فيه ميناء الجديدة ، فوجد إلى جنوب قرطاجنة بلداً قديماً يطل على سبخة فسيحة لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير فاسترعى انتباهه ، لأن وقوعه على شاطئ السبخة أى إلى الداخل قليلاً يحبب العرب في سكنى المدينة التي تنشأ عنده ، لأنهم لم يكونوا إذ ذاك يطمئنون كثيراً إلى سكنى المدن الساحلية الصرفة ، ثم إن موقعها هذا يجعلها بأمن من غارات الروم المفاجئة ، فيكفي احتراس مدخل السبخة لكي يتنبه أهل الميناء الجديدة إلى الخطر قبل وقوعه ، وكان هذا البلد القديم ميناء يونانية قديمة ذكرها ديودور الصقلي ووصفها بالبيضاء ، ليل التلال المحيطة بها إلى البياض لكثرة ما تحويه تربتها من أملاح بيضاء AEYKON TYNEIA وزاد حسان إعجاباً بموقعه أن كان له فرصة صغيرة على البحيرة تسمى آدس (Ades) (١) فلم يلبث أن وقع اختياره عليه فأقبل إلى موضعه وبدأ يخططه من جديد ، ويبدو أن المدينة اليونانية كان قد اضمحل أمرها حين أنشأ العرب يعيدون بناءها ، ولم يبق منها إلا دير يقيم فيه بعض الرهبان ، ومصادق ذلك قول ابن أبي دينار : « وذكر غيره — أى غير ابن الشماخ — أن العرب كانوا يسمعون أصوات بعض الرهبان طول الليل في صلواتهم فيتأنسونهم فقالوا : هذه البقعة تونس » (٢) . كان عليه أن يبدأ بحفر البرزخ الذي يفصل البحيرة عن البحر ، وأن يحفر في ماء البحيرة الضحلة قناة عميقة تسير فيها السفن حتى تصل إلى البلد ، وبهذا تتصل البحيرة بالبحر وتصبح تونس ميناء بحرية تحميها البحيرة الواسعة من أمواج البحر ، ثم يعقب ذلك بإنشاء ميناء بحرية « دار صناعة » للبلد الجديد حتى تستطيع السفن

(١) Shaw : Observations, pp. 155-156 وهذا الميناء هو الذي جماله جغرافيو العرب

رادس ، فيقول ابن أبي دينار مثلاً : « ويقال لبحرها بحر رادس » القيروانى ، المؤنس ، ص ٦

(٢) القيروانى ، المؤنس ، ص ٨

أن ترسو فيها وتقلع منها في أمان ، وهذا ما أرادته القيرواني بقوله : « إن حسان هو الذي خرق البحر إلى تونس »^(١) ثم أراد أن يستعين بنفر من أهل مصر في إنشاء الميناء ، فأرسل إلى الخليفة يطلب إليه نفراً ممن لهم خبرة بإنشاء دور الصناعات وبناء السفن ، « فكتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز وهو والي مصر ، أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبضي بأهله وولده ، وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش »^(٢) وهي تونس ، وكتب إلى ابن النعمان أن يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر ، وأن يجعل على البربر جر الخشب لإنشاء المراكب ليكون ذلك جارياً عليهم إلى آخر الدهر وأن يصنع بها المراكب ويجهز الروم في البر والبحر ، وأن يغير منها على ساحل الروم فيشتغلوا عن القيروان نظراً للمسلمين وتحصيناً لأنفسهم ، فوصل القبط إلى حسان وهو مقيم بتونس ، فأجرى البحر من مرسى رادس إلى دار الصناعة ، وجر البربر الخشب وجعل فيها المراكب الكثيرة وأمر القبط بعمارها^(٣) .

بهذا استطاع حسان أن ينشئ مدينة ثانية بإفريقية ، وإذا كانت القيروان قد أصبحت من يوم أنشئت محرساً لبلاد الداخل ومعسكراً للجند الإسلامي ،

(١) القيرواني ، المؤنس ، ص ٣٣

(٢) يذهب كثيرون من العرب أن اسم تونس — قبل تعمير العرب لها — كان ترشيش أو طرشيش ، وقد علق ديسلين في ترجمته للبكري على تلك الدعوى بقوله : « طرشيش هي Tharsis التي ورد ذكرها في التوراة ، وقد ذهب العرب في القرن الأول الهجري يطلقون هذا اللفظ على تونس ، والحقيقة أنه لا وجود لمدينة باسم ثارسيس في إفريقية ، ولم يورد أحد من اللاتين أو اليونان مدينة بهذا الاسم فيها . وقد ذهب وستنفلد إلى أن هناك مدينة اسمها Tartessus جنوب أسبانيا ، وقد تكون تلك هي التي ورد ذكرها في الإنجيل Journ. Asiat. 1844, p. 505.

(٣) البكري ، وصف إفريقية ، ص ٣٨ — ٣٩ ويلاحظ أن حسان لم يتصل بعبد العزيز ابن مروان رأساً وكان يستطيع ذلك — ولكنه اتصل بالخليفة مما يدل على أن العلائق بينهما لم تكن على ما يرام ، وستؤكد الحوادث التالية ذلك .

فستصبح تونس كذلك رباطاً يحمي القيروان ومحرساً للبحر وميناء جديدة للبلاد يقوم مقام قرطاجنة ، ولو قد أوتى حسان من فراغ الوقت أكثر من ذلك لتعهد المدينة بالرعاية وأكمل إنشاءها ، فأقام فيها مسجداً وخطط دورها وما إلى ذلك ، ولكن العزل عاجله ، فبقى إنشاء المدينة ناقصاً حتى بدأ إكمال عبيد الله بن الحجاب بعد ذلك بثلاثين سنة ، فأنشأ مسجد المدينة وبدأ يخططها وينظم أمورها^(١) .

بقيام هذه المدينة حيل بين الروم وبين إفريقية ، فلم يعودوا يستطيعون النزول إلى أرضها ، فأمن العرب شرهم وأصبح جهدهم منصرفاً إلى تنظيم البلاد وتمهيدها للإسلام ، دون أن يزعمهم الروم بهجاتهم المفاجئة بين الحين والحين ، وكان حسان موفقاً كل التوفيق حين اهتم بتعمير تونس بهذه العائلات التي جلبها من مصر ، لتخلق في المدينة الجديدة جواً بحرياً حتى تصبح ميناء ، وحتى ينشأ أهلها على حب البحر ومعرفة صناعة السفن ، وسيلاحظ أن المسحة البحرية ستسود المدينة الجديدة ، وسيكون لها أبعاد الأثر في تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، إذ كانت هي النافذة التي أطل منها عرب المغرب على غربي هذا البحر ، والباب الذي خرجوا منه إلى صقلية وسردانية وإيطاليا ، ليلعبوا دورهم الخطير في هذه النواحي^(٢) .

— ٨ —

سبقت الإشارة إلى ما كان من فساد العلائق بين عامل مصر عبد العزيز بن حسان وعامل إفريقية زهير بن قيس ، وكيف حاول عبد العزيز أن يستبد ابن مروان

العلائق
بين حسان
وعبد العزيز
ابن مروان

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٨

(٢) خلفت الكاهنة بعد مماتها أثراً عميقاً في نفوس الأهليين . وتحولت بمرور الزمن إلى شخصية أسطورية يتداول أهل البلد قصصها وأخبارها ، ومن ذلك ما ورد في رحلة التيجاني في سياق وصفه لمدينة ألبم (الأنجم) : « ويقال إن الكاهنة المعروفة بكاهنة لواتة حصرها عدوها في ذلك الحصن ، فغرت منه سرداباً في الحجر الصلد نفذت منه إلى مدينة سلفطة ، وكانت أختها هناك فكان الطعام يجلب إليها في ذلك السرداب على ظهر الدواب » — رحلة التيجاني ، ص ٢٣ أ و ب .

زهير فتلاحيا ، ودأب عبد العزيز على أن يدس زهير في جيشه من يعصاه فيفسد عليه الأمر ، ويبدو أن عبد العزيز كان يرجو أن يتخلص من زهير حتى يخلص له أمر إفريقية ، فيفيد منها الغنائم الوفيرة والسبي الكثير ، فلما قتل زهير وتولى حسان خاب ظنه واضطعن على حسان ، وأخذ يترقب الفرصة للإيقاع به والخلاص منه ، وقد سبقت الإشارة إلى أن حسان كان يشعر بذلك ، فرغب عن كل اتصال بعبد العزيز ، ولهذا سأل عبد الملك المعونة حين أراد القبض وكان يستطيع أن يسألها عبد العزيز بن مروان ، ويروي ابن عبد الحكم رواية يفهم منها أن الرجلين كانا يتبادلان سوء الظن والريبة ، وقد أراد عبد العزيز أن ينتهز فرصة هزيمة حسان الأولى وتقهقره من إفريقية ليطعن في قدرته ويتذرع بذلك لعزله عن إفريقية ، فوجه إلى طرابلس رجلاً من عنده يقوم بأسرها ، فلما قدم حسان في مسيره الثاني إلى إفريقية ، قال لعبد العزيز : « أكتب إلى عبدك بالإعراض عن أنطابلس ، فقال له عبد العزيز : ما كنت لأفعل بعد إذ ضيعتها فاستولت عليها الروم ، فقال حسان : إذن أرجعُ إلى أمير المؤمنين ، فقال عبد العزيز : ... أرجع »^(١) وهذا حديث أقل ما يدل عليه أن عبد العزيز كان يرجو أن تكون له إفريقية مع مصر ، وأن حسان كان يخشاه ويرتاب في أمره ، فكان لا يفتأ يحتّم في الخليفة ويستعين به كلما بدت له بوادر الشر من جانب عبد العزيز . أقام عبد العزيز بمصر يتسقط أخبار حسان في حملته الثانية ، فساء ما وفق إليه من نصر وتوفيق ، وعول على أن لا يدعه يفلت بما فاز به من أموال وغنائم ، فأقام يرقبه بمصر حتى يأتي بالغنائم فيأخذ منه ما يريد ، فلم حسان ما أراد عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك ، فعمد إلى الجواهر والذهب والفضة فجعله في قرب الماء ، وأظهر ما سوى ذلك من الأمتعة وأنواع الدواب والرقيق وسائر

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٣

أنواع الأموال ، فلما قدم على أمير مصر عبد العزيز بن مروان أهدى إليه مائتي جارية من أبناء ملوك الروم والبربر ، فسلبه عبد العزيز جميع ما كان معه من الخيل والجمال والأمتعة والوصائف والوصفان ، ورحل حسان بالأثقال التي بقيت له حتى قدم على الوليد ، فشكا له ما صنع عبد العزيز ففضض الوليد لذلك ، ثم قال حسان لمن معه : « إتوني بقرب الماء » ففرغ منها من الذهب والفضة والجوهر والياقوت ما استعظمه الوليد ، وعجب من أمر حسان فقال له الوليد : « جزاك الله خيراً يا حسان » فقال : « يا أمير المؤمنين إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله ، وليس مثلي يخون الله ولا الخليفة » فقال له الوليد : « أنا أردك إلى عملك وأحسن إليك وأنوه بك » فحلف حسان : « لا ألى لبني أمية أبداً ! »^(١) وبهذا لم يستطع حسان — على رغم ما بذله من جهد — النجاة من انتقام عبد العزيز ، وكان هذا يستغل مكانه من الخليفة ويسىء استعماله فأساء إلى زهير كما سبق . ثم آذى حسان ولم يزل به حتى أخرج إفريقية من يده وجعلها من ولايته . وقد اتضح بجلالة أن الرجل لم يكن يريد لها ليضاح أمرها أو يتم إسلام أهلها ، وإنما كان يريد لها للغنائم والأسلاب . ولهذا لم يرض عن الفاتحين الأمناء المخلصين من أمثال زهير وحسان ، وسارع فأسند أمرها لرجل من أتباعه ومن هم على شاكلته وهو موسى بن نصير . ويبدو أنه أوصاه بالاهتمام بالأموال والغنائم ، فصرف موسى همه إلى ذلك . وكان عبد العزيز يقوم في مصر بين الخليفة وإفريقية ، فكان قميناً أن يقتدر على السكيد إذا هو أراد . وكان أخا للخليفة يستطيع أن يأتي من الأمر ما ينبغي . وكان حسان إذ ذاك رجلاً مسناً وقوراً لا قبل له بالسكيد أو التدبير ، فأثر النجاة بنفسه وأبى أن يعود . لعله كان يريد أن يقول : « لا ألى لبني أمية أبداً » مادام عبد العزيز في مصر فخشي مغبة ذلك ، فأصر على رفضه وسكت .

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ص ٢٣ — ٢٤

ولم يذكر لنا المؤرخون مصير حسان بعد ذلك ، وكل ما يقولونه أنه لم يلبث إلا يسيراً حتى توفي^(١) . مما يدل على أنه قضى الفترة القصيرة التي بقيت من حياته هادئاً مطمئناً . ونستطيع القول بأنه توفي نهاية سنة ٨٥ هـ . لأننا نعلم أن موسى ابن نصير بدأ عمله في إفريقية في أواخر أيام عبد الملك أي في أواخر سنة ٨٥ هـ . وبهذا تكون عودة حسان من إفريقية في أواخر هذه السنة كذلك . فإذا صح تقدير هذه الفترة القصيرة التي لم يلبث حسان أن توفي بعدها — ببضعة شهور — جاز القول بأن حسان توفي في أوائل سنة ٨٦ هـ .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٣

الباب التاسع

انتشار الإسلام في المغرب
والنظام الإداري الذي وضعه العرب له

لماذا طالت
مدة الفتح
العربي
للمغرب ؟

ليس من السهل تحديد تاريخ ثابت لانتها الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ، لأن هذه البلاد ليست قطراً واحداً يتم خضوعه بمعاهدة شاملة أو بموقعة فاصلة . وليس من الميسور كذلك أن نقطع بأن أهل المغرب تم إخضاعهم وإسلامهم في سنة بعينها ، لأن : « أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية ، كما بادت أمة خلقتها أمم ، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم^(١) » كما قال ابن عذارى على لسان حسان بن النعمان ، وربما كان هذا الاضطراب الذي يسود تكوين المغرب السياسي والاجتماعي والطبيعي هو السبب الأول في طول مدة الفتح واختلاط سبله على الفاتحين .

ولنصف إلى ذلك الصعوبات الأخرى التي لقيها العرب ، والتي لم تنشأ عن طبيعة البلاد أو أحوال أهلها وإنما عن ظروف العرب أنفسهم ، وما نزل بهم من الأحداث التي شغلته عن الفتح أو حالت بينهم وبين أن يتعهدوه بما ينبغي له من العناية والاهتمام ، كالفتن الطويلة التي كانت تحول بين أولى الأمر من العرب وبين إرسال الحملات إلى إفريقية ، وبؤد المغرب الذي جعل إرسال الحملات والبعوث إليه أمراً يتطلب العدة العظيمة والنفقة البالغة ، والخصومات بين جند العرب مما كان له أسوأ الأثر في سير الفتوح كالذي حدث بين عبد الله بن سعد وعبد الله بن الزبير مما كان من أسباب فشل حملة عبد الله بن سعد على رغم ما أدركه العرب من نصر فيها ، والنزاع بين ولاية مصر وقواد إفريقية ، ورغبة الأولين في السيطرة على هذه البلاد والتصرف في مالها وغنائمها ، مما رأينا أثره في تعطيل الفتح ومنع الفاتحين من إنفاذ برامجهم وإدراك الغايات التي سعوا إليها بعد أن بذلوا الجهد العظيم لإدراكها ، كما رأينا في عدوان مسامة بن مخلد على عقبة وعزله إياه وحرمانه من ثمرة جهوده ومنعه من تنفيذ برنامجه ، وعداء عبد العزيز بن مروان لزهير بن قيس

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢١

وحسان بن النعمان مما انتهى بعزل الثاني وحرمان البلاد من خبرته واقتداره ،
وتحويل الفتح نحو وجهة مادية لا تبغى ضم البلاد إلى العرب وإدخالهم في الإسلام
بقدر ما تعنى بالمغنم الحافل والمال الوفير .

ولا ننسى كذلك فتح إسبانيا الذى اجتذب اهتمام العرب وأنظارهم ، فانصرف
الكثيرون منهم عن إتمام فتح إفريقية وإسلام أهلها وقد كاد الأمران يتان
على خير وجه من أواخر أيام حسان بن النعمان ، والعصبيات العربية التى شغلت
جانبا عظيما من اهتمام حكام المغرب وصرفتهم عن الاهتمام الواجب بفتح البلاد
وإسلام أهلها ، مما يلاحظ أثره بشكل واضح جداً فى خصومة المضريين والقيسين
التي سادت إفريقية طوال العصر الأموى ، وجعلت البلاد مسرحاً لحوادث شتى
من الاضطهاد والظلم والمصادرة مما سيتضح أثره السيئ بعد قليل . ولا ينبغي أن ننسى
الأخطاء الشديدة فى الحرب والسياسة التي وقع فيها جند العرب وقادتهم ،
والتي كانت ناشئة عن ضعف كفايات بعضهم وعن جهلهم بطبيعة البلاد .

انصراف
الخلافة عن
فتح المغرب

ويلاحظ كذلك أن فتح المغرب لم يأخذ هيئة الفتح المنظم الذى تصدر الدولة
فى إتمامه عن خطة مرسومة أو سياسة ثابتة ، وإنما كان الساعون فى إتمامه نفعاً
من جند العرب فى مصر فى أغلب الأحيان ، وربما كان سبب انصراف الخلفاء
عن الاهتمام الواجب بفتح هذه البلاد هو تبينهم صعوبة فتحها وعظم الجهد الذى
يستلزمه إتمام ذلك الفتح ، فقد كان عثمان قد اهتم بأسر إفريقية وأولى فتحها جانباً
ملحوظاً من عنايته ، ولا نزاع فى أنه كان يؤمل كثيراً من وراء إتمام هذا الفتح ،
فكانت عودة عبد الله بن سعد بدون نتيجة تذكر قاضية على كثير من آمال
العرب فيها ، ثم كانت فتن المشرق وأحداثه قاضية على ما بقى من الأمل فى سرعة
فتح هذه البلاد ؛ فانصرفت الخلافة عنه انصرافاً يكاد يكون تاماً فترة طويلة
من الزمان .

جند العرب
في مصر
يصرون على
فتح إفريقية

طبيعى إذن أن لا تكون عند أولى الأمر من العرب فكرة واضحة عن أحوال بلاد المغرب وعن الخطة التي ينبغي اتباعها لإتمام فتحها ؛ وأن تظل جهودهم فيها أشبه الأشياء بالغارات السريعة التي لا تنتهى إلى شىء ؛ هذا بينما كان جند العرب في مصر لا يفتأون بين الحين والحين يخرجون إلى إفريقية في غارات بسيطة ؛ ولم يمنهم عن الخروج لغزوها في حملات كبيرة إلا اشتغال الدولة عنهم وانصرافها عن إمدادهم بما تحتاج إليه هذه الغزوات ، فتكونت لديهم فكرة عن طبيعة البلاد وأسلوب فتحها ؛ وجعلوا ينتظرون الفرصة المواتية للقيام بهذا الفتح ؛ إما جهاداً في سبيل الله أو رغبة في مغنم أو طلباً لحظوة عند الخلفاء .

عقبة بن نافع

وكان عقبة بن نافع أكثر جند مصر اتصالاً بإفريقية وأشدّهم تعلقاً بفتحها وأطولهم مقاماً في ربوعها ، فكان أقربهم إلى فهم طبيعتها وطبيعة أهلها ؛ ومن ثم تفتن إلى أهمية إنشاء بلدة للمسلمين فيها تكون محطاً لرحالهم ومنزلاً لمن أراد المقام منهم فيها ومستودعاً لسلاحهم ومركزاً تصدر منه الغزوات في كل وجه .

النتائج
السياسية
لإنشاء
القيروان

استتبع إنشاء القيروان نتائج على درجة عظيمة من الأهمية سواء في موقف المسلمين من المغرب أو موقف المغرب من المسلمين ، إذ لم يكد يتم تخطيطها حتى ظهرت « ولاية المغرب » وانضحت خاصيتها بعض الشيء وبدأت أنظار العرب تتجه إليها ، إذ أصبح لهم فيها عاصمة يتبعها الإقليم المحيط بها ، وقام بها مسجد جماعة يخطب فيه باسم أمير المؤمنين ، ونزلتها طوائف من المسلمين فأصبح الخليفة مكلفاً رسمياً بالدفاع عنها وحماية أهلها من أى اعتداء خارجي أو داخلي ، وبدأت وجهة القواد الذين تولوا الفتح فيها تتغير ، فأصبحوا يحرصون على اكتساب حقوق سياسية لا على أخذ أموال ومغانم ، وقد سبقت الإشارة إلى ما كان من تفضيل معاوية ابن حديج أخذ جزيرة شريك وإقامته والياً عليها لكي يراقب منها قرطاجنة ويؤمن القيروان وما حولها .

لهذا أخذت أنظار عمال مصر تتجه نحو هذا الميدان الجديد ، ففيه اتساع
سلطانهم وبحال للغزو والفتح وميدان للغنم العظيم ، وتنبه الخلفاء لذلك فحرصوا
ما أمكنهم على أن يحولوا بين ولاية مصر وما يريدون ، وعلى أن يشرفوا بأنفسهم
على أمور المغرب ، ومن هنا بدأ نزاع طويل استمر بين الخلفاء وعمال مصر على
حكومة إفريقية .

استمر هذا النزاع زماناً طويلاً وكان سبباً في تأخر ظهور شخصية المغرب
الكاملة وأخذ صفة الولاية المستقلة فظل تابعاً لمركز الخلافة رأساً رسمياً خاضعاً
لسلطان عمال مصر فعلاً ، ومن هنا أخطأ الكثيرون من مؤرخي إفريقية فذهبوا
إلى أن ولاية المغرب كانت جزءاً تابعاً لمصر حتى نهاية ولاية حسان بن النعمان ،
وأنها لم تصبح ولاية مستقلة الشخصية إلا من بدء ولاية موسى بن نصير ، والحقيقة
أن الخلفاء اعتبروها ولاية قائمة بنفسها من أول الأمر ، وحاولوا أن يلوأ أمورها
بأنفسهم فنازعهم في ذلك ولاية مصر ، وسمح الخلفاء لهم بذلك كارهين ، إما تقرب
عامل مصر منهم ومكانته عندهم كمسلمة بن مخلد ، أو لقربته من الخليفة كما حدث بين
عبد الملك بن مروان وأخيه عبد العزيز .

ومصادق ذلك أن معاوية حرص على أن يخرج المغرب عن يد عامل مصر
وتولاه هو بنفسه ، فلم يقر القائد الذي كان عمرو بن العاص أرسله في فتوحه وهو
عقبة بن نافع ، بل تخطاه وندب لهذا الأمر رجلاً من رجاله وهو معاوية بن حديج ،
وحرص كذلك على أن يكون إليه مرجع شئون الحملة وأمورها ، فإذا اختصم معاوية
ابن حديج مع عبد الملك بن مروان على قسم فيء جلولاء ، رفع الأمر إلى معاوية
ابن أبي سفيان لا إلى أخيه عقبة عامل مصر إذ ذاك .

ومن الواضح أن معاوية لم يكن راضياً عن تعدى مسلمة على شئون المغرب ،
ولم يمنعه من إيقافه عند حده إلا عرفانه ليد مسلمة عنده ومكانه من عثمان ،

ومن الواضح كذلك أن عبد الملك بن مروان كان ساخطاً أشد السخط على أخيه عبد العزيز لتدخله في أمور المغرب وعزله واليه وتوليته موسى بن نصير عليه ، وهذان شاهدان على أن الخلفاء كانوا يرون أن المغرب ولاية قائمة بذاتها لهم وحدهم إدارة شئونها ، وربما كان دافع الخلفاء إلى استخلاص المغرب من يد عمال مصر هو عرفانهم أن عامل مصر لا يريد له ليم فتحه أو لينشر الإسلام بين أهله ، وإنما لمغائمه وأسلابه وخيراته .

وقد كان الخلفاء على الحق فيما تخوفوا من نيات عمال مصر ، فقد أصاب المغرب من تدخل عمال مصر ضرر كبير ، ويكفي أن نذكر أن تدخل عبد العزيز ابن مروان في شئون المغرب ومخاصمته زهير وحسان أوقف السياسة التي كان حسان قد بدأ ينفذها ، والتي كانت ترمي إلى تنظيم البلاد وإصلاح ما بين أهلها والعرب وتحبيب الإسلام إليهم ، وكان سبباً في بدء سياسة جديدة لا ترمي إلى شيء من خير البلاد أو خير الدولة الإسلامية ، وإنما إلى عسف الأهليين وإرهاقهم بالمغامر والجبايات مما نفرهم من الإسلام وبغض العرب إليهم ، وأوجد بين الحيين — من بادي الأمر — شعوراً من الخوف والريبة والحذر ، ودفع بأهل المغرب إلى أحضان الدعاة والخارجين .

الأضرار التي
لحقت المغرب
من تدخل
عمال مصر
في شئونه

لم يكن المغرب إذن ولاية تابعة لمصر رسمياً إلا فترة قصيرة جداً من الزمان ، انتهت بتولية معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج قيادة الفتوح فيه ، ومن ذلك الحين كان المغرب معتبراً في نظر الخلفاء ولاية تابعة لهم ، يتولون أمورها بأنفسهم واعتبروا تدخل عمال مصر عدواناً لا حق لهم فيه .

وتعتبر ولاية موسى بن نصير آخر مظهر من مظاهر تدخل عمال مصر في شئون المغرب ، إذ حرص الخلفاء أشد الحرص على أن لا يدعوا عمال مصر يفتصبون هذا الحق بعد ذلك .

ولما كانت غزوات موسى بن نصير قد أتمت إخضاع المغرب كله من برقة إلى المحيط ومن ساحل البحر إلى واحات الصحراء ، فإن محمد بن يزيد — خلف موسى — يعتبر أول ولاية المغرب الإسلامي بمعناه المعروف لدينا ، بل أضيفت إليه الأجزاء التي فتحها المسلمون في إسبانيا .

— ٢ —

وكان حسان قد أعد المغرب العدة ليصبح ولاية قائمة بنفسها مستقلة بإدارتها النظام الإداري الذي وضعه العرب للمغرب
لا تعتمد على مصر في شأن من شئونها ، « فدوّن الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية^(١) » ، واهتم اهتماماً ملحوظاً بعاصمة الولاية الجديدة ، فأراد أن يجدد بناء مسجد فهدمه — حاشى الحراب — وبناء وحمل إليه الساريتين الحمراء الموشاتين بصفرة ، اللتين لم ير الرءاؤون مثلهما من كنيسة كانت للأول في الموضع المعروف اليوم بالقيصرية بسوق المغرب^(٢) » ، ولا نزاع في أن القيروان كانت في حاجة إلى الإصلاح وإعادة التنظيم لكي تليق بالولاية الكبيرة التي أصبحت عاصمتها ، ولكن حسان لم يهتم بإعادة تخطيطها وإصلاحها ، وربما كان سبب ذلك أنها لم تكن أصبحت سوقاً تجارياً أو مركزاً كبيراً حتى ذلك الحين ، وأنها لم تكن أكثر من مركز للجند ومأمن لنسائهم ومستودع لسلحهم .

ولاحظ حسان أن بقاء قرطاجنة خطر على الولاية الجديدة فهدمها ، وأراد إنشاء تونس وأثره
أن يأخذ الساحل على الروم فأنشأ شمالاً القيروان محرس تونس ، واجتهد في أن يجعل منها ميناء بحرياً تشرف منه ولاية المغرب على البحر الأبيض كما سبق بيانه^(٣) .

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٣ (٢) البكري ، وصف إفريقية ، ص ٢٣

(٣) البكري ، وصف إفريقية ، ص ٣٧ وما بعدها .

ليس لدينا نص ثابت نستطيع التعويل عليه في معرفة النظام الإداري الذي وُضع للمغرب إذ ذاك ، وكل ما لدينا إشارات طفيفة أوردتها بعض مؤرخي المغرب في سيرٍ صالحى إفريقية وعلمائها وقضاتها وملاحظات يمكن استنتاجها من أحداث البلاد إبان العصر الأموي، ولو قد كان المغرب شبيهاً بغيره من الولايات الإسلامية لجاز القول بأن العرب طبقوا فيه أنظمتهم المعروفة في الإدارة والمال ، أما والمغرب فريد في نظامه فليس من المأمون قبول فرض كهذا ، لأن أرض المغرب ليست أرض زروع يقدر على محصولها خراج مقدر ، بل أغلب أرضها مراعى وقفار لا تغل شيئاً مذكوراً ولا يقدر عليها شيء ثابت ، فكيف نظم العرب أمور المغرب ؟

يقول المالكي : « ثم إن الروم والبربر تخوفوا بعد ذلك ، واجتمعوا على قتال حسان وقتلوه فهزمهم الله تعالى ، فلم يقبل أمانهم حتى أعطوه من جميع قبائلهم إثني عشر ألف فارس تكون مع العرب مجاهدين ، فأجابوه وأسلموا ، فعقد لولدى الكاهنة بعد إسلامهما لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس من البربر والياً عليهم ، وأخرجهم مع العرب يفتحون إفريقية ويقتلون الروم ومن كفر من البربر ، فمن ذلك صارت الخطط للبربر بإفريقية ، فكان يقسم النىء بينهم والأرض ، وحسنت طاعتهم فدانت له إفريقية ودون الدواوين ، ثم قدم القيروان فأمر بتجديد بناء المسجد الجامع فبناه بناء حسناً ، وجدده في شهر رمضان سنة ٨٤ هـ ^(١) . ومن هذه العبارة نستنتج بضعة أمور :

١ — أن حسان حرص على أن يشرك معه نفراً من أهل القبائل في حروبه وجعل اشتراكهم معه في الحرب شرطاً لتأمينهم ، ومن هذا نفهم أن جند المغرب من ذلك الحين لم يكونوا من العرب وحدهم ، بل اشترك فيه نفر من أهل البلاد . وكانت تلك خطة موقفة استطاع بها حسان أن يضمن ولاء البربر ، وأن يجب

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١١

إليهم الإسلام ، فالبربر شعب محارب ميال إلى الغزو والسلب ، فأرضاهم
اشتراكهم مع المسلمين في الحرب جنبا إلى جنب ، ولم يلبثوا أن أسلموا بدليل قول
المالكي إنهم : « أجابوه وأسلموا » .

ولم يكتف حسان بأن يشرك هؤلاء البربر في حروبه ويجعل لهم نصيباً
من الغنائم ، وإنما رتب لهم أعطيات تصرف لهم من بيت المال ، وسار على ذلك
موسى بن نصير بعده ، فقد عثر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب على قطع من العملة
النحاسية والبرنزية ، ضربها موسى بن نصير في إفريقية يرجع تاريخها إلى سنة ٩٢ هـ^(١) ،
لكي يعطى من انضم إلى جيشه من البربر أعطياتهم ، وذهب إلى أن استعمال
العرب للنقود في إفريقية لا يرجع إلى تاريخ ضرب هذه العملة فقط ، وإنما كان عمال
إفريقية قبل ذلك يستعملون نقوداً رومية مما وجدوه في إفريقية ، أو أخذوه في الجزى
والجبايات والمغارم ، ولا نزاع في أن هذه النقود الرومية كانت واسطة التعامل
بين العرب في إفريقية ، وظلت كذلك حتى ضرب موسى عملته فاستعملها الناس .

٢ — أن حسان قسم المغرب خططاً للبربر ، أى اختص كل قبيلة بخطة
تتصرف فيها وتؤدى مالها وتكون مسئولة عنها ، وهذا نظام معقول يتفق مع طبيعة
البلاد ونظام أهلها الاجتماعي ، فلم يكن في المغرب إذذاك مزارع واسعة تتركها
الحكومة في يد أصحابها يزرعونها ويؤدون مالها للدولة ، وإنما نواح اختصت
كل قبيلة بناحية منها تكون مسئولة عنها أمام عامل المغرب .

٣ — أن حسان كان يسوى بين العرب والبربر في قسم في الحروب ومغانمها ،
أى أنه لم يعتبر العربي حاكماً والبربرى محكوماً ، بل تساوى الإثنان في الحقوق

(١) راجع مقال الأستاذ عبد الوهاب الذى عنوانه « Un témoin de la conquête de l'Espagne » ، La Revue Tunisienne, 1932 No. 10 ، ويلاحظ أن موسى لم يضرب غير
عملة برنزية ، لأن النقود الذهبية (الدينار) والفضية (الدرهم) كانت من حق الخليفة
المركزية وحدها .

والواجبات ، وفي الاشتراك في الحرب واقتسام الغنيمة ، ويبدو أن حسان راعى في اشتراع هذا المبدأ طبيعة البربر وأخلاقهم ، فهم ليسوا زراعاً ألفوا الخضوع والسكون وتأدية المال لسيد الأرض وصاحبها ، وإنما هم شعب محارب قوى أنوف لا يقل عن العرب غراماً بالحرية ، فكان أمثل السبل لقيادته هي معاملته معاملة الند للند .

وسلاحظ أن البربر حرصوا دائماً على أن لا يعاملهم العرب معاملة شعب خاضع محكوم ، وأنهم لم يترددوا في الثورة على العرب حين حاول هؤلاء الترفع عليهم أو اعتبارهم رعايا يجوز للحاكم عسفهم والتصرف في شئونهم كما يهوى .

٤ — أن حسان اعتبر أرض المغرب مفتوحة صاحباً لا عنوة ، فأقر البربر على ما يبدى من الأرض ، وهذا ما أراده المالكى من قوله : « فمن ذلك صارت الخطط للبربر بإفريقية ، فكان يقسم الفيء بينهم والأرض » . أى أنه جعل لكل قبيلة خطة تُسأل عنها وتؤدي العشر منها ، والغالب أنه لم يفعل ذلك إلا مع الذين أسلموا منهم ، لأن الشرع يبيح ترك الأرض لمن أسلموا يتوارثونها ويتبايعونها^(١) .

٥ — أن حسان دَوَّن الدواوين ، أى نظم شئون الحكومة ، وأقام المال على نواحي الإدارة من خراج وزكاة وجند وما إلى ذلك ، مما كان موجوداً في غير إفريقية من بلاد الدولة إذ ذاك .

ويبدو أن المسلمين اتبعوا في بعض نواحي حكومة إفريقية النظام العام الذى جروا عليه في حكم غيرها من ولاياتهم ، فكان الخليفة لا يعين العامل فقط بل القاضى أيضاً ، وهذا ظاهر من قول الدباغ : « إن عمر بن عبد العزيز اختار لقضاء إفريقية

(١) راجع كتاب الخراج لأبى يوسف ، الفصل الذى عنوانه : « في إسلام قوم من أهل الحرب وأهل البادية على أرضهم وأموالهم » .

عبد الله بن المغيرة بن بردة الكنانى^(١) . ولكن الخلفاء لم يعينوا قائداً لجند المغرب وإنما تركوا ذلك للعامل ، فإما قاد الجند بنفسه أو ندب لقيادته من أراد .

وكان عامل المغرب مطلق اليد فى اختيار العمال لشتى نواحى الإدارة ، ودليل ذلك أن موسى بن نصير ولى أبناءه قيادة الفتوح فى مختلف النواحى ، وأن : « حسان ابن نعمان (كذا) ولى على صدقات الناس والسعى عليهم حنش بن عبد الله الصنفانى التابعى رضى الله عنه^(٢) » .

والبيانات كثيرة على أن حسان حرص على أن يترضى أهل البلاد ويكرمهم وأن لا يمسهم بأذى ، وأن النظام الذى وضعه كان يحمى حقوقهم ويجعلهم وأموالهم فى مأمن من عدوان الحكام ، فمن ذلك ما ذكره البكرى من أن عامل هشام ابن عبد الملك على إفريقية كتب إليه يعلمه : « أن الجامع يضيق بأهله ، وأن بجوفيه جنة كبيرة لقوم من فهر ، فكتب إليه هشام يأمر بشريها وأن يدخلها المسجد^(٣) » ، مما يدل على أن الخلفاء حرصوا على إقامة العدل فى البلاد . ومن دلائل ذلك أيضاً أن يزيد بن حاتم عامل إفريقية سنة ١٥٥ هـ : « اشترى العمود الأخضر بمال عريض جزل ووضعه فيه^(٤) » فلم يغصبه أصحابه ولم يبخسهم حقهم .

ويبدو أن المسلمين اعتبروا من بقى فى البلاد من الروم والأفارقة موالى لهم ، ولم يعتبروهم كالبربر مساوين لهم فى الحقوق والواجبات ، وربما كان دافعهم إلى ذلك تخوفهم من الروم والأفارقة ، واعتبارهم إياهم شعباً مفتوحاً لهم حق التصرف فيه ، والغالب أن الروم والأفارقة قبلوا هذا الوضع على مضض ، وأنهم كانوا يترقبون الفرصة للوثوب بالحكم الإسلامى وإثارة البلاد ، ودليل ذلك كله ما ذكره أبو الحسن فى حوادث سنة ١٢٢ هـ إذ قال : « فيها خرج بالمغرب ميسرة الحقير

(١) الديباغ، معالم الإيمان ، ج١ ، ص ١٥٤ (٢) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٦٣ — والمراد هنا الصنفانى

(٣) البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٢٣ (٤) نفس المصدر والصفحة .

وعبد الأعلى مولى موسى بن نصير متعاضدين ومعهما خلائق من الصفرية^(١) ،
أى أن عبد الأعلى هذا كان مولى لموسى بن نصير ، وأنه كان من أول الوائمين
على المسلمين ، وأنه كان معه نفر كبير من جنسه ، فإذا عرفنا أن عبد الأعلى هذا
هو « عبد الأعلى بن جريج الإفريقي روى الأصل ومولى للعرب^(٢) » ، لا تضح
أن الروم والأفارقة كانوا يعتبرون موالى للمسلمين ، إذ لم يكن عبد الأعلى وحده
وإنما كان : « إمام الصفرية في انتحال مذهبهم فقام بأسرهم مدة^(٣) » .

ومن هذا نستطيع أن نستنتج أن العرب اعتبروا الأراضى التى كانت للروم
مفتوحة عنوة ، فاستحلوها واعتبروا أهلها ومن وجدوه عليها موالى لهم ، يقتصر قون
في شئونهم كما يريدون ، في حين اعتبروا الأراضى التى كانت للبربر مفتوحة صلحاً ،
فتركوها في يد أصحابها يؤدون عنها المال للدولة ، واعتبروا البربر أنفسهم أحراراً ،
لهم ما للعرب من الحقوق وعليهم ما عليهم من الواجبات ، فكانت النتيجة الموسومة
لهذه السياسة هى اختفاء العنصر الرومى واللاتينى من البلاد شيئاً فشيئاً حتى انعدمت
آثارهم من البلاد تقريباً ، ولم تبق إلا آثار قليلة منهم في الجريد ونواحي ساحلية
أخرى ، واختفت تبعاً لذلك اللغات اليونانية واللاتينية والفينيقية التى كان يستعملها
هؤلاء الروم والأفارقة ، وأدت هذه السياسة كذلك إلى نهوض الشعب البربرى
وأخذ به بأسباب الحضارة الإسلامية وتعلقه بلغة العرب ودينهم ، مما انتهى به
إلى درجة من الرقى مكنته من أن يقيم حضارات زاهرة في البلاد بعد ذلك بسنوات
طويلة ، وينشئ دولاً ذات قوة وإدارات منتظمة ، وبهذا كانت السياسة
الإسلامية في إفريقية أساساً لهذا التطور العظيم في تاريخ هذه البلاد ، فلم تصد
شريطاً ساحلياً يسكنه جماعة من المستعمرين المتحضرين ، وفيما يلى ذلك « أهال »

(١) أبو الحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٨

(٢) السلاوى ، الاستقصاء ، ج ١ ، ص ٤٩ (٣) نفس المصدر والصفحة .

متوحشون على درجة يسيرة جداً من الرقي ، وإنما أصبحت بلاداً واحدة يسكنها شعب مسلم قوى متحضر ، ينشئ الدول ويساهم في العلم والحضارة الإنسانية بنصيب مشكور .

وكان الوالى مكلفاً بأن يعطى من معه من الجند والعمال مما يجيبه من الأموال وما يفئته الله عليه من الغنائم ، والغالب أن الجند كانت لهم أرزاق وأعطيات غير ما يصيبونه في الحروب ، ودليل ذلك ما ذكره اليعقوبى من أن يزيد بن أبى مسلم حين قدم إفريقية وجد عبد الله بن موسى سجيناً بها : « فقال له أعط الجند من مالك أرزاقهم لخمس سنين ، فقال : لا أقدر على ذلك ^(١) » ، مما يدل على أن أرزاق الجند كانت تصرف من أموال المغرب .

بيد أن تاريخ المغرب إبان العصر الأموى لا يدل على أن العمال كانوا يجرون في حكم هذه البلاد على سياسة موضوعة ثابتة ، أو أن الخلفاء كان لديهم نظام ثابت يأخذون بهحكامها ، إنما كان الحكام يسرون في سياستها على غير هدى ، وكان النزاع الدائم بين أهل البلد والحكام دليلاً على أنه لم يكن هناك نظام موضوع . ولم يكن جهد الحكام متجهاً إلى وضع نظام للبلاد أو البحث عما يلائمها من أساليب الحكم والإدارة ، وإنما اقتصر على إقامة العدل على قدر ما استطاعوا ، ولم يكن الخلفاء يطلبون إلى الحاكم أكثر من ذلك ، لأنهم كانوا يعرفون صعوبة حكم هذه البلاد وسياسة أمورها ، ومصدق ذلك ما ذكره التويرى من أن سليمان ابن عبد الملك استعمل : « محمد بن يزيد مولى قريش ، وقال له عند ولايته : يا محمد اتق الله وحده لا شريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل ، اللهم اشهد ! فخرج محمد وهو يقول : مالى عذر إن لم أعدل ^(٢) » وهذه العبارة وحدها تدل على صعوبة

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ، ص ٣٧٦ — ويلاحظ أن عبارة اليعقوبى يفهم منها أن الرجل تأخر في دفع الأعطيات خمس سنوات . (٢) التويرى ، نهاية الأرب ، ص ٨٢ ب

حكم هذه البلاد وحيرة الحكام في الطريق الذى يسلكونه في حكومتها وعلى شعور الخلفاء بذلك .

— ٣ —

كانت سياسة الروم في إفريقية سبباً في القضاء على ما كان قد انتشر من المسيحية بين أهلها إذ وقف الأهليون موقف العدو من الروم وكل ما يتصل بهم من دين وحضارة ، بل أخذ بعضهم يهاجم الأديرة والكنائس : « وحينما ضعف أمر الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس أخذت قبائل شتى من هذا الشعب العظيم — الذى سماه الرومان المورأو النوميديين والليبيين — تغير من الجنوب لتخرب المدائن العاصرة الغنية التى على الساحل ، وكان هؤلاء الغزاة وثنيين من غير شك ، فأخذ الليبيون — الذين يصف لنا سينيكيوس القيرواني أعمال تخريبهم — ينهبون الكنائس ويحرقونها يأخذون منها الآنية المقدسة إلى معابدهم الوثنية ، وكان من أثر هذا التخريب أن الرخاء لم يعد أبداً إلى ولاية برقة ، بل كادت المسيحية أن تكون خيالا زائلا إبان الفتح الإسلامى للبلاد^(١) » ، كما قال الأستاذ أرنولد ، ويمكننا تصور اضمحلال المسيحية في إفريقية إذ ذاك إذا ذكرنا أن عدد الأسقفيات في البلاد كان قبيل الغزو الوندالى خمسمائة بينما لم يزد عددها على مائة أسقفية في سنة ٥٣٤ م ، أى قبيل الفتح العربى ، ولا بد أن يكون عدد المسيحيين قد تضائل جداً بعد الاضطهاد الشديد الطويل المستمر الذى نزل بهم خلال الفترة الأخيرة من الحكم البيزنطى ، وفى خلال القرن الذى انقضى قبل إقبال العرب : « اجتمعت غارات البربر — الذين حصروا الروم في المدائن ومراكز العمران الأخرى واحتفظوا لأنفسهم بالجبال والصحارى والسهول — إلى الفوضى الشاملة وسوء الإدارة ، إلى الطواعين الخربة التى وفدت على البلاد

اضمحلال
أمر المسيحية
في البلاد

Th. Arnold, Preaching of Islam. p. 122. (١)

في النصف الثاني من القرن السادس ، اجتمعت هذه كلها على خراب البلاد ^(١) .
 يضاف إلى ذلك أن الكنيسة الإفريقية لم تكن — خلال العصر البيزنطي —
 على حال تبعث على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد ، فكانت إدارتها مختلفة :
 « إذ تلاشى النظام الكنسي واقترف القسس ذوباً كثيرة تدل على العصيان
 أو التدهور الأخلاقي والفساد ، وكان قساوسة الولاية الداخلية يعارضون أسقفهم
 الأكبر فيما يصدر لهم من أوامر ، وكان آخرون يبذرون الشقاق في الأديرة بإثارة
 الرهبان على رؤسائهم ، وكانت الكنيسة كلها في اضطراب دائم وتدهور مستمر ،
 إذ كانت وظائفها تباع جهاراً ، ولم يكن كبار القساوسة يتأخرون عن معاقبة صغار
 الرهبان بعقوبات بدنية ، واشتهر من المفسدين أسقف تيجس الذي كان يبيع
 وظائف الكنيسة » ^(٢) .

وكانت الدونانية وخصومتها المشهورة مع الكنيسة البيزنطية عاملاً آخر
 من عوامل إضعاف المسيحية في البلاد ، إذ كان دعاتها يفرون إلى داخل البلاد
 نجاة من العقاب ، ويندسون بين القبائل والأهلين ويشيرونهم على الكنيسة فنفر
 منها الناس ، بل أخذ البعض يعمد نفسه من جديد وفق طقوس الدونانيين .
 لهذا لم يخطئ بيكيه حين قال : « ويبدو أن البربر لم تكن لهم أديان ثابتة قبل
 الإسلام ، كانوا وثنيين أو يهوداً ، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية في القرون
 الأولى ثم نسوها حين استعادوا استقلالهم » ^(٣) . وإن كان قد أخطأ في تعليل تلك
 الظاهرة بقوله : « إنهم شعب غير متدين » وكان ينبغي أن يرد ذلك إلى مساوئ
 الحكم البيزنطي ، وفساد كنيسة إفريقية .

(١) Th. Arnold, Preaching of Islam, pp. 122-123.

{ Greg, Epist. p. 24.
 { Diehl, op. cit. pp. 506 Sqq. (٢)

V. Piquet, op. cit. p. 60 (٣)

وإذا كان قد بقي في البلاد نفر من المسيحيين فقد أخذوا يغادرونها أثناء الفتح العربي ، بحيث يمكن القول بأن البلاد لم يكن فيها إلا أقل آثار من المسيحية بعيداً تمام الفتح العربي لها .

يروى ابن خلدون رواية يفهم منها أن أهل البلاد أقبلوا على الإسلام من زمن مبكر جداً ، فيقول : « وانساح المسلمون في البسائط بالغارات ، ووقع بينهم وبين البربر أهل الضواحي زخوف وقتل وسبي ، حتى لقد حصل في أسرهم يومئذ من ملوكهم وزمار بن صقلاب جد بني حذر وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر زناتة ورفعه إلى عثمان بن عفان فأسلم على يده ومن عليه وأطلقه وعقد له على قومه » (١) أي أن وزمار هذا بادر إلى الإسلام منذ الساعة الأولى التي دخل العرب البلاد فيها ، وبديهي أن ابن خلدون أراد أن يقول إن قوم صقلاب تبعوه فيما فعل .

هل أقبل
البربر على
الإسلام من
زمن مبكر ؟

وللبلاذري رواية تؤيد رأى ابن خلدون هذا يفهم منها أن إسلام أهل البلاد إذ ذاك لم يكن بسيطاً أو محدوداً ، وإنما أقبل عليه نفر غفير استدعى التنظيم والعناية ، فيقول : « إن عمرو بن العاص أرسل إلى عمر بن الخطاب كتاباً : يعلمه أنه قد ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب ، فبلغ زويلة ، وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم ، حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه ، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها في الفقراء ، يأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر » (٢) فكيف استطاع العرب أن يوفقوا هذا التوفيق كله في ذلك الزمن المبكر ؟ وإذا كان هذا مبلغ إقبال أهل البلاد على الإسلام من أول الأمر ، فكيف

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١٠٨

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٤

تأخر تمام إسلامهم قرناً آخر من الزمان فلم يظهر بشكل واضح إلا في حكومة عمر بن عبد العزيز؟.

الواقع أن رواية ابن خلدون مشكوك في صحتها ، لأن أحداً من مؤرخي المشرق لم يشر إلى حضور وزمار هذا إلى عثمان ، وأمر كهذا له أهميته ، ولم يكن ليفوتهم وهم الذين كانوا يحصون كل شاردة وواردة مما كان يحدث بالمدينة في هذه الأيام . أما رواية البلاذري فقد سبق ترجيح أن عمرأ كتب كتابه هذا في ولايته الثانية على مصر لافي ولايته الأولى ، وأنه كتبها معاوية بن أبي سفيان لاإلى عمر بن الخطاب وأنه — إن كان قد كتبها حقاً — لم يرد بها تقرير الواقع ، وإنما أراد بها أن يستحث معاوية على موافاته بالجند والمال لفتح إفريقية التي كان قد أرسل عقبة بن نافع ليمهد لغزوها إذذاك ، هذا إلى أنه لا يسعنا إلا الشك في قيمة هذا الكتاب ودلالته ، فإن مايلي ذلك من الأحداث لايدل على أن الإسلام لقي من أهل فزان وودان وطرابلس هذا القبول العظيم الذي يفهم منها .

بيد أن المراجع تؤكد لنا أن نفراً من أهل البلاد دخل الإسلام بعد ذلك بسنوات قلائل ، أى خلال السنوات الخمس التي قضاها عقبة في تخطيط القيروان ، فاتفق ابن الأثير والنويرى في القول بأن بعض البربر أسلم حين رأى عقبة يخرج الحيات من موضع القيروان ^(١) ، ثم عاد ابن الأثير فأكد أن الإقبال على الإسلام زاد بعد بنائها ، إذ أن عقبة : « كان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب ، ودخل كثير من البربر في الإسلام ، واتسعت خطط المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان ، واطمأنوا على المقام ، فثبت الإسلام فيها ^(٢) » فهل أسلم كثيرون من أهل هذه النواحي حقاً بين سنتي ٥٠ و ٥٥ هـ ؟

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١٨٤ — النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٢ ، ص ٦٨ أ

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١٨٤

إننا نعرف أن القبائل التي كانت تسكن الناحية التي أقيمت فيها القيروان أو تحيط بها إنما هي لواتة ونفزاوة ونفوسة ، وأن هذه القبائل معدودة من قبائل البدو الذين لبثوا على عدااء الروم زماناً طويلاً ، ونعرف أن تأثير المسيحية في هذا الفريق من البربر كان طفيفاً جداً ، فهل يكون ذلك مؤيداً لرواية إسلامهم السريع ؟ أى هل كان عداؤهم للروم وكرهيتهم لهم سبباً من أسباب دخولهم الإسلام ؟

ينبغي أن نذكر قبل ذلك أن البربر الذين أكد البلاذري إسلامهم في روايته التي سبق بيانها هم لواتة ونفوسة وهوارة ، أى أنهم من البدو ، وأن المراجع تذكر لنا فيما تلا ذلك من الأحداث أن هذا الفريق من البربر كان مؤازراً للعرب مناصراً لهم من أول الأمر ، واستمر على ذلك زماناً طويلاً . وأن رجالة كانوا يدلون العرب على مسالك البلاد وطرقها ، فيذكر ابن عبد الحكم أن حسان بن النعمان : « وجه على مقدمته محمد بن أبي بكر وهلال بن شروان اللواتي ^(١) » وأنه : « كان معه جماعة من البربر من البتر ^(٢) » وقد سبقت الإشارة إلى : « نشوء جماعات إسلامية لم تكن قليلة ، وإنما كانت كثيرة نوعاً : فيها بعض زناتة وبعض نفوسة وبعض مصمودة » ، وإذا لوحظ أن هذه القبائل التي بدأت تدخل الإسلام أو تميل إليه من ذلك الحين كانت تسكن الجنوب فتدخل فيها برغواطة وزناتة ونفوسة ، كان من السهل تكوين فكرة عن بدء إسلام إفريقية الفعلية واتجاهه : بدأ عند القبائل الجنوبية الكثيرة الشبه بالعرب التي تميل للرحلة وتحيا حياة مشطورة بين الظعن والإقامة ، ثم أخذ يمتد إلى الشمال شيئاً فشيئاً » أى أن حركة الإسلام في إفريقية أو حركة الانضمام للعرب بدأت أول الأمر عند القبائل المتبدية الجنوبية ، أما القبائل المتحضرة نوعاً فيبدو — من هذه الروايات — أن إسلامها وانضمامها للعرب تأخر بعض الشيء .

وربما أعاننا على تفسير هذا الأمر أن نذكر مانعاً من عدااء هذا الفريق

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٠ (٢) نفس المصدر ، ص ٢٠١

من البربر للروم من قديم الزمان ، وحربهم الطويلة وإياهم ، ووقوفهم من الروم دائماً موقف العدو الذى يأبى الخضوع ويرفض الطاعة ، وتلمسهم الأسباب للخلاص منهم وطردهم من البلاد ، ونظرة واحدة إلى تاريخ العلاقات بين هؤلاء البربر والروم تؤكد أن الذى حدث هو الطبيعي المحتمل الوقوع .

وليس معنى هذا أن أهل البلاد انقسموا إلى قسمين عظيمين : أحدهما يضم قبائل الحضرة والآخر يضم قبائل البدو ، وأن الأولين ظلوا على عداوة العرب فى حين سارع الآخرون إلى عونهم واعتناق دينهم ، لأن هؤلاء البربر الحضرة كانوا أقلية ضئيلة جداً إذا نسبت إلى البدو ، وبقاؤهم على عداوة العرب فترة من الزمان لا يعنى أن نصف البربر ظل بعيداً عن الإسلام . فلم يكن هؤلاء البربر الذين تأثروا بالحضارة البيزنطية إلا بضع قبائل قليلة تسكن نواحي الزاب وتحيط بالرباطات ، وكانت بعد هذه الجهود الطويلة التى أنفقتها العرب فى فتح البلاد قد ضعف أمرها بحيث لم يعد يحسب لها حساب ، ومن هنا لم يكن جوتيه موفقاً حين عاق على هذا الفريق من البربر أهمية عظمى وبنى على هذا الأساس نتائج خطيرة تتصل بإسلام أهل البلاد ، وظاهر أن سبب خطئه هو أنه ذهب إلى أن كل القبائل التى سماها نسبة البربر برانس حضرة ، وكل التى سموها بترابو ، وليست الحقيقة كذلك كما هو ظاهر من ابن خلدون نفسه ومن اعتراض الأستاذ وليم مارسيه على هذا الرأى ^(١) . والغالب أن حركة إسلام البربر كانت قد بدأت من زمن مبكر جداً ، إذ لا خلاف فى أن نفرأ منهم أسلم والعرب يخططون القيروان ، وأن الإقبال على الإسلام استمر من ذلك الحين ، ومصادق ذلك ما ننبئنا به المراجع من إسلام الزعيم البربرى — كسيلة — بعد ذلك بنحو ثمان سنوات ، وقد سبقت الإشارة إلى أهمية حادث كهذا ودلالته ، فقلنا إنه : « لا نزاع فى أن كسيلة لم يسلم بمفرده وإنما تبعه

(١) A. Julien, pp. 323-325. راجع الفصل التمهيدى الأول .

نفر كبير من قومه من القادة والأقارب والأتباع والأصاغر . . . وستتضح أهمية هذا الحادث بعد ذلك بثلاثين سنة فقط حين نجد رجلاً من البربر وأهل البلاد مسلمين على ثقة وتمكن من دينهم ، يسرون مع العرب جنباً لجنب لفتح البلاد ونشر راية الإسلام ، وكيف نفسير ظهور رجل كطارق بن زياد عربي الاسم عربي الأب في سنة ٥٩١ هـ ، إلا بأن أباه زياداً قد تزوج من أهل البلاد في مثل هذا الوقت الذي نتحدث فيه ؟ ، وإنما ضربنا المثل بطارق لكي نؤكد أن حركة الاختلاط بين العرب والبربر — بالزواج والإسلام — كانت تسير جنباً إلى جنب مع الفتوح التي شغل الرواة بأخبارها^(١) .

بهذا بدأت حركة الإسلام بين البربر من زمن مبكر ، ثم كانت حملة عقبة الثانية ومغامراته فيها واستشهاده في ختامها ذات أثر بعيد في نفوس الأهلين ، تؤيد ذلك الروايات التي بين أيدينا عن هذه الغزوة ، فهي تصورها لنا كما انطبعت في أذهان الأهلين : قصة طريفة حافلة بأعمال الشجاعة والإيمان والمعجزات والكرامات والاستهانة بالموت ، وهذا التصور دليل ناطق على أن الأهلين كانوا ينظرون لعقبة بالإعجاب ، وأنهم ظلوا على ذلك زماناً طويلاً ، وإذا كنا قد لاحظنا أن بعض القبائل هم لنصر عقبة وأصحابه حين كاثرتهم الأعداء ، فبديهي أن يقال إن البلاد وجدت بها — من ذلك الحين — جماعات إسلامية ، أو تميل إلى المسلمين على الأقل ، وأن يقال إن حركة الإسلام كانت سائرة سيراً حثيثاً بين الأهلين . بهذا لا يكون إقبال أهل البلاد على الإسلام أيام حسان أمراً غير طبيعي أو ظاهرة ينبغي الشك في حقيقتها ، لأن المقدمات كلها تنتهي إليها ، فهؤلاء البربر الذين أقبلوا على الإسلام إقبالا ضعيفاً من نحو ثلاثين سنة ، واستمروا على ذلك طوال السنوات الماضية ، فكان طبيعياً أن يشتد إقبالهم عليه حين يتم نصر العرب

(١) راجع ص ١٧٥ — ١٧٦ من هذه الرسالة .

وحين يوقفون إلى القضاء على كل لون من المقاومة في البلاد . وإذا كان العرب قد اعتبروا أهل المغرب أنداداً لهم وأشركوهم في جيوشهم وأعطوهم الأعطيات وسمحوا لهم بالاشتراك في المغانم، فمن الطبيعي أن يقبل على الإسلام من لم يكن قد أقبل عليه منهم بعد ، فلم يعد الإسلام كسباروحياً فقط وإنما مادياً يعود على من يعتنقه بالخير الوفير . يقول ابن عذارى في ختام أعمال موسى بن نصير في إفريقية ، أى بعد عوده إلى القيروان : « وفي هذا التاريخ ^(١) تم إسلام المغرب الأقصى ، وحولوا المساجد التي كانت بنتها المشركون إلى القبلة ، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات ، وفيها صنع مسجد أغمات هيلانة » ^(٢) فماذا يريد ابن عذارى من قوله : « المغرب الأقصى ؟ » ولماذا لم يقل المغرب فقط ؟ أيريد أن أهل إفريقية والمغرب الأوسط كان قد تم إسلامهم قبل ذلك ولم يكن قد بقى إلا أهل المغرب الأقصى ؟ أم يريد أن بربر المغرب الأقصى فقط هم الذين تم إسلامهم وبقيت في بقية نواحي المغرب أحياء من البربر لم تسلم بعد ؟ فأما الفرض الأول فلا يؤيده ما سبقت الإشارة إليه من أن برغواطة — إحدى قبائل السوس — كانت من أول القبائل إسلاما ، وأن أهل هذه النواحي أقبلوا على الإسلام من زمن بعيد ، وأما الفرض الثاني فلا يستقيم مع ما سبق ذكره من إسلام زناتة وصنهاجة وهوارة ، وهى ثلاثة القبائل الكبرى التي تعمّر المغرب الأوسط ، فلم يبق إذن إلا القول بأن ابن عذارى أراد المغرب كله بهذا القول . وربما جاز أن نفهم من قوله : إن هؤلاء الذين أسلموا في ذلك الحين : « حولوا المساجد التي كانت بنتها المشركون إلى القبلة ، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات » ، أن معظمهم كان من الحضرة الذين يسكنون المدن التي فيها كنائس ، يمكن تحويلها إلى مساجد بتحويلها إلى القبلة وإقامة المنابر فيها ، فإذا صح هذا

(١) يذكر ابن عذارى سنة ٨٥ هـ وهو خطأ وقد سبق بيان ذلك .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٨

التأويل ، كانت عبارة ابن عذارى على جانب عظيم من الأهمية ، لأنها تدل على أن طائفة البربر الحضر — الذين كانوا متأثرين بالحضارة اللاتينية واعتنق النصرانية منهم نفر — بدأت تقبل على الإسلام ، وأن إسلامها كان صحيحاً بحيث اقتضى إقامة المساجد عندهم ، وبما يؤيد ذلك قول ابن عذارى قبل ذلك ، إن موسى ترك عند بربر طنجة : « سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن » ويعزز ذلك الرأي أيضاً قول ابن عذارى : « وقد كان عقبة بن نافع الفهري ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام ، منهم شاكر وغيره ، ولم يدخل المغرب الأقصى أحد من ولادة خلفاء بني أمية بالشرق إلا عقبة بن نافع الفهري ، ولم يعرف المصامدة غيره ، وقيل إن أكثرهم أسلموا طوعاً على يديه ، ووصل موسى بن نصير بعده » (١) مما يدل على أن شخصية عقبة كانت شديدة الأثر في أهل هذه النواحي ، وأن ذكره ظلت عالقة بأذهانهم حتى أيام موسى بن نصير . وإذا كانت الوقائع لا تؤيد ابن عذارى فيما ذكره من إسلام أهل هذه النواحي من ذلك الحين ، فلا أقل من مجاراته في القول بأن المصامدة لم يعرفوا غير عقبة ، أى أنه كان الدافع الأول للإسلامهم .

بيد أنه ليس من الصواب أن يقال إن جميع هؤلاء البربر الذين أسلموا إنما فعلوا ذلك عن إيمان وثيق واقتناع بالدين الجديد ، لأنه إذا كان نفر منهم قد أقبل على الدين مدفوعاً بهذا الشعور ، فلا نزاع في أن كثيرين أقبلوا عليه طمعاً في غنيمة أو فراراً من جباية أو بدافع العداء للروم أو خوفاً من العرب ، فقد قال المقرئ بعد أن سرد حروب موسى بن نصير : « فلما رأى بقية البربر نزل بهم استأمنوا » (٢) أى أنهم خافوا أن ينزل بهم موسى ما أنزل بغيرهم من القبائل من الحرب الشديدة والسبي وما إلى ذلك ، فتسارعوا إليه يعلنون إسلامهم حتى يأمنوا على أنفسهم

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٨ (٢) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١١١

وعلى أموالهم ، وحتى يصبح لهم الحق في ملكية ما بيدهم من الأرض وحتى يتاح لهم الاشتراك فيما يقبل من فتوح العرب ونفائهم .

والبيانات كثيرة على أن الخلفاء كانوا على نية الخير لإفريقية وأهلها ، فقد سبقت الإشارة إلى وصاة سليمان بن عبد الملك لمحمد بن يزيد وقوله له : « اتق الله وحده لا شريك له ، وتم فيما وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله ^(١) » ، مما يفهم منه أن سليمان كان يحرص الحرص كله على أن تحسن معاملته أهل إفريقية ويُمدل فيهم ، وقد لوحظت كذلك رغبة الخلفاء في أفراد إفريقية بولاية خاصة ، وتخليصها من سلطان عمال مصر خوفاً من أن يستبد هؤلاء بأهل البلاد ويمتروهم ، وقد استمر الخلفاء على حرصهم هذا طوال العصر الأموي ، ومن دلائل ذلك ما وقع بين موسى ابن نصير وسليمان بن عبد الملك ، مما يؤول دائماً بأنه كان سخطاً من سليمان على موسى لإسراعه بمآمعه من الأموال حتى أدرك الوليد ، وسببه في الواقع أن سليمان لم يكن يرضى عن سياسة موسى ، وساءه منه تعاظمه وتصرفه تصرف الملك المستبد بأمره لا العامل المولى من قبل الخلافة ، وأحفظه إسرافه في عسف الناس وظلمهم وسبيهم وتقسيمه نواحي المغرب والأندلس بين أبنائه وذويه ، ومن دلائل ذلك أيضاً أن يزيد بن عبد الملك لم يستخط على أهل إفريقية لقتالهم عامله عليهم يزيد بن أبي مسلم ، وإنما أجابهم بالرضا وأقر محمد بن يزيد على عمله ^(٢) ، مما يفهم منه أنه هو الآخر كان ساخطاً على يزيد لمسلكه في البربر لأنه : « عزم أن يسير فيهم بسيرة الحجاج في أهل العراق الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة فأسلم بالعراق ، فإنه ردهم إلى قراهم ، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار ^(٣) » ، ومصدق ذلك أن يزيد بن عبد الملك كتب إليهم يقول : « إني لم أرض عما صنع يزيد بن أبي مسلم ^(٤) » .

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٢ — ٣٣

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٨ (٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٥ ، ص ٣٨

(٤) نفس المصدر والصفحة .

لهذا لا ينبغي القول بأن المسلمين أساءوا السيرة في إفريقية ، أو أن غرض الحكم الإسلامي إنما كان عسف البربر والاستبداد بهم والفوز منهم بالغنائم والأسلاب ، وإنما الأصح أن يقال إن العمال أنفسهم هم الذين أساءوا السيرة ومالوا إلى الاستبداد بالناس إسرافاً منهم في إرضاء الخلفاء بالأكثر من الهدايا والمغالات فيما يرسل إلى الدولة من المال كل عام ، وقد سبقت الإشارة إلى ما كان من إسراف موسى ومغلانته في ذلك حتى قال الناس : « ابن نصير والله أحق ؛ من أين له عشرين ألفاً ! » ولا بن عذارى رواية تدل على ذلك صراحة ، وذلك حيث يقول في نقده لسياسة عبد الله بن الحبحاب في إفريقية : « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية ، فيبعثون لهم البربريات المسببات ، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير ، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان ، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة^(١) » ، ففي هذا القول إشارة صريحة إلى تكلف عامل المغرب في هداياه للخلفاء ، وإسرافه في ذلك ، ودليل على أنه كان قد عقد العزم يوم تولى على أن يبعث للخلفاء بالهدايا الوافرة الكثيرة في كل عام ، ويلاحظ كذلك أن إشارة ابن عذارى إلى رغبة الخلفاء في لطائف المغرب لا تدل على أنهم لم يكونوا يريدون الكثير منها ، « وإنما كانوا يستحبونها فقط^(٢) » ولدينا الدليل على أن الخلفاء لم يكونوا ليرضوا من عمالهم هذا الإسراف في إرسال الأموال والهدايا وما إليها ، وأنهم كانوا يتعففون في كثير من الأحيان عن أخذ ما يصل إليهم من المال إذا تبينوا أن العامل لم يعدل في قسمة أو أسرف في جمعه من أهل البلاد ، فقد روى ابن عبد الحكم أن سليمان بن عبد الملك حينما وصلته هدايا موسى بن نصير انبعث رجل من أصحاب موسى يقال له عيسى بن عبد الله الطويل من أهل المدينة ، وكان

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ، ص ٣٩

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٩

على الغنائم فقال : « يا أمير المؤمنين إن الله قد أغناك بالحلل عن الحرام ، وإنى صاحب هذه الغنائم ، وإن موسى لم يخرج خمساً من جميع ما أتاك به ، فغضب سليمان وفام عن سريره فدخل منزله ثم خرج إلى الناس فقال : نعم قد أغنانى الله بالحلل عن الحرام ، وأمر بإدخال ذلك بيت المال ^(١) » .

وكان البربر أنفسهم يعرفون أن الخلافة تنوى بهم الخير ، وأن ما قد ينزل بهم من العسف والجور إنما سببه العمال ، ولهذا لم يسخطوا على الخلفاء وإنما على العمال ، ومن دلائل ذلك قول ابن الأثير : « وكانوا — أى أهل إفريقية — يقولون : لا نخالف الأئمة — أى الخلفاء — بما تجنى العمال ، فقالوا — أى الدعاة الذين كانوا يحرضون البربر على الفتنة — لهم إنما يعمل هؤلاء بأسر أولئك ، فقالوا : حتى نخبرهم ! فخرج ميسرة فى بضعة وعشرين رجلاً ، فقدموا على هشام فلم يؤذن لهم ، فدخلوا على الأبرش فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده ، فإذا غنمنا نفلهم ولم ينفلنا ويقول : هذا أخلص لجهادكم ... ، فقلنا : لم نجد هذا فى كتاب ولا سنة ونحن مسلمون ، فأحببنا أن نعلم أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ فطال عليهم المقام ونفذت نفقاتهم ، فكتبوا أسماءهم ودفعوها إلى وزرائه ، وقالوا : إن سأل عنا أمير المؤمنين فأخبروه ، ثم رجعوا إلى إفريقية ، وبلغ الخبر هشاماً فسأل عن نفر فعرف أسماءهم فإذا هم الذين صنعوا ذلك » مما يدل على أن أهل البلاد كانوا يشعرون أن ما يصيبهم من الأذى إنما كان عن رأى الأمراء لا الخلفاء ، وربما لاحظنا من هذه الرواية أنه حيل بينهم وبين الخليفة حتى لا تصل شكواهم إلى مسامعه ، وهو فرض محتمل الحدوث فى هذه الأيام ، فلا يبعد أن تكون بطانة الخليفة من نفس الحزب أو القبيلة التى ينتمى إليها العامل الذى أقبل البربر يشكونه ، فعملوا على أن لا يصل صوتهم إلى الخليفة ، وربما أيد ذلك قول ابن الأثير : « إن الخليفة سأل عن وفد

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١١

أثر فتح
الأندلس في
إسلام أهل
المغرب

البربر بعد انصرافه « مما يدل على أنه كان يريد مقابله والتعرف على شكواه .
بيد أن حركة فتح الأندلس كانت عظيمة الأثر في إفريقية ، فقد كان النصر
السريع الذي حازه الفاتحون الأول حافزاً لمن تخلف من البربر المسلمين إلى عبور البحر
والاشتراك في الحرب والمساهمة في الغنم الوفير ، ثم دافعاً لمن كان قد بقي على دينه
إلى الدخول في الإسلام حتى يتاح له الالتحاق بجند المسلمين ، ومن ثم كان فتح
الأندلس معجلاً بإسلام البربر على رغم سوء سياسة أمراء إفريقية وعدم حفاظهم
بنشر الإسلام بينهم ، وسواء أكان إسلام هؤلاء الذين اشتركوا في الفتح عن عقيدة
أو لمطامع أخرى ، فإن غلبة الروح الديني على الفتح ، واختلاط جند البربر بالعرب
المسلمين قد أدى إلى تثبيت إسلام البربر وإظهارهم على اللغة العربية ، وقد كان
العرب قد أخذوا يفدون بكثرة إلى الأندلس للحرب وللإقامة ، فكثير مرورهم
في إفريقية واختلاطهم بالبربر ومصاحبتهم لهم ، ومن ثم أتاحت للبربر الفرصة
ليتعلموا أصول الإسلام عن العرب ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيراً من مهاجري
العرب إلى الأندلس كانوا من أعرق القبائل العربية وأعرفها بالدين واللغة ،
وأن خصومة المضرية والقيسية كانت تحمل إلى الأندلس كل يوم نيراً من أهل
المدينة وعرب الشام ، ممن يعرفون الإسلام والعربية حق المعرفة ، لأمكن تصور
الأثر الكبير الذي أحدثه فتح أسبانيا في إفريقية ، ذلك أن المغرب كان الطريق
الذي يسلكه هؤلاء كلهم في سبيلهم إلى الأندلس ، فكثير مرورهم بين القبائل
البربرية ، وربما تخلف فيها نفر منهم وأقام بين البربر رجاء أن يعتز بنصرهم
أو يكسبهم إلى جانبه ، فأخذت القبائل عنهم الدين واللغة مما كان له أبعد الأثر
في الإسراع بهذه البلاد نحو الإسلام والعربية .

وكانت منازعات الأحزاب على أشدها طوال العصر الأموي ، وعصفت
برجال الدولة ثارات العصبية ، فكثير الاضطهاد وتعددت الخصومات ، وكان

الأمويين طائفة عظيمة من الأعداء السياسيين لا يكفون عن الشغب ولا يكف الأمويون عن تعقبهم بالأذى ، فكثير فرار هؤلاء من البلاد والتماسهم الأمان في ناحية بعيدة عن مركز الدولة ، وكان المغرب من النواحي التي كثر التماس هؤلاء الفارين للأمان فيها لاتساعها وتشعب مسالكها وكثرة قبائلها ، وكان الكثير من هذه القبائل ينطوى على السخط على العمال لما يصيبها من الأذى على أيديهم ، فكانت ترحب بهؤلاء اللاجئين لأنهم وإياها على هوى واحد ، ولهذا كثر وفودهم على المغرب والتجأؤهم إلى قبائله ، وهذا ظاهر ملموس من رواية ابن الأثير التي سبق ذكرها ، ففيها تحريض من هؤلاء الفارين من العرب للبربر على الثورة والعصيان ، فإذا قال البربر إن سبب الشر هم الأمراء لا الخلفاء قالوا لهم : « إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك » .

ويبدو مما وقع بعد ذلك من الأحداث أن هؤلاء المحرضين لم يكونوا قليلين ، وإنما حفلت البلاد بنفر غفير منهم ، بل بلغ من كثرتهم أنهم استطاعوا أن يؤثروا في كثير من هذه القبائل ويدفعوها إلى الثورة على الأمويين ، ويبدو أن هؤلاء المحرضين كانوا لا يدخرون وسعاً لإدراك هذه الغاية ، وأنهم كانوا يسلكون كل سبيل يمكن أن يؤدي إلى ثورة البربر على الخلافة ، ومن ذلك أنهم أخذوا يتحجبون إلى البربر بامتداحهم ، واختلاق الأحاديث النبوية التي تعظم إفريقية وتعد المجاهدين من أهلها أنجزل الثواب ، ومن هنا لا غرابة في أن نجد في كتب التاريخ المغربي طائفة عظيمة من الأحاديث النبوية عن البلاد وبعض نواحيها كالمستير ورادس^(١) وغيرها ، وربما كان هذا هو السبب في انتساب بعض قبائل البربر الكبرى كصنهاجة وكتامة إلى العرب ، إذ لا يبعد أن يكون الدعاة قد اختلقوا

(١) لفظ المستير لاتيني الأصل ولا زال باقياً إلى اليوم في لفظة Monastère الفرنسية ، وقد سبق بيان أصل لفظ رادس ، وهناك طائفة أخرى من الأحاديث تدم إفريقية وأهلها ، يرجع أنها هي الأخرى مظهر من مظاهر التطاحن الحزبي .

الأنساب العربية لتلك القبائل ، حتى يوجدوا بين أنفسهم وبين البربر نسباً يمكنهم من الزعامة عليهم ويمكن لهم في نفوسهم ، وأعان على ذلك الشبه الشديد بين الشعبين في الطبيعة والظروف الاجتماعية .

من هنا نشأ ما يسمى في تاريخ المغرب بحركات الشيعة والخارجية ، إذ أن المعروف أن كثيراً من أعداء الأمويين كانوا من هذين الفريقين ، وأن كثيراً منهم فر إلى المغرب حيث صادفت دعايتهم مرعى خصباً بين القبائل البربرية ، ولهذا كان ظهور حركات الخارجية والصفورية سريعاً في المغرب ، إذ اندلعت نيران الثورة الخارجية في ولاية عبيد الله بن الحبحاب في سنة ١٢٢ هـ . قادها : « ميسرة السقاء ثم المدغري وكان خارجياً و صفرياً ^(١) » ، وهي ثورة لا تحتاج إلى دليل لإثبات يد هؤلاء الدعاة من الشيعة والخوارج فيها .

أصل حركات
الخارجية في
المغرب

بيد أن هذه العوامل كلها كانت عظيمة الأثر في انتشار الإسلام بين أهل البلاد ، فهؤلاء الدعاة الذين انبثوا بين القبائل كانوا يعملون على نشر الإسلام بينها ، وربما كان وجودهم بين هذه القبائل حافزاً لها على تعلم العربية ومحاولة معرفتها حتى تستطيع التعرف على ما يدعون إليه ، وأعان على ذلك سخط الجانبيين — القبائل والدعاة — على عمال الأمويين ، فأقبل البربر على هؤلاء الدعاة والتفوا حولهم وأولواهم العون العزيز ، وصح إسلام الكثيرين منهم وكل هذا السبيل .

بهذا سار إسلام البربر سيراً حثيثاً من غير أن يكون للخلفاء أو الأمراء أثر ظاهر في ذلك ، بل لو كان إسلام البربر قد توقف على سياسة هؤلاء واهتمام أولئك ، لما تقدم على النحو الذي مر بيانه ، لأن كثرة المشاغل وتعدد الثورات والفتن حالت بين الخلفاء وبين الاهتمام بناحية دقيقة كهذه ، وجعلت يد الأمراء مطلقة ، فساقوا

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٥ ، ص ٧٠

أهل المغرب سوقاً عنيفاً ، وانصرفوا كل الانصراف عن الاهتمام بإسلامهم ، بل منهم من كان يرى أن هذا الإسلام لا يتفق وصالح الدولة ، فأخذ يفرض الجزية على من أسلم من الأهليين ، وهو أعلم الناس بأن سياسة كهذه من شأنها أن تنفرهم من الإسلام والعرب جملة .

فإذا كانت هذه هي سبيل البربر إلى الإسلام ، فطبعي أن يكون إسلام الكثيرين منهم حتى ذلك الوقت — خلافة سليمان بن عبد الملك ٩٦ — ٩٩ هـ — سطحياً لا يقوم على أساس صحيح من العلم بالدين وقواعد الإسلام .

فلما تولى عمر بن عبد العزيز تنبيه لذلك وأحس خطره ، وكانت لعمر سياسة إسلامية تنحو إلى نشر الإسلام وإدخال رعيته كلهم في رحابه ، ويدوأن سياسة سلفه سليمان في إفريقية لم تلق عنده القبول ، فعزل واليه محمد بن يزيد القرشي وولى على إفريقية والياً من لدنه ، يشق فيه ويطمئن إلى اهتمامه بإسلام أهل البلاد وهو إسماعيل بن عبيد الله فولاه : « في المحرم سنة ١٠٠ هـ على حربها وخراجها وصدقاتها ^(١) »

تتفق المراجع على أن إسماعيل بن عبيد الله : « دعا من بقي من البربر إلى دين الإسلام ^(٢) » وأنه : « كان خير أمير وخير وال ، ومازال حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه في دولة عمر بن عبد العزيز ، وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام ^(٣) » وأنه : « لم يزل حريصاً على دعاء البربر للإسلام حتى تم دينهم على يده ^(٤) » .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٣ (٢) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٢ ، ص ٨٣ أ

(٣) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٤ (٤) السلاوي ، الاستقصا ، ص ٤٦

التابعون
العشرة الذين
أرسلهم عمر
ابن
عبد العزيز
إلى المغرب

أوصى عمر واليه على إفريقية بأن يبذل كل ما يملك من جهد في سبيل إسلام
البربر، ويبدو أن إسماعيل نفسه كان على إسلام وثيق وإيمان ثابت، إذ يصفه
الدباغ بأنه: «كان قتيها صالحاً فاضلاً زاهداً»^(١)، وقال ابن الناجي:
«قال معن التنوحي ما رأيت في هذه الأمة غير اثنين: محمد بن عبد العزيز وإسماعيل
ابن عبيد الله الخزومي، وبلغ من زهده أنه كان إذا أقبل من الغزو في الصايفة افتش
درعه فنام عليها، وكان هو وأم ولده وفرسه في بيت واحد زهداً منه في الدنيا
وتواضعاً»^(٢) فكان خير من يعهد إليه بمثل هذه المهمة، وكان عمر قد بعث معه
«عشرة من التابعين أهل علم وفضل، ومنهم عبد الرحمن بن نافع وسعيد بن مسعود
التنجي وغيرهما»^(٣).

ويغلب أن هؤلاء التابعين انبثوا بين البربر وأخذوا يعلمونهم أصول الدين
ويبصرونهم بقواعده وأشرطه، ويبدو أن أهل إفريقية كانوا على جهل تام بتلك
القواعد والأصول، لأن ابن عذارى يقول: «وكانت الحر بافريقية حلالاً حتى
وصل هؤلاء التابعون فبينوا تحريمها رضى الله عنهم»^(٤)، ولم يفصل لنا مؤرخو
المغرب أعمالهم على الرغم من عنايتهم بتتبع أخبارهم، ولا السبيل التي سلكوها في
تحويل الأهليين إلى الإسلام، وإنما الغالب الذي يمكن استنتاجه من توارخهم
أن معظمهم أقام بالقيروان حيث ائبنوا مساجد يعلمون فيها الإسلام، ويبدو
أن الأهليين كانوا يقدون على هذه المساجد فيستمعون إلى هذه الدروس التي
كانت تلقى بها. ومن المساجد التي بنيت على يد هؤلاء التابعين: مسجد «الرباطي»
بناه أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري الإفريقي، و«جامع الزيتونة»
بناه إسماعيل بن عبيد الله المعروف بتاجر الله^(٥)، وقد أخذ عن هؤلاء التابعين

(١) الدباغ، معالم الأيمان، ج ١، ص ١٥٤ (٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١، ص ٣٤ (٤) نفس المرجع والصفحة.

(٥) الدباغ، معالم الأيمان، ج ١، ص ١٣٨ و ١٤٨.

نفر طيب من أهل إفريقية، ذكر المالكي منهم : سودة الجراحي وعبدالرحمن بن سياد (أخذا عن اسماعيل بن عبيد الأنصاري^(١)) ، بل يبدو أن هؤلاء التابعين كانوا على درجة وافرة من العلم ، بحيث انتشر صيتهم ووفد الناس من شتى النواحي للأخذ عنهم ، فقد روى المالكي أن : « عمران بن عوف الغافقي من أهل مصر أخذ العلم عن اسماعيل بن عبيد^(٢) » .

وكان هؤلاء المتعلمون من أهل المغرب يقضون بعض الوقت في الدراسة في القيروان ، ثم يعودون إلى قبائلهم ونواحيهم فيولون وظائف الدين والقضاء ، ويعلمون الناس أصول الإسلام ، فقد جاء في سيرة أسد بن القرات بن سنان أن أباه : « قدم إفريقية وأمه حامل به ، فولد أسد بتونس سنة ١٤٥ هـ ، وقرأ على علي بن زيادة ولزمه وانتفع به وتعلم منه وتفقه عليه ، ثم تصدى بعد ذلك لصناعة التعليم فأقرأ القرآن في بعض قرى بجرّدة^(٣) » .

ويبدو أن العرب الذين نزلوا إفريقية إذ ذاك حرصوا على أن يتخذوا لأبنائهم المعاهد الصغيرة الملحقة بالمساجد ، يدرسون فيها القرآن والحديث والدين واللغة ، فوفد عليها نفر من أهل إفريقية يتعلمون العلم ، فقد قال الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب : « إنهم عندما أناخوا بمعسكرهم وخطوا «قيروانهم» أول ما أنشأوا الدور والمساجد ، ثم التفتوا إلى تعليم صبيانهم ، فاتخذوا لهم محلا — كتاباً — بسيط البناء ، يجتمعون فيه لقراءة كتاب الله العزيز^(٤) » ، ويبدو أن هذه الكتابات قد امتحت منذ زمن مبكر جداً ، أي من أول إنشاء القيروان ، لأن الدباغ يقول : « حكى غياث ابن أبي شبيب قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر علينا ونحن غلّة بالقيروان ، فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٩ (٢) نفس المرجع والصفحة . (٣) الأستاذ

حسن حسني عبد الوهاب ، في ذيل : « آداب المعلمين » ، صفحة ز (٤) نفس المصدر ، ص ١٨

خلفه^(١) . فإذا علمنا أن سفيان بن وهب هذا دخل إفريقية سنة ٧٨ هـ^(٢) ، عرفنا أن الكتابات كانت قائمة قبل ذلك التاريخ بالقيروان .

بهذا كله انتشر الإسلام في المغرب وعم قبائله ، وليس من المعقول طبعاً أن يكون البربر كلهم قد أسلموا على يد إسماعيل بن عبيد الله — كما تقول المراجع — وإنما لا خطأ في القول بأن معظم البربر كان قد أسلم حتى ذلك الحين ، بل لا مبالغة في القول بأن المغرب الإسلامي يبدأ إذ ذاك ، وإذا كانت قد بقيت في البلاد أقلية لم تدخل في الإسلام بعد ، فستدخله على مرّ الأعوام .

وإذا كان انتشار العربية قد تأخر في قطر كمصر لأن أهله كانت لهم لغتهم الواحدة التي يتكلمون بها جميعاً ويكتبونها بعضهم ، فإن أهل المغرب كانوا في حاجة إلى لغة يتفاهمون بها كلهم ، وطريقة يكتبون بها ما يريدون كتابته ، ولما كانت العربية هي لغة الإسلام والقرآن فقد بدأوا يقبلون عليها ويتعلمونها ، ويبسّون إقبالهم هذا كان عظيماً واسع المدى ، لأن كثيرين منهم لم يلبثوا أن اتجهوا إلى المشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة ، فلم تلبث العربية أن انتشرت بينهم ، ولم يلبث أن ظهر فيهم — خلال القرن الثاني — فئات تكتب العربية وتؤلف بها ، وقد أعان على ذلك دعاة العرب الذين سرّ ذكركم والكتاتيب التي أنشأها المسلمون ، وساعد على ذلك أيضاً أن البربر كانوا في حاجة إلى لغة يتفاهمون بها جميعهم ويكتبون بها ، فكان إقبالهم على التعلم عظيماً ، بل لم تلبث القيروان أن أصبحت مركزاً من مراكز العلم والثقافة في العالم الإسلامي . ونبيغ من بين أهل البلاد أعلام لهم مقامهم في العلم والدين واللغة مثل سحنون بن سعيد صاحب المدونة المعروفة .

(١) الديباغ ، معالم الأيمان ، ج ١ ، ص ١٢٠

(٢) الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب : آداب المعلمين ، ص ١٩

بهذا اكتملت للمغرب الأسباب ليصبح بلاداً إسلامية صرفة يحكمها عامل
لخليفة المسلمين ، ويدين أهلها بالإسلام ، ويتخذون العربية لغة « فمن الآن فصاعداً
دخل في الإسلام كل من كان ذا علم من أهل المغرب ، وكل من أحس بالحاجة الماسة
إلى لغة مكتوبة أو إلى أدب ، كل هؤلاء دخلوا الإسلام جملة دون تحفظ ، وذلك
حدث عظيم ، فعنه تطور المغرب جميعه ^(١) » كما يقول جوتييه ، وسواء أكان
السبب الأكبر في ذلك هو بساطة العقيدة الإسلامية ^(٢) أو لم يكن ، فإن المغرب
القديم اختفى بأديانه ومذاهبه المختلفة ، وحضاراته الواهنة ، وحل محله المغرب
الإسلامي : أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة وحضارة واحدة ووجهة
واحدة ، وبدأ هذا القطر المتحد يأخذ طريقه ليلعب دوره الجيد في تاريخ الإسلام
والحضارة العالمية ، وكان فاتحوه من العرب قد مهدوا له الطريق لذلك ، فهدوا له
الساحل ، وأنشأوا عليه تونس الميناء الإسلامي الجديد ، الذي أطل منه أهل
المغرب على البحر الأبيض ، ليلعبوا دورهم الخطير فيه ، وفتحوا له أبواب إسبانيا
فانبسط أمام أهله ميدان جديد للفتح والعمل والحياة ، إذ كان الأندلس ميداناً
فسيحاً أظهر البربر المسلمين فيه كفاية وقدرة ما كانتا لتظهر لولا الفتح العربي . وكان
المغرب القرطاجي أو الرومي لا يعدو الساحل ، فشمّل المغرب الإسلامي شمال إفريقيا كله
وامتدحت حتى أدرك درعة ، وصافح واحات الصحراء القاصية عند تارودانت وغيرها ،
فبدأت الحياة تنفّس في هذه النواحي التي ظلت حتى الساعة شيئاً مهملاً في حساب
الحضارة والتاريخ ، وبدأت في ظل الإسلام تأخذ سبيلها إلى الحياة السياسية والعقلية ،
وأخذ أهل هذه النواحي ينتظمون دولا قوية ذات حضارة تقوم بأدوار ذات
خطر في التاريخ ، وتساهم بنصيب مشكور في بناء صرح الحضارة البشرية .

Gautier, op. cit. p. 257. (١)

Piquet, op. cit. p. 60. (٢)

ذيل عن

مصادر هذا البحث

- (أ) مصادر عربية .
- (ب) مصادر إفريقية .
- (ج) بحوث ومقالات .

١ — المصادر العربية :

مشرقية :

١ — ابن عبد الحكم (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ) « فتوح مصر والمغرب والأندلس »
كتب عبد الرحمن بن عبد الحكم كتابه هذا في النصف الأول من القرن الثالث
الهجرى ، فهو بذلك أقدم من وصلت إلينا كتاباتهم عن فتح المغرب ، وتقسيم كتابه
يدل على أنه عنى بفتح المغرب استكمالاً لتاريخ فتح مصر ، ولهذا لم يختصه إلا بصفحات
لا تكاد تعدل نصف ما كتبه عن أخبار مصر قبل الفتح العربى ، أو ربع ما أورده
عن قضائها .

يبد أن أخباره — رغم إيجازها — دقيقة على جانب عظيم من الأهمية ، وسياق
روايته وإسناده يدل على أنه استقى أخباره من رواة مشرقين ومغربيين ، وربما
كان هؤلاء الآخرون من طلبة العلم الذين كانوا يفدون من إفريقية إلى مصر
ليدرسوا على علمائها في ذلك الحين ، ولهذا نجد في روايته إشارات شديدة الدلالة
على أنه استقاهم من أهل البلاد أنفسهم ، كما اشارته إلى إبراهيم بن شروان اللواتى
الذى اشترك في حملة حسان ، وقوله : « وكان مع حسان جماعة يقال لهم البتر » ثم قوله :

« إن حرس يزيد بن أبي مسلم كانوا من البتر — من البتر خاصة ليس فيهم برسى »
وغير ذلك من الإشارات التي لا تصدر إلا عن علم دقيق ببلاد المغرب ونظام أهلها .

ورواية ابن عبد الحكم لفتح إفريقية كاملة ، بدأها من المحاولات الأولى
في بنطابلس وطرابلس وانتهى بها في نهاية العصر الأموي تقريباً ، ولم يكتف
في كثير من الأحيان برواية واحدة للخبر الواحد ، بل أورد روايتين مختلفتين .
ولا نزاع في أن كتابه كان مرجعاً خصباً استقى منه معظم الذين تناولوا تأريخ فتح
المغرب بعده ، ويلاحظ هذا بوضوح فيما أورده البكري وابن الأثير والتيجاني ، بل
ربما نقل بعضهم عنه رأساً كما فعل البكري في مناسبات عدة .

وأخبار ابن عبد الحكم خالية من المبالغات التي تفص بها كتابات غيره ، وتنفرد
بعبارات على جانب عظيم من الأهمية لأنها شديدة الاتفاق مع منطق الحوادث ،
ولأنها — في كثير من الأحيان — تفسر الأحداث تفسيراً خاصاً معقولاً ، ومثال
ذلك إشارته إلى تتبع كسيلة (ابن السكاهنة) لعقبة وتغويره الماء في طريقه مما أيد
الرأى القائل بأن كسيلة دبر مصرع عقبة ، وجعل الحوادث تترابط وتتصل على نسق
لطيف مفهوم ، ولهذا لا مبالغة في القول بأن أخباره أهم ما بين أيدينا عن هذا
الفتح ، خصوصاً وقد كان الرجل يتحرى الدقة فيما ينقل من الأخبار ، ومن دلائل
ذلك شكه في قصة عبد الله بن الزبير ودوره في الفتح . وقد أعانه على ذلك أنه كان على
علم دقيق بأخبار مصر ، وكانت مصر إلى ذلك الحين مرجع إفريقية ، ولهذا وردت
في كتابه عبارات لها أهميتها كذكره ما قاله مسلمة عن دينار أبي المهاجر حين ولاء
إفريقية مكان عقبة مما ألقى شعاعاً من الضوء على حياة هذا الأخير . وروايته الحديث
بين حسان بن النعمان وعبد العزيز بن مروان ، وهي رواية ثقة ملم بالحوادث دقيق
الفهم ، وكذلك ذكره رأى الناس في أعمال موسى وغير ذلك كثير مما لا حاجة
لإثباته بالشواهد والبيّنات .

وأخطاء ابن عبد الحكم قليلة إذا قيس إلى غيره ، وأكثرها في تحديد التواريخ ،
وهذا خطأ شائع يشترك فيه مع غيره من المؤرخين ، كقوله إن : « معاوية بن حديج
غزا إفريقية ثلاث مرات في سنوات ٣٤ و ٤٠ و ٥٠ هـ » وغير ذلك ، ولم تخل روايته

من بعض القصص كتفاصيل^٥ بعث عقبة في الصحراء وقصة ماء الفرس واختطاط القيروان وغير ذلك .

وقد نشر شارل تورى Torrey النص الكامل لروايته سنة ١٩٢٠ م في مطبعة جامعة ييل ، وترجم دى سلين الجزء الخاص بفتح إفريقية حتى غزوة عقبة الكبرى ونشره كذيل لترجمة تاريخ البربر لابن خلدون .

٣ - البلاذرى - (توفى سنة ٢٦٠ هـ) « فتوح البلدان » : كتب البلاذرى أخباره عن فتوح إفريقية حوالى التاريخ الذى دون فيه ابن عبد الحكم أخباره ، ولهذا كانت لأخباره قيمتها لأنها من أقدم ما وصل إلينا .

وأخبار البلاذرى مقتضبة اقتضاباً يجعل الفائدة منها قليلة ، وربما كان هذا الإيجاز الشديد هو الذى نأى بأخباره عن الخطأ ، إذ يلاحظ أن الفقرات التى أورد فيها بعض التفاصيل حافلة بالأخطاء ، وقد روى معظم أخباره عن الواقدي وهذا سبب من أسباب أهميتها ، إذ أنها تكاد تكون البقية الباقية الموثوق فيها من مغازى إفريقية التى كتبه الواقدي . بدأ البلاذرى روايته مفصلاً بعض التفصيل ولكن تفاصيله ليست فى أخبار الفتح وإنما فيما يتصل بها فى الشرق كما أورد لنا رأى اثنين من التابعين فى برقة ، وكما أورد الخطاب الذى بعثه عمرو إلى عمر بن الخطاب سنة ٢٢ هـ وغير ذلك ، وليس فى أخباره من جديد ينفرده ولكنها موثوق فيها ، وربما وردت فيها لمحات ذات أهمية كتجديده عقوبة لمكان موقعة سبيطة وتأكيده أن عبد الله ابن سعد عاد : « ولم يول على إفريقية أحداً ولم يكن بها يومئذ قيروان ولا مصر ولا جامع » وهى رواية ألفت بعض الضوء على معنى لفظ قيروان . وقد ذكر البلاذرى بعض الصحابة والتابعين ممن صاحبوا عبد الله بن سعد فى غزواته ، فورد بينهم ذكر المسور بن مخرمة بن نوفل بن أمية بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، فكان ذكره لهذا الرجل بنسبه الكامل معينا على تعرف شخصية الزهري الذى نسب إليه النويرى طائفة كبيرة من أخباره ، ولولا هذه الإشارة العارضة اظلت شخصية هذا المحدث — الذى يعتبر مصدراً لكثير مما بأيدينا من أخبار إفريقية — خافية بعد أن حاول دى سلين كشفها من غير توفيق .

وقد أورد البلاذرى قصة عبد الله بن الزبير ودوره فى الفتح مقتضبة اقتضاباً

شديداً ، وأسندها إلى عبد الله بن الزبير نفسه ، فأعطانا بذلك مفتاح هذه الأسطورة التي شغلت جانباً عظيماً من اهتمام مؤرخي المغرب ، وأثبت بالبرهان القاطع أنها مكذوبة لا أساس لها من الصحة .

وما يلي ذلك من أخبار الفتح التي رواها البلاذري كثيرة الخطأ بحيث لا يؤمن التعويل عليها كقوله : « إن معاوية بن حديج ولي عقبة بن نافع إفريقية » وقوله في أخبار حملة عقبة الكبرى إنه : « جول فيما هناك لا يعرض له أحد ولا يقاتله فأنصرف » بما يدل على أن أخبار إفريقية انقطعت عنه وإلا فلم تكن لتغيب عنه أخبار مقتل عقبة في تهودة ، وهي أخبار متواردة معروفة عند من لهم أقل العلم بشؤون المغرب ، وربما كان سبب ذلك أن البلاذري كان يعتمد على مراجع شرقية قليلة العلم بإفريقية ، إذ أنه علاوة على اقتضابه يخلط خطأ شديداً في أخبار ما يلي حملة عقبة ، فيذكر مثلاً أخبار ولاية كلثوم بن عياض وولاية محمد بن الأشعث قبل أخبار موسى بن نصير .

٣ — اليقطيني (المتوفى سنة ٢٨٢ هـ) أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب : « تاريخ اليعقوبي » و « كتاب البلدان » .

٤ — الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ هـ) « تاريخ الأمم والملوك » : لم ينل المغرب وأخباره من عناية الطبري إلا جانباً يسيراً جداً ، فلم ترد فيه إلا مشذرات يسيرة لا يخلو بعضها من خطأ ، ومثل ذلك قوله : « إن معاوية بن حديج كان من عمال مصر لمعاوية بن أبي سفيان » واعتباره عقبة بن نافع عاملاً لمعاوية بن حديج على إفريقية ، ولما كان الطبري هو المرجع الأول للعظم مؤرخي المشرق فقد نقل الكثيرون عنه هذه الأخطاء ، فنجدها متواردة عند الكثيرين منهم بحيث لم يسلم من الوقوع فيها إلا من راجع أخباره على مؤرخين مغربيين كابن الأثير ، وقد اشتد الطبري في الحكم على عبد الله بن سعد فكان ذلك سبباً في تحامل الكثيرين من المؤرخين عليه وتقليلهم من شأنه .

وعلى أي الأحوال فأخبار المغرب الواردة في الطبري تصور لنا موقف أهل المشرق من المغرب وحظه من عنايتهم .

٥ — الكندي (توفي سنة ٣٥٠ هـ) « كتاب الولاة » : أورد الكندي في أخبار قضاة مصر وولاتها أخباراً طريفة عن محاولات المسلمين الأولى في إفريقية ،

خصوصاً ما يتصل منها بفتح برقة وطرابلس ، إذ الغالب أن الكندي كان يرى أن هاتين الولايتين كانتا تابعتين لمصر في أول الأمر فذكر أخبارها ملحقاً بأخبارها ، إذ لا تتم أعمال والى مصر إلا إذا ذكرت جهوده في إفريقية ، ولهذا أحصى أعمال عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد ومعاوية بن حديج ، وأورد تفصيلات على جانب عظيم من الأهمية كمحاولات عمرو في إفريقية في ولايته الثانية ، وقد وردت في سياق ذلك أطراف من المفاوضات بين سكان البلاد والفاحين العرب ، كشفت لنا عن موقف العرب من هذه البلاد ، وحال أهلها من الناحية الشرعية في سنوات الفتح الأولى .

وقد أخذ الكندي عن نفر من أقطاب الرواية الأولى كعلي بن قديد وعبيد الله ابن سعد بن عفير وابن لهيعة ، ولهذا كانت لأخباره أهميتها ، ولا سبيل إلى استكمال أخبار فتوح إفريقية إلا بالاطلاع على ما ورد بهذا الكتاب من أخبارها .
وقد طبع في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٩٠٨ م ضمن مجموعة

Gibb - Memorial Series

٦ — البكرى — (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ) لم يبق لنا من كتاب : « السالك والمالك » للبكرى غير هذا الجزء اليسير عن إفريقية ، وجزء آخر أصغر منه - وأقل قيمة - عن مصر . وقد كتب البكرى كتابه في السنوات العشر الأولى من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، أي بعد وفاة إبراهيم بن أبي الرقيق بسنوات قلائل ، فلم تكن المراجع التي اعتمد عليها هذا الأخير قد اندثرت وخفيت معالمها ، فاستطاع أن يرجع البكرى بنفسه إلى المراجع الأولى ويأخذ عنها ، ولهذا نجده يسند بعض أخباره إلى الليث بن سعد ومسلمة بن عبد الملك وابن لهيعة . ولم يكتب البكرى كتابه هذا وصفاً لرحلة قام بها أو مشاهدات صاغت عن عينه ، وإنما جمع هذه المعلومات الوافرة مما وقع تحت تصرفه من الوثائق والمؤلفات والبيانات الرسمية التي عثر عليها في الأندلس ، ولهذا جاء وصفه لإفريقية وافيّاً دقيقاً عظيم الفائدة على الرغم من أنه لم يزرها قط .

حرص البكرى على أن يذكر بين الحين والحين ما يتفق له من المعلومات التاريخية التي تتصل بالمكان الذي يصفه ، ويغاب أن يسند معلوماته هذه تارة إلى محمد بن يوسف الوراق المؤرخ المغربي أو إلى الليث بن سعد المحدث المصري ، فأما الأخبار

التي أسندها إلى الثاني فتكاد تتفق حرفاً بحرف مع ما رواه ابن عبد الحكم مسنداً إلى هذا المحدث ، مما يدل على أن الرجل اطلع على المراجع الأولى التي اطلع عليها ابن عبد الحكم نفسه ، وأما الأخبار التي ينسبها إلى الوراق (٢٩٢ — ٣٦٣ هـ) الذي يلقب بالتاريخي فعلى جانب عظيم من الأهمية لأن كتاب الوراق — الذي لا يوجد الآن — كان مرجعاً من أوثق وأخصب ما كتب عن المغرب .

وإشارات البكري التاريخية التي تتصل بالفتح الأول قليلة لأن اهتمامه كان منصرفاً إلى ذكر أخبار البلد الذي يصفه في أيامه أو قبلها بقليل ، ولهذا نجد أخبار الفتح شذرات متفرقة لا يعثر عليها القارئ إلا بجهد جهيد ، وربما أخطأ البكري في رواية بعضها كقوله : « شريك بن سحيم المرادي » وصحته شريك بن سمي ، وقوله : « ابن عقبة بن نافع أتجه إلى القيروان بعد أن أتم بعثه الصحراوي » مع أنه عاد إلى برقة لا إلى القيروان التي لم تكن قد اختطت بعد .

وقد أورد البكري تحت عنوان : « ذكر إفريقية وبلادها ولم سميت إفريقية » معلومات طريفة ، لخص فيها رأى الإسلاميين في أصل اسم إفريقية وحدودها التي كان متعارفاً عليها في أيامه وأورد طرفاً من الأحاديث النبوية وجانباً من أخبار القيروان ومسجدها ، ويبدو أن جزءاً من هذا الوصف سقط لأن المؤلف يشير بعد ذلك إلى أشياء ذكرها في الكلام على القيروان فإذا التمسناها في الوصف لم نجد لها .

وقد نشر هذا الجزء دي سلين بين سنتي ١٨٥٧ و ١٨٥٨ م بعنوان :
Description de l'Afrique Septentrionale
ثم عاد فنشر النص وصححه سنة ١٩١١ م في الجزائر وقدم له بمقدمة عن البكري ومؤلفاته .

٧ — ياقوت — شهاب الدين أبو عبد الله الحموي (توفي سنة ٦٢٦ هـ) :
« معجم البلدان » طبع القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ

اعتمد ياقوت في بعض ما أورده من وصف نواحي إفريقية وأعلامها على البكري وروى بعضه الآخر عن رواة آخرين كابن عبد الله القضاعي ، ويبدو أن أمثال هؤلاء الرواة كانوا ممن استوطنوا إفريقية ولهذا جاءت أخبارهم طريفة تضم أخباراً لا تخلو من أهمية وقد اعتمد على الطبري في بعض ما كتب .

وقد ضبط ياقوت أكثر ما أورد من الأعلام الجغرافية فأعان ذلك على صحة قراءتها ، ومن هنا غلب الاعتماد على الصورة التي وردت فيه ، وقد حاول أن يتعرف أصل لفظ إفريقية فأورد في ذلك رأياً جديداً يختلف عن كل ما أورد البكري ، وروى لتدعيم رأيه شعراً لا نزاع في أنه مصنوع وقد حقق ياقوت معظم الأماكن المغربية الهامة ولم يفته إلا القليل منها .

٨ - ابن الأثير - (المتوفى سنة ٦٣٠ هـ) « الكامل في التاريخ » كتب عز الدين بن الأثير تاريخ فتح إفريقية في أوائل القرن السابع الهجري تقريباً أى بعد أن كتب ابن عبد الحكم والبلاذري بخمسة قرون ، وبعد أن أصبحت إفريقية بلداً إسلامية صرفه يتحدث أهلها العربية ويؤلفون في تاريخ بلادهم . فإذا كان ابن عبد الحكم والبلاذري قد اعتمدا على رواية العرب وحدهم فقد كان ابن الأثير في غنى عن ذلك بما ذاع في أيامه من المعلومات بإفريقية وما تواتر على سمعه من أخبارها وما ذكره له من اتصال به من أهلها وما وقع له من مؤلفاتهم ، فجاء كتابه أو فرماده وتفصيلاً وأكثر دقة لما اجتمع له من وسائل التثبت بتعدد الروايات ، ولا نزاع في أن ابن الأثير قد وقعت له بعض مؤلفات عن تاريخ إفريقية ، فقد ذكر صراحة أنه يعتمد على ما كتب المغريون عن بلادهم ، وقال إنه يفضل أخبار هؤلاء على ما يتصل به من أخبار المغرب عن طريق المؤلفين الشرقيين .

وتاريخ ابن الأثير أول الكتب التي أفاضت في أخبار إفريقية وألقت ضوءاً مبيناً على أحداثها ، ولا نزاع في أن كتابه كان مرجعاً اعتمد عليه كثيرون ممن تعرضوا للكتابة عن فتوح إفريقية . وقد انفرد بتفاصيل كثيرة لها أهميتها كإشارته الواضحة إلى غزوات عقبة في إفريقية ابتداء من سنة ٤١ هـ مما جعل حداً فاصلاً بين ما فعله عقبة بين سنتي ٢٢ و ٢٣ هـ وما فعله بعد ذلك ، وقد خلط معظم المؤرخين في ذلك خلطاً شديداً ، ولم يشترك معه في إيراد هذه الأخبار إلا الكندي في كتاب الولاة . وله كذلك ملاحظات طيبة تكشف الكثير من أسرار الفتح وحقائقه عند تأملها وتدبرها كقوله : « وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى إفريقية . . . وخرجوا إليها في مراكب كثيرة » مما دل على أن الروم كانوا يترقبون زهير وأن مصرعه في برقة لم يكن مصادفة كما يفهم من روايات غيره .

٩ - ابن عذارى - (حوالى نهاية القرن السابع الهجرى) « البيان المغرب

في أخبار المغرب » ٢١٦

تكاد رواية ابن عذارى تلى رواية ابن الأثير في كثرة التفاصيل ووفرة المادة ، ولا نزاع في أنه اعتمد اعتماداً تاماً على إبراهيم بن أبي الرقيق وأخذ عنه معظم أخباره . غير أننا لا نرى أن أهمية كتاب البيان المغرب تنحصر في ذلك فقط كما ذكر الأستاذ رينيه باسيه في دائرة المعارف الإسلامية ، وإنما يفرد ابن عذارى بأخبار لها أهميتها استقفاها من مراجع أخرى يغلب على الظن أنها مغربية ، كتبها نفر من أهل البلاد ، ومثال ذلك التفاصيل الوافية التي أوردها عن موقعة سببلة ، وهى تفاصيل لا يشوبها إلا القليل من القصص ، وتصور لنا الواقعة تصويراً دقيقاً لا نظفر به عند غيره من المؤرخين ، ولولم تكن نسخة ابن عذارى - التى بين أيدينا - التى نشرها دوزى - ناقصة فى مواضع كثيرة ، تالفة فى مواضع أخرى ، لكنت روايته عن أخبار هذا الفتح أوفى ما بين أيدينا من الروايات .

وقد روى ابن عذارى قصة الفتح كاملة من مقدمات عمرو إلى نهاية العصر الأموى ، وكلما اقترب من نهاية هذا العصر كانت أخباره أوفى وأكمل وأكثر تفصيلاً وأهمية . والجزء الثانى من البيان يتناول أخبار الأندلس فاعتمدت عليه فيما مست الحاجة إليه من أخبار فتح الأندلس وعلاقته بإفريقية .

وقد نشره دوزى بين سنتى ١٨٤١ و ١٨٥١ م ، وترجم فانيان الجزء الخاص بإفريقية إلى الفرنسية ، ونشره بعنوان : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne فى الجزائر سنة ١٨٩١ م .

ونشر ليفى بروغنسال الجزء الثالث الخاص بالأندلس سنة ١٩٢٩ م

١٠ - النورى - (توفى سنة ٧٣٢ هـ) « نهاية الأرب فى فنون الأدب » :

كتب النورى هذا الجزء الخاص بإفريقية فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، ولا نعرف بالضبط موقعه من تاريخه لأنه لم يصل إلينا متصلاً بما قبله وما بعده ، وإنما وجدته جزءاً منفصلاً فى كتاب مخطوط قائم بذاته ، والغالب أن المؤلف أورد هذه الأخبار عقب أخبار مصر . ولم يورد النورى المراجع التى أخذ عنها فى كثير من الأحيان ، والغالب أنه نقل عن مؤلفات كانت موجودة فى أيامه .

أسند النويرى طائفة كبيرة من أخباره إلى شخص يسميه الزهرى ، وهذا بدوره يروى عن ربيعة بن عباد الديلى . وقد حاول دى سلين أن يتعرف شخصية الزهرى هذا ، و انتهى إلى أن النويرى اصطنعه اصطناعاً ليعطى لتاريخه هيئة التاريخ الصحيح المسند ، وكان ذلك من أقوى المآخذ التى أخذها على النويرى فى كتابه الطويل الذى وجهه إلى الميسو هاز فى شأن النويرى فى المجلة الآسيوية سنة ١٨٤٨ م .

ولكنه لم يكن موفقاً فى ذلك لأن مرجعين من أوثق مراجعنا يكشفان عن حقيقة شخصية الزهرى هذا ، ويؤكدان أنه كان راوية معروفاً أخذ الكثيرون عنه كثيراً من أخبار فتح إفريقية . فقد ذكر البلاذرى بين الصحابة الذين صاحبوا عبد الله بن سعد رجلاً يسمى المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب ، أى أن المسور هذا زهرى من زهرة ولا غبار على تسميته بالزهرى اختصاراً ، ثم إن المالكى روى طائفة كبيرة من أخباره عن المسور بن مخرمة هذا ، أى أن هذا الشخص كان من المحدثين الذين أخذ عنهم أهل المغرب أخبار بلادهم ، لأن المالكى استوعب فى تاريخه كثيراً من الأخبار التى وردت فى الكتب المتقدمة التى كتبت فى المغرب . وعلى هذا فالزهرى الذى أخذ عنه النويرى شخصية معروفة لها قيمتها العلمية ونسبة أخباره إليها يزيدا ثقة ولا يضعفها .

كتب النويرى تاريخه فى عصر كثرت فيه الأخبار والمعارف عن إفريقية وأهلها ، بل بعد أن ظهر فى ميدان العلم مؤلفات وضعها نفر من ثقات أهل البلاد كابن الرقيق وابن رشيق وابن شداد ويوسف الوراق وغيرهم ممن تناولوا الكتابة فى تاريخ المغرب ، مما مكن النويرى من أن يكتب كتابة وافية مسبهة . بيد أن ما بين النويرى وأيام الفتح من طول الأمد جعل الأحداث تختلط بكثير من القصص ، خففت رواية النويرى بطائفة عظيمة من الأقاصيص والأساطير .

بتوارد معظم أخبار النويرى فى كتب المؤلفين المغربيين الذين سird ذكرهم ، بل هى أشد شهاً برواية المالكى ، فإذا علم أن الإثنين يعتمدان على المسور بن مخرمة الزهرى ، وإذا لاحظنا أن النويرى لم يفعل فى أحيان كثيرة أكثر من أنه اختصر رواية المالكى ، لكان فى استطاعتنا القول بأن النويرى كان يكتب فى وفرة من المراجع والأسانيد ، ولكننا لا نستطيع القول بأن النويرى أخذ عن المالكى ، لأن

رواية الأخير تنفرد بمعلومات وتفاصيل غاية في الأهمية ما كانت لتفوت النورى لو أنه كان ينقل عن المالكي ، ولكن الغالب أن كليهما كان ينقل عن كتاب مفصل في تاريخ إفريقية وفتوحها ، كُتب في زمن مبكر وبقي حتى أيام النورى ثم ضاع بعد ذلك .

وقد أكدلى الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أن الأدلة كثيرة على أن كتاباً اسمه : «مغازى إفريقية» كتبه مؤلف مجهول مات في حدود القرن الهجرى الثانى ، وأن فقرات كثيرة من هذا الكتاب لا تزال في كتاب البكرى وغيره من أوائل المؤرخين ، فإذا ذكرنا أن البلاذرى يروى طائفة كبيرة من أخباره عن الواقدى ، فغلب على الظن أن هذا الكتاب الذى كتب عن فتوح إفريقية واعتمد عليه معظم المؤرخين إن هو الا مغازى الواقدى الذى ضاع . والأدلة قليلة على أن كتاب الواقدى هذا عمر كثيراً ، فلو أنه بقى حتى القرن الثامن الهجرى لأخذ عنه النورى والتهيجانى ولكننا نجد المؤرخين ابتداء من القرن السابع ينسبون أخبارهم إلى إبراهيم بن الرقيق : هكذا فعل ابن عذارى والنورى وابن خلدون والتهيجانى والحسن الوزان (ليون الإفريقى) ، ومن هنا يجوز القول بأن كتاب الواقدى ظل مستعملاً حتى ظهر كتاب الرقيق فأخمله ، ولما كان ابن الرقيق قد توفى خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، فإنه يمكننا القول بأن كتاب الواقدى عن «مغازى إفريقية» كان ذائعاً حتى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وأن ذكره لم يخفت وأهميته لم تقل إلا بعد ظهور كتاب الرقيق ، ومما يؤيد ذلك أن أبا العرب تميم ، الذى يعد من أول مصادر التاريخ الغربى الإسلامى ، يعتمد على الواقدى بدليل تشابه رواياته مع روايات البلاذرى ذلك أن أبا العرب تميم قد توفى خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، أى أنه كتب كتابه في فترة وجد فيها كتاب الواقدى .

من هنا كانت أهمية رواية النورى ، فقد اجتمع له أصلان من أهم الأصول التى حفظت أخبار هذا الفتح ، فروى عن الزهرى هذا ، وأخذ عن إبراهيم بن الرقيق ، ولهذا نجد روايته غنية بالتفاصيل مما لم يجتمع لغيرها من المؤرخين ، كذكره أسماء الحكام الروم الذين تولوا أمور إفريقية بعد انصراف عبد الله بن سعد ، وتفصيله أمر المدينة التى انتقل إليها أبو المهاجر ، واهتمامه بذكر عناء عثمان بفتح إفريقية

وغير ذلك . ولا يحتاج الإنسان إلى كبير جهد ليتتبع قصة الفتح الحقيقية خلال ما أورد النويرى من أساطير وتفاصيل .

١١ — النووى — (توفى سنة ٦٧٦ هـ) « تهذيب الأسماء واللغات » طبعة المطبعة المنيرة بالقاهرة .

١٢ — ابن خلدون — (توفى سنة ٨٠٨ هجرية)

(١) كتاب العبر ج ٤ و ٦

(ب) Histoire des Berbères لدى سلين

(ح) Hist. de l'Afrique et de la Sicile لدى فرجير

ربما كانت من الغريب أن يقال إن كتاب ابن خلدون لم يكن ذا أهمية خاصة في دراسة هذا الفتح (إذ المعروف أن العبر هو المرجع الأوفى الذى لا يستغنى عن النظر فيه من يبحث شيئاً من أخبار المغرب) . وربما كان سبب ذلك أن ابن خلدون أورد أخبار فتح إفريقية متفرقة فيما أورد من أخبار الخلفاء ، فلم يذكر أكثر من بضعة سطور موجزة أشد الإيجاز عن كل حلقة من حلقات هذا الفتح مما لا يعين على تتبع سيرته كاملة .

ولكن ابن خلدون عاد فكتب فصلاً ثلاثة ، مهد بها لتاريخ البربر الذى يكون الجزء الثالث من تاريخه : أولها فى « ذكر مواطن هؤلاء البربر بإفريقية والمغرب » ، وثانيها فى « ذكر ما كان لهذا الجيل قديماً وحديثاً من الفضائل الإنسانية والخصائص الشريفة » ، وثالثها فى « ذكر أخبارهم على الجملة من قبل الفتح الإسلامى ومن بعده إلى ولاية بنى الأغلب » ، فوصف فى الفصل الأول بلاد المغرب وصفاً فريداً لم يوفق إلى مثله غيره من جغرافى العرب ، ففيه تصوير دقيق لأقاليمه وتضاريسه وتقسيمه الطبيعى ، لا يقل انسجاماً أو دقة عن أى وصف جغرافى حديث لهذه البلاد ، ويكفى أنه أحسن تصوير البيئة المغربية التى كان لها أبعد الأثر فى تكوين الشعب المغربى . وأوجز فى الفصل الثانى أخبار البربر منذ الفتح الإسلامى إيجازاً سريعاً ، وردت فيه بضع ملاحظات على جانب عظيم من الأهمية كما شارته إلى أسرار العرب لوزمار بن سولات وأخذهم إياه لعثمان وإسلامه ، وكذلك حديثه عن كسيلة والكاهنة وقوله إن صاحب

قفصة خلص المسلمين وإن موسى « أخذ رهائن المصامدة وأنزلهم بطنجة » وغير ذلك من الملاحظات التي ينفرد بها ، والتي أخذها عن نفر من أهل البلاد مثل هانيء بن نكور الضريسى وغيره .

وقد أخطأ ابن خلدون فيما أورد من النوارىخ أخطاء كثيرة ، ربما كان بعضها خطأ من الناسخين ، ولكن الراجح أن ابن خلدون مسئول عن كثير منها ، وربما كان سبب ذلك أنه لم يعن كثيراً بأخبار الفتح الأول .

(ب) وقد نشر البارون دى سلين الجزء الخاص بالبربر في مجلدين سنة ١٨٤٧ م ، ثم ترجمه إلى اللغة الفرنسية ترجمة وافية ، ظهرت في الجزائر بين سنتي ١٨٥٢ م و ١٨٥٤ م في أربعة مجلدات Histoire des Berbères وتولى الأستاذ بول كازانوف طبع هذه الترجمة طبعة جديدة مصححة ومعلّقة عليها بتعليقات ذات أهمية ظهرت سنة ١٩٢٧ م في باريس .

والترجمة مذيلة بما ورد في ابن عبد الحكم والنويرى عن فتح العرب لشمال إفريقيا ، وعلق المترجم على ترجمة ابن عبد الحكم بذكر كل ما أورده تيوفانيز عن هذا الفتح ، فاستطعنا أن نحصل بذلك على نص كامل لأخبار الفتح كما أوردها تيوفانيز .

(ج) ونشر دى فرجير الفقرات الخاصة بالفتح حتى بداية الدولة الأغلبية في كتاب خاص بعنوان : Histoire de l'Afrique et de la Sicile سنة ١٨٤١ م ، وترجم هذه الفقرات ترجمة فيها بعض الأخطاء خصوصاً في رسم الأعلام ، وقد علق على الترجمة بتعليقات وافية أى استقى معظمها عن الترجمة الناقصة التي كان أوثر قد قام بها للنويرى .

١٣ — ابن حجر العسقلانى — (توفي ٨٥٣ هـ) « الإصابة في معرفة الصحابة » .

١٤ — أبو المحاسن — (توفي سنة ٨٧٠ هـ) « النجوم الزاهرة » .

أورد أبو المحاسن تفاصيل قليلة جداً عن فتح إفريقيا ولم يذكر لنا أسانيدته التي اعتمد عليها . والغالب أنه لم يورد أخبار إفريقية إلا لاتصالها بمصر ، واعتباره أنها كانت جزءاً منها . ولما كان أبو المحاسن قد أورد ما أورد من أخبار فتح إفريقية ضمن أخبار مصر أو أخبار العالم الإسلامى التي كان يحرص على ذكرها في نهاية كل عام ، فإنه كان ذا فائدة عظيمة في تاريخ الحوادث وترتيبها وربطها بحوادث مصر ، وربما كان هذا أكبر مادعى إلى ذكره والتعويل عليه .

بيد أن أبا المحاسن انفرد بأخبار لها أهميتها كذكره التفاصيل الخاصة بحملة دينار أبي المهاجر على قرطاجنة ، وهي أخبار أغفلها كافة مؤرخي المشرق ، ولو لم يكن أبو المحاسن قد عنى بإثباتها لظلت أعمال أبي المهاجر سرّاً مغلقاً لا نعرف عنها إلا الشذرة اليسيرة التي أوردها ابن خلدون عن حملة تلمسان .

١٥ — الإدريسي (المتوفى سنة ٥٥٨ هـ) « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » طبعة دوزي ودي غويه سنة ١٨٦٦ م بليدن .

١٦ — ابن حوقل — (النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) « المسالك والممالك » طبعة دي غويه (المكتبة الجغرافية) سنة ١٨٧٠ — ١٨٧٩ م
١٧ — ساويرس بن المقفع — كتاب (سير الآباء البطارقة) نشر المطبعة الكاثوليكية بيروت (زيبولد) .

مغربية :

١٨ — أبو العرب تميم — (توفي سنة ٣٣٣ هـ) « طبقات علماء إفريقية » طبعة محمد بن شنب سنة ١٩١٥ م ١٩٢٠ م بالجزائر
من الواضح أن الطبعة التي بين يدينا من هذا الكتاب ليست كتاباً كاملاً ، وإنما هي شذور بقيت من الكتاب الأصلي الكبير الذي وضعه أبو العرب تميم ، ولهذا لا ينبغي الحكم على قيمة هذا الكتاب بنسبة المعلومات والأخبار الواردة في النسخة المطبوعة . والكتاب عبارة عن تراجم لطائفة يسيرة من علماء البلاد وفقهائها وصالحها تتقدمها طائفة من أخبار فتح إفريقية وسير بعض من اشتركوا فيه .
ويروى أبو العرب أخباره عن سحنون أبي سعيد عبد السلام بن سعيد التنوخي « الفقيه المغربي » كما يقول ابن خلكان وربما روى عن ابنه محمد بن سحنون أو عن أحد معارفه ورجاله كصاحب مظالمه مثلاً ، على أن الأخبار تسند بعد ذلك إلى واحد من أقطاب الرواية الأولى كالليث بن سعد مثلاً . والقيمة العلمية لما في الكتاب من الأخبار قليلة جداً إذا قيس إلى ما في غيره من المراجع الأخرى ثم إن أخباره موجزة إيجازاً شديداً ومتفرقة لا تتصل ولا ترتبط ! وفي تواريخه أخطاء شتى .

١٩ — رياض النفوس — أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي (توفي في نهاية

القرن الرابع الهجري)

لم ينسب إليه العلماء إلى رأى ثابت في حقيقة مؤلف هذا الكتاب أو تاريخ كتابته فكل ما نعلمه عن المؤلف أنه كان قفيا ، وذكر الأستاذ فانيان أنه عاش في القرن الرابع الهجري وتوفي خلاله ، وذكر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أنه عاش في القرن الخامس أو السادس الهجري لأن أستاذه أبا العرب الذى نقل عنه توفي في منتصف القرن الرابع الهجري ، ولأنه — أى المالكي — لم يكتب في القرن الذى تلاه وإنما فصلت بينهما فترة عاصر فيها التيجي القيروانى صاحب كتاب «الافتخار» الذى يعتمد المالكي عليه أيضا ، وعلى أى الحالين فكتاب رياض النفوس يعد من أقدم ما بين يدينا من المؤلفات عن المغرب وتاريخه .

كتب رياض النفوس في المغرب وقد جمعه مؤلفه من أهل البلاد ولم يرجع إلى أحد من أهل المشرق غير الواقدي — والغالب أنه اطلع على كتابه — والمسور بن مخزومة ، وقد نقل هذه الأخبار عنه غيره ممن كتب بعده كالديباغ .

وقد حفظ لنا رياض النفوس أطرافاً من مؤلفات وروايات قديمة ضاع معظمها ، ولو لم يثبتها في كتابه لتفرقت ولم نثر عليها ، والبيانات على ذلك كثيرة ، فقصة المجلس الذى عقده عثمان للمشاورة في فتح إفريقية أظهرت اهتمام عثمان بيد الفتح ، وذكره القبط في حملة عبدالله بن سعد دل على أن نفراً من أهل مصر اشترك في فتح إفريقية ، وتفصيله الدقيقة التى أوردها عن موقعة سيطة أعانت على تصورهما وتتبع أدوارهما ولا ننسى تعليقه لعودة عبدالله بن سعد المفاجئة لأنه ألقى بذلك شعاعاً من الضوء على ناحية ظلت خافية ، وكذلك رأيه عن موضع القيروان الأول ، وغير ذلك كثير مما يجعل لهذا الكتاب أهمية عظيمة في دراسة هذا الفتح .

ولا تخلو الكتاب من زيادات كثيرة ومبالغات شتى ، وفي بعض أجزاء اضطراب يغاب على الظن أن سببه تبديل في صحائف الكتاب مما أدى إلى اضطراب السياق ، وأخبار الفتح لا تشغل فيه إلا نيفاً وعشر صفحات من القطع الكبير ، وبقية الجزء الأول من الكتاب تراجم لعلماء المغرب وصالحيه وعلمائهم ، ولا تخلو هذه التراجم من إشارات لها أهميتها عن إدارة البلاد والحركة العلمية فيها .

٣٠ - التيجاني - (النصف الأول من القرن الخامس الهجري) « الرحلة

التيجانية »

ذهب فورنل إلى أن التيجاني عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري واستنبط ذلك من بضع عبارات وردت في سياق حديثه ، في حين ذهب الأستاذ عبد الوهاب إلى أن هذا الكتاب كتب في النصف الأول من القرن الثامن الهجري .

والتيجاني من بيت علم وفضل من بيوت تونس الكبيرة ، اشتغل أهله براسة الدواوين نحو قرن من الزمان ، ونبع من آباءه نفر اشتغل بالعلم ، فتوفرت له كتب كثيرة في تاريخ إفريقية وجغرافيتها ، فجاء كتابه غنياً بالأخبار الدقيقة والملاحظات الهامة . وكتابته وصف رحلة يصف فيه كل قرية ينزلها ، ثم يعقب الوصف بما يتصل بعلمه من تاريخها ، ويظهر أن جل اعتماده في ذلك كان على إبراهيم بن الرقيق ، وهو أى التيجاني أحد خمسة حفظوا لنا أجزاء من هذا المؤلف الهام ، وهم : ابن عذارى والنويرى وابن خلدون والحسن الوزان والتيجاني هذا . وملاحظاته الجغرافية على جانب عظيم من الأهمية ، فهو الذى أعاننا على تعرف قونية وحدد لنا موقعها ويمتاز عن البكرى بأنه رأى الأماكن التى يتحدث عنها ، ولهذا يأخذ حديثه هيئة المذكرات التى ربما ضمت بعض ما وقع له في البلد وبعض ما اتفق له من الحديث مع أهله حين نزله . أما المسادة التاريخية فلا تقل في هذا الكتاب عن البكرى مثلاً ، لولا أنها قليلة جداً ، وفي روايته كثير من الأخطاء التى يتوارد مثلها عند غيره ، وربما وردت فيه ملاحظات ينفرد بها كقوله : « إن أهل برقة » كانوا استعانوا بقبيل من البربر يقال لهم نفوسة دخلوا معهم في دين النصرانية » مما فسر لنا السبب الذى حدا بعمر بن العاص إلى إرسال بعث إلى فزان في نفس الوقت الذى سار هو فيه إلى طرابلس .

٣١ - الدباغ - (٦٠٥ - ٦٩٦ هـ) « معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان » .

ألف هذا الكتاب أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن على بن عبد الله الأنصارى الأسيدى ، ولم تصل إلينا نسخته الأصلية ، وإنما وصلتنا فقرات منه مع تعليق عليها بقلم قاض من أهل القرن التاسع ، يعرف بآبن الناجى قاسم بن عيسى أبو الفضل (المتوفى سنة ٨٣٧ هـ) وقد اعتمد الدباغ اعتماداً عظيماً على المالكي ، ونقل عنه فقرات

كثيرة ، بحيث لا نخطئ ، إذا قلنا إن معالم الإيمان صورة أخرى من رياض النفوس (فيما يتصل بقصة الفتح على الأقل) . ولم ينفرد الدباغ إلا بأخبار يسيرة كعرضه بضع آراء في تفسير معنى لفظ قيروان . وأخذ كذلك عن أبي العرب حفظ لنا فقرات من هذا الكتاب لم ترد في النسخة المطبوعة منه ، لهذا كانت رواية الدباغ مكملّة لروايتي أبي العرب والمالكي ، فعوضت ماعسى أن يكون قد فاتهما من الأخبار . أما تعليقات ابن الناجي فقليلة الأهمية ومعظمها استدراكات لا معنى لها ، إذ يغلب أن يكون الاعتراض أشد خطأ وأقل أهمية من الخبر الأصلي . وقد اعتمد عليه كودل اعتماداً عظيماً واستعمله لتصحيح رواية المالكي ، ولكنه أخطأ فنسب الكتاب كله إلى ابن الناجي لا إلى الدباغ .

٢٢ — ابن أبي دينار القيرواني — (توفي سنة ١٠٩٢ هـ) « المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس »

ينتسب ابن أبي دينار إلى الفاتح المعروف دينار أبي المهاجر ، فبيته كان من البيوت العريقة التي تناول أفرادها مناصب الدولة وشئون العلم ، وكتابه حديث كتب في القرن الحادي عشر .

ولا يميل ابن أبي دينار إلى التطويل وطول التفسير ، بل يوجز في عبارته ويطهر على المهم . ويبدو أن الظروف السيئة التي أحاطت ببلده كانت مؤثرة فيه أثناء اشتغاله بالتأليف ، لأنه لا ينفك رثيلاً وطنه متأسياً لمصابه مادحاً إياه مدحاً مبالغاً فيه ، وفي عباراته حنين لطيف لوطنه وإشادة نادرة المثال بذكره وفضائله وخيراته .

وقد قدم المؤلف لتاريخه بمقدمة جغرافية عن إفريقية وتونس لم يجيء فيها بجديد ، بل أعاد ما توارد في غيره من الكتب عن أصل إفريقية وأصل لفظ تونس . وكتابه يسد فراغاً ويعيننا على استكمال قصة الفتح ، وعلى الرغم من أنه لم ينفرد إلا بالقليل الذي لا أهمية له ، إلا أنه قدم لنا مادة نستطيع — بمقارنتها بغيرها — أن نصحح بعض الروايات والأخبار .

وقد نشر للمرة الأولى في تونس سنة ١٢٨٦ هـ جرية (١٨٦١ — ١٨٦٢ ميلادية) واهتم الفرنسيون به اهتماماً خاصاً فقام Pellissier et Reynard بترجمته .

٢٣ — محمد الباجي — (توفي سنة ١٢٥٣ هـ) « الخلاصة النقية » : كتاب متأخر ولهذا لم يكن الاعتماد عليه عظيماً ، وإنما رجعت إليه في تحقيق بعض الأعلام والأماكن

التي لم تفسر قراءتها في الكتب المخطوطة الأخرى . ولم ينفرد الباجي إلا بالقليل من الأخبار لأن كتابه خلاصة من معظم الكتب التي تقدم ذكرها . وبما انفرد به قوله : « إن دينار بن أبي المهاجر بعث حنشل الصنعاني ليحتل جزيرة شريك في حين عاد هو إلى القيروان » .

٢٤ — سعيد بن مقديش — (توفي سنة ١٢٣٨ هـ) — « نزهة الأنظار » : كتاب شديد الشبه بكتاب « الخلاصة النقية » ، فقد أُلّف في القرن الثالث عشر لأن مؤلفه مات سنة ١٢٣٨ هـ فأخذ عن كل الكتب الهامة التي تقدمته ، وكل أهميته تنحصر في أنه يكمل المجموعة المغربية التي سبق الكلام عنها .

٢٥ — السلاوي — (توفي سنة ١٣١٩ هـ) « الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى » طبع القاهرة سنة ١٨٩٤ م

هذا الكتاب من أحدث الكتب العربية التي وضعت في تاريخ المغرب ، وهو موسوعة شاملة للتاريخ المغربي ، استقصى فيه مؤلفه كل ما اتصل به من الأخبار عن المغرب فأوردها كاملة بدون تلخيص مسندة إلى أصحابها : كالكلبي والطبري وابن الرقيق وابن الأثير وابن حزم وابن خلدون ، وربما وردت فيه فقرات من كتب قديمة ضاعت ولم يبق لها أثر . ومن الأمور التي انفرد بها تعرضه لمسألة وضع المغرب من الناحية الشرعية ، وهل فتح صلاحاً أم عنوة ؟ وروى في ذلك رواية نقلها عن كتاب « شرح الموطأ للشيخ أبي الحسن القابسي » . وقد ذهب جوليان إلى أن السلاوي ربما اعتمد على مؤلفين أوروبيين .

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه كان إلى حين قريب الكتاب العربي الوحيد المطبوع في تاريخ المغرب . ولهذا كثر الاعتماد عليه والاستشهاد به وبلغ من أهميته أن تصدى لترجمته Graulle الفرنسي فترجم الجزء الأول منه ونشره سنة ١٩٢٣ م

المصادر الأفرنجية :

Ch. Diehl : l'Afrique Byzantine (٢٦)

يعد الأستاذ ديل من أكبر الأساتذة الذين توفروا على دراسة التاريخ البيزنطي ، إذ أنه ظل زماناً طويلاً يشغل كرسى الأستاذية لهذه المادة في جامعة باريس . وكتابه

هذا عن إفريقية البيزنطية فريد في بابيه ، درس فيه تاريخ إفريقية من الفتح البيزنطي إلى الفتح العربي ، واستقصى فيه كل ما كتب حتى زمانه عن هذا الموضوع ، فجاء حجة لا يستغنى عن النظر فيها من يتناولون تاريخ المغرب القديم .

بيد أن طول البحث واستطراد المؤلف في بعض النواحي وتوسعه في الكثير منها أفسد نظام الكتاب وأضاع وحدته فأصبح غير متصل الحديث ، وربما طلب الإنسان فيه استقصاء حادث بعينه ، فلا يزال المؤلف يستطرد به في تفصيل الحوادث حتى يصرفه عما طاب ، وتكفي المقارنة بين ما كتبه وبين كتاب مؤلف محدث مثل جوليان فيما يتصل بحضارة إفريقية البيزنطية وانتشار المسيحية في المغرب حتى يتضح ذلك .

وقد ختم المؤلف بحثه بتلخيص لحوادث فتح إفريقية ، اعتمد في أكثره على ما كتب تيوفانيس وتقفور وفورنل وروث وفيل ويوري وأماری ومترجمات لبعض المؤلفات العربية ، وهي خلاصة وافية دقيقة وفق المؤلف فيها إلى استقصاء ما كتبه مؤرخو الروم ، وأضاف إليه ما وجده في المؤلفات العربية ، فاستطاع بذلك أن يقارن النصوص ببعضها ومكننا من الوصول إلى آراء الروم والظهور على بعض ما كتبوا عن هذا الفتح .

Roth : Okba-ibn-Nafi, Gttingen, 1859. (٢٧)

وصف المؤلف كتابه بأنه دراسة في علم التاريخ عند العرب ، وقد أصاب به هذا الوصف ، لأنه أنفق أكثر من ثلثي كتابه في الحديث عن المصادر والمراجع ، وخص عقبة بن نافع وأخباره بالثلث الباقي .

ويبدو أن الرجل اضطر إلى ذلك ، فقد كتب رسالته هذه في زمن مبكر جداً قبل أن يعرف أحد شيئاً عن المراجع العربية الأولى أو يقرأها في نسخها الخطية ، فلم يجد بداً من أن ينفق وقتاً طويلاً في نقد هذه المراجع ومناقشة مؤلفيها ورواة أخبارها مناقشة انتهى منها إلى نتائج هامة ذات خطر تتعلق بكتابات : ابن عبد الحكم والبلاذري وأبي المحاسن والنويري وغيرهم ممن اعتمد عليهم في استقصاء أخبار عقبة . أما حديثه عن عقبة فمفكك غير متماسك الفقرات لأن هذا الاستطراد شغله بين الحين والحين عن أن يستمر في بحثه . ويبدو أنه ظن أن عقبة هو الذي فتح إفريقية كلها ، فبدأ بذكر دوره في فتح فزان وفصل ذلك تفصيلاً طويلاً ، ثم تحدث

عن القيروان حديثاً موجزاً ، ثم ختم البحث بترجمة ما حدث لعقبة في حملته الكبرى ،
ناقلاً عن ابن عبد الحكم دون أن يتوخى النقد أو يهتم بالتعليق .

فالكتاب بذلك يتناول حلقة صغيرة جداً من حلقات الفتح ، وربما صح أن نققد
فكرة الكتاب كله في اعتبار عقبة فاتح إفريقيا كلها . ولما كان كل أخباره مترجماً
ترجمة حرفية ، فلم يكن الاعتماد عليه بذى غناء في تعرف أحداث الفتح ، ويكفى للتدليل
على ذلك أنه أقر الكتاب الذى أورده البلاذرى ، وذهب إلى أن عمراً أرسله إلى
عمر في حملته الأولى بدون تعليق .

H. Fournel : Les Berbères, Etude sur la Conquête de l'Afrique (٢٨)
par les Arabes, d'après les textes arabes imprimés 1815—1861.

كتب فورنل كتابه هذا منذ قرن تقريباً ، أى بعيد الاحتلال الفرنسى للجزائر ،
فكان بذلك من أوائل المستشرقين الفرنسيين ، وقد قضى نحو العشرين سنة في
تصنيف كتابه هذا فجاء نتيجة طيبة لأبحاث متصلة وعمل مجهد في المراجع
العربية الأولى .

وكان فورنل لا يكتب لمجرد استقصاء أخبار إفريقية وتعرف أحوالها ، وإنما كان
قد وضع لنفسه نظرية معينة أراد أن يثبتها بتأليف هذا الكتاب ، وهى أن الفتح
الإسلامى لم يكن أكثر من فتح حربى قايل الأثر ، وأنه كان نكبة منى بها المغرب
إذ أذلت الأهلين وأفسدت الأرضين ، وأن البربر ظلوا — رغم ما بذل العرب
من جهود — مستقلمين في بلادهم يدبرون شئونهم ويسودونها ، لأن أمر العرب لم
يلبث أن صار إلى الضعف والانحلال .

لكى يثبت فورنل هذا رأى ، اضطر من حين إلى حين إلى تحويل الحقائق
وتفسيرها تفاسير لا تتفق والواقع ، واضطر إلى الوقوف من العرب موقفاً لا نبالغ
إذا قلنا إنه عدائى ، فانتقد الفاتحين جميعاً انتقاداً مرأ ولم يرض عن شيء أتاه أحدهم ،
واعتبر الغزوات العربية كلها غارات لا تبغى غير السلب والنهب ، وذلك هو عيب هذا
الكتاب الذى يشبع فيه من أوله إلى آخره ، والذى يقلل من قيمته ككتاب علمى يصح
الاعتماد عليه والأخذ منه ، ولهذا قل من المؤرخين المحدثين من يقدر هذا الكتاب أو
يرجع إليه على أنه مصدر علمى له قيمته . فكدول مثلاً ينتقد فكرة الكتاب عامة ويؤكد
أنها أفسدت البحث جميعه .

وقد كتب الرجل كتابه قبل أن يظهر شيء من المؤلفات المغربية التي سبق ذكرها، فكان جل اعتماده على المراجع الشرقية : كابن الأثير وابن عذارى والنويري ، وكان هذا سبباً من الأسباب التي جعلت بحته قديماً من الناحية العلمية ، بل إن الأستاذ ليفي - وفنسال يشك فيما ورد فيه من المعلومات لهذا السبب من ناحية ، ولأن فورنل اعتمد على ترجمات كثيرة الخطأ من ناحية أخرى .

يبد أن الكتاب موسوعة وافية غنية بالمعلومات عن أحوال البلاد وجغرافيتها وتاريخها وسكانها ، فما من مدينة مر ذكرها إلا علق عليها بهامش طويل ذكر فيه القراءات المختلفة لاسمها وما قال مؤرخو العرب عنها ، ولا ينسى أن يذكر ما قاله الرحالة الإنجليزى شو Shaw والسائح الإنجليزى السير جرنفيل تيمبل عنها ، وما من مناسبة تسنح له لتحدث عن أحداث المشرق إلا أسهب وأفاض في ذلك إفانة ربما خرجت بالقارىء عن موضوع البحث .

— E. Mercier

1 — Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berbérie) (٢٩)
depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête Française.
Constantine 1888 - 1891

كتاب شامل في مجلدات ثلاثة ، استقصى المؤلف فيه أخبار المغرب من العصر القديم حتى الفتح الفرنسى ، وهو كتاب قديم كتب في النصف الثانى من القرن الماضى .

صنف المؤلف كتابه وهو مقيم بقسطنطينية ، معتمداً على ما اتصل به من الكتب العربية وخاصة ابن خلدون ، فاستطاع أن يستخرج من النصوص الأولى موجزاً لطيفاً كهذا . وإذا قيس أخطاؤه إلى العصر الذى عاش فيه ونظر إلى الوسائل القليلة التي أتيت له تبين مقدار الجهد العظيم الذى بذله .

والجزء الخاص بالفتح العربى قصير جداً ، ولكن مرسىيه استطاع مع ذلك أن يوجز الحوادث وأن يستخرجها ويرويها فى أسلوب بسيط جاف ، فلم يقع له من الخطأ إلا قليل لا يكاد يذكر .

ومرسىيه من أضراب فورنل يتحمس للبربر فى غير داع ويتنقص العرب ويهاجمهم فى غير مبرر معقول ، ومن ذلك مقارنته الكاهنة بجان دارك واعتباره إياها

نصيرة الحق والإنسانية ، أمام العرب المتوحشين كما وصفهم ، وما من مناسبة أتاحت له ليزرى بالعرب إلا انتهزها مبادراً ، مما جعل لكتابه لونا من التعصب قلل من قيمته العلمية كثيراً . وقد كان الرجوع له للاستعانة بموجزه على تتبع سير الحوادث ، فقد كان موقفاً جداً في إيجاز حوادث العصر البيزنطي ، ولكن كتابه ليس إلا سرداً للحوادث ، دون محاولة لتفسيرها واستنباط أحكام منها .

2 — Histoire de l'Etablissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale, Constantine, 1895.

يبحث هذا الكتاب في تاريخ القبائل العربية التي هاجرت إلى إفريقيا حوالى القرن الثالث الهجرى . ، ولهذا أوجز في الفصل الرابع كل حوادث الفتح الأول بكتمهيد للكلام على غزوة العرب الهلاليين . وقد أرفق المؤلف بالكتاب خريطين للمغرب ، بين فيهما منازل القبائل البربرية بعد هذه الغزوة ، وقد رسمهما بحسب ما ورد في ابن خلدون ، فاستعنا بهما لتعرف مواقع هذه القبائل .

Le Baron de Slane :

— ٣٠ —

Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale. Nouvelle édition publiée sous la direction de Paal Casanova

أعلن ظهور هذا الكتاب بدء عصر جديد في تاريخ الدراسات العلمية والتاريخية بوجه خاص في المغرب ، فقد ترجم المؤلف فيه الجزء الثالث من تاريخ ابن خلدون الخاص بالبربر ، ففتح بذلك أمام الباحثين الأوروبيين ميداناً فسيحاً للدرس والبحث بما قدم إليهم من المعلومات والتفصيلات عن هذه البلاد . وكان دى سلين قد نشر الكتاب نفسه قبل ذلك بسنوات ، وعلق على الكثير من عباراته وأعلامه تعليقات غاية في الفائدة . ولهذا الترجمة من الفائدة ما يجعل النظر فيها من أئزم الأمور للباحثين في شئون المغرب .

وأعقب البارون ترجمته لابن خلدون ، بترجمة كاملة لما ورد في النويرى وابن عبد الحكم عن الفتح العربى للمغرب ، وعلق على ترجمة ابن عبد الحكم بإيراد النصوص التي كتبها تيوفانيس عن هذا الفتح ، فقدم لنا بذلك نصاً من أهم النصوص التي كتبت عن هذا الفتح .

Caudel: 1 — L'Afrique du Nord, les Byzantins, et les — ٣١
Berbères, avant les invasions arabes, Paris, 1900.

2 — Les premières invasions arabes de l'Afrique du Nord,
Paris, 1900.

يكاد هذا الكتاب الصغير أن يكون المؤلف الوحيد الذي وضع عن الفتح العربي
للمغرب خاصة ، والكتاب جزءان : الأول مقدمة طويلة بعض الطول عن بلاد
المغرب والبيزنطيين والبربر والعرب ، وفق المؤلف فيها إلى تصوير العصر البيزنطي
تصويراً موجزاً دقيقاً ، اعتمد في كتابته على دليل ، فقدم خلاصة وافية أبدى فيها
كثيراً من الآراء الطريفة التي ربما خالف فيها دليل نفسه ، بل امتاز عنه بأسلوب
فيه دعاية خفيفة ، أما حديثه عن البربر والعرب فكلام إنشائي لا غناء فيه . وفي الجزء
الثاني يقص كودل قصة الفتح العربي للبلاد ، اعتمد في كتابته على ثلاثة الكتب المغربية
التي سبقت الإشارة إليها وهي : « رياض النفوس » و « معالم الإيمان » و « المؤمنين » ،
وربما استعان بابن الأثير وابن عذارى والنويري بين حين وحين . أخذ كودل إذن
قصة الفتح عن علماء مغربيين فكان أكثر توفيقاً من فورنل ، إذ أمدته مراجعته
بتفاصيل وافية غزيرة المادة مكنته من أن يسهب في الحديث والتفصيل ، فاقدر
على تتبع أحداث الفتح تتبعاً معقولاً مفهوماً ، وربما أخذ عليه اعتياده تماماً
على هؤلاء المغربيين .

والماخذ عليه كثيرة ، منها اعتياده على مراجع ثانوية ومناقلة حمله بأقطاب الرواية
الأولى ، ومنها خطؤه في القول بأن كتاب معالم الإيمان كله من تأليف ابن الناجي ،
وليس الأمر كذلك ، ومنها تناقضه في الحكم على أبي المهاجر وإمهاله بحث مسألة إسلام
البربر واهتمامه بالتفاصيل القليلة الأهمية ، وفيما خلا ذلك لا نزاع في أن كودل منصف
لم يتابع مدرسة فورنل ، وإنما كان مثلاً طيباً للمؤرخ المعتدل ، أنصف العرب كثيراً
وأخذهم بما رأى ، من مأخذ في رفق ، وربما حاول الدفاع عنهم ، وله في ذلك استدراسات
وجيهة وأحكام صادقة .

Gautier, E. F. Le Passé de l'Afrique du Nord (Siècles — ٣٢
Obscures, Paris, 1937.

ليس هذا الكتاب تاريخاً للمغرب في عامة عصوره ، ولا دراسة لعصر منها قائماً

بذاته ، وإنما هو دراسة شاملة للمجتمع المغربي والحضارة المغربية من العصر الحجري إلى نهاية العصر الإسلامي .

والكتاب كله يقوم على نظرية واحدة ، هي أن التاريخ المغربي كله ليس إلا صراعاً بين طائفتي البربر وهما البتر والبرانس ، وقد ذهب المؤلف إلى أن البتر ليسوا فريقاً من أهل البلاد ، وإنما هم غزاة دخلوها في أول العصر القرطاجي ، وقد أتوا المغرب من الشرق فبعضهم فينيقي ، ولهذا يرى المؤلف أن البتر ساميون ، فالخلاف بين الطائفتين لا يقتصر في رأيه على انتساب كل من البتر والبرانس إلى جد أسطوري قديم ، وإنما يرجع إلى أن كلا منهما شعب أو جنس مستقل بذاته .

على هذا الأساس درس جوتيه التاريخ المغربي ، وعلى هذا الضوء فسر أحداثه ، ولا نزاع في أنه بالغ كثيراً في الاعتماد بهذا الرأي ، ومال إلى تفسير التاريخ المغربي تفاسير غير مفهومة لكي يعزز رأيه ، كقوله : « إن الأفارقة كلهم كانوا يتحدثون الفينيقية ساعة فتح العرب البلاد ، وإن اصطباغهم بهذه الصبغة الفينيقية أى السامية سهل دخولهم في الإسلام ويسر لهم تعلم العربية » وهذا رأى ضعيف جداً بناء المؤلف على أسانيد قليلة الأهمية .

وللمؤلف حديث شائق عن الكاهنة وكسيلة ، فاعتبر الأولى ممثلة للحضارة السامية اليهودية ، وذهب إلى أن كاهنة مؤنث كوهين ، واعتبر كسيلة ممثلة للعصية البربرية المسيحية التي تأثرت بالحضارة البيزنطية ، وتلك كلها آراء لا يستطيع الإنسان قبولها . وله كذلك رأى طريف في حركات الخارجية والصفيرية التي عمت إفريقية طوال العصر الإسلامي ، فقارن بينها وبين الدونانية ، وذهب إلى أن كليهما مظهر لمقاومة العنصر السامي (البترى) في البلاد .

وملاحظات المؤلف على الفتح العربي قليلة ولكنها دقيقة شاملة ، تلقى ضوءاً مبيناً على هذا الفتح ، وقد كانت نظرياته وآراؤه موضع جدل عنيف بين المستشرقين .

٢ — واعتمد على المراجع الآتية في المواضع المشار إليها أثناء البحث :

- 30 ALBERTINI, E.: *L'Afrique Chrétienne*.
- 34 AMARI, MICHEL: *Storia dei Musulmani di Sicilia*, Firenze 1854-1867.
- 35-36 BASSET RENÉ: *Histoire de l'Algérie par les Monuments*, 1900.
Mélanges Africains et Orientaux, 1915.
- 37 BERBRUGGER: *L'Algérie Historique*.
- 38 BOSSIER, (G.): *L'Afrique Romaine*, 1895.
- 39 BIQUET, GAL-FAURE: *Histoire de l'Afrique Septentrionale sous la domination des Musulmans*, 1905.
- 40 CARDONNE: *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la domination des Arabes*.
- 41 CAONAT: *L'Armée Romaine de l'Afrique et l'occupation militaire sous les Empereurs* 1912 (2ème. éd.).
- 42 CARETTE, E.: *Recherches sur les origines et les migrations des principales tribus de l'Afrique Septentrionale et particulièrement de l'Algérie*, 1853.
- 43-44 CAUDEL, M.: (1) *L'Afrique du Nord, les Byzantins, les Berbères avant les invasions*, 1900.
(2) *Les premières invasions de l'Afrique du Nord*, 1900.
- 45 DEFREMERY: *Mémoires d'Histoire Orientale*, Paris, 1854.
- 46 DESPOIS, J.: *La Tunisie*.
- 47-48 DOZY: A — *Histoire des Musulmans d'Espagne*.
B — *Recherches*. (2ème. éd.)
- 49 DOUTTÉ, E. (1): *Notes sur l'Islam Maghribin, Les Marabouts*, 1900.
(2): *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*, Alger, 1909.
- 50 DUPRAT: *Les Races anciennes et Modernes de l'Afrique*.
- 51 FAONAN: *Extraits inédits relatifs au Maghreb*, Alger, 1924.
- 52 FOURNEL: *Les Berbères; étude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes, d'après les textes arabes imprimés*, 1875-1881.
- 53 GIBBON: *Decline & fall*, Giant éd. 1937.
- 54 GSELL, STÉPHANE: *L'Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord*, 8 Vol. 1913.
- 55 GSELL, G. MARÇAIS ET G. YVER: *L'Algérie*.

- 56 HARDY, G. et P. AURES: *Les grandes étapes de l'Histoire du Maroc*, 1921.
- 57-58 MARÇAIS, G.: *Manuel d'Art Musulman*, 1926-1927.
- 59 MEAKIN, BUDGET: *The Moorish Empire, A Historical epitome*, London, 1899.
- 60-61 MERCIER, E.: (1) *Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française*. 3 vols. Cons. 1888-1891.
(2) *Histoire de l'établissement des Arabes en Berbérie Constantine*.
- 62 MESNAGE, P.: *L'Afrique Chrétienne*, 1912.
- 63 RINN: *Etude sur l'Islam en Algérie*.
- 64 WESTERMARCK: *Ritual and belief in Morocco*, 2 vols., London, 1926.
- 65 VASILIEV, A. A.: *History of the Byzantine Empire*, Vol. 1, *from Constantine the great to the epoch of the Crusades*, Madison, 1928.

٣ — مقالات وبحوث : وردت في الصحف العلمية الآتية وأشير إليها
في مواضعها من البحث :

Hespéris: Archives berbères. Bulletin de l'Institut des hautes études marocaines.

Journal Asiatique.

Revue Africaine : publiée par la Société historique Algérienne.

Revue des études islamiques.

Revue du Monde Musulman.

Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine.

Revue d'Histoire Africaine: Moyen Age et Temps modernes

ذيل ٢

التواريخ الهامة

(١) الأباطرة والخلفاء

١ - أباطرة الدولة البيزنطية

٥٢٧ - ٥٦٦ م	جستنيان
٥٦٦ - ٥٧٨	جستن الثاني
٥٧٨ - ٥٨٢	تييريوس الثاني
٥٨٢ - ٦٠٢	موريس
٦٠٢ - ٦١٠	فوكاس
٦١٠ - ٦٤١	هرقل الأول
٦٤١	هرقل الثاني
٦٤١	هرقل الصغير (هرقلوناس)
٦٤١ - ٦٦٨	قنسطنط الثاني
٦٦٨ - ٦٨٥	قنسطنطين الرابع (بوجونات)
٦٨٥ - ٦٩٥	جستنيان الثاني (رينوتميتوس)
٦٩٥ - ٦٩٨	ليونتئوس
٦٩٨ - ٧٠٥	تييريوس الثاني (إسباروس)
٧٠٥ - ٧١٢	جستنيان الثاني
٧١٢ - ٧١٣	فيليبكوس برودانس
٧١٣ - ٧١٦	انستاسيوس الثاني (ارتمئوس)
٧١٦ - ٧١٧	تيودوسيوس الثالث (ادراميتئوس)
٧١٧ - ٧٤١	ليون الإسوري
٧٤١ - ٧٧٥	قنسطنطين الخامس (كبروفيموس)

٢ - الخلفاء

٦٣٤ - ٦٣٢	١١ - ١٣	أبو بكر
٦٤٤ - ٦٣٤	١٣ - ٢٣	عمر
٦٥٦ - ٦٤٤	٢٣ - ٣٥	عثمان
٦٦١ - ٦٥٦	٣٥ - ٤٠	علي
٦٨٠ - ٦٦١	٤٠ - ٦٠	معاوية بن أبي سفيان
٦٨٣ - ٦٨٠	٦٠ - ٦٣	يزيد بن معاوية
٦٨٣	٦٣	معاوية الثاني
٦٨٥ - ٦٨٣	٦٤ - ٦٥	مروان بن الحكم
٧٠٥ - ٦٨٥	٦٥ - ٨٦	عبد الملك بن مروان
٧١٥ - ٧٠٥	٨٦ - ٩٦	الوليد بن عبد الملك
٧١٧ - ٧١٥	٩٦ - ٩٩	سليمان بن عبد الملك
٧٢٠ - ٧١٧	٩٩ - ١٠١	عمر بن عبد العزيز
٧٢٤ - ٧٢٠	١٠١ - ١٠٥	يزيد بن عبد الملك
٧٤٣ - ٧٢٤	١٠٥ - ١٢٥	هشام بن عبد الملك
٧٤٣	١٢٥	الوليد بن يزيد بن عبد الملك
٧٤٤	١٢٦	يزيد بن الوليد
٧٤٥	١٢٧	ابراهيم بن الوليد
٧٤٩ - ٧٤٥	١٢٧ - ١٣٢	مروان بن محمد

(ب) الحوادث

١ - العصر البيزنطي

٢٢ يونيو سنة ٥٣٣	نزول بلزار يوس إفريقية وبدء الحكم البيزنطي فيها.
٥٤٦ - ٥٣٤	ولاية سليمان .
٥٤٥ - ٥٤٦	ثورة عامة في إفريقية وطرابلس ومقتل سليمان .

١٤ نوفمبر سنة ٥٦٥	وفاة جستنيان .
٥٢٧ — ٥٧١	ثورة عامة في إفريقية — سقوط قرطاجنة في يد البربر — ارطبان يخذل الثورة .
٥٨٨	ثورة في إفريقية يخذلها جناديوس .
٦٠٨	ولاية هرقل الكبير وبدا حكم أسرة جريغوريوس .
٦٤٢	وصول القوات العربية في برقة .

٢ — الغزوات العربية

٥٢	٥١	ذى القعدة سنة ٢١	عقبية بن نافع يخرج في بعث صغير ليستطلع أحوال إفريقية .
٦٤٢	سبتمبر سنة ٦٤٢	أوائل سنة ٢٢	مسير عمرو إلى برقة وفتحها .
		منتصف سنة ٢٢	فتح فزان .
		أوائل سنة ٢٣	فتح طرابلس وصبرة — بعث ودان .
		أواخر سنة ٢٣	عود عمرو من إفريقية .
٦٤٧		أواخر سنة ٢٧	وصول عبد الله بن سعد إلى برقة .
		أوائل سنة ٢٨	موقعة سبيلة .
٦٦١ — ٦٦٣	٤١ — ٤٣		بعث عقبية التهميدى في الصحراء .
٦٦٥ — ٦٦٥	٤٥		وصول معاوية بن حديج إلى إفريقية .
		أوائل سنة ٤٨	عودة الحملة .
٦٦٩ — ٦٧٠	٤٩		مسير عقبية إلى إفريقية في حملته الأولى .
	٥٠ — ٥٥		اختطاط القيروان .
٦٧٤ — ٦٧٥	٥٥		وصول دينار أبي المهاجر إفريقية .
	٥٥ — ٥٨		غزوة البربر في تلمسان .
	٥٩ — ٦١		أبو المهاجر يحاصر قرطاجنة .
	٦٢		عودة دينار من إفريقية وعزله .
٦٨١ — ٦٨٢	رجب سنة ٦٢		موت مسلمة بن مخلد عامل مصر

بدء ولاية عقبة بن نافع الثانية .	منتصف سنة ٦٢	٢
حملة عقبة الكبرى .	٦٢ - ٦٤	
موقعة تهودة ومقتل عقبة .	٦٤	٦٨٤ - ٦٨٣
انسحاب زهير بن قيس إلى برقة وإخلاء إفريقية .	٦٥	
مسير زهير إلى إفريقية .	٦٩	٦٨٩ - ٦٨٨
واقعة تمّس .	٧٠	
مقتل زهير في برقة .	٧١	
مسير حسان بن النعمان إلى إفريقية وحملته الأولى على قرطاجنة .	٧٦	٦٩٥
واقعة نينى وارتداد حسان عن إفريقية .	٧٧	
البطريق جان ينزل إفريقية ويستولى على قرطاجنة .	٧٩	
الكاهنة تخرب إفريقية .	٨٠	
مسير حسان الثانى إلى إفريقية .	٨١	
عزل حسان .	٨٥	
بدء ولاية موسى بن نصير .	أواخر ٨٥	٧٠٥
فتح زغوان .	٨٦	
حملته على المغرب الأوسط .	٨٩	
حملته على المغرب الأقصى .	٩٠	
إرسال الطلائع إلى إسبانيا .	٩١	٧١٠ - ٧٠٩
عبور موسى إلى الأندلس .	٩٢	
عوده إلى المشرق .	٩٤	
موته بالمشرق .	٩٨	

٣ - العصر الأموي

	٢٠	٢١	٢٢
يزيد بن أبي مسلم .	٧٢٠ - ٧٢١	٧٢٣ - ٧٢٤	١٠٢ - ١٠٥
بشر بن صفوان .	٧٢٧ - ٧٢٨		١٠٥ - ١٠٩
عبدة بن عبد الرحمن .	٧٢٨	٧٣٥	١١٠ - ١١٤
عبدة الله بن الحجاب .	٧٣٥		١١٤ - ١١٦
(حملته على صقلية)			
(ثورة ميسرة)			
كلثوم بن عياض - واقعة	٧٤٠	٧٤٢	١٢٣ - ١٢٤
الأشراف .			
حنظلة بن صفوان .	٧٤٢	٧٤٣	١٢٤ - ١٢٦
واقعة القرن والأصنام .			
عبد الرحمن بن حبيب .	٧٤٣	٧٤٤	١٢٦

فهارس الكتاب

١ - فهرس الأعلام

ابن عبد الحكم (المؤرخ) : ٢	ال الحكم : ١٠٥
ابن مصاد : ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١١	آل مروان : ١٠٥
ابن هريرة : ٦٨	إبراهيم بن أبي الرقيق : ٩٢ ، ١٨٧ ، ٢٥٥
ابن وهب : ١١٦ ، ١٤٩ ، ١٥٦	إبراهيم بن النصراني : ٢٢٧
أبناء عمر بن الخطاب : ٨١	أبنانيا : ٣٥
أبنة جريجوريوس : ٨٣ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢	ابن أبي حبيب : ١١٦
أبنة جرجير : ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ وانظر أبنة جرجير	ابن أبي دينار : ٣ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،
أبو الأسود بن النضر بن عبد الجبار : ٦٨ ، ١٠٤	١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ،
أبو الأعور : ٨٠	١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،
أبو أويس : ١٠٤	١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،
أبو تميم الجيثاني : ٦٨	١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ،
أبو جعفر الطبري : ١٤٨	١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
أبو ذر الفقار : ٨١	١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ،
أبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي : ٨١ ، ١٠٢	١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ،
أبو زمعة البلوي : ٨١	٢١٣ ، ٢١٤ وانظر أبو المهاجر
أبو شداد : ٢١٨	ابن أبي لهية : ٤٠ ، ٦٨ ، ٨٠ ، ٨٣ ،
أبو صالح : ٢٤٩ ، ٢٥٤	٨٩ ، ٩١ ، ١٠٤ ، ١١٥ ،
أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المصافري	١١٦ ، ١٢٦ ، ١٥٦ ،
الإفرنجي : ٢٩٦	ابن الكاهنة : ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٥٧ وانظر
أبو عبد الله بن عبد الحكم : ٩١	ابنا الكاهنة
أبو قبيل : ٦٨	ابن برزيات : أنظر بارزت
أبو قرة بن شريك : ١٧٤	ابن ثومان : ٢٣٨
أبو محجن الثقفي : ١٩٩	ابن حوقل : ٢٤١
أبو مهدي عيسى الصميلي (الشيخ الصالح	ابن حيان الحضرمي : ٢٠٦
الفتية) : ١٤٣	ابن خلدون : ٥
أحمد بن أبي سليمان : ١٤٩	ابن دشيمة النضري : ١٠٣
أحمد بن عمرو : ١٥٦	ابن زيد : ١٤٩

فهرس الأعلام

السايب بن عامر بن هشام : ٨١ ، ١١٩ وانظر
السايب بن هشام
الشيخ الأمين : ٢٣٦
العباس : ٨٠
الكاهنة البربرية : ٤١ ، ١٥٦ ، ١٨٥ ،
١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٣٠ ،
٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،
٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،
٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،
٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
٢٦٣ ، ٢٧٤
الليث بن سعد : ٦٢ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ١٣٥ ،
١٤٩ ، ١٥٠ ، ٢١٦
المدغري : ٢٩٤
المسور بن مخزومة الزهري : ٨٠ ، ٨١ ، ٩٢
وانظر المسور بن مخزومة بن نوفل
المعافري : ٦٨
المفضل بن فضالة : ١٤٤
الواقدي : ٥٥ ، ٩١
الوليد : ٢٦٥ ، ٢٨٩
أنسطاس الكتي : ١٣٩
أنطالاس : ٢٢ ، ٢٤
أوتر : ٢٤٢
أورتاياس : ٢٢
أوليمة : ١١٤
إيفير : ٢٤٥ ، ٢٤٧
باباروما : ٣٧ ، ٤٤
بجونات : ١٣٩
بر بن قيس : ٨ ، ٥٥
برنس بن بر : ٨
برسكوس : ٣٥ ، ٣٦

لداوار وستر مارك : ٢٤٥
أرطبان : ٢٤
أرنولد : ٨٠
أساقفة إفريقية : ٤٤
أسامة بن زيد بن مسلم : ٩١
إسحق بن عبد الله بن أبي فروة : ٥٥
أسد بن الفرات بن سنان : ٢٩٧
أسقف تيجس : ٢٨١
أسقف قرطاجنة : ٢٩ ، ٤٤ ، ٤٦
إسماعيل بن عبيد الأنصاري : ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،
٢٩٧ ، ٢٩٨
إفريقس بن أبرهة بن الرايش : ١
إفريق بن أبراهيم : ١
إفريقس بن قيس : ٧ ، ٨ وانظر إفريقش
إمام الصفرية : ٢٧٨
إصرىء القيس : ١٥٣
أمير المؤمنين : ٦٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ،
٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٩١
الأبرش : ٢٩١
الإدريسى : ٤
الأطيلون : ١١٤
الأعور بن سميد بن يزيد : ٨٠
الأقرع بن حابس التميمي : ١٩٥
البرنسي : ١٦٣ أنظر كسيلة بن أغز
البلاذري : ٢
التيجاني : ٥
الحارث بن الحكم : ٨١ ، ٨٢
الحجاج : ٢٨٩ ، ٢٩٨
الحسن الوزان : ٥ ، ٩٢
الزبير بن العوام : ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ،
٨٠ ، ٩٥
الزهري : ٨٠ ، ٨٤

فهرس الأعلام

١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٩٣ ، ٢٠٣ ، ٢١٠ ،

٢٤٨

وانظر جريجوريوس فلافيوس الأرمني :

وانظر البطريق

جرجيس (ملك الروم الأطارفة) : ٧ ، ٩٧

جريجورى الأكبر : ٣١ ، ٣٦

جريجوريا (أخت جريجوريوس) : ٣٩ ،

٤٤ ، ٥٠

جستنيان : ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٢٦ ،

٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ١٦١

وانظر جوستنيان

جستنيان الثانى : ٢٣٤ ، ٢٥٣

جناحه : ٩٣ ، ١١٤

جناديوس : ٣٤ ، ٣٧

جناريوس : ٢٠

جندل بن صخر الصدق : ٢١٥ ، ٢١٦

جنفارت : ٢٤

جودريانوس : ٢٧

چورج (حاكم قرطاجنة) : ٤٥

حييب : ١٤٩

حسان بن النعمان الفسائى : ٢ ، ٨ ،

٤١ ، ١٤٢ ، ١٦٩ ، ٢٠٥ ،

٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ،

٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،

٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،

٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،

٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،

٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،

٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،

بروكوبيوس : ٦ ، ٣٠

بريغاسيوس هادرميتوس : ٢٨

بسر بن أبى أرطأة : ٣٥ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ،

٨١ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٣٦

وانظر بشر بن أبى أرطأة

بكير بن عبد الله : ١٢٦

بلزار يوس : ١١ ، ٢٢

بوشار : ١

بويمراو : ٢٥٨

تاجر الله : ٢٩٦

تيم (أبو العرب) : ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٤٨ ،

١٤٩ ، ١٥٩

توكسييه : ٨٤ ، ٩٣

قيودور : (البابا) ، ٤٧ ، ٧٠

قيودوسوس : ٢٥

تيوفانيس : ٩٣ ، ١١٤ ، ١٣٩ ، ٢٣٦ ،

٢٥٤ ، ٢٥٩

ثابت الأنصارى : ١١٩

ثابت الفهمي : ١٤٩

جاسمول : ٣٤

جان تروجليتا : ٢٧

جبله بن عمرو الأنصارى : ١٢٧

جبون : ٩٥

جراثيل تمبل (السير) : ٩٧

جرچير : ٢٠ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ،

٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ،

٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٦١ ،

٦٧ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٤ ،

٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ،

٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،

٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

فهرس الأعلام

- سيف : ١٠٢
 سيفاكس : ١٦٦
 سينيسيوس القيريني : ٢٨٠
 شاكر : ٢٨٨
 شريك النعيسى : ١٧٤
 شريك بن سمى النطيفي : ١٣٢ ، ١٣١
 شريك بن سمى المراضى : ١٣٥
 شعيب : ١٠٢
 شيعه عثمان : ١١٧ ، ١١٠
 صفرونيوس : ٤٦ ، ٤٥
 طارق بن زياد : ١٧٦ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٨٦
 طلحة : ٨٠ ، ١٠٢
 عاصم بن عمر : ٨١
 عبد الأعلى بن جريج الإفريقي : ٢٧٨
 عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث : ٨١
 عبد الرحمن بن زياد بن أنعم : ٢٥٢
 عبد الرحمن بن سياد : ٢٩٧
 عبد الرحمن بن نافع : ٢٩٦
 عبدالعزيز بن مروان : ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧
 ٢١٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٦٢
 ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢
 عبد القيس بن لقيط : ١٣٠
 عبد الله بن أبي بكر : ٨١
 عبد الله بن الحجاب : ٢٩٠ ، ٢٩٤
 عبد الله بن الزبير بن العوام : ٦٤ ، ٧٨ ، ٨١
 ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠
 ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٠
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٢٠
 ١٢١ ، ١٥٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٥
 ٢٣٦ ، ٢٦٨
 عبد الله بن المغيرة بن بردة الكنانى : ٢٧٧
- عبد الله بن أنس : ٨١
 عبد الله بن جعفر : ٩٠
 عبد الله بن زيد بن الخطاب : ٨١
 عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ١٩ ، ٤٠ ، ٦٧
 ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧
 ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢
 ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧
 ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣
 ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠
 ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤
 ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠
 ١١١ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٩
 ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٤٨ ، ١٤٩
 ١٥٧ ، ١٧٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦
 ٢٠٧ ، ٢٢١ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩
 عبد الله بن سعيد : ٩٥
 عبيد الله بن طلحة : ٨١
 عبيد الله بن عباس : ٨١ ، ١٠٤
 عبيد الله بن عمر بن الخطاب : ٨١ ، ١٢٠
 عبيد الله بن عمرو بن العاص : ٨١ ، ١١١
 ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩
 عبيد الله بن قيس : ١٢٦
 عبد الله بن موسى : ٢٧٩
 عبيد الله بن الحجاب : ٢٦٣
 عبيد الله بن عباس : ٨١
 عبد المطلب بن السائب بن وداعة : ٨١
 عبد الملك بن مروان : ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٥٠
 ٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٨
 ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧
 ٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤
 ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٢٧٢

فهرس الأعلام

٢١٠، ٢١١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٩،	عبد الملك بن مسleme : ٤٠، ٤٨، ٨٠، ٩١،
٢٢١، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨،	١٠٤، ١١٥، ١٢٦، ١٥٦،
٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤،	عتبة بن أبي سفيان : ١١٨، ١٣٥، ١٤٨،
٢٤٣، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٦٨،	عثمان بن عفان (الإمام المظلوم) : ٧، ٧٦،
٢٧٠، ٢٧١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٦،	٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٦، ٨٧،
٢٨٨	٩١، ٩٢، ٩٤، ١٠٠، ١٠٢،
علقة بن رمثة البلوى : ٢١٨	١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧،
علي بن أبي طالب : ٦٥، ٨٠، ١١٢، ١١٨،	١١٠، ١١٥، ١١٧، ١٢٥، ١٣٥،
١٣١	١٤٦، ١٥١، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٨٢،
علي بن زياد : ٢٩٦	٢٨٣
عمر بن الخطاب : ١، ٥٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨،	عدنان : ٨
٧١، ٧٦، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٤،	عقبة بن عامر الجهني : ٨٢، ١١١، ١٤٨،
٢٨٢، ٢٨٣	١٤٩
عمر بن عبد العزيز : ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٩٥،	عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري : ٥١، ٥٣،
٢٩٦	٥٤، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٥،
عمر بن علي الفرس : ١٨١	٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٦، ٧٧، ٨١،
عمر بن علي القرشي : ١٣٦، ١٨٥،	٨٢، ٨٤، ١١٢، ١١٨، ١١٩،
عمران بن عوف الفافقي : ٢٩٧	١٢٤، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢،
عمرو بن العاص : ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٥،	١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧،
٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢،	١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣،
٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩،	١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨،
٧٠، ٧١، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨،	١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣،
٧٩، ٨٥، ٩٠، ٩٩، ١٠٥،	١٥٤، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠،
١١١، ١١٨، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢،	١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧،
١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٨، ١٤٩،	١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥،
٢٠٤، ٢١١، ٢٧١، ٢٨٢	١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١،
عمير بن وهب الجمعي : ٦٦	١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦،
عيسى بن عبد الله الطويل : ٢٩٠،	١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١،
عيسى بن عيسى بن محمد : ١١٦	١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦،
عينة بن حصن : ١٩٥	١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١،
غياث بن أبي شبيب : ٢٩٧	٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦،

فهرس الأعلام

٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ،

٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٨٥ ،

يكتب أيضاً كسيلة بن أغز الأوربي ،

كسيلة بن لزيم ، كسيلة بن لزيم ،

كسيلة النصراني

كعب بن عمرو : ٨١

كوتسينا : ٢٢

كوريبوس : ٢٧ ، ٢٨

كورنليوس : ٥٧

كولمبوس : ٣١

كوهين : ٢٤٥

لالافاطمة : ٢٤٥

لذريق : ١٩٢

لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك : ٥٣

ليبو : ١٤٢

ليسرح : ٦٨

ليون الإفريقي : ٩٢

ليونتيوس : ٢٥٣

ليونس : ٢٣٤ ، ٢٥٣

مادغيس بن بر الأبطار : ٨ ، ٩

مارتن (البابا) : ١١٣ ، ١٢٦

مارتينة (الإمبراطورة) : ٤٥

ماسديو : ١٩٤

ماسكري : ١٦٦

ماسوناس : ٣٠

ماسونا ماستيجاس : ٢٢

ماكسن : ٦ ، ١٦٦

مالك بن مروان : ٢٣٨

محمد بن أبي بكر : ١٣٥ ، ١٧٨ ، ٢٨٤

محمد بن أبي بكير : ٢٣٨

فارق بن مصرم : ١

فالاسيوس : ٤٦

فطوري : ١

فوكاس : ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٠

فولجنتيوس فراندوس : ٢٨

فيوكتيتوس : ٢٥

قسطاط : ٨

قدريوس : ١٣٩

قسططين : ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ،

١٦٠ ، ١٦١

قسططين الثاني (الامبراطور) : ٤٠ ، ١١٢ ،

١١٣ ، ١٢٦ وانظر قسطط

قسططين الثالث : ٤٤ ، ٤٦ ، ١١٣ ، ١١٥ ،

١٦٢

قسططين الرابع : ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٦٠ ،

١٨٩ ، ٢١٣

قيرس : ٢٤ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٢٠٤

قيس : ٨

قيصريوس : ٣٨

كاهنة لواتة : ٢٦٣

كسيلة بن لزيم الأوربي البرلسي : ٣٠ ، ١٦١ ،

١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،

١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،

١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ،

١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ،

٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ،

٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،

٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ،

٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،

فهرس الأعلام

معاوية بن حديج الكندي (السكوني): ١٠٩، ٨١،	محمد بن أحمد بن تميم: ١٤٩
١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥،	محمد بن أوس الأنصاري: ١٩٩
١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠،	محمد بن سعد: ٩١، ٥٥
١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦،	محمد بن عبد العزيز: ٢٩٦
١٢٧، ١٣١، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨،	محمد بن يزيد مولى قریش: ٢٧٣، ٢٧٩
١٣٩، ١٤٠، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩،	٢٨٩، ٢٩٥ وانظر محمد بن يزيد القرشي
١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ٢١٣، ٢١٤، ٢٣٣،	محمد بن يوسف: ٢٢٠
٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢،	مهتبه: ٤٧
معن التوسي: ٢٩٦	مهناق: ٢٣٩
المقوقس: ١٩٣	مهران بن عبد الحكم: ٨١، ٨٧، ٩٠، ٩٤
مكسيم (الراهب): ٤٥، ٤٦، ٤٧،	١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١١٥،
مكسيميان: ٢٧	٢١٥
ملك الأندلس: ٦٨	مهة بن ليصرح: ٦٨
ملك العرب الأعظم: ٢٥٧	مسلم بن عقبة المري: ٢١٧
ملوك الروم: ٦٨، ٨٤، ٨٥، ٢٦٥،	مسلمة بن سعيد: ٥٥
موريس (الإمبراطور): ٣٢، ٣٤، ٥٠ وانظر	مسلمة بن عبد الملك: ٨٩
موريق	مسلمة بن محمد الأنصاري: ١١٨، ١٢٧،
موسى بن نصير: ٩٠، ٢١٦، ٢٦٥، ٢٦٦،	١٣١، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩،
٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٧،	١٥٠، ١٥١، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨،
٢٧٨، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠،	١٥٩، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٨، ١٧٩،
ميسرة السقاء: ٢٧٧، ٢٩١، ٢٩٤،	٢٠٥، ٢٦٨، ٢٧١،
نافع بن القيس: ١٣٠	مصعب بن الزبير: ٢١٧
نافع مولى آل الزبير: ٩١	معاوية بن أبي سفيان: ٦٥، ٩٤، ١٠٣،
نقراو: ٥٣	١٠٧، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣،
نقفور: ١١٩، ١٢٠، ٢٣٦، ٢٥٤، ٢٥٩،	١١٤، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩،
نقبتاس بن جريجور يوس: ٣٥، ٣٨، ٣٩،	١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦،
هانيء بن نكور الضريس: ٢٢٣	١٢٧، ١٣٥، ١٣٤، ١٣٩، ١٤٧،
هرقل (البطريق): ١٣، ٢٣، ٣٠، ٣٤،	١٣٨، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩،
٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٤٣، ٤٤،	١٥٠، ١٥١، ١٥٩، ١٧٨، ٢٠١،
٤٥، ٤٦، ٥٠، ٦٠، ٨٣، ٨٤،	٢٧١، ٢٧٢، ٢٨٣،
٩١، ٩٣، ١١٤، ١٩٢،	

فهرس الأعلام

هرقل الصغير : ٤٥	يحيى بن عبد الله بن بكير : ١٣٥
هرقل الكبير : ٣٨	يزيد بن أبي حبيب : ١١٥ ، ١٤٤ ، ١٥٦
هرقل قسطنطين : ٣٩	يزيد بن أبي مسلم : ٢٧٩ ، ٢٨٩
هرقلوناس : ٤٥ ، ٤٧	يزيد بن حاتم : ٢٧٧
هشام بن عبد الملك : ٢٩١	يزيد بن عبد الملك : ٢٨٩
هلال بن شروان اللواتى : ٢٣٨ ، ٢٨٤	يزيد بن معاوية : ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٧٨
هوميروس : ١	١٧٩ ، ١٨٤
هيرودوت : ٢	يلىات : ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤
وزمار بن صقلاب : ٢٨٢-٢٨٣	يوبيا (أمير نوميديا) : ٦ ، ٢٨
يابداس : ٢٢	يوجورثا : ٦ ، ١٦٦
ياقوه بن يونس : ١	يوحنا (البطريق) : ٢٤٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠
ياقوت : ٣	يوديسيا : ٣٥
يحيى بن الحكم بن أبى العاص : ١٢٠	يوسف بن عدى : ١٢٧
يحيى بن بكير : ١٥٠ ، ٢١٦	يوليان : أنظر يلىان

ب - فهرس الأجناس والشعوب والقبائل والألفاظ الاصطلاحية

١٥٧، ١٥٤، ١٤٦، ١٤٣، ١٣٨
١٦٤، ١٦٣، ١٦١، ١٦٠، ١٥٩
١٧٠، ١٦٨، ١٦٧، ١٦٦، ١٦٥
١٨١، ١٨٠، ١٧٦، ١٧٢، ١٧١
١٨٦، ١٨٥، ١٨٤، ١٨٣، ١٨٢
١٩٣، ١٩٢، ١٩١، ١٩٠، ١٨٩
١٩٨، ١٩٧، ١٩٦، ١٩٥، ١٩٤
٢١٠، ٢٠٧، ٢٠٢، ٢٠١، ١٩٩
٢٢١، ٢٢٠، ٢١٩، ٢١٢، ٢١١
٢٢٦، ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢٣، ٢٢٢
٢٣٨، ٢٣٧، ٢٣٤، ٢٣٢، ٢٣٠
٢٤٣، ٢٤٢، ٢٤١، ٢٤٠، ٢٣٩
٢٤٨، ٢٤٧، ٢٤٦، ٢٤٥، ٢٤٤
٢٥٦، ٢٥٣، ٢٥٢، ٢٥١، ٢٥٠
٢٦٥، ٢٦٢، ٢٥٩، ٢٥٨، ٢٥٧
٢٧٨، ٢٧٧، ٢٧٦، ٢٧٥، ٢٧٤
٢٨٤، ٢٨٣، ٢٨٢، ٢٨١، ٢٨٠
٢٨٩، ٢٨٨، ٢٨٧، ٢٨٦، ٢٨٥
٢٩٤، ٢٩٣، ٢٩٢، ٢٩١، ٢٩٠
٢٩٩، ٢٩٨، ٢٩٦، ٢٩٥

البربر البتر : ٢٥٧، ٢٣٠، ٥٣ وانظر البتر
البربر البدو : ٢٨٥، ٢٨٤، ٢٤٨، ٢٣٤
البربر الجنوبيون البدو : ٢٣٨، ٢٢٠
البربر الحضرة : ٢٨٥، ٩، ٦
البربر الرحل : ٦
البربر المستقرون : ٦
البربر المسلمون : ٢٩٢
بربر الأوراس : ٢٨
بربر البرانس : ٢٢٠
بربر برقة : ٥٥، ٥٤، ٥١
بربر الجنوب : ٢١١
بربر الشمال : ٢١١

أسقف روسيفنس : ٢٨
أسقف نوميدي : ٣١
أسلم (قبيلة عربية) : ٨١
أشراف العرب : ٢١٨، ٢٥٥
أشراف المسلمين : ٢٥٥
أشراف قریش : ١٢١
أصحاب الذراري والأنتقال : ٢٢٧
الأسطول البيزنطي : ٢٥٤، ٢٦٠
الأعجام : ١٨٥
الأفارقة : ١، ٥، ٧، ٤٠، ٩٣، ١٠٦، ١٢٠، ٢٧٨، ٢٧٧، ٢٥٣
الأفارقة اللاتينيون : ٧
الأفارقة المسلمون : ٢٠٧
الإفريقيون : ٤٣، ٤٧، ١٨٦، ٢٠١ وانظر
الأفارقة
الإفرنج : ٥، ١٠٠، ١٦٣، ١٧٠، ١٧٢
وانظر الفرنج والفرنجية

الأرثوذكس : ١٦٠
الأرثوذكسية : ٤٤، ٤٥
الأمويون : ١١٠، ١٢٢، ١٤٦، ٢٣٦، ٢٩٤، ٢٩٣
الأمير العربي : ٢٦٠
الإنجيل : ٢٦٢
الأنساب العربية : ٢٩٤
الأنصار : ١٢٦، ١٥٠، ١٥٦، ١٥٨
الأوراس : ٢١١
الباوية : ٣٨، ٤٣، ٤٦، ٤٧، ١١٣
البربر : ١، ٥، ٦، ٧، ٨، ٢٧، ٣٩، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٣، ٧٥، ٨٤، ٨٧، ٩٦، ٩٩، ١٠٠، ١١٣، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥

فهرس الأجناس والشعوب والقبائل والألفاظ الاصطلاحية

الجيش العربي : ٢٣٤ ، ٦٣	بربر المغرب الأقصى : ٢٨٧
الجيش الإسلامية : ٢٣٣ ، ١٠٠	بربر إفريقية : ١٦٨ ، ٥١
الحاكم المدني القديم : ٣٢	بربر أنطالاس : ٢٥
الخارجون : ٢٧٢	بربر طرابلس : ٥١
الخارجية : ٢٩٤	بربر طنجة : ٢٨٨ ، ١٨٠
الحلف البربري الرومي : ١٩٨ ، ١٩٢ ، ١٩٠	بربرة الزاب : ٢٤٣
٢٣٤ ، ٢٢٢	الجنس البربري : ٢٤٦
الحضر (حزب يزنطي) : ١٢	الشعب البربري : ٢٧٨
الخلافة : ٢١٨	بربري : ٢٧٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥١ ، ٢٤٣ ، ١٥٤
الخوارج : ٢٩٤	قبائل بربرية : ٢٩٤ ، ٢٩٢ ، ٢٤٨ ، ١٣٨
الدنانير : ٨٤	مسلمو البربر : ٢٢١
الدونامية : ٢٨١ ، ٣١ ، ٣٠ ، ٢٩	نسابة البربر : ٢٨٥
الدوناتيون : ٢٨١	نصارى البربر : ١٨٢ ، ١٦١
الدولة الإسلامية : ١٥٦ ، ١١٢ ، ١١١	البرانس : ٢١١ ، ٢٠١ ، ١٦٦ ، ١٦١ ، ٨
٢٧٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢١٧ ، ٢١٢	٢٤٨ ، ٢٤٤ ، ٢٣٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٠
الدولة البيزنطية : ١٣٣ ، ١٦٠ ، ٢٢٦	٢٥٨ ، ٢٥٢
٢٣٩ ، ٢٣٢	برالس حضر : ٢٨٥ ، ٢٤٤
الروم : ٣٩ ، ٢٦ ، ٢١ ، ١٢ ، ٥ ، ٢	البتر : ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٣٠ ، ١٦١ ، ٨ ، ١
٤٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٦١	٢٤٥
٨٦ ، ٨٥ ، ٧٩ ، ٧٧ ، ٦٦ ، ٦٣ ، ٦٢	البترا الحضر : ٢٨٧ ، ٢٨٥ ، ٢٤٣ ، ٢٣٤
٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥	بترا بدو : ٢٨٥
٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١	البيزنطيون : ٣٣ ، ٣١ ، ٧ ، ٦ ، ٥ ، ٢
١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٩	٤٦ ، ٥٠ ، ٧٥ ، ٩٧ ، ١١٤
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٣٣	٢٠١ ، ٢١٤ ، ٢٣٣ ، ٢٤٨
١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠	الحضارة البيزنطية : ٢٠١ ، ٢٢٠
١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨	التابعون : ٢٩٦
١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٠	التوابون : ٢١٧
١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧	الجاهلية : ٢٥٣
١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢	الجنود الإسلامي : ٢٦٢
١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٤	الجيش الإفريقي : ١١٥
٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤	

فهرس الأجناس والشعوب والقبائل والألفاظ الاصطلاحية

العلويون : ٩٠	٢٢٢، ٢٢٠، ٢١٩، ٢١٨، ٢١٥
العجم : ١٢٥، ١٨٥	٢٢٧، ٢٢٦، ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢٣
عجم إفريقية : ١٦٨، ١٦٩، ٢٧٣	٢٣٣، ٢٣٢، ٢٣٠، ٢٢٩، ٢٢٨
العثمانية : ١١٢، ١٣١، ١٣٥	٢٣٩، ٢٣٨، ٢٣٧، ٢٣٥، ٢٣٤
عثماني : ١٤٧	٢٤٥، ٢٤٤، ٢٤٣، ٢٤١، ٢٤٠
العرب : ٢، ٥، ٧، ٣٩، ٤٢، ٤٦	٢٥٨، ٢٥٥، ٢٥٤، ٢٥٣، ٢٤٧
٥١، ٥٢، ٥٥، ٥٧، ٦٠، ٦١	٢٦٣، ٢٦٢، ٢٦١، ٢٦٠، ٢٥٩
٦٢، ٦٣، ٦٧، ٧٤، ٧٥، ٧٦	٢٧٧، ٢٧٤، ٢٧٣، ٢٦٥، ٢٦٤
٧٧، ٨١، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧	٢٨٨، ٢٨٥، ٢٨٤، ٢٨٠، ٢٧٨
٨٨، ٩٠، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٧	رومي : ١١٤، ٢٠١
٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٦	روم إفريقية ، ١٤٥، ١٦١، ١٨٣، ١٨٩
١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٩، ١٢٠	٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٦، ٢٣٤
١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧	٢٤١
١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٩، ١٤١	روم بيزنطة : ٥٣، ٢٢٦
١٤٢، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٣	روم طرابلس : ٦٣
١٥٤، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠	الرومان : ٢، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٥٧، ٢٨٠
١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥	الزرق : (حزب بيزنطي) : ١٢
١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧١، ١٧٢	السوس : ٢٨٧
١٧٣، ١٧٤، ١٧٦، ١٨٢، ١٨٦	الشيعة : ٢١٧، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٩٤
١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢	الصحابة : ٦٥، ٨٠، ٨١، ٨٥، ١٢٠
١٩٣، ١٩٥، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٥	الصفوية : ٢١٨، ٢٧٨، ٢٩٤
٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢	الصقليون : ١١٤
٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٨، ٢١٩	الصليبيون : ٢٠٣
٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤	الطرابلسيون : ٧٧
٢٢٥، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٢	المساكر المصرية : ٢٠٥
٢٣٤، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠	المصر الإسلامي : ٥٣
٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦	المصر الأموي : ١٨٦، ٢٧٤، ٢٧٩
٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١	٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٦
٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦	المصر العباسي : ١٨٦
٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١	المصر اليزنطي : ٩٧، ١٤١، ١٦١
٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩	

فهرس الأجناس والشعوب والقبائل والألفاظ الاصطلاحية

الحضارة البهرية : ٢٩٩	٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥،
الحضارة الرومانية : ١٦٦	٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٤،
الحضارة القديمة : ٢٤٤	٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩،
الحضارة العالمية : ٢٩٩	٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٥، ٢٩٧، ٢٩٩
الحضارة الإسلامية : ٢٧٨	الفتح العربي : ١٥٩، ١٢٥، ٦٢، ٥٢، ٥٠،
الحضارة البيزنطية : ١٦٦، ٢٤٤، ٢٨٥	١٦٢، ٢٦٨، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٩٩
الحاكم الإفريقي : ١١٣	الفتح الإسلامي : ١١٠، ١٢٧، ١٦١،
الحكام البيزنطيون : ٢٤٤	١٦٦، ٢٥٢، ٢٦٨، ٢٨٠
الحكم الإسلامي : ٢٧٧، ٢٩٠	عرب الشام : ٢٩٢
الحكم البيزنطي : ٢٨٠، ٢٨١	مهاجرو العرب : ٢٩٢
اللهجات البربرية : ١٥٤	الغزو الوندالي : ٢٨٠
الومبارد : ١١٣	الفرنسيون : ٢٤٥، ٢٤٦
الليبيون : ٧، ٢٨٠	الفيزيقيون : ٢٤١، ٢٤٥
المجوسية : ١٩٤	القرآن : ٢٩٧، ٢٩٨،
المدلجي : ٦١، ٦٢، ٧١	القط : ٤٤، ٥٣، ٨٤، ٢٦٢، ٢٦٤
المدير : ٣٣	قط مصر : ٤٣، ٤٥، ٥٣، ٢١١، ٢٢٧،
المسيحية : ٦٣، ٩٦، ٢١٢	٢٦٢
المسيحيون : ١٣٩، ١٤٦، ٢٨٠، ٢٨٢	القاضي الروماني الأكبر : ٣٣
مسيحيو إفريقية : ١٤٦	القبائل الجنوبية في المغرب : ٢٨٤
المدنيون : ٢٢٩	القرطاجنيون : ٦
المصريون : ٢٠٥	القصائد اليهودية (كتاب) : ٢٧، ٢٨
المصامدة : ١٩٤، ٢٠٠، ٢٨٤، ٢٨٨	القناصل السابقون : ٣٣
مصامدة جبل درن : ٢٠٠	القيسية : ٢٩٢
المضرية : ٢٩٢	القيسيون : ٢٦٩
المضريون : ٢٦٩	القوط : ١٩٢
المفريون : ١٣٢، ١٤٠، ١٤٩، ١٨٧،	قوط إسبانية : ١٩٢
١٩٠	الكفار والممركون : ١٣١، ٢١٩، ٢٥٤،
الملكانيون : ٤٣	٢٨٧، ٢٨٩
أمم المغرب : ٢٥٠، ٢٦٨	اللاتينيون : ٦، ٥، ٢٠١، ٢٦٢، ٢٧٨
المهاجرون : ١٢٦	الحضارة اللاتينية : ١٩٠، ٢١٢، ٢٨٨
المور (Les Maures) : ٢٨٠	

فهرس الأجناس والشعوب والقبائل والألفاظ الاصطلاحية

بنو حنر (قوم وزمار بن صولات) : ٢٨٢	المونوثيليون : ٤٥
بنو زهرة : ٨١	المونوثيلية : ٤٣ ، ٤٥ ، ٩٤ ، ١٦٠
بنو سليم : ٨١	المونوفيسي يعقوبى : ٤٤
بنو سهم : ٨١	المونوفيسيون : ٤٤
بنو عامر بن لؤى : ٨١	النصارى : ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٦١ ، ١٨٢ ،
بنو عدى : ٨١	١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٤٤ ، ٢٥٣
بنو مدلج : ٦١	النصرانية : ٢٧٣ ، ٢٨٨
بنو هاشم : ٨١	النوميديون : ٧ ، ٢٨٠
بنو هزبل : ٨١	النصرانية : ٦٢ ، ٦٣ ، ١٩٤ ، ٢٠١
بنو يفرن : ٢٤٣	الهنود : ١
جراوة : ١٦٢ ، ٢٠١ ، ٢٢٤ ، ٢٤٣ ،	الوثنية : ٢٨٠
٢٤٥ ، ٢٤٧	الوندال : ١١ ، ٢٢ ، ٢٩
جرمة : ٥٧	المحاقبة : ٤٣
جند العرب : ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠	المعقوبية : ٤٤
جند المغرب : ٢٧٤ ، ٢٧٧	اليونان : ١ ، ٢٦٢
جهينة : ٨١	إمبراطور الروم : ٣٤ ، ١٦٠
جيش المبادلة : ٨١	أمير مصر : ٢٦٥
حفارات البحر الأبيض المتوسط : ٦	أمير مفراوة : ٢٨٢
حكام المغرب : ٢٦٩	أنبية : ١٨٤ وانظر أنتبة وأنتبة
حكام مصر : ١٥٦ ، ٥٠	أهل الذمة : ٢٢٧ ، ٢٨٩
حياة القديس فولجانتى (كتاب) : ٢٨	أهل اللثام : ١٩٤
دمرة : ٨١	أوربة : ٣٠ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ،
زنانة : ٩١ ، ١٦١ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ،	١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ،
٢١١ ، ٢٤٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧	١٩٠ ، ١٨٢ ، ١٨١ ، ١٧٢
زواغة : ١٦٢	برغواطة : ٢٠٠ ، ٢١١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧
مقلاب : ٢٨٢	بطريق : ١٠٥ ، ١٩١
منهاجة : ٩ ، ١٦١ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣	بنو أسد بن عبد العزى : ٨١
عامل إفريقية : ٢٦٣ ، ٢٩٠	بنو الديل : ٨١
عامل المغرب : ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٩٠	بنو أمية : (وانظر : الأمويون) ٨١ ، ١٣٥ ،
عامل مصر : ٢٦٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٩	٢٣٦ ، ٢٦٥ ، ٢٨٨
	بنو تميم : ٨١

فهرس الأجناس والشعوب والقبائل والألفاظ الاصطلاحية

غفار : ٨١	مسلمو صراكش : ٢٤٥
غمارة : ٣٠ ، ١٩١ ، ١٩٣	مسوفة : ١٩٤
فارسي : ١٥٣	مطفرة : ١٦١
فرسان العرب : ٢٥٦	مفراوة : ٢٠٠
فهر : ٢٧٧	نفراوة : ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٨٤
قرشي : ١٣٠	نفوسة : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٨٤ ، ٢٢١ ، ٢١١
قريش : ٧٨ ، ١٢١ ، ١٢٤	هواره : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ١٣٢ ، ١٦١ ، ٢٨٧ ، ٢٨٤ ، ١٦٢
قرصقة : ٥٦	والى مصر : ٥٥ ، ١٧١ ، ٢٦٢ وانظر
قفصة : ١٦٢	ولاية مصر
كتامة : ٢٩٣	وننيون : ٢٨١ ، ٢٨٠
لوا : ٩	ورخومة : ١٦٢
لوانة : ٧ ، ٢٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤	ولاية خلفاء بنى أمية : ٢٨٨
٢٠١ ، ٢١١ ، ٢٣٨ ، ٢٨٤	ولاية إسلامية : ١٥٦
مدينة الله (كتاب) : ٢٧ ، ٢٨	ولاية إفريقية : ٢٥ ، ١٥٦
مذهب خلقيدونية : ٤٣	يهود : ٢٨١
مزانة : ٥٣	يوناني : ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥١
مزينة : ٨١	
مسيكينة : ٢٤٧	

ج - فهرس الأماكن

١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١،
١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧،
١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٥، ١٤٦،
١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٣،
١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨،
١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤،
١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٣،
١٧٤، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٥،
١٨٦، ١٩٣، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠،
٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩،
٢١٠، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦،
٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١،
٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣١،
٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦،
٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢،
٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨،
٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣،
٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٠،
٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦،
٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٤،
٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩،
٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٧،
٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٥، ٢٩٦،
٢٩٧، ٢٩٨

إفريقية الإسلامية : ١٣٠، ١٤٦، ٢٣٣،
٢٦٠

إفريقية البيزنطية : ٢، ١٤، ١٩، ٢٥،
٣٢، ٣٧، ١٢٤، ١٤١، ١٤٦،
٢٢٦، ٢٧٣

إفريقية الرومانية : ٢، ١٥،
أفريكا : ٧

آبار حديد : ١٢١، ١٢٤ .

آدس : ٢٦١

آسيا الصغرى : ٣٥

آمون (واحة) : ٤

الأبله : ٢١٥

أجدابية : ٢٥٠

أذنة : ١٨٩

أذنة : ١٩٠

أربة : ١٨٢، ١٨٩ وانظر أربة

أسبانيا : ٣٢، ١٩٢، ٢٦٢، ٢٦٩، ٢٧٣،

٢٩٩، ٢٩٢

أسفاقس : ١٤٤

أشلونة : ٢٤١

اصطفورة : ٢٤٠، ٢٤١ وانظر صلفورة

أعمدة هرقل : ١٤

أغمات هيلانة (مسجد) : ٢٨٧

أفري : ١

إفريقية : ١، ٢، ٣، ٥، ٧، ٨، ١١،

١٣، ١٤، ١٦، ٢٢، ٢٤، ٣٩،

٣٢، ٣٣، ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٤١،

٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧،

٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٦، ٥٨، ٦٠،

٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨،

٦٩، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩،

٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٦،

٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٣، ٩٤، ٩٥،

٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠،

١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦،

١٠٧، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣،

١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨،

١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥،

فهرس الأماكن

الجزائر : ٦، ٢	الأجم : ١٩، ٨٣، ٩٧، ٢٦٣ وانظر
الجزيرة : ١١٤، ١٢٦، ٢١٨	الأعجام والجمل والمجم
الجزر البحرية : ٢٥٣	الأريس : ١٨٨، ٩٦
الحجاز : ١١٠، ٢١٧	الإسكندرية : ٣، ١٨، ٤٤، ٤٥، ٥٢،
الحمامات : ١٧٣، ١٧٤	١١٤، ٥٤، ٥٦، ٦٨، ٧٠، ١١٤
الرباطات : ٥، ٢١٤، ٢٣٥، ٢٨٥ وانظر	الأطلس (درن) : ٤، ٢٠٦
الرباط	الأطلس الأدنى : ٢٠٠
الرمال التي هي أول بلاد السودان : ٣	الأطلس المتوسط : ٢٠٠
الريف (مضية) : ١٩١	الأطلس الوسطى (جبال) : ١٩١
الزاب : ٢٨، ٣٠، ٣٢، ١٨٢، ١٨٤	الإمبراطورية البيزنطية : ٥
١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠	الإمبراطورية الرومانية : ٤٦، ٢٨٠
الزيتونة : ٢٦، ١٤٤، ١٧٤، ٢٩٦	الأمصار : ٢٨٩
السهل الداخلي : ٢٥٥	الأندلس : ٣، ١٩٢، ١٩٣، ٢٣٩، ٢٥٣،
السهل الساحلي : ٧٦	٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٩
السهل المتوسط : ١٩٧	الأوراس : ٦، ١٤، ١٥، ٢٢، ٢٦، ٣٠،
السودان : ٣، ١٣١، ١٣٤	٤٠، ٤٢، ٧٥، ١٦٢، ١٦٥،
السوس : ٤، ١٧٩، ١٨٤، ١٨٥، ١٩٤،	١٦٦، ١٦٧، ٢٠٠، ٢١٤، ٢٢١،
١٩٧	٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٣، ٢٤٥، ٢٤٦،
السوس الأدنى : ٤، ١٨٤، ١٩٢، ١٩٤،	٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٧، ٢٥٩
٢٠٠	البحر الأبيض المتوسط : ٣، ٦، ٦١، ١٩٤
السوس الأقصى : ٤، ١٧٩، ١٩٤، ٢٠٠	٢٦٣، ٢٧٣، ٢٩٩
الشام : ٣٥، ٤٤، ١١٠، ١١٣، ١١٤،	البحر الأسود : ١١٣
١٢٦، ١٣٥، ١٤٩، ١٥٧، ٢٠٣،	البحر الشامي : ٣
٢١٨، ٢٩٢	البلاد العربية : ١٠٧
الصعيد : ٦٦	البلقان : ١٦٠
الطين (وادي) : ٣	البيار (جزائر) : ٣٢
العراق : ٢١٧، ٢٣٣، ٢٨٩	التل : ٣٠
الفرما : ١٨	الجرف : ٨١، ٨٢
الفسطاط : ٨٨، ٩٠، ١٠٠، ١٣٣،	الجريد : ٥، ٣٠، ٨٥، ٩٩، ٢٠١، ٢٧٨
١٥٦، ١٤٦	

فهرس الأماكن

الكنيسة الغربية : ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧	القرن : ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٥٣
الكوفة : ٢١٧	القرطاجنة : ٩٧ ، ٢٦١ وانظر قرطاجنة
المحيط الاطلسي : ٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥	القسطنطينية : ١٩ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨
المدينة : ٢٤ ، ٦٥ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٧	٣٩ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٧٥ ، ٩٣
٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥	١١٤ ، ١٤٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٩٣
١٠٦ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧	٢١٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦
١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧١	القيروان : ٣ ، ٢٦ ، ٤٠ ، ٥١ ، ٨٦
١٧٤ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١	٩٧ ، ٩٨ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٣
٢١٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٣٥٤	١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦
٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٨٣	١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣
٢٩٠ ، ٢٩٢	١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩
المسجد الأعظم : ١٤٤	١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٩
المسجد الجامع : ٢٧٤	١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٦٩
المسيلة : ١٥ ، ١٨٩	١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥
المشرق : ٨١ ، ١١٨ ، ١٣٦ ، ٣٣٢	١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢
٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩	١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧
٢٩٨	١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩
المغرب : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٥٤ ، ٥٥	٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧
٥٦ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٨	٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢١٩
١١١ ، ١١٢ ، ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٣٢	٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤
١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٣ ، ١٤٤	٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠
١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦٨	٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥١
١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢١٢ ، ٢٣٤ ، ٣٣٧	٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠
٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣	٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥
٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١	٢٨٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨
٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦	القيسارية : ٢٧٣
٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩	الكف الحالية : ٩٦ ، ٢٢٥
٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥	الكنج : ١
٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩	الكنيسة الإفريقية : ٣٠ ، ٢٨١
المغرب الإسلامي : ٢٩٨ ، ٢٩٩	الكنيسة البيزنطية : ٣١ ، ٢٨١
	الكنيسة المشرقية : ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٧

فهرس الأماكن الجغرافية

بايليون (حصن) : ١٨ ، ٦٢ ، ٦٣	المغرب الأقصى : ١٦٤ ، ١٦٣ ، ٧ ، ٤
باجة : ٣ ، ٢٤١	١٧١ ، ١٧٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٨٧
باديس : ١٩١	٢٨٨
بارجو (جبل) : ١٤٣	المغرب الأوسط : ١٧٥ ، ١٥٥ ، ٧ ، ٤
باشو (جزيرة) : ١٧٤	٢٨٧
باغاية : ٣٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨	المغرب الرومي : ٢٩٩
١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٢٣ ، ٢٤٦	المغرب القرطاجي : ٢٩٩
٢٤٧	المفرقة : ٦٨ وانظر إفريقية
بحاية : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٧٤	المقاطعة القنصلية : ٢٤٠
٢٤٧ ، ٢٤١	الملعب الروماني : ٩٧ ، ٩٨
بجدة : ٢٩٧	المنستير : ٢٩٣
براقة : أنظر برقة	المهدية : ١٤٤
برقة : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٤	الموصل : ٢١٨
٤٢ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣	الثوبة : ٥٤ ، ٥٦
٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠	النيل : ٣ ، ٤٢
٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥	الهند : ١
٧٦ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٣٠ ، ١٣١	الولايات الإسلامية : ٢٧٤
١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ٢٠٥	الولايات البحرية : ٤
٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٥	الولاية الداخلية : ١٥ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٢٦ ،
٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦	٢١٤ ، ٢٣٨ ، ٢٣٤ ، ٢٨١
٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤	الولاية القنصلية : ١٥ ، ٤٢ ، ٢١٤
٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦	اليمن : ٦٥
٢٨٠ ، ٢٨٢	أم دنين : ١٨
بشر (قلعة) : ٢٥٩	أنبلونة : ٢٤١
بغداد : ٥٤	أنطابلس : ٥٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٧ ، ٢٤٩
بليش : ١٨٧ ، ١٨٨	٢٥٢ ، ٢٦٤
بتلرية (جزائر) : ١٧٤	أوجلة : ٣٠
بززرت : ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦	إيطاليا : ١١٣ ، ١٦٠ ، ٢٦٣
١٦٠ ، ١٦٣ ، ٢١٤ ، ٢٤٠	باب النساء : ٢٣٩
٢٤١	

فهرس الأماكن

تلمسان : ٢٩ ، ٣٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،	بنطابلس : ٢ ، ٤ ، ٣٥
١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،	بونة : ٢١٤ ، ٢٤١
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٩١ ، ٢٠٤	بيت المال : ١٠٤ ، ١٠٥ ، ٢٧٥ ، ٢٩١
تمجاد : ١٥ ، ٣٢ ، ١٩٨	بيت المقدس : ٦٦ ، ١٤٣ ، ٢٠٣
تندنياس : ١٨	بئر الكاهنة : ٢٥٩
تهودة : ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،	بيزاسيوم : ١٥ ، ١٩
١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،	بيزنطية : ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٥ ، ٣١ ،
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤	٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١٦٠ ، ١٨٩ ،
توزر : ٥	٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٦٠
تونس : ٢ ، ٦ ، ٧ ، ١٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ،	الحكم البيزنطى : ٥١
٨٥ ، ٩٩ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ، ١٤٤ ،	الحكومة البيزنطية : ٥٦ ، ٢١٤
١٧٣ ، ١٧٤ ، ٢١٠ ، ٢٢٥ ، ٢٣٧ ،	الدولة البيزنطية : ٦١ ، ١١٢
٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ،	العصر البيزنطى : ٤٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ،
٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ، ٢٩٩	١٦٥ ، ٢٨١
تيجس : ٣٢	الكنيسة البيزنطية : ٣٠ ، ٣٦
تيفش : ١٥	قارودانت : ٤ ، ٢٩٩
تفست : ٧٥ ، ٩٦	تازا : ٩
ثلبت : ١٩	تافللت : ٤
جربة (جزيرة) : ٦٦ ، ١١٩ ، ١٢٦	تاكروان ، تكروان : ١٦٩ ، ١٧٥
جرجس (حصن) : Girgis : ٦٦	تانس : ١٥
جربة الطرف : ٢٤٧	قاهرت : ٣٠ ، ١٦٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
جرمة : ١٣٦	١٩١ ، ١٩٣
جولس الصابون : ١٤١	تبسا : ٣٢ ، ٢٤٧
جلولاء ، جلولا ، جلولة : ١٩ ، ١١٧ ،	تبسة : ١٥ ، ١٨٨
١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ،	ترشيش : ٢٦٢
١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٨٨ ، ٢٧١	تطوان : ١٩١
حمودة باشا : ٢٦	تكروور : ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧١
خاوار : ١٣٦	واقطر : تكبيوان وتيكروان وذكروور
خيبر : ١٢٦	

فهرس الأماكن

سدرة : ٧	دار الإمارة : ١٤٤
سدراة : ٥٣	دار الصناعة : ٢٦٢
سردانية : ٢٦٣ ، ٣٢ ، ١٥	دجلة : ١٤٠
سردينية : ١١٥ ، ١١٣	درعة : ٢٩٩
سرقوسة : ١٢٦ ، ١١٣	درن (جبل) : ٢٠٠
سطفورة : ٢٤١	دمشق : ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٥٠ ، ١٥٧
سفاقس : ٢٦	٢٥٧ ، ١٧٩
سكتاتة (وادي) : ٢٤٧	دمياط : ٦٦
سلانيك : ٣٥	دنقلة : ١٢٥
سلفطة : ٢٦٣	دير الجاثليق : ٢١٧
سهر (وادي) : ١٩٠	وادم : ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٩٣
سوسة : ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٩٩	رودس : ١٢٥
١١٧ ، ١٢١ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٦٠ ، ٢١٤	روما : ٦ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤٣
٢٥٥ ، ٢١٤ ، ٢١٣ ، ١٨٨	زايان : ٢٥٨
سوق المغرب : ٢٧٣	زوهون (جبل) : ١٩٤ ، ٢٢٤
شريك (جزيرة) : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠	زرود (وادي) : ١٤٣
١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٤	زوجيتانيا : ٢ ، ٤
٢٧٠	زويلة : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠
شط هدنة : ١٨٨ ، ١٩٧	١٣١ ، ١٣٤ ، ٢٨٠
شقبنارية : ٢٢٥ ، ٢٥٥	سبنة : ١٤ ، ٣٢
شلف (نهر وادي) : ٢٩ ، ١٩٠	سبخة : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢٦١
صبرة : ١٦ ، ٢٩ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦	سبرت : ٦٤
٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٤	سبو (وادي) : ١٩٧
صدفة : ٣٢	سبينة : ١٩ ، ٩٦
صرت : ١٦ ، ٥٦ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧	سيطالة : ١٥ ، ١٩ ، ٢١ ، ٣٩ ، ٦٧
١٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥	٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥
مصطفورة : ٠ ، واقطار سطفورة	٨٦ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩
صنين : ١٧٨	١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٦٠ ، ١٨٤
صقلية : (جزيرة) : ٢٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٦٤	٢٣٢ ، ٢١٣
١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢٥	سجلاسة : ٩ ، ٤
١٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٩ ، ٢٦٣	

فهرس الأماكن

فونية : ٨٦ ، ٩٤ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٦٢ ، ٢١٤ ، ٢٢١	طاقة : ١
قابس : ١٦ ، ١٩ ، ٥١ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٩ ، ١٤٤ ، ٢٠٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩	طبرقة : ٢٥٩
قاصرة : ١٤١	طنجة : ١٥ ، ١٨٣ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢ ، ٣ ، ٧ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٤٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٤ ، ٢٨٣
قرطاجنة : ١ ، ٢ ، ٥ ، ٦ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣	طرشيش : ٢٦٢
قسنطينة : ٢ ، ٣٢ ، ١٧٤ وانظر قسنطينة	طنجة : ١ ، ٣ ، ١٤ ، ٣٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٦٠ ، ٨٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٢٥ ، ٢٥٢
قسطيلية وقسطلية : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٦٢ ، ١٨٣	طباطر (مسرح أو ملعب) : ١٩
قسنطينة : ٢٤٧	عس : أنظر ممس .
قصر عبيدة : ٢٢٣	عقوبة : ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٦
قصور حسان : ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥	عين الكنان : ١٨٩
قفصة : ١٩ ، ٨٣ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٣٧ ، ١٦٠ ، ١٨٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١١	عين شمس : ٣٩ ، ٩٩
قودة : ٨٦ ، ٩٤ ، ١٤١ ، ١٤٢	عيون أبي المهاجر : ١٦٨ ، ١٧٢
قيصرية : ١٥ ، ١٩	غدامس : ٩ ، ٣٠ ، ٥٨ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٨١
كابوت فاذا : ٨٦	فارس : ٣٨
	فاس : ٢٢٤
	فزان : ٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٩ ، ٧١ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٦٣ ، ١٨٣ ، ٢٨٣
	فلسطين : ٥٢ ، ٦٧

فهرس الأماكن

١١٠، ١٠٦، ١٠٥، ١٠٣، ١٠١
١١٨، ١١٧، ١١٦، ١١٢، ١١١
١١٩، ١٢١، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٠
١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٠
١٤١، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨
١٥٠، ١٥١، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨
١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٩، ١٩٣
٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٢، ٢١٥
٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٦
٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٦٢
٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠
٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٨٣، ٢٨٤

٢٩٨

معصرة : ٢٢٠

مغداش : ١٣٥

مخداس : ١٩، ٩٦

مكناس : ٢٢٤

مكة : ٦٥، ١٤٣

ملوية (نهر ووادي) : ٤، ١٩٧، ٢٢٥

ممس وممش وميس وعيس : ١٩، ٢١٢

٢١٣، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣

٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧

مطلور (جبل) : ١٢١

منغيش : ١

ميلة : ١٦٧، ١٦٨، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥

نبريشة : ١٦٣

نقاوس : ١٤١

نكور : ١٩١

نوميدي : ٢، ٤، ١٥، ١٩، ٢٨، ٢٩

٣٠، ٣١، ٢١٤، ٢٥٨

ننني (نهر) : ٢٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٤

٣٥٣

كلبرية : ١١٣، ١١٥

كوار : ١٣٦

لبدة : ١٣٢

لبيزة : ١٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠

١٩١، ٢٢٤

وانظر لميس وليس

لطة : ١٨

لويبة : ٢٤٩

ليبة : ١، ٤٤

ماليان : ١٩٤

ماليانة : ٣

ماء الفرس : ١٣٦، ١٨٣

مجرد : ٤، ١٥، ٤١، ٤٢

صباح القوافل : ١٥٣

صراقية : ٢٥٠

صراكش : ٤، ٦، ١٥، ٢٤٥، ٢٥٨

مدرسومة : ١٩

مذكور : ١٤١

مرجل (وادي) : ١٤٣

مرطانية : ٢، ٣، ٤، ١٥، ١٩، ٢٢

٣٢، ٢١١

ضرائة : ١٣١

مسجد الرباطي : ٢٩٦

مسجد عقبة : ٢٦، ١٤١

مسكولا : ١٥

مصر : ١، ٢، ٣، ٣٥، ٣٨، ٣٩

٤٢، ٤٤، ٤٦، ٥٠، ٥٢، ٥٣

٥٤، ٥٩، ٦٦، ٦٧، ٧٠، ٧١

٧٨، ٨٢، ٨٤، ٩٣، ٩٨، ٩٩

تاريخ م — ٢٣

فهرس الأماكن

ودان : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٥ ،	حادر وميتوم الرومانية : ١٤١
١٣٣ ، ١٣١ ، ٧١ ، ٦٩ ، ٦٦	حليو بوليس : ٩٣
٢٨٣ ، ١٣٦ ، ١٣٥	واد حاطوب : ٢٤٧
وليلي : ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١١ ، ٢٢٤	واد فكا : ٢٤٧
وهزان : ١٥ ، ٣٠ ، ١٦٦	واد ملي : ٢٤٧
يونكا : ١٩	وادي العذارى : ٢٤٨

د - فهرس الألفاظ الأفرنجية الواردة في البحث

Ades	٢٦١	واظن رادس	Cyrene	١٦	قيرين
Africa proconsularis	٢		D'Herbelot	٤	
Africa Propria	٤		Dux	١٨	
Antalas	٢٢		Eparci	٣٣	
Aphri	١		Epi	١	
Appollonias	١٦		Epiphania	٣٥	
Aprica	١		Eudicia	٣٥	
Archelaos	١٤		Exarcus	٣٢ ، ٢٠	
Arsinoe	١٦		Exercitus africae	١١٥	
Asbystes	٧		Fulgentius Ferrandis	٢٨	
Augila	٣٠		Garamantes	١٣٦ ، ٥٧	
Aurelius Verus	٩٧		Gasmul	٣٤	
AEYKON TYNEIA	٢٦١		Gennadius	١١٤ ، ٣٤	
Barbari	٧		Georgii Chiprii	٩٦	
Barca	١٦		Ghenaha	٩٣	
Barcytes	٧		Ghibigammes	٧	
Berenice	١٦		Gibbon, E.	٩٥	
Bezacena	٢		Girgis	٦٦	
Bibliographie Orientale	٤		Gregorius	٣٤	جرجير
Byzacium	١٥		Gsell, S.	٧	
Caesaria	١٩ ، ١٥	قيصرية	Hadrumetum	٢٥٥ ، ٢١٤	
Caesarius	٣٨		Heraclius Constantin	٣٩	
Captio	١٧		Hespérís	٢٥٨	
Caput-Vada	١٤١ ، ٨٦	قودة	Hippone Diarryte	٢١٤	بونه
Caput Verda	١٢٠		Journal Asiatique	٢٠١	
Chronographia	٩٣	كتاب لتيوفانيس	Koceila	١٧١	كسيلا
Colon	٥				
Consul	٣٣ ، ١٥				
Couloulis	١٢٣ ، ١٩	جلولاء			
Cydamus	٣٠	غدامس			
Cyrus	٢٤	قيرس			

د — فهرس الألفاظ الأفرنجية الواردة في البحث

Lalla Fatma	٢٤٥	Ousselet	١٢١
Lambeisis	١٥	Patricius Johannes	٢٥٤
Leo Africanus	٥	Poeymirau	٢٥٨
Leptis Magna	١٨ لطة	Pogonat	١٣٨
Libataï	٧ الليديون	Praefectus	١٤ ، ٣٢ ، ٣٣
Libo-Pheniciens	٧ الليبيون الفينيقيون	Praesides	١٥
Macomades	١٩ مغمداس	Praetor	٣٣
Madarsuma	١٩	Priscus	٣٥
Makés	٧	Proconsul	١٤ ، ٣٣
Mamma	١٩ ، ٢٢٠ ممس	Proconsularium	١٥
Mascula	١٥	Psylles	٧
Masunas	٣٠	Sabrata	٢٩ ، ٦٤ صيرة
Maures	٧ ، ٤٥	Sanctus Fulgentus Episcopi	
Maurice	٣٤	Ruspensis	٢٨
Mauretania	٢ مرطانية	Scott, C. A.	٢٩
Mauretania Ariensis	٣٢	Septem	٣٢
Mauritania Cesariensis	٣٢	Sergius	٢٤
Mauritania Sitifiensis	١٥ ، ٣٢	Sicca Vaneria	٢٢٥ شقبنارية
Mauretania Setifiensis	٣٢	Sufes	١٩
Mauritania Tingtana	١٥	Suffetula	١٩ سيطلة
Meninx	٦٦ جربة	Syrta	١٦ صرت
Monastère	٢٩٣ المنستير	Tabessa	١٥ تبسة
Msila	١٥ المسيلة	Tacapes	٦٦ قابس
Nasamons	٧	Talent	١٠١ تالان
Neeny	٢٤٧	Tartessus	٢٦٢
Nicetas	٣٥	Tauxier	٩٣
Numidia	١٥	Tenchera	١٦
Opara	١	Tenes	١٥
Oran	١٥ وهران	Thamugadi	١٥ تمجاد
Otter	٢٤٢	Tharsis	٢٦٢

- فهرس الألفاظ الأفرنجية الواردة في البحث -

Thelepte	١٩	Tynes	٢٥٥
Theveste	٧٥	Usilla	١٢٣
Thysdrus	المجم ٨٣،١٩	Utica	١
Tipasa	١٥	Yunca	١٩
Tobna	طبعة ١٥	Zeugitania	٤
Tribitum	١٧	Zonakes	٧
Tripolitania	١٥		

100

100

100

100

1. 2. 3. 4. 5.

1

2

3

4

5

6

15

كلية التربية جامعة الكويت
كلية التربية جامعة الكويت
كلية التربية جامعة الكويت

0-1111

[Faint, illegible markings]

44-38861-100

~~SECRET~~

مجلس الشورى
مجلس الشورى
مجلس الشورى

عزیز

عزیز

عزیز

عزیز

مكتبة جامعة حلب
مكتبة جامعة حلب
مكتبة

05/11/2015

مکتبہ اہل سنت و جماعت

مكتبة

مکملہ

11-12-13-14-15-16-17-18-19-20-21-22-23-24-25-26-27-28-29-30-31-32-33-34-35-36-37-38-39-40-41-42-43-44-45-46-47-48-49-50-51-52-53-54-55-56-57-58-59-60-61-62-63-64-65-66-67-68-69-70-71-72-73-74-75-76-77-78-79-80-81-82-83-84-85-86-87-88-89-90-91-92-93-94-95-96-97-98-99-100-101-102-103-104-105-106-107-108-109-110-111-112-113-114-115-116-117-118-119-120-121-122-123-124-125-126-127-128-129-130-131-132-133-134-135-136-137-138-139-140-141-142-143-144-145-146-147-148-149-150-151-152-153-154-155-156-157-158-159-160-161-162-163-164-165-166-167-168-169-170-171-172-173-174-175-176-177-178-179-180-181-182-183-184-185-186-187-188-189-190-191-192-193-194-195-196-197-198-199-200-201-202-203-204-205-206-207-208-209-210-211-212-213-214-215-216-217-218-219-220-221-222-223-224-225-226-227-228-229-230-231-232-233-234-235-236-237-238-239-240-241-242-243-244-245-246-247-248-249-250-251-252-253-254-255-256-257-258-259-260-261-262-263-264-265-266-267-268-269-270-271-272-273-274-275-276-277-278-279-280-281-282-283-284-285-286-287-288-289-290-291-292-293-294-295-296-297-298-299-300-301-302-303-304-305-306-307-308-309-310-311-312-313-314-315-316-317-318-319-320-321-322-323-324-325-326-327-328-329-330-331-332-333-334-335-336-337-338-339-340-341-342-343-344-345-346-347-348-349-350-351-352-353-354-355-356-357-358-359-360-361-362-363-364-365-366-367-368-369-370-371-372-373-374-375-376-377-378-379-380-381-382-383-384-385-386-387-388-389-390-391-392-393-394-395-396-397-398-399-400-401-402-403-404-405-406-407-408-409-410-411-412-413-414-415-416-417-418-419-420-421-422-423-424-425-426-427-428-429-430-431-432-433-434-435-436-437-438-439-440-441-442-443-444-445-446-447-448-449-450-451-452-453-454-455-456-457-458-459-460-461-462-463-464-465-466-467-468-469-470-471-472-473-474-475-476-477-478-479-480-481-482-483-484-485-486-487-488-489-490-491-492-493-494-495-496-497-498-499-500-501-502-503-504-505-506-507-508-509-510-511-512-513-514-515-516-517-518-519-520-521-522-523-524-525-526-527-528-529-530-531-532-533-534-535-536-537-538-539-540-541-542-543-544-545-546-547-548-549-550-551-552-553-554-555-556-557-558-559-560-561-562-563-564-565-566-567-568-569-570-571-572-573-574-575-576-577-578-579-580-581-582-583-584-585-586-587-588-589-590-591-592-593-594-595-596-597-598-599-600-601-602-603-604-605-606-607-608-609-610-611-612-613-614-615-616-617-618-619-620-621-622-623-624-625-626-627-628-629-630-631-632-633-634-635-636-637-638-639-640-641-642-643-644-645-646-647-648-649-650-651-652-653-654-655-656-657-658-659-660-661-662-663-664-665-666-667-668-669-670-671-672-673-674-675-676-677-678-679-680-681-682-683-684-685-686-687-688-689-690-691-692-693-694-695-696-697-698-699-700-701-702-703-704-705-706-707-708-709-710-711-712-713-714-715-716-717-718-719-720-721-722-723-724-725-726-727-728-729-730-731-732-733-734-735-736-737-738-739-740-741-742-743-744-745-746-747-748-749-750-751-752-753-754-755-756-757-758-759-760-761-762-763-764-765-766-767-768-769-770-771-772-773-774-775-776-777-778-779-780-781-782-783-784-785-786-787-788-789-790-791-792-793-794-795-796-797-798-799-800-801-802-803-804-805-806-807-808-809-810-811-812-813-814-815-816-817-818-819-820-821-822-823-824-825-826-827-828-829-830-831-832-833-834-835-836-837-838-839-840-841-842-843-844-845-846-847-848-849-850-851-852-853-854-855-856-857-858-859-860-861-862-863-864-865-866-867-868-869-870-871-872-873-874-875-876-877-878-879-880-881-882-883-884-885-886-887-888-889-890-891-892-893-894-895-896-897-898-899-900-901-902-903-904-905-906-907-908-909-910-911-912-913-914-915-916-917-918-919-920-921-922-923-924-925-926-927-928-929-930-931-932-933-934-935-936-937-938-939-940-941-942-943-944-945-946-947-948-949-950-951-952-953-954-955-956-957-958-959-960-961-962-963-964-965-966-967-968-969-970-971-972-973-974-975-976-977-978-979-980-981-982-983-984-985-986-987-988-989-990-991-992-993-994-995-996-997-998-999-1000-1001-1002-1003-1004-1005-1006-1007-1008-1009-1010-1011-1012-1013-1014-1015-1016-1017-1018-1019-1020-1021-1022-1023-1024-1025-1026-1027-1028-1029-1030-1031-1032-1033-1034-1035-1036-1037-1038-1039-1040-1041-1042-1043-1044-10

مكتبة

1115

100

مجلس

مكة
الرياض
الدمشق

مكتبة

محکمہ تعلیم و تربیت
محکمہ تعلیم و تربیت

11-11-50

مكتبة

0-11-67

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

100

(Faint handwritten signature)

10/10/2010

100

مجلس الوزراء

Q. 1. 2. 3. 4. 5. 6. 7. 8. 9. 10. 11. 12. 13. 14. 15. 16. 17. 18. 19. 20. 21. 22. 23. 24. 25. 26. 27. 28. 29. 30. 31. 32. 33. 34. 35. 36. 37. 38. 39. 40. 41. 42. 43. 44. 45. 46. 47. 48. 49. 50. 51. 52. 53. 54. 55. 56. 57. 58. 59. 60. 61. 62. 63. 64. 65. 66. 67. 68. 69. 70. 71. 72. 73. 74. 75. 76. 77. 78. 79. 80. 81. 82. 83. 84. 85. 86. 87. 88. 89. 90. 91. 92. 93. 94. 95. 96. 97. 98. 99. 100. 101. 102. 103. 104. 105. 106. 107. 108. 109. 110. 111. 112. 113. 114. 115. 116. 117. 118. 119. 120. 121. 122. 123. 124. 125. 126. 127. 128. 129. 130. 131. 132. 133. 134. 135. 136. 137. 138. 139. 140. 141. 142. 143. 144. 145. 146. 147. 148. 149. 150. 151. 152. 153. 154. 155. 156. 157. 158. 159. 160. 161. 162. 163. 164. 165. 166. 167. 168. 169. 170. 171. 172. 173. 174. 175. 176. 177. 178. 179. 180. 181. 182. 183. 184. 185. 186. 187. 188. 189. 190. 191. 192. 193. 194. 195. 196. 197. 198. 199. 200. 201. 202. 203. 204. 205. 206. 207. 208. 209. 210. 211. 212. 213. 214. 215. 216. 217. 218. 219. 220. 221. 222. 223. 224. 225. 226. 227. 228. 229. 230. 231. 232. 233. 234. 235. 236. 237. 238. 239. 240. 241. 242. 243. 244. 245. 246. 247. 248. 249. 250. 251. 252. 253. 254. 255. 256. 257. 258. 259. 260. 261. 262. 263. 264. 265. 266. 267. 268. 269. 270. 271. 272. 273. 274. 275. 276. 277. 278. 279. 280. 281. 282. 283. 284. 285. 286. 287. 288. 289. 290. 291. 292. 293. 294. 295. 296. 297. 298. 299. 300. 301. 302. 303. 304. 305. 306. 307. 308. 309. 310. 311. 312. 313. 314. 315. 316. 317. 318. 319. 320. 321. 322. 323. 324. 325. 326. 327. 328. 329. 330. 331. 332. 333. 334. 335. 336. 337. 338. 339. 340. 341. 342. 343. 344. 345. 346. 347. 348. 349. 350. 351. 352. 353. 354. 355. 356. 357. 358. 359. 360. 361. 362. 363. 364. 365. 366. 367. 368. 369. 370. 371. 372. 373. 374. 375. 376. 377. 378. 379. 380. 381. 382. 383. 384. 385. 386. 387. 388. 389. 390. 391. 392. 393. 394. 395. 396. 397. 398. 399. 400. 401. 402. 403. 404. 405. 406. 407. 408. 409. 410. 411. 412. 413. 414. 415. 416. 417. 418. 419. 420. 421. 422. 423. 424. 425. 426. 427. 428. 429. 430. 431. 432. 433. 434. 435. 436. 437. 438. 439. 440. 441. 442. 443. 444. 445. 446. 447. 448. 449. 450. 451. 452. 453. 454. 455. 456. 457. 458. 459. 460. 461. 462. 463. 464. 465. 466. 467. 468. 469. 470. 471. 472. 473. 474. 475. 476. 477. 478. 479. 480. 481. 482. 483. 484. 485. 486. 487. 488. 489. 490. 491. 492. 493. 494. 495. 496. 497. 498. 499. 500. 501. 502. 503. 504. 505. 506. 507. 508. 509. 510. 511. 512. 513. 514. 515. 516. 517. 518. 519. 520. 521. 522. 523. 524. 525. 526. 527. 528. 529. 530. 531. 532. 533. 534. 535. 536. 537. 538. 539. 540. 541. 542. 543. 544. 545. 546. 547. 548. 549. 550. 551. 552. 553. 554. 555. 556. 557. 558. 559. 560. 561. 562. 563. 564. 565. 566. 567. 568. 569. 570. 571. 572. 573. 574. 575. 576. 577. 578. 579. 580. 581. 582. 583. 584. 585. 586. 587. 588. 589. 590. 591. 592. 593. 594. 595. 596. 597. 598. 599. 600. 601. 602. 603. 604. 605. 606. 607. 608. 609. 610. 611. 612. 613. 614. 615. 616. 617. 618. 619. 620. 621. 622. 623. 624. 625. 626. 627. 628. 629. 630. 631. 632. 633. 634. 635. 636. 637. 638. 639. 640. 641. 642. 643. 644. 645. 646. 647. 648. 649. 650. 651. 652. 653. 654. 655. 656. 657. 658. 659. 660. 661. 662. 663. 664. 665. 666. 667. 668. 669. 670. 671. 672. 673. 674. 675. 676. 677. 678. 679. 680. 681. 682. 683. 684. 685. 686. 687. 688. 689. 690. 691. 692. 693. 694. 695. 696. 697. 698. 699. 700. 701. 702. 703. 704. 705. 706. 707. 708. 709. 710. 711. 712. 713. 714. 715. 716. 717. 718. 719. 720. 721. 722. 723. 724. 725. 726. 727. 728. 729. 730. 731. 732. 733. 734. 735. 736. 737. 738. 739. 740. 741. 742. 743. 744. 745. 746. 747. 748. 749. 750. 751. 752. 753. 754. 755. 756. 757. 758. 759. 760. 761. 762. 763. 764. 765. 766. 767. 768. 769. 770. 771. 772. 773. 774. 775. 776. 777. 778. 779. 780. 781. 782. 783. 784. 785. 786. 787. 788. 789. 790. 791. 792. 793. 794. 795. 796. 797. 798. 799. 800. 801. 802. 803. 804. 805. 806. 807. 808. 809. 810. 811. 812. 813. 814. 815. 816. 817. 818. 819. 820. 821. 822. 823. 824. 825. 826. 827. 828. 829. 830. 831. 832. 833. 834. 835. 836. 837. 838. 839. 840.

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

